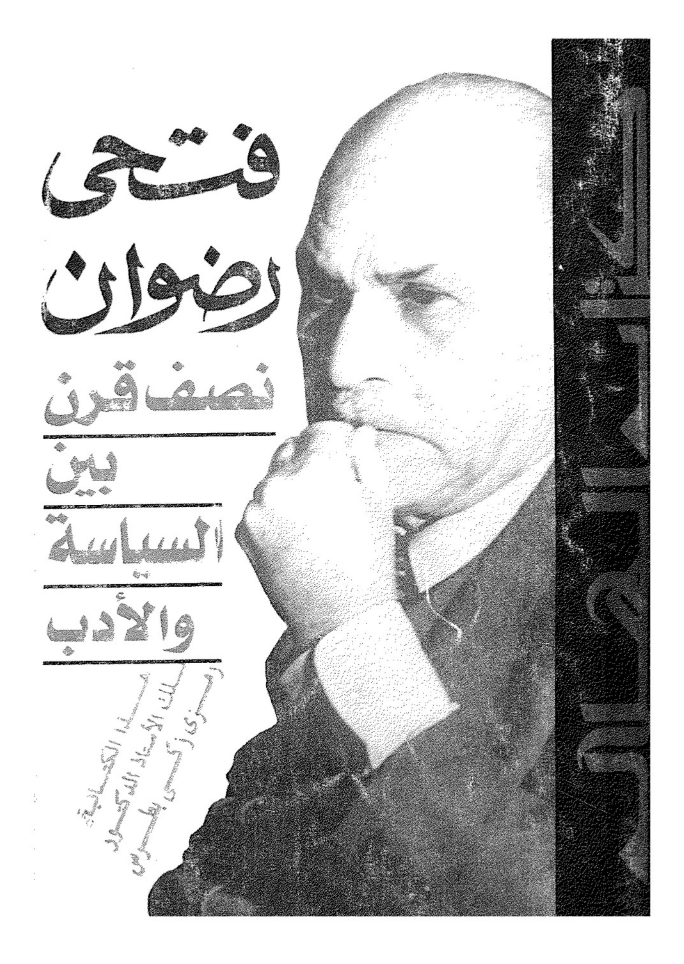

فتحي
رضوان
نصف قرن
بين
السياسة
والأدب
الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس



سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٦ - شعبان - ديسمبر ١٩٩٨

NO - 576 - DEC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرش

سوريا ٢٥٠ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينارات - الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي / أبوظبى ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

فتحى رضوان

نصف قرن بين السياسة والأدب

●

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

يصدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى العاشرة على رحيل فتحى رضوان فى ٢ أكتوبر ١٩٨٨

الغلاف للفنان

حلمى التونى

أنــا

لندع التواضع جانبا لتعرف كم «أنا» خطير !!.

فأنا «عينة» للمصرى العربى الفرعونى .

وللمسلم المجدد المحافظ ، وللشرقى الغربى ، الأسيوى الأفريقى .

وللوطنى المسالم المؤمن «بالغاندية» والمقاومة «السلبية» .

وللوطنى الثائر المعجب بالطريقة الأيرلندية والمقاومة «الايجابية» .

وللمحامى «المتهم» ودارس القوانين الذى لا يرضى عن أكثر القوانين.

ولليسارى الذى يبلغ انحرافه فى رأى السفارة البريطانية الى حد «اللينية والاستالينية» .

ولليمينى الذى تبلغ معه الرجعية الى حد الجمود ومناصرة .. «الرأسمالية» .

أنا المصرى الذى أعيا «لغزه» الدارسين والباحثين ، و«الطلسم» الذى أعجز أهل اليسار وأهل اليمين .

أنا المسلم الذى يلبس من أوربا وكأوربا ويقرأ الأوربيين وكالأوربيين، والذى أراد الزمان أن يقطع صلته الروحية بأعلام المسلمين وبتراثهم الثمين .

أنا وارث العباقرة والفحول ، وأنا المستقبل «المجهول» .

فهل عرفت من أنا ؟.

فتحى رضوان

المصور : ١٩٥١/٧/٢٠ ص ١٦ .

البــاب الأول :

بـين الفكر والتاريخ

فلنحارب الاستعمار بأنواعه الثلاثة

الثقافة القومية هى خط الدفاع الأول !

الاستعمار مرض له كل خصائص المرض وأعراضه ، لا يختلف عن أمراض البدن ، إلا أن هذه الأمراض تصيب فردا ، والاستعمار يصيب أمة . وقد بلغ من فرط التشابه بينهما، أن الأمراض تأخذ فى بعض الأحايين ، صورة الأوبئة ، التى تعم بشرها الآلاف من الناس فى وقت واحد ، وأن الاستعمار يأخذ نفس الصورة فى بضع الحقب من التاريخ، فاذا بموجته فى هذه الحقب* تطم وتعلو ، فتقع الأمم فرائس وضحايا له، الواحدة فى أثر الأخرى ، وكأن ميكروبا انتقل من إحداها الى الأخرى بسرعة البرق . وقراء التاريخ يذكرون مثلا أن دول شمال أفريقيا فقدت استقلالها فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ومن أخرت أصابته بهذه النكبة ، لم يطل حظه فى الاستمتاع بالحرية .

وكما يتعرض جسم الانسان للمرض حينما تضعف مناعته ، تتعرض الأمم للاستعمار حين تضعف مناعتها .

ولقد كشف العلم الحديث ، أن فى الطعام عناصر معينة ، هى سر قدرة هذا الطعام على التغذية ، وبناء الجسم ، وهي ما نسميه الآن

الهلال - يناير ١٩٥٦

«الفيتامينات» ، وفى حياة الأمة الروحية والثقافية «فيتامينات» لازمة لها، إن أعوزها الحصول عليها ، أصابها الهزال ، وتعرضت للعلل ، وفقدت مناعتها فما هى تلك الفيتامينات فى الحياة القومية؟ .

إن الإنسان مفطور بطبعه على الاحساس بالماديات بأسرع مما يحس بالمعنويات ، ولذلك فان أكثر الناس يتصورون أن الأمم القوية هى الأمم الغنية أو الأمم ذات الجيوش الضخمة ، وهذا وهم كبير . فقد اطلعنا التاريخ على أمم كثيرة ، هوت عن عرش مجدها ، وهي فى ظاهر الأمر فى عنفوان قوتها . ورأينا على النقيض أمما كثيرة ، تبدو صغيرة، وهي فى واقع الأمر فقيرة ، ومع ذلك أثبت نزالها لمن هو أقوى منها وأكبر فى حساب المادة والثروة أنها هى الأكثر قوة .

★★★

فلقد نازل اليابانيون الروس سنة ١٩٠٥ فأنزلوا بهم هزائم منكرة ، وكانت روسيا بالنسبة لليابان ، كالفيل الضخم بالنسبة الى حصان صغير .

وأنزلت اليونان الهزائم فى الحرب العالمية الأخيرة بايطاليا ، وتعداد سكان اليونان لا يزيد على ثلث سكان ايطاليا ، وليس لأولاهما ما للثانية من مستعمرات ، وأساطيل فى البر والبحر والجو .. ومحا العرب، فى صدر البعثة المحمدية ، امبراطوريتى الرومان والعجم ، وكانتا فى ذلك الحين العالم المعمور ، ولم يكن للعرب عهد بحروب الدول، ولا سابقة فى إنشاء الجيوش الجرارة وتمويلها . فما هو إذن سر القوة فى الأمم ؟.

إن السر الحقيقى لقوة الأمم هو ثقافتها .

ولا أعنى هنا بالثقافة ، الجامعات ولا مدى انتشار العلم بين أفراد الأمة ، إنما أعنى الثقافة القومية التى هى خليط من العقيدة والتراث

الفكرى الموروث ، فهى حينما تكون نابضة حية ، ويكون الشعب متماسكا قويا ، لا تفعل فيه الاحداث ، ولا تهزه المحن ، بل ان هذه الثقافة ذاتها تدفعه الى العمل وإلى الابتكار والتجديد ، ثم تهيىء له فرص الفيض علي غيره من الأمم ، وأبلغ دليل على هذا ، ما نراه من تغير الأمم فى أعقاب الثورات ، فإن الثورات عادة توحد من ثقافة الشعب ، وتحيى تراثه القديم أو تصل الشعب به ، فإذا ضعفه قد استحال الى قوة ، وتفرقته الى وحدة ، وتخاذله وخوفه من المخاطر ، الى تضحية ومجازفة .

***

ولو راجعت تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني ، لوجدت أن مصر فقدت كل صلة لها بماضيها الفكرى . فلقد فصلها حكم محمد على وحكم أسرته فصلا تاما عن ماضيها القريب وماضيها البعيد . فلم تعد مصرية ولا عربية ولا فرعونية . وعلى الرغم من إنه أنشأ لها جيشا ضخما ، هدد استانبول ، وبني لها اسطولا كان أقوى الأساطيل ، لم ينقض على انشاء هذه الجيوش وبناء تلك الأساطيل أكثر من أربعين عاما حتى كانت مصر مستعمرة بريطانية .. لأن المدارس كانت تعطى علما غثا ، تافها ، أكثره بالتركية ، وأقله بالعربية ، ولأن الأزهر كبل ووضعت فى أعناقه الاغلال ، فأصبح مدرسة تعيش على فتات المائدة العربية الإسلامية المجيدة .

ولولا أن تيارا فكريا جديدا قد شمل مصر ، وأعادها من جديد الى ماضيها ، ولولا أن عاد الشعراء الى التغنى بهذا الماضى ، والشدو به ، ولولا أن اللغة العربية استقامت ، والألسن قومت لما شهدت مصر حركة مصطفى كامل ولا ثورة سنة ١٩١٩ .

فإذا أردنا أن نحمى أنفسنا من الاستعمار بأنواعه الثلاثة، السياسى والاقتصادى والعسكرى ، وأن نحصنها منه ، فلنحم ثقافتنا، ولنجعلها أساساً لحياتنا، تنعكس صورها فى أعيادنا، وفى حياتنا اليومية، وفى حياتنا العامة . فالثقافة القومية هى خط الدفاع الأساسى الذى يسبق الخطوط الاقتصادية والعسكرية ، بل هو الخط الذى يحمى تلك الخطوط ، أو إن أردت الدقة هو الذى يخلقها خلقا .

إن الثقافة القومية ، هي ثقة الشعب بنفسه ، هى أمله فى مستقبله ، هى فخره بماضيه ، هى الوعاء الذى يضم أفراد الأمة بعضهم الى بعض ، هى اللواء الذى يرفرف فوق رؤوس أفرادهم وجموعهم .

ومن هنا ، كان على المفكرين والفنانين ، على الكتاب والشعراء ، وواضعى الألحان وناظمى الأغانى ، على المصورين والنحاتين ، أن يدركوا عظم المسئولية الملقاة على عواتقهم وأن يبعثوا ثقافتنا القومية ، ويضفوا عليها أثوابها الجديدة الجميلة اللائقة بها ، ليعيدوا بناء شخصيتنا، وبالتالى قوميتنا ، وليحمونا من غارات المغيرين ، وطمع الطامعين .

مصر عربية
بإرادة أهلها

متى تصبح مصر عربية؟.

قد يقع هذا السؤال من القارئ نفسه فى مصر ، أو فى أى قطر عربى موقع الدهشة بل موقع الصدمة ، فإننا قد تواصينا فى الحقب الأخيرة على أن مصر ليست عربية فحسب ، بل هى فى موضع الزعامة من الأمة العربية ، لا بحكم مكانها الجغرافى ، أو كثرة عدد سكانها ، بل لاسهامها الطويل والعريض معا فى بناء الثقافة العربية ، واقامة صرح الأمة العربية ، التى تترامى ، آفاقها من الخليج الى المحيط ، بالمعاهد الكبري التى أسستها ، وحافظت عليها ، وفتحت أبوابها ، لأبناء العروبة أيا كان موضعهم ، ولأبناء المسلمين مهما نأت أوطانهم ، أو بعدت عن العربية لغتهم أو تقاليدهم ، أو أحداث تاريخهم ، وبالمواقف السياسية ، والمواقع الجريئة ، التى حملت مصر أعبائها على توالى السنين ، والقرون ، دفاعا عن حياض العروبة ، أو تدعيما لوجودها ، أو نشرا لرسالتها «فكيف تكون سمة مصر بعد ذلك كله ، محلا للتساؤل ، وكيف يرد التساؤل بالصيغة التى توحى بأن عروبة مصر ، ليست واقعا قائما ، معترفا به إنما هى رجاء قد يأتى به المستقبل أو لا يأتى .

الهلال - ديسمبر ١٩٨٢

وعلى الرغم من أن الاعتراض وجيه ، وقائم على أساس لا يمكن أن يجحدها عالم بتاريخ الأمة العربية ، وبتاريخ الدور المصرى، فى بناء هذه الأمة وتأكيد سماتها وإبراز طابعها ، والاستقلال بثقافتها ، والانتساب الى لغتها ، والتأثر بعقليتها ، علي الرغم من ذلك ، فان التساؤل عن «متى تكون مصر عربية ؟» هو تساؤل له ما يبرره ، وشرحه بصراحة وشجاعة واجب يقتضى أن نبدأ به نحن المصريين من جهة ، ونحن العرب من جهة أخرى .

والتاريخ الحديث لمصر يؤكد أن هذا التساؤل ، يعبر عما جرى ولايزال يجرى فى أعماق النفس المصرية ، فقد اضطلحت الأحداث منذ الفتح العربى أو الإسلامى لمصر بعبارة أدق ، فى سنة ٢١ هجرية ، حتي اليوم .

والذين عاشوا فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى التى جرت وقائعها فى الفترة ما بين سنة ١٩١٤ حتي سنة ١٩١٨ يذكرون كيف عانى المصريون مما يشبه الحيرة فى شأن حقيقة هويتهم ، والأصل الذى ينحدرون منه ، والجنس الذى ينتمون اليه .

ولم تكن هذه الحيرة إلا ثمرة الاحداث السياسية الكبرى التى مرت بمصر ، خلال قرن من الزمان سابق على فترة ما بعد الحرب . ففى هذا القرن وقع حدثان خطيران إلى أقصى حد وهو انسلاخ مصر إلى حد الاستقلال التام من الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتهاوى ، أو تلفظ أنفاسها الأخيرة ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، وطوال القرن التاسع عشر ، فبعد أن كانت هذه الامبراطورية ملكا بانخا استمر يتسع ، ويقوى ، وتترامى أملاكه ، ويدخل فى نطاقه البحار

والجزر ، والدول ، ويخضع لسلطانه الملوك والأمراء والشيوخ ، أخذ الضعف يدب فى أوصاله ، والشيخوخة تزحف علي قلبه ورأسه وأطرافه ، وكان من آثار هذا الضعف أن نشأت فى مصر دولة على بك الكبير ، التى حولت البحر الأحمر الى بحيرة مصرية، والتى بسطت سلطانها علي مصر والشام واليمن والحجاز ، والتى وقفت ندا لدولة بنى عثمان فى الجانب الشرقى الجنوبى من البحر الأحمر .

وكان ميلاد مصر المستقلة فى عهد دولة «على بك الكبير» تمهيدا لميلاد مصر المستقلة الكبيرة فى عهد محمد على ، ولما ضاقت تركيا باستقلال مصر ، الذى أدى الى نشوء دولة عسكرية برية وبحرية على شاطىء وادى النيل ، استطاعت أن تناجز الأتراك وأن تهزم دولتهم ، حتى كادت جيوش مصر ، تتدفق على الاستانة عاصمة الدولة العلية ، لولا أن الغرب خشى من نشوء دولة إسلامية على الشاطىء الجنوبى الشرقى للبحر الأبيض تقابل دولة إسلامية عظمى على الشاطىء الشمالى الشرقى لنفس البحر .

وقد نشأ شىء قريب من هذا الاتجاه حينما حاول محمد على أن يستقل عن حكم الاستانة عاصمة العثمانيين ، وقد قال شفيق غربال ، فى تاريخ محمد على ، عندما بسط محمد على سلطان مصر على الولايات الشامية فقال :

«الولايات الشامية الأربع ، حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية فى الجزيرة العربية على البحر الأحمر والخليج الفارسى ، والعراق ، والمناطق فيما بين الشام والاناضول ، هذا مما يترك للظروف ـ والاقطار ـ كما ترى ـ هى فى الجملة مما يكون «على حد

تعبير محمد على» عربستان أو ما نسميه دار العروبة ، فهل تصور لها كيانا سياسيا «أو ما نسميه وحدة عربية» ؟ سؤال كبير ، إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا إليه قلة إدراك عناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وثقافة واحدة ودين واحد ومصالح مشتركة ، وبالنسبة لحياة العالم الاقتصادية كتلة واحدة . وإن أجبنا عنه ايجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ، ونسبنا لعصر سابق ما هو - على وجه التحقيق - من خلق العصور اللواحق وأخفينا إخفاء لا يبرره الواقع عناصر وعوامل تدفع نحو التفرقة : اختلافات جغرافية واجتماعية ، اختلافات فى طرق التفكير وفى مستوى المعيشة ، اختلافات مذهبية طائفية ، صعوبات المواصلات ، ضعف وسائل الاتصال العقلى والحسى . وهكذا .. ولا نعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة فى عمومها ، وأنها مما يمكن التشبيه عليه فى حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يقرره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحالة ، أن حتمت تلك الظروف تقسيم العالم العثمانى أمكنه نقص ما تم فى القرن السادس عشر وبناء العالم العربى من جديد ، ولكنه لم يكن قد يئس بعد من مستقبل السلطنة» .

وهذا الكلام الذى نقلناه عن شفيق غربال ، وهو لب البحث الذى نحاول أن نتمه الآن بإذنه تعالى .

ونبدأ بهذه الأمور التى أوردها شفيق غربال ، فى مفتتح حديثه - والتى جرى العرف على اعتبارها من المسلمات التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . قال المؤرخ المصرى إن محمد على لم يكن ينفصل عن ادراك عناصر وروابط بارزة فى المنطقة التى سماها محمد

على «عربستان» والتى تعين على بناء «دار العروبة» أو على إقامة «الوحدة العربية» وهذه العناصر هى لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، ودين واحد ومصالح مشتركة . فهل هذه المقولة صحيحة ، أم هى خطأ شائع؟

هل صحيح أن الأمم تتكون من هذه العناصر لغة واحدة وثقافة واحدة، ودين واحد ومصالح مشتركة ؟.

وأنا أزعم أن هذه العناصر التى يخيل إلينا أنها تكون الأمم ، هى عناصر ظاهرية فى حين أن الأمم التى يعرفها التاريخ ، حينما تكونت فى الماضى البعيد، أو الماضى الحديث ، لم تتكون بفضل هذه العناصر، وأن أكثر الدول ولدت ، فى الوقت التى تعوزها فيه هذه العناصر كلها ، أو على الأقل واحد أو اثنان منها : كاللغة مثلا ، ووحدتها ، أو الدين أو الثقافة المشتركة .

ونحن نعرف فى العصر الحديث أمماً تتكلم لغة واحدة ، ويضمها جوار واحد ، وربما مصالح مشتركة ومع ذلك لم تشملها وحدة ، ولم يضمها سلطان دولة ، فبلجيكا ، فيها علي الاقل نصفها يتكلم الفرنسية، والى جوارها الملاصق ، فرنسا ، ومع ذلك لم تندمج بلجيكا أو القسم الذى يتكلم الفرنسية مع فرنسا . وسويسرا تتكون من ثلاث مناطق «تتكلم ثلاث لغات هى الفرنسية والألمانية والايطالية» لا تشكو مع ذلك تفككا ومع دقة تقطع هذا الكيان فهو يتماسك ، ويتأصل وينفى .

ولم تكن بريطانيا العظمى قط ، وحدة لغوية ، ولا وحدة جنسية ، ولا سادها شعور بقيام المصلحة المشتركة ، وقد قامت حروب شديدة بين أجزاء منها : اسكتلندا من جانب ، وانجلترا من جانب ، وقد خضعت أجزاؤها لتأثيرات خارجية قوية غاية القوة متباينة فخضعت أجزاء

للقبائل الاسكندنافية الشمالية وحكم الدانمارك ، فخضعت اجزاء للنورمانديين ، وأجزاء للرومان ، ولا تزال اسماء مدنها التى ينتهى بعضها بالمقطع «هام» البرمنجهام و«نوث نجهام» والتى ينتهى اسمها بالمقطع «شير» تيورشير و«هامبشاير» . *

وقد تكون شعب «الولايات المتحدة» الأمريكية من أقوام ينحدرون من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات متباينة وقد مرت بهم تجارب متعددة ، بحيث لا يكاد يجمعهم سوى عيشهم على أرض واحدة ، وهى بدورها أرض مترامية الاطراف ، مختلفة الاجواء ، والطبيعة ولكن نتاج هذا الخليط المتنافر من البشر انتهى الى وحدة سياسية ، خلقت أمة متجانسة ، تعيش فى وئام ، وتزداد على الأيام ، اندماجا واتساقا. بل أنها أصبحت قادرة علي هضم كل من ينضم إليها من مئات الألوف من المهاجرين الجدد ، وتحويلهم الى أمريكان ، يحملون سمات متقاربة ، ويعيشون فى ظل تقاليد موحدة وقد أنشأوا لأنفسهم تراثا محبباً اليهم جميعا يدافعون عنه ويتحمسون له . وما يمكن أن نستخلصه من كل ما تقدم ان العنصر الذى تتكون منه الأمم والذى يؤدى الى توثيق عرى *الوحدة بين أبناء الأمة* ، هو *«ارادة العيش المشترك»* ولو *اختلفت اللغات* وتكاثرت اللهجات ، واختلفت ألوان البشرة ، والسوابق التاريخية ، فالهند مثلا هى قارة بكل معنى هذا اللفظ ، فقد انتمى أهلوها الى مئات اللغات واللهجات ، وآلاف الأديان والمذاهب والطوائف ، واختلفت جوها من حر خط الاستواء الى مناطق لا يغيب عن قمم جبالها الثلج ، ومن صحارى ، لا تنبت زرعا ، الى أودية هى الغاية من الخصوبة والثراء ،

ولكنها تكونت مع ذلك وحدة سياسية ، خضعت لحكومة مركزية واحدة ، واستقلت بعلم واحد ، وازدادت على الأيام توحدا واندماجا .

فهل أراد المصريون أن تكون أمتهم «عربية» .. وإذا كان المصريون أرادوا أن يكونوا عربا ، ففى أى العهود ، ساورتهم هذا الرغبة وهل استطاعوا أن ينفذوها ؟.

وأرجو ألا يثير هذا السؤال سخرية أو اعتراض القارىء باعتبار أن جنسيات الأمم ، ليست مجرد رغبة هذه الأمم ، كأنها مجرد قرار سياسى شبيه مثلا بإعلان الحرب أو اقرار الصلح ، أو الانضمام الي دولة أخرى فى اندماج أو اتحاد فدرالى أو كونفدرالى .

والواقع أن سمة الأمة هى قرار سياسى شبيه بهذه القرارات ، ويكاد يكون من طبيعتها ، وقد يأتى هذا القرار ، من قوى أجنبية كما قرر هتلر ضم النمسا الى ألمانيا وادماجها فيها ، وكان ممكنا أن يتم هذا الادماج ويبقى الى الابد ، لو ارتضى النمساويون أن ينوبوا فى جيرانهم الذين يتكلمون نفس اللغة والذين يشبهونهم فيما يشبه التطابق فى التاريخ والثقافة ، ولكن النمساويين رفضوا هذا الاندماج ، لاختلافهم فى المزاج عن الألمان ، وهو سبب كاف لهذا الرفض ، ولكن القرار الذى يصدر من أمة ما ، باتخاذ سمة أو طبيعة ، لا يصدر بعد مناقشة وجدال، فى مؤتمر أو مجلس أو من سلطة ذات اختصاص ملزم، إنما يصدر ضمنا وخلال فترة أو فترات طويلة مليئة بالتطورات والأحداث السياسية ، وفى آخر الأمر يجد الشعب نفسه أمام قرار لا يدرى من الذى أصدره . أشبه شىء بالأغنية الشعبية والمثل الشعبى ، لايدرى أحد من صاغ هذه الأغنية ، أو هذا المثل ، ومن وضع للأغنية

اللحن ، ومتى، وقياسا على هذا كله نقول إنه لم يكن ممكنا قبل الفتح الإسلامى لمصر سنة ٢١ هجرية بقيادة عمرو بن العاص قائد الجيش العربى الذى حقق هذا الفتح ، لم يكن ممكنا قبل هذا الفتح أن تطرح عروبة مصر على بساط البحث . ففى مصر الفرعونية أو مصر فى ظل الحكم الفارسى أو اليونانى أو الرومانى . لم يكن هذا الأمر واردا ، فالأمة العربية لم يتم وجودها ، إلا بعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة فى أوائل القرن السابع الميلادى بعد بعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن هذا الأمر كذلك مطروحا للبحث ، بعد الفتح الإسلامى ، لأن العرب الذين تم الفتح على أيديهم ، والقبائل التى جاءت تباعا الى مصر ، واستوطنت أقاليمها فى الوجهين البحرى والقبلى ، وفى الصحارى الشرقية والغربية ، لم تكن تصف نفسها بأنها عربية ، بل كانت تحس وتؤمن وتضمر وتعلن ، أنها من المسلمين الذين جاءوا لينشروا الإسلام ، الدين الجديد وليبشروا برسالته ويثبتوا ملكه وحكمه.

ولما ضعف الوازع الدينى ، وأصبح المهاجرون من العرب ، شاعرين بتميزهم عن شعوب الأمم التى فتحوها ، فقد كانوا لا يستسيغون أن تصبح هذه الشعوب عربية ، كما أنهم عرب ، ولم يكن حكم هؤلاء الوافدين من الخارج كحكم اسلافهم الذين جاءوا يحملون الدين الجديد ، ويتأدبون بأدبه ، ويلتزمون أحكامه ، وأول هذه الأحكام جميعا الإيمان بأن الله خلق الناس ليتعارفوا ، وأن اكرمهم عند الله أتقاهم ، هذا كله الى جانب حقيقة أن الوحدات القومية لم تكن من خصائص هذا العهد ، فالشعور بالقومية لم يظهر ويتأكد إلا فى أخريات القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

ولما دالت دولة العرب المسلمين فى مصر ، وتتابعت دول يؤسسها قواد أتراك مثل أحمد بن طولون ، ثم بعد ذلك مماليك مجلوبون أصلا من أقاليم القوقاز ، كان من المستحيل ، أن يتنفس فى جو تلك الدول قصيرة العمر ، شعور بالقومية ، وعلى الأخص بالقومية التى تنتسب الى العرب ، أو تفخر بالانتماء اليهم ، ثم جاء الحكم التركى الطويل سنة ١٥١٧ .

كان من المستحيل أن تدب الى النزعة العربية فى مصر ، الروح ، فقد كان الحكم العثمانى يضيق بكل نزعة قومية ، تخالف الطابع الإسلامى العثمانى تعصبا صحيحا ، للدين فى بداية الأمر ورفضا للشعوبية باخلاص ، ثم تاكيد السلطة وهيمنة السلطان العثمانى التركى تغليبا لكل ما هو تركى ، ومطاردة لكل ماعدا ذلك .

ثم حدث ما أشرنا إليه فى بداية هذا البحث فى آخريات الحكم العثمانى فى عهدى على بك الكبير ومحمد على والذى انتهى الى قيام دولة مصرية .

ولكن طرأت مضاعفة فى كل من مصر والبلاد العربية المجاورة فى الشرق والغرب . وأعنى بها الاحتلال البريطانى فى مصر ، والاحتلال الفرنسى فى المغرب ، وبقاء الحكم العثمانى يترنح ، ويتدهور ، ويرفضه العرب فى العراق ، وسوريا ولبنان وفلسطين ، ويضيقون به ، ويتهيأون للتمرد عليه .

وفى ظل هذا الوضع الجديد كانت مصر تعانى من الاحتلال البريطانى وتثور ضده ، وكان الانجليز يبدون المودة ، ويعدون بالمساعدة للحركات التحررية ، والاصلاحية فى العراق والشام وفلسطين ، فبعدت

الشقة بين عرب المغرب والمشرق ، فما كان يتمناه العرب في الشرق ، كان يرفضه المصريون رفضا تاما لأن أهل الشام والعراق كانوا يتمنون انتهاء الحكم العثماني وسقوط دولة الأتراك ولو بمساعدة انجلترا وفرنسا وكانت تركيا في مصر دولة الخلافة الإسلامية وكان سقوطها يؤذي الشعور الديني عند المصريين ، ويحملهم على اتهام عرب الشام والعراق ، ولما قامت ما يسمى بالثورة العربية سنة ١٩١٦ ، بقيادة شريف مكة الشريف حسين بن على «جد الملك حسين بن طلال» ضد الاتراك العثمانيين وهم يحاربون الانجليز في الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» اعتبرت هذه الثورة خيانة صرفة ، واعتبر زعماء هذه الثورة عملاء الاستعمار لا يستحقون الا الاحتقار والكراهية، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وحنثت دول الغرب « بريطانيا - وفرنسا » بوعودها للعرب ، واحتلت بلادهم وأساءت معاملتهم ، وضنت عليهم بالحريات العامة، وفد زعماء العرب من الشام والعراق وفلسطين ، الى مصر ملتمسين من الحركة الوطنية المصرية المعونة ، وكانت ثورة ١٩١٩ قد اندلعت نيرانها رفض الوطنيون المصريون أن يضعوا أيديهم في أيدي قادة الشام والعراق ، وأداروا لهم ظهورهم لسوء ظنهم فيهم ، فلما تحدث هؤلاء الزعماء السوريون والعراقيون والفلسطينيون عن الوحدة العربية والحركة العربية أصم المصريون آذانهم ، ولم يطيقوا حتى النظر في وجوه دعاة العروبة .

وانتهز دعاة الاستعمار الغربي ، هذه الفرقة بين المصريين ، واخوانهم في شرق القناة ، فروجوا للنزعات الاقليمية وأوحوا للمصريين أنهم ورثة الحضارة الفرعونية أعظم الحضارات ، وأنهم أولى بأن

يتشبثوا بنسبتهم الى المصريين القدماء الذين هم أعلى الشعوب القديمة المتحضرة كعبا وأقدمها علوا . ومن هنا نشأت الدعوة الى الفرعونية وتأخرت الدعوة الى العروبة . واستمر ضعف الشعور العربى فى مصر حقبة طويلة فلم يكن ممكنا آنذاك أن يقال إن مصر عربية . .

ولكن بدأ التغيير يطرأ على الشعور المصرى ، حينما وقعت ثورة سوريا سنة ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الاطرش ، وبدت أمجاد الثوار السوريين ، وحسن بلائهم فى منازلة الفرنسيين وانزال الخسائر بهم ، وتورطت فرنسا فى جرائم أثارت الغضب المصرى ، ومن الاعجاب بالثوار، والاحتقار للمستعمرين ، تقارب المصريون والسوريون ثم جاءت قضية فلسطين ، وثورة الفلسطينيين سنة ١٩٣٦ واستبسلوا فى الدفاع عن أرضهم وعرضهم وأحسوا أن البلاء واحد ، والمصاب مشترك ، والاعداء هم الاعداء ، ففهموا معنى العروبة ، على ضوء هذه المعارك المصيرية ، والنضال العربى ، وتغيرت نظرة المصريين إلى اخوانهم فى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، ونجح العراقيون فى الدعاية لجيشهم فى عهد الملك فيصل ، حتى أصبح يتردد على ألسنة المصريين أنه ضد الانجليز وأبدوا من البطولة وصور العراق هى بروسيا العرب ، واثار العراقيون الاستشهاد ما أنهى الصورة القبيحة العرب المشرق عند المصرين .

وازدهرت فكرة الوحدة العربية وخفتت الدعوة الى الفرعونية أو الى المصرية ، واشتد ساعد الحركة العربية ، فلما تبنت ثورة ١٩٥٢ الفكرة العربية ، بدا أن مصر قد اختارت أن تكون عربية ، وأن هذا الاختيار أبدى ولا رجعة فيه ، حتى تمت الوحدة المصرية والسورية فبدت تتويجا لهذا الاتجاه وتكريسا له .

ولكن توالت النكسات ، فحدث الانفصال بين سوريا ومصر ، ثم طالت الحرب اليمنية ثم كانت حرب سنة ١٩٦٧ وهزمت مصر هزيمة منكرة وكره المصريون الكثير من لفظ العروبة والعرب ، وكل ما يتصل بهذين اللفظين ، ونشط دعاة الاستعمار يؤيدون هذا الانقلاب ويؤكدونه ، واعتبروا أن مصر لم تجن من ميولها العربية الا الخسران المادى والأدبى .

واستمرت الدعوة المضادة لعروبة مصر وتزايدت وتصاعدت الا أن مصر ثابت لنفسها شيئا فشيئا فأدركت أن عروبتها هى قبل كل شىء مصلحة أدبية ومادية ، مباشرة وحقيقية . لا لأن مصر تربطها بالعالم العربى وشائج عديدة أولها التاريخ القديم الموغل فى القدم ، الذى كانت فيه منطقة الشرق العربى ، أو الشرق الأوسط بالتعبير الغربى وحدة متصلة ، جغرافيا ، ومتسقة سياسيا ، تتشابه فيها الظروف ، وتخضع فى الأغلب الأعم ، لحكم واحد ، وتسودها سياسة واحدة ، ولم تتحطم هذه الوحدة الا بفعل دخيل غير طبيعى من قوى أجنبية تزول ، وتبقى هذه المنطقة تتبادل التأثير والتأثر ، كما تتبادل سلع التجارة ومنتجات الصناعة . كان كذلك الحال فى عهد الفراعنة ، وفى عهد اليونان والرومان والعرب والمماليك والعثمانيين والاستعمار الغربى ، ولايزال الحال هو هو حتى اليوم .

وعلى مر الأيام أصبحت مصر ، قائدة هذه المنطقة ، وقلبها . تعلم وتثقف وتهذب وتقود ، وتجد مصر من ذلك مالا ، ومكانة وقوة ، وتأثيرا متجددا فى العالم كله .

ثم أن العالم الآن أصبح عالم تكتلات ، والكتلة العربية ، كتلة

سياسية وثقافية واقتصادية طبيعية ، ولا افتعال فيها ، وهى تمنح كل أعضائها قوة ولاسيما بعد تدفق البترول فى نواح عديدة منها، وتكدس الأرصدة البترولية فى خزانها كثير من هؤلاء الاعضاء .

وقد جاءت أزمات فلسطين ، ومحاولة الغرب وضع اليد على أرضها نهائيا ، وإبعاد أهلها منها لتكون هذه الأرض فاصلا بين العرب بعضهم البعض وإسفينا يفرق بينهم ، وقاعدة عسكرية أبدية ، وحاملة طائرات دائمة ، وهذه المحاولة الآثمة تركت ردى فعل مختلفين أولهما بث الفرقة بين العرب ، وهو رد الفعل الأول ، ثم الاحساس بالحاجة الى الاتحاد ، وخلق الوحدة ، والشعور بالخطر ثم الشعور بالأهمية والمكانة، والرسالة الإنسانية وهذا الشعور الأخير ، لأنه أكثر طبيعية فإنه الشعور الذى سيبقى وسيحس المصريون ، من خلال الأحداث والمصائب والهزائم أن الوحدة العربية هى ميزة لبلادهم وواجب ملقى عليهم وفرصة للعمل العظيم ، وللتأثير العالمى وأنهم لايملكون التفريط فى هذا كله ، أو التخلى عنه .

وكما قلت سمات الأمم وهويتها لا تتكون من اللغة أو الدين أو التاريخ فقط ، فهذه عوامل ممهدة ومساعدة أما العامل الرئيسى والحاسم فهو ارادة الشعب .

ومصر عربية بارادة أهلها ، يدعم هذه الإرادة التاريخ الطويل الحافل ، والجغرافيا الظاهرة الناصعة والدين المبين الصالح .

تركيا القديمة
فى تركيا الجديدة

(زار كاتب هذا المقال تركيا ، وهو يروى هنا بعض ملاحظاته ومشاهداته فى تلك البلاد).

من الساعة التى وضعت فيها قدمى على أرض تركيا وأنا أقول إن تركيا الجديدة لا تكاد تختلف فى شىء كثير عن تركيا القديمة التى سمعنا عنها وقرأنا وصف رجالها وأخلاق بنيها وصفات ساستها ، ولست أقول هذا القول فى غير ما ترو أو دراسة ، فأنا مثلا أعلم كما يعلم الناس جميعا أن قائدا موفقا اجتمعت فيه العزيمة والاقدام وحب الاصلاح هو الذى يقود تركيا اليوم ، وإن تركيا أصبحت جمهورية وأن هذه الجمهورية عملت لخير البلاد الشىء الكثير فهى مثلا قد فتحت هذا العام ألف مدرسة ، كما أنها جعلت التعليم الابتدائى اجباريا ومجانيا ، وصبغت هذا التعليم بصبغة وطنية فأصبح الطالب يرى إذ يدرس التاريخ أو الجغرافيا أن تركيا هى المحور الذى تدور عليه الدراسة ، فهو يدرس التاريخ ليعرف مكانتها بين الأمم وعناصر قوتها ، وهو يدرس الجغرافيا ليعرف كيف تستطيع تركيا أن تمد فى تجارتها وتبسط فى نفوذها البرى والبحرى ، وتتحرر من ربقة الاستعباد الاقتصادى لغيرها

الهلال - فبراير ١٩٣٣

من الدول بعد أن تحررت من ربقة الاستعباد السياسى . وأعرف فوق ذلك أن هذه الجمهورية تعنى بالفلاح وتعينه ، فهى قد وهبت أراضيها «الدومين» لهؤلاء الفلاحين على أن يستغلوها ثلاث سنوات متواليات ، فان قام الفلاحون بهذا الاستغلال طوال هذه المدة أصبحت الأرض أرضهم . أعرف لتركيا الجمهورية كل هذا ، ولكن شعورى بأن تركيا القديمة ماتزال تبدو فى تركيا اليوم - وتبدو واضحة يحسها الإنسان فى الناس الذين يسيرون فى الطرقات ، وفى الصحف وفى الحكومة وفى كل مكان - لم يضعف إذ عرفت الحقائق التى ذكرتها لك .

فالتركى رجل متدين كثير الحرص على دينه، قليل المرح شديد العبوس ، فاذ جاءت الجمهورية أباحت للإنسان أن يعتنق أى دين شاء مادام قد بلغ سن الرشد ، ولكن مايزال التركى متدينا ومتعصبا لدينه ، فأنت إذا دخلت الى المساجد فى الأيام العادية وجدتها خالية كما تجد مساجد القاهرة ، فإذا كان يوم الجمعة غصت بالمصلين يأتون مئات مئات وفيهم الشبان وفيهم الرجال الذين لم يتقدم بهم العمر . وقد يأخذ بك العجب اذ ترى تركيا التى ألغت الطربوش واستبدلت به قبعة ، وترجمت القرآن الى التركية وجعلت الأذان تركيا ، لاتزال تبقى علي يوم الجمعة كعطلة رسمية تقف فيها الأعمال جميعا ويخرج الناس للهو والمرح . فتمتلىء الطرقات بهم وقد تأنقوا فى لبس ثيابهم . وتركيا تخسر بحرصها علي يوم الجمعة عطلة رسمية خسارة مادية ، لأن تجارتها وأعمالها تعطل يوما آخر هو - الاحد - العطلة العالمية - الذى تقف فيه أعمال البورصات والمصارف والمتاجر والمصانع، وكان الأجدر بتركيا أن تسرع الى اتخاذ يوم الاحد عطلة وهى التى تقلد أوربا فى كل

شيء ولكنها لم تفعل ، وقد حرت في تعليل هذا فسألت الكثيرين عن السر فاذا جواب غامض لا يكاد يزيد على أن الحكومة حاولت هذا بالفعل ، ولكنها لم تستطع أن تمضى فيه، وقد عرفت أن الغاء الطربوش ولبس القبعة يمكن تبريره بأن الدين في القلب وليس المظهر جزءا منه ولا أثرا له . وأن ترجمة القرآن يمكن تعليلها بأن التركى يجب أن يعرف دينه وكتابه الذى يؤمن به ، والناس لاتكره هذا فى نهاية الأمر وبعد المناقشة ، أما أن يعطل الاحتفال بيوم الجمعة فهنا الاجتراء على نص آية كريمة وهنا الاعتداء علي حرمة الدين وبذلك لا يستشعر أولو الأمر فى أمتهم القدرة علي اقتراف هذا العمل فيدعوه !.

ولست تستطيع أن تفهم كيف أن حكومة تركيا - وهى حكومة لا دينية - تهتم بأمر القرآن والأذان فتترجمهما الى اللغة التركية وكان الأجدر بها بعد أن فصلت الدولة عن الدين أن تترك هذا كله للناس ، فمن أراد أن يعرف أصول دينه فى كتابه المقدس تلمس لذلك الوسائل ، ولكن تركيا القديمة التى تعنى بالدين وتحتفل بأمره وتنزله من حياتها منزلة خاصة لم تمت بعد .. ولكن تركيا القديمة كان اهتمامها بالدين يظهر فى هذه المساجد التى تملأ الاستانة حتى سميت بحق مدينة المساجد ، وفى هذه الآيات التى تكتب على الأبواب والدور والمعاهد والمتاحف ، وفى لفظ «الله» الذى يتردد فى كلام الأتراك وتحياتهم كثيرا . واهتمام تركيا الجديدة يظهر فى ترجمة القرآن وفى ترجمة الأذان وفى الاعتناء بالاحتفال بيوم الجمعة احتفالا ما أظن دولة اسلامية أخرى تقوم بمثله .

على أن تركيا القديمة تظهر فى الروح الشرقية التي يلمحها الإنسان المدقق فى كل ما يبدو من الأتراك، فالفتيات سافرات وهن

يلبسن على الطراز الأوربى الحديث وهن يتلقين العلم فى الجامعات مع الشبان جنبا الى جنب . ولكن لست تستطيع أن ترى صورا من اختلاط الجنسين كان من المعقول أن يراها الإنسان فى بلد تشجع فيه الحكومة هذا الاختلاط وتدعو له ، حتى لتفتح حانات الرقص الي الصباح وتشجع ضباطها وموظفيها وتستحثهم للإقبال عليه حتى ليدعو الى هذا الرقص الغازى بنفسه عملا وقولا ، ولكنك فى النهاية تجد الفتيات التركيات شبه منعزلات . وترى فى مشيتهن وحركاتهن المرأة التركية ذات الجد والاحتشام ، وإنى لأذكر أنى كنت استثير صديقا تركيا بترديدى على مسمعه : «أرنى شابا مع فتاة ولك ليرة» وقد خرجت مع هذا الصديق مرات الى الحدائق والملاهى والجزائر حيث يحتشد الاتراك ألوفا ألوفا ، وكان يدور بعينيه فى هذه الألوف ليرى الفتاة مع الشاب ، ولست أذكر أنه أخذ منى ليرة ، قد يبدو أن فى هذا القول مبالغة أو تهويلا، ولكنى أقنع بأن أقدم للقارىء هذه النتيجة ، إن الفتاة المصرية وهى فى بلاد شرقية وليست تلقى تشجيعا من الكتاب ولا من الهيئات ، تتفرنج وتسرع فى هذه الفرنجة أكثر مما تفعل فتاة تركيا . وصور الاختلاط بين الجنسين فى مصر تتعدد على شواطىء البحر وفى الحدائق وفى الملاهى ، وليس لهذه الصور نظائر كثيرة فى تركيا . وقد حدثتك عن الشبان والفتيات فى تركيا ، أما اذا ارتقيت - أو هبطت - الى مرتبة الشيوخ والفلاحين فهنا تركيا القديمة بحالها ، تركيا التى تكره القبعة، وتركيا التى تكره الحروف اللاتينية ، وتركيا التى تكره السفور واختلاط الجنسين ، وتركيا الشرقية التى لا تعرف مصطفى كمال المجدد الاجتماعى ولا تحبه ، وإنما تعرف مصطفى كمال المنقذ الذى

حرر البلاد من الاعداء ورد لها الحرية وهى تحب هذا المنقذ ، وهي على أتم استعداد لأن تعمل معه فى ميادين الحرب والعمل السلمى وأن تقدم حياتها ومالها فى سبيل تقوية تركيا واعزاز جانبها .

وفى النهاية تبدو تركيا القديمة فى نظام الحكم الحالى ، فنظام الفرد الذى كان فيها مايزال هو نظامها الحالى ، فثمة جمهورية وبرلمان ولكن الناقدين لا يستطيعون أن يتكلموا إلا همسا ، وإن ارتفعت أصواتهم أخرسوا ، وإن تحركت أقلامهم قصفت هذه الأقلام ، ولقد همس فى أذنى أكثر من هامس وشكا لى أكثر من شاك ! ولكن تركيا الجديدة تظهر رائعة جليلة بحيث تحرك الاعجاب فى النفوس وفى الصدور جميعا ، فى المظاهر القومية التى لاتنفك تطالع الإنسان أينما ذهب فى تركيا ، فالاجانب لا تلمحهم ولا تراهم ، والحكومة لا تسمح لهم بأن يفكروا فى الاعتداء علي سيادتها ، وإنى لا أذكر أن أول ما شاهدته فى أزمير واستوقفنى ، هو جريدة «سن بوستا» ـ آخر بريد ـ فقد رأيتها فى أيدى الناس جميعا وعلى صدرها بالخط العريض «حادث هام ـ الشرطة والمعارف يهتمان به» وقد طلبت من أحدهم أن يترجم لى هذا الخبر ، فأخبرنى أن فتاة أجنبية مسيحية كاثوليكية قد أثر عليها بعض المبشرين فاعتنقت البروتستانتية ثم بلغ الخبر أهليها فأبلغوه بدورهم للأمن العام فقامت الشرطة بالتحقيق من ناحية وقامت به وزارة المعارف من ناحية أخرى ، وأغلقت هذه المدرسة الأجنبية التبشيرية ووعدت الصحيفة قراءها بأن تنشر لهم أخبار هذا الحادث المهم أولا فأولا .

وليس هذا الحادث إلا واحدا من حوادث كثيرة كلها تدل على أن تركيا التى ماتزال شرقية فى صميمها قد عززت هذه الشرقية الكامنة المستترة بقومية قوية واضحة .

حرب الحضارات

فى الشرق العربى

إن ما يجرى فى منطقتنا التى يجب أن نسميها الشرق العربى، بدلا من «الشرق الأوسط».. لان تعبير الشرق الأوسط، هو تعبير استعمارى استعمله الحلفاء، بريطانيا وأمريكا فى الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ - ١٩٤٥»، وقد ادخلوا فى هذا الاسم تركيا وايران وباكستان. إن ما يجرى فى هذه المنطقة، يمكن أن نلخصه بانه محاولة للاستعمار الذى يؤيد الصهيونية وتؤيده بوضع اليد على بلادنا.. أولا - لموقعها الجغرافى الثمين، والمؤثر، والفعال .. ثانيا - لغناها بالظاهر والخفى من الثروات المعدنية، والزراعية، والسياحية.. ثالثا - لمكانتها الروحية باعتبارها موطن الاراضى المقدسة الاسلامية والمسيحية واليهودية.. رابعا - لانها حلقة فى سلسلة ثقافية حضارية ، تبدأ عند سور الصين، وتمتد حتى شاطىء الاطلسى عند المغرب. وهذا التلخيص ، صحيح، ولكنه ناقص.

فالاستعمار والصهيونية يطمعان فى منطقتنا لهذه الاسباب، وما يتبعها، وما يتفرع عليها، ولكن ليس الغرض على غير ما يبدو لنا تجاريا

الهلال - أول يونية ١٩٨٣ .

أو اقتصاديا، وإن كان الباعث الاقتصادى والمالى موجودا، الا أن الهدف أبعد من ذلك بكثير، ذلك أن ما يتلهب به قلب الاستعمار الغربى من مطمع هو طمس الحضارة الخاصة ببلادنا والتى نشأت على شاطىء النيل ودجلة والفرات، وانتشرت فى الدنيا كلها فى عصور موغلة فى القدم – منذ سبعة آلاف سنة، وحملت اسماء عديدة: فرعونية، يونانية، رومانية، عربية، عثمانية.. كما حملت اسماء أخرى: اسلامية، مسيحية ويهودية.

وانتزاع جذور هذه الحضارة ، يؤدى بطبيعة الحال، إلى القضاء على أقوى عناصر المقاومة فى منطقة الشرق العربى، لان هذه المنطقة بعد انقطاع صلتها بماضيها الحضارى، يتيسر اندماجها فى الغرب، وذوبانها فى منطقه ، واصطناع أساليبه ومناهجه، وانعدام الاحساس بالعدوان الحاصل عليها ، باعتبارها امتدادا للغرب..

ولقد كانت المحاولة الاولى، لهذا الهجوم ذاته، وبالغاية ذاتها فى أخريات القرن الحادى عشر ، أى سنة ١٠٩٩ وقد عرفت تلك المحاولة بالحرب الصليبية التى نجحت فى اقامة «مملكة بيت المقدس فى نفس الموقع الذى تقوم فيه الآن اسرائيل» وقد استطاع العرب أن يردوا هؤلاء الغزاة على أعقابهم وأن يطهروا أرضهم من رجسهم، بعد مائتى سنة من الحروب والمعارك، وسلم الشرق العربى، من تفكيك أوصاله الحضارية، ومن طمس حضارته، وقد كانت حالة ذلك الشرق اسلم بكثير منها هذه الأيام، فلم يكن الغرب قد استطاع أن يطوق هذه المنطقة ويتدخل فيها عسكريا واقتصاديا ، وقبل كل شىء ثقافيا.

فى تلك الفترة، كانت يسود الشرق العربى ثقافة واحدة، هى الثقافة العربية الاسلامية، وكانت مناهج الحياة وقواعد المعيشة وأساليب

التفكير، كلها نابعة من تلك الثقافة، ومن التراث المتراكم من الآباء والاجداد، فلم يكن أهل المنطقة، تتجاذبهم تيارات فكر متعارضة، فكان الغزاة أمام مجتمع متحد، يستند إلى عقيدة واحدة قوية، وشعور قومى، يضم الصفوف ويشد العزائم ، وينتهى بردود فعل واحدة..

ولقد بدأ الاستعمار الغربى، بمنطقة الشرق العربى، لان العالم العربى، هو القطاع الاقرب من حضارات الشرق إلى التحرك الغربى الذى بدأ تحركا أوربيا محضا إلى أن لحقت به أمريكا بعد قرون.

وقد منيت الغزوة الغربية الأولى المتمثلة فى الحرب الصليبية، بالهزيمة والارتداد وإن استطاعت أن تثبت أقدامها فى أجزاء من العالم العربي، كما حدث فى «مملكة القدس» لمدة قرنين، ولكن لم يكن ممكنا لهذه الغزوة أن تحقق انتصارا أعمق من ذلك، ذلك لان الغرب لم يكن بعد قد استيقظ ومر فى مراحل الصحة، والنهضة والبعث الحضارى، ولم يكن اتصاله بالعرب والمسلمين قد ترك أثره بعد فيه، وقد مضت قرون حتى وفى القرن الخامس عشر، ورأت أوربا، أن تتفادى العالم العربى، وذلك عن طريق الاكتشافات البحرية التى أعدتها أسبانيا والبرتغال لتلتف حول جنوب أفريقيا، للوصول إلى آسيا، ولم تتحول الموجة الاستعمارية، إلى موجة عالمية، الا فى القرن التاسع عشر عندما كانت القوة لاوروبا، بعد استيعاب جميع ما حققته الحضارة العربية والاسلامية، ونقلته الثقافة العربية الاسلامية عن الحضارات السابقة: يونانية ورومانية وفارسية وهندية، وهضمته، وأضافت إليه ، وصاغته صياغة جديدة.

وقد بقى الغرب يتربص للبطش بمصر طليعة العالم العربى، لانه كان يحسن قراءة التاريخ، وكان قد خرج من دراسته لتاريخ المنطقة،

بانه ما من مرة استطاع أن يوجد فى مصر رجل قوى ينظم أمورها - ولو إلى حد ما، ويحس بدورها فى المنطقة، ويعرف كيف يتجاوز بنظره حدودها، ويدرك جيدا صلاتها بالعالم الذى يحيط بها، ، والذى يتصل بها، ويتأثر بما يجرى فيها، بطريقة تكاد تكون سحرية لا تبدو مظاهرها، لانها تتداخل فى نسيج قديم، قدم مصر، وقدم المنطقة والحضارات التى تتابعت فيها وتلاحقت..

ما من مرة وجد هذا الرجل حتى تقفز مصر فجأة إلى زعامة تشمل المنطقة، وتتضخم فيها مكانة مصر، وتتحول المنطقة كلها إلى وحدة تتماسك وتتلاحق، وتصبح قوة لا تقاوم.

كانت مصر كذلك فى ظل أحمد بن طولون وكافور الاخشيدى والفاطميين والايوبيين، ثم فى ظل المماليك العظام الذى دان لهم الشرق العربى، وتحولت فى عهدهم الممرات البرية والبحرية فى البحر الابيض والبحر والأحمر، قنوات مصرية خاضعة لارادة سلطانها خضوعا مطلقا، ولذلك راقبت بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا، البحرية المصرية الجديدة التى بدأت فى سنة ١٨٠٥، بقلق شديد، وإن كانت تلك القوى، غير قادرة على الجزم بمدى ما يمكن أن ينجم عن هذا التطور فى سنة ١٨٠٥ حينما بويع محمد على واليا على مصر، مبايعة شعبية تجرى أحداثها فى المحكمة الشرعية، التى تحلقت حول مبناها عشرات الالوف من المصريين لتشارك مشاركة مباشرة فى خلع الحكم العثمانى، ممثلا فى الوالى التركى، واختيار حاكم آخر بدلا منه، ولكن الاستعمار الغربى أدرك بعد ذلك أن السكوت على هذه الدولة الجديدة، معناه السكوت على وحدة ذات استقلال اقتصادى، يمكن أن تكون عقبة فى طريق الهيمنة

الغربية على المنطقة العربية كلها ، ثم ما وراءها، فقررت أن تلاحقها ، حتى قضت عليها القضاء الذى تمثل فى معاهدة سنة ١٨٤٠ التى كانت دستور العلاقة المصرية - الاوربية حتى وقع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢.

لكن الفترة الطويلة السابقة على هذا الاحتلال كانت فترة تغلغل رؤوس الاموال الاجنبية، وفترة فتح قناة السويس التى كانت غزوا غربيا، وقاعدة أوربية، عاصرتها عملية واسعة النطاق تم بها اخضاع كل من تونس والجزائر والمغرب للنفوذ الغربي واحتلالها جميعا بقوات عسكرية أوربية.

منذ بدأت عملية تغريب العرب، ونزعهم تدريجيا، ويدأب واستمرار من أصولهم الثقافية، وسماتهم الحضارية.. وإذا اتخذنا مصر، وما تم فيها نموذجا لتطبيق قواعد عملية التغريب، وفتح أبواب الثقافة الاوربية لتلتهم كل ما هو عربى وما هو اسلامى وما هو شرقي، وتأكيد وترسيخ كل ما هو أوربى، وكل ما هو غربى، واقامة العقبات والحواجز، فى وجه استيحاء الماضى أو بعثه، فإننا نجد أن الخطوة الأولى فى هذه الخطة هى تسريح الجيش وتأليف قوة عسكرية ضعيفة تكاد تكون بلا سلاح، قوامها جنود مرضى وجهلة وفقراء، يرأسهم ضباط لا يعرفون من العلم العام إلا قشوره، ومن العلم العسكرى الا السير فى المواكب، وحمل بنادق فارغة من الذخيرة، وسيوف لامعة لم تستعمل قط. ثم فك الاسطول المصرى ، وبيعه لشركات أجنبية وتحويله إلى شركة ملاحة تجارية.

ولما أمن الانجليز جانب الجيش والقوة العسكرية فى البر والبحر، تقدموا نحو التغريب الفكرى والروحى، فأقاموا النظام القانونى فى

البلاد، على أساس من القوانين الاوربية ، فمنذ سنة ١٨٨٣ أصبح القانون الفرنسي هو مصدر التشريع المدني والجنائي وأصول المحاكمات والمرافعات، وقطعت العلاقة بين التشريع الجاري في البلاد والشريعة الاسلامية. وبعد أن كانت المحاكم الشرعية هي محاكم القانون العام، ذبلت وضؤل اختصاصها، واقتصر على دعاوى الزواج والطلاق والنفقات، وبعبارة موجزة، أقدمت بريطانيا على وضع أسس العلمانية في مصر، وهي المحاولة التي أقدم عليها «كمال اتاتورك» في بلاده سنة ١٩٢٤ فأثارت العالم الاسلامي والعربي، وكان لها دوي كدوي الصاعقة، وأكثر العالم الاسلامي لا يعرف أن ما فعله كمال اتاتورك في تلك السنة سبقت إليه مصر، في ظل الحكم البريطاني منذ أربعين عاما، دون أن يثور أو يعترض أحد.

ولعل أطرف صور التغريب في مصر، هو محاولة تغريب الكنيسة الارثوذكسية القبطية، وفتح أبوابها لتيارات المذاهب المسيحية الاوربية ، أي الكاثوليكية التي تتزعمها وتحميها فرنسا، والبروتستانتية التي تتزعمها وتحميها بريطانيا.

وفي كتاب «المسلمون والاقباط» للاستاذ طارق البشري، بيان عن المعركة التي دارت بين الكنيسة المصرية، وبعثات التبشير الاجنبية الامريكية والبريطانية والفرنسية والايطالية.

ولما كان هذا الجانب من حياتنا الروحية غير ملحوظ، فإنه من الخير أن نورد طرفا من تاريخ هذه المعركة، نقلا عن هذا الكتاب القيم. قال المؤلف:

«على مشارف التاريخ الحديث، تصادفنا قصة البطريرك يوانس الثامن عشر مع كنيسة روما الكاثوليكية، إذ تولى البطريرك رئاسة

الكنيسة فى أكتوبر سنة ١٧٦٩ وكنيسة روما تبذل أقصى جهدها لتضم الكنائس الشرقية إليها، وعلى الاخص الكنيسة المصرية. وبعث بابا روما مندوبا عنه إلى مصر يحمل رسالة يدعو فيها البطريرك القبطى للاتحاد معه، ويعرض عليه مشروع خطاب أعدته كنيسة روما ليكون صيغة المصلحة بين الكنيستين على ما بينهما من خلافات عقائدية.

«ويمكن تصور ظروف هذه الفترة التى بزغ فيها نجم الحضارة الاوربية وأصبحت ذات قوة اقتصادية وعسكرية، وذات هيبة وانتشار واطماع وهى ذاتها الفترة التى كانت فيها مصر وما حولها ترسف فى أغلال من التخلف بعد سابق ازدهار مجيد فى العصر الوسيط وتعانى من حكم العثمانيين قسوة واستغلالا وتخلفا. وكل ذلك يشكل ظرفا مواتيا لتحقيق الاطماع الاوربية» . على أن البطريرك رفض تلك الدعوة وكلف أحد كبار اللاهوتيين من الاقباط باعداد خطاب يرد فيه بالرفض على دعوة الاتحاد.. جاء فيه : «وانى لأعجب من كثرة ذكاوة عقلكم ودقة فهمكم الرفيع، الذى لم نره من أحد قط من مدة كبيرة، وما ينيف على ألف ومائتى سنة، وما سمعنا بأحد من المرسلين من قبل البابا الرومانى كتب من عنده صورة رسالة إلى آبائى البطاركة الذين سلفوا قبلنا، ويعرفه منها أن يكتبها للبابا الرومانى ويخضع له، ويصير تحت اعتقاده، كما صنعتم أنتم»..

هذه السطور التى تبدو سانجة، ومكتوبة على الفطرة، غنية بالدلالات التى أولها أن بابا روما، لا يريد تعاونا بين كنيسته والكنيسة القبطية، بل يريد من الكنيسة المصرية خضوعا وانصياعا.. ثانيا أن رأس الكنيسة القبطية أدرك مرامى الرسالة البابوية الآتية من روما،

واستشعر فيها الرغبة فى السيطرة والهيمنة فرفضها فى غير رفق..
ثالثا.. إن ما سعت اليه الكنيسة الرومانية هو هدف سياسى ، يراد به أن يخرج المصريون (ولو كانوا مسيحيين) من إهابهم ليلبسوا جلدا جديدا ، يكونون فيه أتباعا وذيولا لأوربا من خلال الدين ..

وقد حدث أن أرسل البابا جماعة من الرهبان استوطنوا مدن الصعيد ، وحاولوا جذب الأقباط الى الكنيسة الرومانية ونجح هؤلاء فى استمالة بعض الأسر القبطية الى المذهب الكاثوليكى . وقد حدث من جراء ذلك انقسام بين الأقباط أرادت الكنيسة الكاثوليكية استغلاله فى موضوع قضاء الأحوال الشخصية .

والطريف الداعى الى الاعجاب أن الحكومة المصرية ضايقها هذا الموقف من جانب الكنيسة الكاثوليكية فلجأت الحكومة الى المحكمة الشرعية الكبرى فى مصر سنة ١٧٣٨ فقضى القاضى الشرعى بأن تكون سلطة الفصل فى هذه المسائل الى البطريرك القبطى الارثوذكسى. ومعنى ذلك أن اتحادا وقع بين الحكومة المصرية والكنيسة القبطية والمحكمة الشرعية ضد النفوذ الاجنبى وأنهم نجحوا فى صده وأن الهيئات أو الجهات الثلاث كان لديها وعى كامل بحقيقة هذا التسلل وأنه بعيد تماما عن الدعوة الدينية، وأنه كان غزوا أجنبيا يمس سيادة البلاد واستقلالها.

وقد أورد الاستاذ طارق البشرى نقلا عن كتاب «وصف مصر» نقلا عن مبعوث فرنسا إلى مصر سنة ١٧٠٩ أن هؤلاء الرهبان لم يلقوا نجاحا كبيرا فى دعوتهم عن طريق الترغيب «الاقباط الارثوذكس». ولما وقعت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨، اصطنع الفرنسيون

قبطيا هو «الجنرال يعقوب» الذى كون فرقة من الاقباط لمناصرة الفرنسيين غير أن الاقباط المصريين لم يكونوا راضين عنه، وقد حدثت مشاحنات بينه وبين البطريرك، ودخل يوما إلى الكنيسة الكبرى راكبا جواده فطرده البطريرك، ولم تتيسر له الاقامة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فرحل مع الحملة الفرنسية إلى فرنسا، ولم يعد إلى بلاده .

ومما يجدر تسجيله أن البطريرك مرقص الثامن، وجه رسالة إلى الاقباط أبرز المعنى الذى نحاول اظهاره هنا، إذ قال: «ابتدأنا أن نتعلم عادات الامم الغربية، ولازمنا فاعلى الشر».

وقد نقل الاستاذ طارق البشرى عن الدكتور وليم سليمان فى كتابه «الامة القبطية» إن أهم رسالتين بروتستانتيتين وفدتا إلى مصر فى القرن التاسع عشر، جاءت إحداهما من انجلترا، والثانية من أمريكا، عن طريق الشام وإن كانت خطة الامريكيين هى القضاء على الكنيسة القبطية وضم ابنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة بينما كانت خطة الانجليز الابقاء على الكنيسة القبطية المصرية مع التغلغل فيها والسيطرة عليها.

وقد حاول بابوات روما اخضاع الكنيسة القبطية واجبارها على الاعتراف برئاستهم، وذلك بما ارسلوا من رهبان فرنسيسكان إلى مصر توغلوا فى الصعيد حيث يكثر الاقباط، وبلغ بهم الامر - كما يروى الاستاذ جرجس سلامة - أن كان الفرنسيسكان يخطفون الاطفال ويرسلونهم إلى روما لتعليمهم الكاثوليكية إلا أن الأقباط قاوموا هذه الحملة إلى حد أنهم استولوا على كنائس الفرنسيسكان وطردوهم

منها، ثم انضمت الارساليات البروتستانتية الانجليزية والامريكية، وانشأت تلك الارساليات مدارس لها جمعيات بدأت بأغراض دينية بحتة، وعارضت الكنيسة القبطية هذا النشاط وسافر البطريرك المصرى إلى أسيوط على باخرة نيلية وضعها الخديو إسماعيل تحت أمره، في وجه النشاط البروتستانتى، وعلى منع القبط من إرسال ابنائهم إلى مدارس التبشير، وطاف الكهنة على البيوت يحرمون على كل أب أن يرسل أولاده إلى هذه المدارس، وصدر قرار الحرمان ضد من يخالف هذا النصح، أو يزور مكتبات تلك المدارس أو يقرأ كتبها أو يصافح أو يصادق أحدا من المبشرين.. ويروى الدكتور هوج وهو مبشر اسكتلندى، أنه ذهب مع القنصل الامريكى لزيارة البطريرك ، ليطمئن على أن مدارس التبشير لا تفعل أكثر من تعليم الانجيل لاولاد الاقباط، فكأن المبشر ألقى قنبلة فى وجه البطريرك الذى صاح: الانجيل الطاهر!.. وهل الامريكان وحدهم هم الذين عندهم الانجيل.. إن الانجيل عندنا قبل أن تولد أمريكا. ولماذا جئتم إلى بلادنا بكلماتكم الناعمة؟!».

وفر المبشر نجاة بنفسه من هذه الحملة الصاعقة.

وقد روى الاستاذ جرجس سلامة أنه لما ولى البطريركية الانبا كيرلس الخامس، واصل حملته ضد البروتستانتية، وذهب إلى أسيوط على باخرة نيلية وكان موكبه من الباخرة إلى المدينة على خط دخول المسيح إلى أورشليم، إذ ركب حمارا، وتقدمه القسس وحاملو الصلبان والاعلام وفروع النخيل، وكان محاطا بالجنود أمامه وخلفه، بأمر الحكومة.

وهذا الموكب ليس عملا دينيا، وانما هو مظاهرة مصرية، اسلامية قبطية، تتعاون فيها الحكومة مع الكنيسة، لتأليب الشعب كله، مسلمين واقباطا ضد غزو مصر الثقافي، وتراثه وتقاليده، ومنهج حياته، وأساليب تفكيره.

أدرك آباؤنا، معنى التحضر الثقافي، للاستعمار الدخيل السياسي، والاقتصادي ، فوقفوا معا ضد هذا «التحضر» وضيقوا عليه الخناق والامر اليوم في نفس الحاجة إلى هذا الوعي، وإلى دفعة مشتركة، بنفس الغرض ، فقد زادت الحملة على ثقافة العرب والمسلمين ضراوة وعنفا.

في ذكرى الثورة العرابية

صفحات مجهولة من تاريخ مصر الحديث

في ٩ من سبتمبر سنة ١٩٨١ أتم الزمن دورة كاملة، فانقضى على قيام الثورة العرابية مائة عام كاملة، فتداعت في الرؤوس، ذكريات كثيرة لهذه الثورة الفذة، التي وقعت على أرض مصر، التي تلتقي فيها وعندها، أطماع الراغبين من ساسة الامم وقادة الدول. في الهيمنة على العالم، كما تلتقي قارات العالم الكبرى الثلاث: افريقيا وآسيا وأوربا، وتنوب حضارات القديم والحديث، ومدنيات الفراعنة والعرب والرومان والاغريق والفرس.

ولقد أريق مداد كثير في رصد وقائع ثورة عرابي وشعب مصر، وفي تحليل هذه الوقائع، واستنطاقها، وردها لأصولها. وكان من بين ما كتب: مجلدات ذاعت شهرتها، وعرفت بأسمائها وأسماء محرريها، كما وضعت رسائل، جيدة عميقة، ولكنها لم تظفر بما تستحق من بعد الصيت، من هذه الكتب: «كتاب عزل خديو» الذي كتبه الترجمان الانجليزي «المترجم» اردن هيولم بيما.. وهو كتاب متوسط القطع

الهلال – سبتمبر ١٩٨٢ .

والحجم إذ لم تكمل صفحاته المائتين عدا، إلا أنه حافل بالتعليقات والذكريات، التى كتبها المؤلف بروح تفيض حبا لمصر أو على الأقل عطفا عليها وبتقدير حار لزعيم ثورتها عرابى، حتى لننسى - بعد مضى الوقت - إن الكاتب انجليزى ، ونتوهم بأن كاتبه مصرى.

وقد قدم المؤلف نفسه فقال أنه قبل خمسين سنة من تأليف كتابه الذى تم فى سنة ١٩٢٨، اعتاد أن يركب كل يوم حمارا صغيرا مليئا بالحيوية والمرح، من فندق «النيل» فى حى الموسكى، إلى القنصلية البريطانية العامة، ليقوم بواجبه بوصفه المترجم العربى الأول فيها، ولم تكن هناك فى ذلك الحين سيارات ولا خطوط ترام، فى حين لم يكن عدد موظفى القنصلية سوى مستر فيفيان القنصل العام وسكرتيره مستر «اورنشتين» والمترجم السورى السيد اورانجى. وقال المؤلف أنه اعتاد منذ سنة ١٨٧٩ - أى قبل الاحتلال البريطانى بسنتين فقط «لان الاحتلال البريطانى وقع فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢» أن يقيم فى مصر منذ حين وآخر مددا متفاوتة الطول: محتفظا طوال الوقت باهتمام متجدد بالشعب المصرى، ومجريات الامور، وكل ما يتعلق بمصر . ومن ثم استطاع أن يتابع تطور العلاقات البريطانية المصرية فى كل المجالات.

واعترف المؤلف أنه لم يعتمد إلا فى القليل النادر فيما كتبه عن مصر، على الوثائق المكتوبة، وعلى مصادر معلومات من الدرجة الثانية بل اعتمد تقريبا فى جميع الاحوال على معلوماته الشخصية أى المعلومات التى استقاها بنفسه أو من أناس عرفوها مباشرة ولم ترد لهم من آخرين ، وكل هؤلاء الاشخاص - مصريين كانوا أو انجليز -

تمتع إما بصداقتهم أو بمعرفتهم، وقد سمع منهم مباشرة آراءهم وقد تمنى مستر بيمان أن يمكن - بفضل كتابه - القارئ الانجليزى من الوقوف عن حقيقة مشاعر المصريين بالنسبة لما جرى من الامور وما صدر من التصريحات على السلطة البريطانية أى سلطة الاحتلال وعزا المؤلف إلى نفسه فضيلة القدرة على نقد تصرفات وأعمال السلطة البريطانية فى مصر التى رآها فى بعض الأحيان معيبة مع أنه كان دائما شديد الاعجاب بما أتمته هذه السلطة البريطانية ذاتها من الاعمال العظيمة فى مصر.

ويبادر بيمان بمواجهة جوهر مشكلة العلاقة بين مصر وبريطانيا، فيقول : إن الاتجاه العام للسياسة البريطانية فى مصر قائم على إنكار ما قطعته على نفسها فى بداية الاحتلال من وعود وعهود، كانت كلها تؤكد للعالم ولمصر ، أن غاية دخول بريطانيا بجيوشها إلى مصر، هو تهيئتها لان تحكم نفسها بنفسها، وأن تقيم على أرضها حكما سياسيا حرا، «وليست هذه الطريقة بالطبع، الاسلوب الامثل لتحسين علاقتنا مع القوم الذين أعلنا أننا نبغى أن يصبح المصريون بفضل حكمنا لهم سعداء وراضين، ولا السبيل القيم للمحافظة على مكانتنا فى مصر وفى الخارج. إذ ما لم يرض المصريون عنا الرضاء الكامل، انطفأ أقل بصيص من الامل فى أن بيننا وبينهم اتفاقية تبرم على الوجه الذى يرضى الطرفين».

وانتقل بعد ذلك إلى موضوع ذى حساسية وأهمية، سماه «الكرومرية». وهو اصطلاح لم أصادفه فى كتاب انجليزى أو عربى عن الحقبة السابقة لثورة عرابى سنة ١٨٨٢، ولا عن الحقبة التالية للثورة التى أعقبها الاحتلال.

و«الكرومرية»، التى تكتب باللاتينية «كرومرزم» تعني بطبيعة الحال، مجموعة الاساليب والاجراءات والاهداف التى اتبعها كرومر – مندوب الاحتلال البريطانى فى مصر – والتى تمثل عقلية الانجليز حينما يحكمون بلادا غير بلادهم بصفة عامة، وعقلية «كرومر» الذى كان اسمه عند بدء الاحتلال «ايفلنج بارنج» حتى حصل على لقب اللورد كرومر.

و«ايفلنج بارنج» أو «كرومر» حسبما تشاء ليس مجرد معتمد بريطانى، ولا قنصل عام أو مندوب سام فى مصر، بل هو مدرسة استعمارية كاملة ترى هذه المدرسة أن عليها أن تقوم بعدد من الاصلاحات الادارية وبعض المنشآت التعميرية فى مجال الرى والأمن والتنظيم، تضفى على الحكم الانجليزى صفات الاستنارة والرغبة فى التجديد، مع لمسات توحى بالتقدم وتوفير الحرية العامة للمواطنين، ولكنها تعنى فى الواقع بأشياء أخرى أهمها حرمان الشعب من الحكم السياسى الحر القائم على إرادة الشعب لا الخطو نحو هذا الحكم ثم حرمان الشعب من التعليم المجانى الشامل لكل الطبقات، ولا اتاحة الفرصة للشخصيات المصرية التى أتمت تعليمها العالى وأتمت تدريبها فى الحكم والادارة على سبيل الاستثناء أن تشارك جدياً فى حكم وطنها. ثم أن تحكم البلاد بيد من حديد فى قفاز من حرير، حتى تختفى سمات بطش الحكم الاجنبى وعنفه.

ويقول بيمان أن الشرط الأول الذى كان يجب أن تتحلى به الادارة البريطانية أن تقول الحق وكل الحق، فلا تدعى لنفسها مقاصد وأغراضا، غير ما تعنيه وتقصده ولكن «الكرومرية» أوهمت المصريين أنها ستمنحهم الاستقلال، فى حين أنها منحتهم بدلا من ذلك «الاحتلال» فلم يعد فى مصر، مواطن واحد يعتقد أن بريطانيا ستجلو عن بلاده.

وبعد إعلان الحقيقة هذا، الذى يدل على مدى صدق وصراحة «بيمان» وأنه فعلا يضمر لمصر وللمصريين حبا وعطفا حقيقيين خاليين من الزيف والتمويه، ينثنى إلى حقيقة أخرى يعلن من خلالها أن الانجليز حتى احتلالهم لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، لم يعرفوا شيئا جديا عن مصر، فى حين أن الفرنسيين كانوا لاكثر من سبب أشد اتصالا بمصر وأهلها، وأكثر شعورا نحوهم ونحوها، بالألفة.

وقد بقى الحال على هذا المنوال، حتى تم فتح قناة السويس، ثم عزل الخديو إسماعيل الذى تبع هذا الفتح بقليل، وكان قد وقع بفضل تدخل الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالتعاون مع عدد من الدول الأخرى. وقد أيقظ هذا الحدث الساسة البريطانيين، فأدركوا لتوهم أهمية مصر لبريطانيا.

وقد كان عزل الخديو إسماعيل. سبيلا إلى تخفيف معاناة المصريين لفترة مؤقتة من مظالم الخديو العظيم. وقد حل محل الخديو إسماعيل ابنه توفيق. وقد بدا، لفتور شخصيته، وضعف حيويته، أنه خديو من طراز آخر، أكثر عدلا وأقل ظلما، ولكن الايام – فى رأى بيمان – أثبتت العكس، لقد كان توفيق هو إسماعيل، بفارق أن الابن كانت تنقصه مزايا الأب: من تدفق الحيوية، والشجاعة. ولكنه لم تنقصه الرغبة فى أن يدعى لنفسه الحق فى ممارسة أية سلطة يتيسر له الحصول عليها أو الوصول إليها، وقبل أنْ ينقضى وقت طويل، نجح فى إثارة ضيق الجيش المصرى، الذى كان يسخر ضباطا وجنودا فى أعمال لا تليق بهم. ولكن أكثر ما حرك حنق الضباط المصريين هو ما أريد لهم من تبعية لزملائهم ضباط الجيش المصرى الذين كانوا ينحدرون من أصل

تركى أو شركسى. واستغلال الجنود فى كل عمل حتى ولو كان مهينا، أو منزليا ، وبلا مقابل مادى ولكن الضباط المصريين نجحوا ، تحت قيادة العميد أحمد عرابى الذى كان فلاحا وابن فلاح فى تحقيق أول نصر، وذلك بإزالة عثمان رفقى باشا وزير الحربية الشركسى الاصل، من مكانه ثم تتابعت اصلاحات ثورية، دون تدخل من جانب بريطانيا أو فرنسا، حتى تم اللقاء المثير فى التاسع من ستيمبر ١٨٨١ بين السير أوكلاند كلفن القنصل البريطانى فى صحبة الخديو توفيق من جانب ، وأحمد عرابى ومن خلفه الجيش المصرى من جانب آخر فى ميدان عابدين. وفى هذا اللقاء المثير الذى تم فى الهواء الطلق، وعلى مرأى ومسمع من عدد غير قليل من فرق الجيش، وآلوف من عامة المصريين من أهل القاهرة اصطفوا خلف صفوف الجيش، طالب الضباط المصريون بأمرين كلاهما كان مر المذاق فى فم الخديو، الذى لا تبدو على وجهه، ولا فى صوته حقيقة انفعالاته. وكان أول الامرين إقالة الوزارة بأسرها، إذ لم يكتفوا هذه المرة بإقالة وزير واحد من اصل شركسى ، وكان الامر الثانى الدعوة إلى عقد برلمان، أى مجلس تشريعى نيابى. ورأى «بيمان» أن الامر الثانى كان أشد مرارة ، وأقبح مذاقا، فالخديو يفضل أن يواجه اثنى عشر عميدا وعقيدا من الضباط، على أن يواجه برلماناً، يكون من حق أعضائه أن يسائلوا الخديو ووزراءه عن أخطائهم وسوء أعمالهم، ولكنه على كل حال أذعن، وأحسب أن «بيمان» لم يحسن تقدير الموقف، فإقالة وزارة بأمر الضباط، مساو تماما لطلب مجلس نيابى تشريعى، لان جوهر الامر أن الضباط المصريين الذين كانوا كما مهملا، لا يؤبه به أصبحوا يملكون أن يأمروا،

بعد أن أحسوا أن ذلك من حقهم. فإن أمروا بشيء وأطاع الخديو، فإنه الطوفان فسيكون الامر كله لهم، وهذا ما حدث بالفعل.

وفي هذه الفترة جاء مندوب من سلطان تركيا، ليحقق في أسباب تمرد الضباط المصريين وسخطهم، وضايق هذا «عرابى» لان مصدر شكواه أن العنصر التركي في الجيش والحكومة، كان لا يطيق أن يتقدم المصريون نحو المناصب الاعلى، أو أن يزيدوا من نصيبهم من السلطة، أما الخديو فقد غازل الجانب التركي لحظة، ثم آثر بعد ذلك أن يكون في الجانب المصرى، حتى ضربت أساطيل بريطانيا مدينة الاسكندرية في الحادى عشر من يولية، فعندها رأى القوة العسكرية الغازية، أقوى من عرابى والمصريين، فاختار الجانب الاجنبى ويبقى مواليا له حتى تم الاحتلال البريطاني.

ويقول بيمان أن معركة «التل الكبير» أنهت الثورة العربية، وأن عرابى حوكم وحكم عليه بالنفى مدى الحياة في جزيرة سيلان مع ثلاثة من العمداء يتقدمهم محمود سامى البارودى الذى يقول عنه «بيمان» خطأ أنه وزير حربية الثورة في حين أنه أنهى حياته العامة رئيسا للوزراء .

ثم أعلنت بريطانيا احتلالها ، إلى أن تستطيع مصر أن تدبر شئونها بنفسها، وتحفظ حقوق الاجانب المقيمين فيها من المساس بها أو الاعتداء عليها. ولم يتم شيء من هذا قط على الرغم من أن بريطانيا بذلت في رأى «بيمان» ثلاثة وستين وعدا، بالجلاء في حين أحصى المؤرخون المصريون من هذه الوعود تسعة وتسعين وعدا. ولكنه يلاحظ ملاحظة ذكية يقول : إن بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ توقفت تماما عن منح

وعود بالجلاء ففى هذه السنة اتفقت بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودى الذى أطلقت فيه فرنسا يد بريطانيا فى مصر، فى مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش.

إلا أن بيمان يضيف سطورا ذات قيمة فيقول :

«إن عرابى هو الوطنى الاول فى تاريخ مصر الحديثة، ولقد عرفته جيداً كما عرفت زملاءه زعماء الثورة ولما نفوا إلى سيلان وقع اختيارهم علىّ ، وكيلا عنهم لأرعى شئون عائلاتهم التى خلفوها وراءهم، ومصالحهم التى كانت لهم فى مصر...

«إن وطنية عرابى، ليس لها جذور عميقة. ومهما طالت فى طيات الماضى، فقد بقيت قائمة فى حاجة إلى روح لتوقظها ولسنا ننكر أن رياض باشا «رئيس وزراء مصر لأول مرة بين ١١ يونية سنة ١٨٨٨ إلى ١٢ مايو سنة ١٨٩١» كان يكافح ليحقق لنفسه وللمصريين نفوذا للحكومة، ولكن ذلك لم يكن عن وطنية ولكن رياض لم يستطع أن يظفر من الخديو فى كفاحه فى سبيل نصيب أكبر للمصريين من الحكم ، إلا تأييدا فاتراً أو غير مؤثر، دون أى تكوين أو تشكيل مصرى، وكان رياض لا يدخر وسعا فى وضع حد لتدخل كرومر الذى يريد أن يستوعب كل نشاط فى مصر».

ويقول بيمان وهو يروى تاريخ الخطوات الأولى، للحركة الوطنية التى أنبثقت بفضل حركة عرابى وزملائه، أن جهود كرومر فى تطويق الحركة الوطنية كانت ساهرة لا تنقطع ، وبعزم لا ينثنى، وكانت من خلفها القوة التى لا ترد حجتها، وهى قوة البنادق والبوارج.

ويثب «بيمان» إلى فكرة أخرى نثبتها له فى هذه الدراسة المتقطعة لميلاد الحركة الوطنية فى أواخر القرن التاسع فيقول:

«يتردد أحيانا كثيرة القول بأن الخديو «توفيق» كان صديقا طيبا وأمينا لبريطانيا، وحليفا معينا للورد كرومر، فى اصلاحاته، وأرى - أيا كان موقف الخديو توفيق فيما بعد - أنه إلى أن بارحت مصر فى سنة ١٨٨٩ «أى بعد بدء الاحتلال بسبع سنوات» كان يصارع دائما، ليخلص نفسه - بطبيعة الحال - من براثن البريطانيين وأن ينعزل كحاكم مستقل، ما وسعه الجهد».

وأحسب أن هذه الملاحظة مما ينفرد به «بيمان» ، فإن نظرى لم يقع على شيء مثلها أو شيء يؤيدها، فى كتب المصريين ولا الاجانب.

ثم يمضى بيمان فيقول:

«فى تلك الظروف - ظروف الثورة والحروب والهزيمة والاحتلال - ولدت الوطنية المصرية ووئدت فى الحال، وما لبثت ذكرى عرابى أن محيت . ولما عاد إلى بلاده بعد نفى طويل، لم يلحظ الكثيرون هذه العودة».

ويضيف «بيمان» بأنه زار عرابى فى بيت أقام فيه على حدود الصحراء فى حلوان ولما قصد هذا البيت، لم يجد أحدا من جيرانه يعرفه، فاهتدى إليه بعد مشقة مما يدل على أنه حتى جيران عرابى الاقربين لم يحسوا بجواره، ولم يحفلوا بالسؤال عنه فضلا عن زيارته.. وهكذا كانت نهاية الحاكم المطلق لمصر، وبطل الجماهير الذى استولى على حبها . ولما تمت الزيارة، رأى بيمان عرابى رجلا هرما ضعيفا، وقد كانت الزيارة قبل وفاة عرابى فى سنة ١٩١١ بسنة أو سنتين، وقد أثبت بيمان فى كتابه خطابا أرسله إليه عرابى، كتبه بالحروف العربية بخط متوسط الجودة، ولكنه مقروء وواضح، وقد وقعه بالعربية بامضاء «أحمد

عرابى المصرى» ثم أردف هذا الامضاء، بآخر باللغة الانجليزية بخط واسع واضح وكان الامضاء بالانجليزية ترجمة للامضاء بالعربية فقد حرص فى الحالتين أن يضيف وصف «المصرى» لاسمه، وكان الخطاب مرسلا من جزيرة سيلان لذلك كتب إلى جانب الامضاء بالانجليزية اسم مدينة «كولومبو» عاصمة جزيرة سيلان وهى العاصمة التى قضى فيه عرابى مدة نفيه.

ويقول بيمان أن هذا الامضاء يروى قصة عرابى ، فقد كان أول مصرى أحس بوقدة شعلة الوطنية فى صدره. وقد كانت هذه الوطنية دفاعا عن مصر في وجه غزو وتدخل الفرنسيين والاتراك، والشراكسة، والانجليز. ومن الحق أن يقال أن الوطنية المصرية التى شملت موجتها مصر بعد ذلك ، كانت ثمرة للبذور التى بذرها عرابى العميد البسيط الذى كان أعز ما يفخر به لقبه «المصرى» ومن ثم فإنه يجب على مصر عندما تحصل يوما ما على استقلالها الامر الذى لابد أن يتحقق، فإن أول تمثال يجب عليها أن تقيمه فى أحد ميادين القاهرة، هو تمثال عرابى.

والغريب أن هذا التمثال الذى رأى هذا الموظف الانجليزى ضرورته منذ سنوات طويلة وقبل أن تحصل مصر على استقلالها ، وتطرد آخر جندى بريطانى، يحمل متاعه ويغادر أرضها، لم يَقم حتى الآن فى القاهرة، وإنما أقيمت تماثيل صغيرة فى الزقازيق وفى أماكن أخرى لا يراها الناس، وهو أمر لا نجد له تعليلا، كما لا نجد تعليلا لعدم إقامة تمثال لبطل أبطال الاستقلال المصرى، ورائد الكفاح الوطنى، السيد

عمر مكرم، ولا للبشير الأول بالثقافة المصرية الجديدة، رفاعة رافع الطهطاوى، ولا لاستاذه ومعينه على مبارك، وهكذا..

وفى ١١ من سبتمبر ١٨٨٣ جاء سير ايفلنج بارنج، الذى عرف بعد ذلك باللورد كرومر، ولم يكن مقدمه ليشغل منصب العميد للاحتلال البريطانى كما حدث بعد ذلك ، بل جاء بوصفه عضوا فى لجنة صندوق الدين التى أقامها الانجليز والفرنسيون، لبسط نفوذ أصحاب الديون الأجنبية من المرابين اليهود، على مصر، وليجهزوا فى الواقع لمصاب أكبر، وهو الاحتلال البريطانى، ويقول بيمان أن كرومر، حينما تولى عمله فى مصر، كان قد حصل على معرفة بالاحوال فى مصر، ولذلك فقد شرع فى الحال، فى إصلاح حال الميزانية المصرية وذلك عن طريقين: تخفيض المصروفات، واستنباط موارد جديدة. وكان يعلم سلفا أن المنافسة الضارية التى شبت نيرانها بين الاستعماريين: الفرنسى والبريطانى، والغيرة المتبادلة بينهما، والتى كان يثيرها أى ظفر لاحدهما على الآخر فى شكل الحصول على مزيد من السلطة المادية أو النفوذ الادبى فى وادى النيل ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تقيم فرنسا وأن يقيم رعاياها المقيمون فى مصر أو المتصلون بالاعمال أو السياسة فيها، كل عقبة ممكنة فى وجه خطة كرومر، ولم يجد كرومر عونا فى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى وأعوانه لا من الخديو، ولا من وزرائه، ولا من الشعب المصرى كله. فقد ألف كرومر أن يروى وقائع كفاحه، فى تقارير سنوية يرفعها إلى سادته فى لندن وتنشر فى مصر فتستفز الوطنيين المصريين.

وكان كرومر يزعم فى تقاريره الاولى أنه يرى أن مستقبل مصر لا يعدو تطورين : أن تستقل، أو أن تندمج فى الامبراطورية. وزعم أيضا أنه يؤثر الخيار الاول ويعمل له.

ولكن كل ما قاله كرومر وفعله، كان يؤكد عكس هذا الزعم وينقضه. ويتساءل «بيمان» هل نجحت الكرومرية، ورد على هذا التساؤل بأن الكرومرية فشلت، لانها واجهت وطنية المصريين التى أثارها وقادها مصطفى كامل، والمعركة بين الكرومرية، والوطنية، كانت محل حديث بيمان. وهو حديث جدير بأن ينقل وبأن يظفر منا بالتعليق.

فلنبقه إذن إلى فصل تال فى هذا الحديث بإذن الله .

وثيقة دستورية
من عصر محمد على

وجه جناب الخديو ، محمد على باشا والى مصر، فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أمرا كريما، وضع باللغة التركية، لغة الدواوين الرسمية الأولى، فى تلك الايام إلى «البيك الكتخدا» رئيس المجلس العالى.

ويتضمن هذا الامر الكريم، بيانا عن تأسيس المجلس العالى، وطريقة إدارة المناقشة فيه، وحسن معاملة أعضائه.

والمجلس العالى ، هو الهيئة التى أقامها محمد على واعتبرها هيئة للمشورة ، تتداول فى الامور التى يحيلها اليها، و«البيك الكتخدا» هو محمد بك لاظ أوغلى، والكتخدا هو نائب الخديو ، أو نائب الوالى.

وأحسب أنه ليس ثمة فى تاريخنا الدستورى، وثيقة أكثر دلالة، على عقلية عصر محمد على، ونظرته إلى أمور الحكم، من هذه الوثيقة ، فيما عدا تلك المجموعة، الفريدة الصادرة فى يولية سنة ١٨٣٧ بعنوان «قانون سياستنامة» والتى تضم مقدمة وثلاثة فصول، فهذه الوثيقة الأخيرة هى شىء بين النظام الدستورى ، والقانون الادارى والمبادىء القانونية العامة للدولة المصرية فى عهد محمد على.

الهلال - سبتمبر ١٩٦٩

والوثيقتان، وما يتصل بهما، جديرتان بالتأمل والدرس والتعليق، والتحليل، ولست أذكر أنهما ظفرتا حتى اليوم بما تستحقانه من العناية والاهتمام، ولذلك فقد رأيت، أن أعرف بهما، مكتفيا بالتلخيص والتعليق السريع، مؤملا أن تتاح الفرصة ، لدراسة أكثر تمهلا وأعظم تعمقا. وفى هذا البحث نتناول الوثيقة الأولى، ونرجىء الكلام عن الوثيقة الثانية إلى مقال تال:

أما الامر الكريم الصادر في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أى من نحو قرن ونصف قرن إلا خمس سنوات فقط، فقد بدا بعد أن ترجم من التركية إلى العربية، كأنه مقامة من مقامات الحريرى أو بديع الزمان، فقد احتفل كاتبه باللغة، مما أعان مترجمه على إظهاره فى ثوب من العربية المثقلة بالزخارف، فكان بهذه الصفة ، صورة من صور الحياة الأدبية، فى هذا العهد.

ولابد لنا قبل الاسترسال فى الاقتباس من هذه الترجمة العربية، أن ننوه هنا بفضل الاستاذ محمد خليل صبحى الذى أسدى لتاريخنا الحديث عامة، وتاريخنا السياسى والدستورى خاصة يدا لا تنسى، باخراجه كتابه الضخم «تاريخ الحياة النيابية» مزودا بصور الاشخاص، والصور الزنكوغرافية للاوامر والمراسيم والقوانين والمحاضر والمضابط، من أصولها، ومنقولة عن جريدة الوقائع المصرية حينا آخر، وقد بدأ محمد على أمره الكريم بالحديث عن ميوله الدستورية وحبه للشورى فقال:

«لقد كان دأبنا بإزاء كل أمر مما يتعلق بالمصالح المصرية، وتقضى حكمة الحكومة بتنظيمه وتسويته أن نجتنب عند البت فيه الانفراد برأينا،

والاكتفاء بحكْمنا، بل نحوله إلى المجلس، وفقا لاصولنا المقررة، وأسلوبنا المعلوم» ثم ينتقل من هذا إلى القول، بأنه يحترم قرارات المجلس، وينزل على مقتضاها فيقول: «كما قد جرت عادتنا إزاء كل شأن من الشئون المرهونة تسويتها بقرار المجلس، أن نحمل التسوية التى سوى بها، على ما أبداه رجال المجلس من تضامن واتحاد، وما أظهره كل منهم من سعى واجتهاد، وأن نعتبرها ويعتبرها معنا النظار والحكام كافة ، جديرة بالقبول، ليتاح لها أن توضع موضع التنفيذ والاجراء».

وقد رتب محمد على - على هاتين المقدمتين، النتيجة التى رآها طبيعية، لانهما تؤديان إليها فقال موجها الحديث إلى رئيس المجلس:

«إنه لواجب عليك، محتوم الاداء، وفرض مستلزم الوفاء والقضاء، أن تراعى مقتضيات الحال، فتنسج على هذا المنوال».

وبعد ذلك لم يبق لنا إلا أن نعرف من «محمد على» ما الذى يتعين على رئيس المجلس ، أن يقوله، ويفعله ، مراعاة لمقتضيات الحال، ونسجا على هذا المنوال، منوال ولى النعم، فقال: «ما نوزعه على فقرات، لتستقل كل فقرة بمعنى مما قصد إليه الوالى، المشرع والمرشد، أو بجزء كامل من معنى، واليك البيان، ولا تنس أن الحديث موجه إلى رئيس المجلس:

أولا - كن فى كل خطرة وحقيرة من المسائل التى تقضى الاصول ببحثها فى المجلس، حريصا على أن تحيلها برمتها على أعضاء المجلس، مفوضا اليهم وحدهم، أن يتصرفوا فيها حلا وعقدا، وفتقا ورتقا.

ثانيا : توق أن تسوق «فى المسائل المحالة إلى المجلس» حرفا واحداً من الكلام، قبل أن يبلغ المجلس من بحثها الختام، متوخيا كمال الدقة فى التزام الانصات لهم، إذكاء لشوق المتكلمين منهم.

ثالثا - إذا فرغ المجلس من تمحيصها، ورأيت الحاجة ماسة إلى التكلم فيها، فاياك أن تنسب الكلام إلى نفسك، بل أنظر: فأى الاعضاء كان فى ملاحظته مصيبا، فإليه وجه خطابك قائلا: إن رأيى أنا الآخر لموافق لرأيك وإنى لأراك قد أحسنت التدبير، وأجدت التقرير، ثم تناول ما كان من قوله مبهما، فاخلع عليه بالنيابة عنه، حلة من البيان، وما كان مجملا فأوضحه عن لسانه، حتى تجلوه للعيان، لئلا يطرأ على همته فتور، ولا يتطرق إلى نشاطه وهن أو نفور، ولتوفى كل أمر حقه من تداول الرأى والملاحظة ، وتبلغ به غاية المقدور، من البحث والمناقشة.

رابعا - ليحظ أعضاء المجلس فى أثناء المناقشة، وينعموا بمرتبة من الحرية والترخيص تضطرهم إلى ابداء آرائهم فى غير مبالاة، وإلى الادلاء بثمرة تدبيراتهم بدون ممالأة ولا محاباة، ذلك لأن اضطرارهم هذا يستوجب منهم الاهتمام بالمناقشة المحولة على عهدتهم ، فيعيرون هذه المناقشة صميم عنايتهم ، كما يستنجز تسويتهم لكل أمر من الامور الموكول اليهم تسويتها، فيقدمون هذه التسوية بموجب ما تقضى إليه المناقشة ، حتى إذا قيض لأحدهم أن يجد الحل المنشود، أقبل الآخرون على أمضائه، فيكونون كلهم على اتحاد ، سواء فى استنباط الحل ومعرفته، أو فى صوغه ووضعه، وليس المراد سوى هذا الاتحاد، الذى متى جعل دستورا للعمل صدر حكم المجلس موافقا للمرام، وتحققت الغاية من نظامنا وأصولنا.

خامسا - ينبغى عليكم كلما أنستم من «رجال المجلس» استهتارا بأمر المناقشة أن تفتحوا للسانكم باب الكلام، فتخاطبوهم فى أنصاف بما يناسب المقام، كأن تقولوا لهم : أيها الاخوان! أيها الزملاء! إن هذا

المجلس منوط بكم، فما عرض فيه من أمر فمناقشته موكولة إليكم، وبحثه محول على عهدتكم، وأنا مأمور بأن اقتصر على الحضور بينكم وأضم قلبي إلى قلبكم، فإن أنا تخلفت عنكم في ميدان القول والتزمت الصمت مراعاة لمقتضى الوظيفة، فإني في ذلك لمعذور.

سادسا - فإن لم تنفع هذه الاهابة، والاستحثاث، قل لرجال المجلس: إن قعدتم دون إيفاء لوازم المجلس، ولم تؤدوا للنعمة حقها، فما عليّ الا أن أكتب إلى صاحب المجلس، فأبلغه الحقيقة، وأنبئه بالواقع فكونوا على هدى وبينة، لكيلا ترموني يومئذ بالدعاوى الباطلة.

سابعا - حرضوهم واحدا واحدا بهذه الاقوال، واقنعوهم بوجوب الاخذ بهذا المثال، فان تلقوا شرطكم هذا بالعقول ، وأعاروا نصحكم أسماع الرضا والانتباه فبها ونعمت، وإلا فاكتبوا إلينا بفحوى الحال، لنجد الوسيلة التي بها يقبلون ويسمعون.

ولكن ماذا يكون الحال، لو أن التقصير، وقع من رئيس المجلس ذاته، فلم يوسع لرجال المجلس في فرص القول، أو لم يشعرهم بأنهم أصحاب الرأي ، وأن رأيهم هو الضالة التي ينشدها «صاحب المجلس»، أو إذا استأثر دونهم بالكلام ، أو سبقهم اليه، أو فرض عليهم رأيا، أو استهان برأي أبدوه، أو لم يبذل أقصى الجهد، في استثارة حب المناقشة في نفوسهم، أو لم يبتكر الوسائل ، لتنشيط الجدل في المجلس، و«فتق الامور ، ورتقها ، وحلها وعقدها»، هنالك يكون الجزاء الذي هدد به صاحب المجلس في ختام أمره الكريم فقال:

«فإن يكن قولي لم يحظ منك بالاصغاء، ولا لقي ما يستحقه من التنفيذ والاجراء، فإنه قد أصبح لزاما عليك من الآن فصاعدا أن تضعه

نصب عينيك، وتشمر لتحقيقه عن ساقيك وساعديك، وإن شيئا سميناه قاعدة وأصولا، وأجمعنا الرأى على اتباعه لجدير منك أيضا بالاتباع والامتثال، وما دمنا محاذرين أن تمنى هذه الاصول بعوارض الاهمال والتعطيل ، فجدير بك كذلك أن تحذر، فلا تمسها أو تعرض نفسك للندامة من أجلها».

وبالنظر فى هذه النصوص نستطيع أن نتبين الآتى:

أولا : إن هذا المجلس ، لم يكن سلطة أو هيئة أعلى من محمد على، ولا حتى مساوية له. فهو صاحب المجلس، أى خالقه، وأعضاء المجلس.. الذين تسميهم الوثيقة «رجال المجلس» كانوا أول الأمر رؤساء المصالح والدوائر الحكومية، فهم موظفون فعلا تابعون لولى الامر، ومصدر النعم.

ثانيا - يذهب بعض المؤرخين، إلى أن هذا المجلس العالى أو المخصوص، كان بمثابة مصلحة من مصالح الحكومة، وسنرى مصداق هذا فى الوثائق المكملة لوثيقة ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ «٥ ربيع الثانى ١٢٤٠هـ».

ثالثا - ولكن أصح ما يمكن أن نسمى به هذا المجلس ، أنه «مركز تدريب» فظاهر من عبارته ، أن الوالى، كان يعلم بداهة أن أعضاء المجلس، لن يجدوا ما يقولونه نصحا لولى النعم أو اقتراحا على حكومته، ورجال دولته، فضلا عن تصحيل لامر أصدره، أو قرار اتخذه ، أو خطأ ارتكبه ، أو ظلم أوقعه. لذلك بذل كاتب الوثيقة ، بأمر الوالى، جهدا ، ليثبت فى ذهن رئيس المجلس أن مهمته الكبرى، فى أن يجعل من رجال المجلس، أعضاء فى هيئة مشورة، وأن يشجعهم على القول، ويدربهم على المناقشة، ويأخذ بيد من واتته الشجاعة فاقترح شيئا ،

وايهامهم بأنهم فكروا ودبروا، بأمل أن يفعلوا شيئا من ذلك فى المستقبل.

فإذا كانت هذه الالفاظ عبرت عن واقع ، ثم أخذ بها، ولم تنس، فقد استحق محمد على الشهادة التى شهد له بها كلوت بك فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إذ قال:

من المحقق أن هذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغى ملاحظة ما بذله محمد على من الجهد فى هذا السبيل».

★ ★ ★

كان «المجلس العالى» فى حاجة إلى ما نسميه اليوم باللائحة الداخلية، أو بالنظام الداخلى، لذلك أسند إلى أحد أعضائه، وهو محمد كاشف أفندى باشكاتب الوقائع المصرية لوضع مشروع لهذه اللائحة، وقد اعتمدها المجلس فعلا ، ثم نشرت فى العدد ١٥٨ من جريدة الوقائع المصرية الصادر فى أول يونية ١٨٣٠.

والتأمل فى هذا المشروع، أو بعبارة أدق فى هذا النظام، الذى أقره المجلس ثم أصبح دستور العمل فى مجالس أخرى، كانت تقوم فى - عهد محمد على ، كمجلس شورى الجهادية ، ومجلس الاسكندرية - القائل فيه يعين على تبين طبيعة هذا المجلس، ومدى سلطاته ، وحقيقة علاقته بالوالى، وبالأهالى ، أى بالحاكم وبالمحكومين.

ويبدأ النظام بتعريف المجلس، فى فقرة معنونة «مقدمة فى ماهية المجلس» ثم يسترسل فى القول:

مجلس الشورى هم الذوات المشهود لهم بالفكر الثاقب، والرأى الصائب، المعدودون أهلا لتدبير المصالح بالاعتدال والاستقامة، الخالون

من البغض والعداوة، العارون عن لباس الغرض النفساني، الثابتون فى الجلوس بمحل واحد كنفس واحدة، الذين يتذاكرون فى المصالح التى ترد إلى المجلس من غير إكراه ولا استثقال، ويصرفون ذهنهم، ويبذلون جهدهم بثبات واستعداد للنظر فى الامور وهؤلاء الذوات ، وإن كانوا متعددين، ينبغى لهم أن يحسبوا انفسهم ذاتا واحدة من شدة الاتحاد والاتفاق الحاصل بينهم ومتى كانوا كذلك سموا مجلسا.

ولعل العين لا تستطيع أن تخطىء هنا ، رغبة الوالى ولى النعم، فى أن ينفى كل مبررات الانقسام فى الرأى ، وبالتالى مبررات نشوء معارضة ، فمحمد كاشف، حينما بالغ وأسرف فى بيان ما يجب أن يصير إليه أعضاء المجلس من الوحدة التى تقضى لأحدهم أن يجد الحل المنشود أقبل الآخرون على إمضائه، فيكونون كلهم على اتحاد».

ثم يقول «وليس المراد سوى هذا الاتحاد» ولائحة المجلس ترى أن المجلس لا يكون جديرا باسمه، الا إذا انتهت مداولاته إلى رأى يقره الجميع . وهو تصور طريف، لواجبات المجلس، فهو لا يرى الا أسلوبا واحدا لاصدار القرارات ، هو أسلوب الاجماع.

ويثنى نظام المجلس بفصل عنوانه «فيما يجب على الاعضاء من تقديم الشكر لله تعالى، وفى أصول آدابهم».

وقد اقتصرت هذه الواجبات على ثلاثة أمور هى:

أولا – على كل المنتخبين «أى المختارين» الذين هم أهل المجلس أن يوفوا ما يجب عليهم من الشكر لله على نعمه التى حازوها باكتسابهم الجاه والشرف. ويتميزهم عن سائر الناس، حيث أنهم صاروا أهلا لذلك فى ظل أيام سعادة أفندينا.

ثانيا – ينبغى أن يسعوا فى تحصيل رضا أوامر ولى النعم الذى هو سبب لترفهم، وينقادوا بكل امتثال لانفاذ ارادته السنية.

ثالثا – يعتنون الاعتناء التام بضبط كل المصالح التى يلزم المذاكرة بها فى المجلس من دون غرض.

وقد فصل هذا الامر الاخير تفصيلا طويلا، واورد فيه أحكاما مشابهة تماما لما يجرى الآن فى المجالس النيابية وغيرها فى أيامنا، وإن اختار للتعبير عن هذه الاحكام اسلوب تلك الايام ونجمل هذه الاحكام فى الفقرات التالية:

١ – ينبغى لكل من أهل المجلس أن يجتمعوا فى الميعاد المخصوص للمجلس، ويجلس كل منهم فى محله بالادب والاحتشام.

٢ – على الأعضاء اجتناب المقالات «الاقوال» التى لا توافق المصلحة والتى لا تليق أن تحرر.

٣ – إن لم يستقر الرأى على القرار فى مسألة أى «ختمها» وإذا توقف ختم المسألة على استفهام فلا ينتقل منها إلى غيرها «من دون أن يروا لها نتيجة لكيلا يصير بها تعطيل أوقات».

٤ – من أراد أن يتقدم باقتراح يسميه «تقريرا بحسب المصلحة» فلا يضايق المجلس ملحا بقضائه قبل ما سواه من المصالح.

٥ – وإن صدر من أحد الأعضاء قول أو سؤال «يشمئز منه أحدهم» وكان هذا القول أو السؤال مما تدعو إليه المصلحة، فليتخذ كأنه من أفواه المجلس «ولا يجعل سببا لصدور البغضاء والعداوة».

٦ – وقد بين النظام أحكام الغياب فنهى عن الخروج بغير عذر، وإن طرأت للعضو حاجة تدعو لغيابه يطلب أجازة، على أن يعود سريعا فإن

لم يستطع العودة قيد ذلك فى مضبطة المجلس، وإن منعه مانع من الحضور يخطر المجلس بتذكرة فإن لم يتبع هذه القواعد ، وأصر على مخالفتها ، فينبه مرة واثنتين وثلاثا، وبعد ذلك إن بدا منه حركة مخالفة لتلك الأصول يمنعه ناظر المجلس عن الدخول يوما واثنين وثلاثة بحسب جنحته ومقامه تربية له، وبعد ذلك يؤتى به إلى المجلس.

ثم تنتقل اللائحة إلى فصل آخر معنون «فى مصالح المجلس»، وهو يعنى الأمور التى تعرض على المجلس لابداء الرأى فيها، واصدار القرار فى شأنها فقسمها إلى أقسام فقال:

«إن الامور التى تقع المذاكرة عليها فى المجلس إما أن تكون :

١ - متعلقة بالميرى

٢ - أو بالرعية

فما كان متعلقا بالميرى فأما أن يكون :

١ - فتقا ورتقا بالأصول

٢ - أو ضبطا وربطا بالحسابات.

ولعله يعنى بالرتق والفتق بالاصول، هو المسائل القانونية، فى حين يقصد بالضبط والربط بالحسابات المسائل المالية.

على أنه أضاف إلى هذه المسائل ، مسئولية الموظفين، فقسمها بدوره إلى قسمين: قسم يكون التعيين فيه صادرا من الوالى، وقسم ثان يكون موكولا إلى المجلس ابتداء، «فإن كان تخصيصه من طرف ولى النعم فلا يعارض لان الكبراء وغيرهم تحت حكم سعادته، وهو يعلم النفع والضرر الحاصل ، وصاحب البيت أدرى بما فيه».

أما إذا كان التعيين موكولا للمجلس ، فقد وضع النظام قواعد تكفل الحيدة وعدم المحاباة، فقال:

«ولا ينبغي للأعضاء أن يميلوا إلى الوالد والاولاد ، والاخوان والاقارب، والاخلاء والاصهار، والاحباب، إذا أرادوا أن ينتخبوا أحدا لمصلحة بل يتخذوهم كسائر الناس، وينظروا إلى من يريدون انتخابه ليعلموا هل هو بليد أو ذكى العقل، أو هو ذو فكر ثاقب ورأى صائب، أو غير مستقيم أو متكاسل، خائن فى خدمته أو ذو اجتهاد وسعى، ويلاحظوا قابليته واستعداده وحركاته وسكناته، فإذا رأوه غير متهم بشائبة الاختلاس، وقادرا على القراءة والكتابة حسب الوقت انتخبوه من بين أمثاله، واستخدموه فى مصلحة مناسبة لحاله».

وتحذر اللائحة أعضاء المجلس من حيل والاعيب موظفى الحسابات، فتقول «ومثل هذه المواد التى تحصل من خدعة أهل الحساب وفكرهم تعلم كيفيتها من الدفاتر» وظاهر من هذه اللائحة، أن اختصاصات المجلس، تجاوز نطاق المراقبة والتشريع وسؤال النظار، ومناقشة واستجواب الرؤساء، إلى مباشرة بعض اختصاصات السلطة التنفيذية، فقد جاء مثلا فى هذه اللائحة «والامتعة التى يلزم شراؤها الآن يؤتى بعيناتها بمعرفة نظار الدواوين وتقدم إلى المجلس فيستقصون عن ثمنها، ويعطون صورة حسنة لمشتراها».

ثم تخصص اللائحة، بعد ذلك ستة فصول قصيرة خاصة بإجراءات المجلس، من قبل ضبط محاضره، ووظائف كاتب المجلس، وخدمة تبييض المضابط من أصل مسوداتها وكاتب لتقييد مذكرات المجلس، وكاتب لقيد خلاصة يومية لأعمال المجلس مع إشارة «بالحبر الاحمر فوق كل خلاصة إلى ما تشتمل عليه من المصالح» ثم بيان خدمة المترجم، الذى يقوم بترجمة الكشوفات والقوائم والتقارير العربية إلى التركية.

ويختم هذه الفصول الادارية بحكمة إدارية فيقول: «من اقتضاء المصلحة أن تقيد وتضبط المادة التى يلزم رؤيتها فى كل يوم ، لانه إن لم

تضبط وتربط تضيع .. كما قيل «كل حرف ليس فى القرطاس ضاع».

ويتوج هذا كله بخاتمة عامة يقول فيها:

«هذا المجلس شريف عال ، وأربابه بحسب نسبتهم إليه، قدرهم عال، فينبغى حفظ شأنه، وحفظ شأن من انتمى إليه من ذوى القدر المنيف فيحفظون هذا المجلس الشريف بمراعاة الآداب، فى جلوسهم ، وتكلمهم ، وسكوتهم ، وحركاتهم».

وكان محمد على قد أصدر فى الثالث من يناير سنة ١٨٢٥ ما أسماه أيضا لائحة المجلس العالى، وقد بين فى هذه اللائحة الموضوعات التى يمكن إحالتها إلى المجلس فقد ورد فيها:

«لما كانت هذه الأمة الناجية قد نشأت على أن تسير شئونها - صورة ومعنى - على مقتضى ما ورد فى معجز الذكر من قوله تعالى: «وشاورهم فى الامر» وكانت مأمورة بالرجوع إلى أهل النظر تخاطبهم وتداولهم فيما اختصوا بعلمه من الامور، التى لا تفتأ تعرض لها، وتطرأ عليها فإن صاحب الدولة مولانا ولى النعمة مطبوع على الخير والرحمة، وقد رأى وقاية للنظام والتدبير الواجب اتخاذهما تبعا للظروف والملابسات فيما يعن لدولته من الامور المهمة، أن ينعقد مجلس خاص يكون واجبه إيضاح جميع التفصيلات وتفهمها، بحيث إذا حررت مضبطة مداولته للشئون والمواد المقدمة إليه مع القرار الذى يتفق رأيه عليه، ثم عرضت هذه المضبطة على انظار دولته، كانت المناقشة كأنها قد دارت على مسمع من ذاته العلية، وبين يدى حضرته السنية: ثم بين الامور الثلاثة التى يمكن أن تعرض على المجلس فقال:

فأما المورد الاول ، فهو أن يسنح خاطر مولانا صاحب الدولة ولى النعم برأى سديد. ذى صلة بمصلحة من المصالح المهمة. فان صدر

نطقه العالى بشأن هذه المصلحة، فعلى عبده المأمور أن يدون هذا المنطق ويشعر به المجلس فى صورة تقرير.

وأما الثانى، فهو ما يقدمه عبده صاحب العطوفة البيك الكتخدا أو عبد غيره من عبيده النظار، وسائر المأمورين، من افادات متصلة بتنظيم بعض المصالح وتسويتها مما ينطوى على جلب منفعة أو دفع مضرة.

وأما الثالث فهو أن تقوم فى وجه ولاة الاعمال مشكلة متعلقة بالمصالح الموكول إليهم تصريفها فلا يستطيعون إلى حلها سبيلا، وينبغى بالطبع رجوعهم فيها إلى المجلس».

وهذه اللائحة ، ككل اللوائح المتصلة بهذا المجلس العالى، تشتمل على خليط من النصائح الخلقية، والقواعد التنظيمية، والمبادىء الدستورية، وهل هذا الخليط ، نتيجة لان الحياة النيابية، كانت آنذاك ، كالجنين الذى لم يتخلق بعد، فالتمييز بين أنفه وعينه، ورأسه ورجله، ليس بالأمر الميسور ، فهذه الوثائق التى نقلنا عنها ما نقلنا، يتجاور فيها الحديث عن الشورى فى القرآن، مع الحديث عن عبيد الوالى من النظار وأعضاء المجلس، والحديث عن حق الاعضاء فى مناقشة الامور بحرية، يتداخل فى وجوب طاعة الاعضاء ذاتهم لولى النعم، وأن أول واجباتهم شكر الله إذ خصهم بثقة دولته . وعطف جلالته، وفى حين يبدو أنهم ذوو رأى ثاقب، يوجه اليهم الحديث كأنهم اطفال تخفى عنهم البسائط والبدهيات من الأمور.

ولكن هذه التناقضات الغريبة، التى تدعو إلى الابتسام والضحك أحيانا، هى عناصر الصورة التى كانت للحياة النيابية فى ذلك العهد، ولا مناص بين أن نحيط بها، وأن نعرف وقائعها، لنعرف جانبا هاما من تاريخنا المعاصر لايزال فى حاجة إلى مزيد من التقصى والبحث.

قضية للمناقشة

الدولة العثمانية دولة مفترى عليها

نجح الغرب فى إلقاء فكرة أو عقيدة فى نفس وعقل العرب والمسلمين وعدد ضخم من الشرقيين مؤداها أن دولة بنى غثمان التى استمرت تحكم مساحة واسعة فى آسيا وأوربا وافريقيا ، قرونا عديدة وبنجاح سياسى وعسكرى متصل الحلقات ، متعدد المراحل ، والتى تركت أينما ذهبت ، عواصم زاهرة متألقة ، تزينها مساجد وتكايا وأسبلة وقصور وجسور وشوارع وميادين ومكتبات وثكنات وآثار حية فى لغة الاقوام التى تحكمهم سواء كانت لغة الحياة اليومية أى لغة المأكل والمشرب والملبس ، وركوب الجياد ، أو لغة الفكر والأدب .. هذه الدولة بكل جلالها وهيبتها وضخامتها واتساع مداها ، كانت عورة فى تاريخ الاسلام والعرب ، والتمدين الانسانى والحضارة البشرية ، وأن حكمها كان ظلما وعصفا ، ومحاربة للعلم ، ووأدا للفكر. وقد صعب على المصريين والعرب بعد ذلك أن يراجعوا أنفسهم فى هذا الحكم الظالم ، وأن يلتمسوا المعرفة الحقيقية فى نطاق التاريخ الحديث الذى سطرت

الهلال - يناير ١٩٨٦ .

صفحاته ، ونسقت بفصوله أقلام مؤرخين أجانب ينتمون إلى الغرب ، ويؤمنون بالمسيحية ، ويطوون صدورهم فى الأغلب الأعم ، على كراهية شديدة للإسلام والمسلمين ، إلا عن تعصب لدينهم ، بل ولكثرة ما سمعوا من القدح والذم ، فى تركيا وحكامها ، وأساليب دولتها ، ومناهج قادتها .

ولو تنبه هؤلاء المساكين والمضلل بهم ، أن تركيا منذ عبرت جيوشها من الاناضول سنة ١٣٥٦ على عهد السلطان ادرخان ثانى السلاطين العثمانيين ، استمرت تحكم وتتوسع فى الفتح حتى بلغت فى أوربا مشارق النمسا ، كما اتسع ملكها فى آسيا وافريقيا ، واستمرت متماسكة ، سلطانها باذخ ، وأمرها نافذ ، وقوتها متصاعدة حتى أفل نجمها فى نوفمبر سنة ١٩١٩ ، أى بعد ستة قرون متصلة العمر الذى لم تبلغه دولة أخرى لا فى القديم ولا الحديث ، وأنها حين أمال عليها الزمان فى الحرب العالمية الأولى التى بدأت فى اغسطس سنة ١٩١٤ ، كانت دولة ذات شأن تعتبر قوة عسكرية وسياسية ، يحسب لها فى السياسة الدولية كل حساب ، ولو أحسن قادتها التدبير ، وآثروا الحياة على اقتحام حلبة الحرب فى صف المانيا والنمسا ، ضد انجلترا وفرنسا ، لعاشت زمنا آخر وربما لحافظت على وجودها فى آسيا وافريقيا .

ولقد تنبه عدد من علماء التاريخ العربى إلى ما فى حملة اوربا وامريكا من التجنى على الدولة العثمانية ، وما خالط أحكام ساستهم وعلمائهم ، من التحيز والميل مع الهوى ، فانبروا يروون عليهم اغلاطهم بأسلوب علمى قائم على الوثيقة التاريخية ، والواقعة الثابتة ، والحقائق

غير المنكورة ، ومن هؤلاء الاستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى الذى وضع موسوعة تاريخية من ثلاثة أجزاء أهدى إلى اثنين منها .

قال الدكتور الشناوى فى مقدمة الجزء الأول من موسوعته العظيمة:

«وعلى مبلغ علمى لم تتعرض دولة فى العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها ، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما الاستعمار الاوربى والصهيونية واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) والتصريحات الرسمية ، ومن مجموعات الوثائق التى نشرتها بعض الحكومات الاوربية مجالا رحيبا لاذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملا عليها. وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة وتجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معهم فى مؤلفاتهم، واستقرت فى أذهان الاجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربى والاسلامى صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقترن ذكرها فى افئدتهم بمظالم ومحن تكدست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تعسفية وجغرافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم واراضيهم ومحاصيلهم . وماشيتهم ، واجراء مذابح عامة ، وعن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية بوجه خاص ، وهى خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها .

وتناسوا أيضا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا دولية جسيمة . كانت تهدد العالم العربى بأفدح الاخطار، وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية ، وتسللهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلاؤهم على مواقع عسكرية هامة ، ومحاولاتهم دخول البحر الاحمر

من منفذه الجنوبى للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة ، لهدم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة ، لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالى الشرقى للجزيرة العربية هو أول غزو أوربى عسكرى صليبى فى التاريخ الحديث لاقاليم .

وانتقل المؤرخ الكبير إلى جانب آخر من تاريخ الدولة العثمانية كان يعتبر عند أهل أوربا ، الجريمة الكبرى ، من جرائم الدولة العثمانية ، وأعنى ؟ فتوحاتها فى تلك القارة ، وهو رد فعل طبيعى لأهل كل دولة أو قارة أو للمؤمنين بأى دين . فإن تقتحم عليهم معبدهم ، وأن يحكمهم أقوام لا يؤمنون بعقيدتهم ، فذلك هو أعظم البلاء .

قال الدكتور الشناوى :

«لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الاسلامية العثمانية أقاليم شاسعة فى جنوب شرق أوربا ووسطها ، وهى اقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الاسلام انتصارات خاطفة وباهرة وتساقطت في أيديها دول أوربية عديدة ، وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الاوربية فزعا وهلعا من هذه الدولة الاسلامية الطارئة عليها فى عقر دارها» .

وأحب بعد هذه الاقتباسات الطويلة أن أنقل ثلاث فقرات من كتاب دولة مفترى عليها :

الفقرة الأولى تقول :

ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الاسلام عقيدة رسمية لهم ، وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء . فكان

ولاؤهم يتجه إلى الدين الاسلامى أولا ثم إلى السلطان ثانيا وإلى الدولة ثالثا .

الفقرة الثانية :

نظر الاوربيون إلى الفتوح العثمانية فى أوربا على أنها فتوح اسلامية وقد اعتزم محمد ابو الفتوح (أو محمد الفاتح) أن يتخذ من أوترانت قاعدة يزحف منها شمالا فى شبه جزيرة ايطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدمن الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية . ولكن عاجلته المنية فى اليوم التالى من شهر مايو عام ١٤٨١ وتنفست أوربا الصعداء حين علمت بوفاته ، وأمر البابا أن تقام صلاة شكر ثلاثة أيام .

والشق الثانى من الفقرة :

«ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولر مؤرخ عصر الملكة اليزابيث فى انجلترا (١٥٥٨ - ١٦٠٣) وصف الشعور الاوربى العام باتجاه الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد أوربا فكتب هذه الجملة المعبرة «إن الامبراطورية العثمانية هى مصدر الرعب فى العالم ».

ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزجوا بانفسهم فى الصراع الدموى الذى نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذا تستهوى افئدة المضطهدين والمعذبين فى الأرض الاوربية يلتمسون فى رحابها الامن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر فى كتيب نشره فى عام ١٥٤١ . أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الاراضى يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الاتراك ولا يعيشوا فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء .

بعد هذه الحقائق التاريخية التى تحدد أصول المناقشة فى موضوع الدولة العثمانية .

يتضح الآتى :

أولا : تركيا دولة عظمى بمعايير القرن السادس عشر وما بعده وقد اتسع ملكها وترامت آفاقه بالأساليب التى كانت متبعة فى ذلك العهد لم تزد ، وربما لم تنقص وإن كانت قد تحملت بما تقضى به قواعد الاسلام من رعاية أهل الذمة ، وهم غير المسلمين الخاضعين للحكم الاسلامى والذى نهى الاسلام عن الاساءة اليهم ، أو قهرهم على دخول الاسلام أو ترك دينهم . وقد أورد مصطفى كامل فى كتابه الشهير (المسألة الشرقية) أن بعض مستشارى سلاطين بنى عثمان زين لهم إغراء أو حمل الاقليات المسيحية فى شرق أوربا ولكن شيوخ الاسلام نهوا السلاطين عن ذلك ، وكان من الممكن آنذاك إخراج الاقليات من ملتهم ، فالظروف الدولية فى تلك الايام كانت تسمح باشياء من هذا القبيل بسبب النزاع الدولى والحروب الدينية بين المسيحيين بعضهم البعض . وهى الحروب التى استبيحت فيها ارواح الابرياء ، وأعراض النساء ، واستعملت فيها ضروب من العنف عف عنها الفاتحون المسلمون وحتى الجنود الصغار ، لفرط تشديد القادة المسلمين على اتباعهم بوجوب رعاية حرمات غير المسلمين مالا وعرضا وعقيدة .

ثانيا : أن الحكم التركى فى كل ممتلكات السلطان العثمانى لم يكن أسوأ من حكم ملوك وأمراء أوربا فى تلك الفترة ، بل أن حكم هؤلاء كان أمعن فى الظلم ، وأبعد فى الاساءة إلى الشعوب ، وكان حكامهم جهالا ولم تكن تربطهم عقيدة تأمر بالعدل والاحسان كما كان يأمر الاسلام ملوك بنى عثمان .

ثالثا : أن الشكاوى التى لا تزال عالقة بأذهاننا وخاصة لاسماعنا عن الحكم العثمانى ، هى شكاوى العرب بصفة خاصة ففى فترة أفول الحكم العثمانى ، وهى فترة سيئة فى ظل كل دولة ولا يمكن أن تحاسب عليها تركيا ، ولا أن تعتبر مقياسا للحكم على كل الحكم العثمانى . وحسب تركيا شرفا أنها وهى تكاد تلفظ أنفاسها ألزمت سلطانها السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . وحسب السلطان عبد الحميد الذى أسىء إليه بفعل الدعاية الاستعمارية والصهيونية أنه رفض أن يأذن بوطن صهيونى على أرض فلسطين وبقى مصرا على هذا الرفض حتى تم عزله ثم موته .

هذه هى تركيا الحقيقية ، التى لا نزعم أن الله برأها من كل عيب ، ولكنا جهلنا تاريخها ، وأسلمنا أنفنا لنقولات خصوم تاريخنا . فتجنينا عليها .

مذبحة القضاء
فى مصر استمرت قرناً !

هذه خواطر أوحى بها مؤتمر القضاء الأول ، الذى عقد فى المدة من ٢٠ إلى ٢٤ ابريل الماضى ، وهو أول جهد يقوم به القضاة على هذه الصورة الواسعة والعلنية لاصلاح النظام القضائى فى بلادنا ومعالجة ما أصابه من قصور وآفات بفعل الادارة السيئة ، والعجز الحكومى وأغراض السياسة لعل هذا المؤتمر فاتحة عهد جديد يقوم فيه القضاء برسالته المجيدة على أحسن وجه ، وخير منهج .

يحسب بعضنا أن القضاء فى مصر قبل الثورة ، كان بمنأى من التدخل الصريح فى أعمال القضاة ، أو فى الضغط والترهيب والترغيب ليحصل أصحاب السلطة أو الجاه أو المال على ما يطمعون فيه من المحاكم التى تعرض عليها قضاياهم ، التى تصور صراعا أو خصومة أو تنافسا بينهم وبين آخرين قد يكونون فى مثل قوتهم ، أو أضعف منهم كثيرا أو قليلا. والحقيقة تخالف ذلك الاعتقاد : فالقاضى المصرى منذ وضع الاحتلال البريطانى قدمه فى ١٤ من سبتمبر ١٨٨٢ إلى حين قامت ثورة يوليو ، كان يخضع تعيينه وندبه ونقله وترقيته وتخطيه فيها ،

الهلال - مايو ١٩٨٦ .

لارادة ممثل بريطانيا بغض النظر عن الاسم الرسمى لهذا الممثل ، الذى عرف أول الأمر بالقنصل العام لبريطانيا العظمى ، ثم بالمندوب السامى ، وأخيرا بالسفير البريطانى فى عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ التى أبرمت فى أغسطس من ذلك الشهر .

وبذلك كان القضاة قلقين ، يعرفون أنهم معرضون للفصل أو التخطى ، أو النقل إلى مدن أقل شأنا من مدن يعملون فيها فعلا . ذلك لأن المندوب البريطانى وممثلها ، يعلم أن القضاء بطبيعته ، هو حماية للمظلوم ، ودرع للمطالبين بالحقوق العامة ، والمدافعين عن الشعب ، فان كان مستقلا مصونا من الضغط والتأثير ، زاد المناضلون عن حقوق الناس المهدرة ، وحرماتهم المنتهكة ، وتمردهم على الغاصب الدخيل وعندها يعانى الاحتلال البريطانى وممثلوه من الضغوط الوطنية ، ما يفسد خططهم ، أو على الأقل ، يؤخرها ، ولما كان الخديو أو السلطان أو الملك المصرى ، هو رجل أختير ليكون عونا لهذا الاحتلال وسندا له ، فى مقابل مزايا يمنحها ، وسلطات يستمتع بها ، وحماية من المساءلة والمؤاخذة تقيه أن يحاكم أو ينزل به عقاب أو تسترد منه أشياء سلبها ، أو اعراض هتكها، أو اعتداءات ارتكبها . وبذلك أصبح الحاكم المصرى الذى كان يسمى خطأ بالحاكم الشرعى أو الحاكم الأصيل ، لتميزه عن الحاكم الاجنبى الدخيل أو الذى لا شرعية لسلطته ، أصبح هذا الحاكم شريكا فى العدوان على القضاء المصرى ، فلما قامت الحياة الحزبية ، بعد تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ التى أعلن بها الانجليز من طرف واحد، إلغاء الحماية البريطانية التى فرضت على مصر عقب اندلاع الحرب العالمية ، ذلك فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، والاعتراف

بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتحويل سلطانها إلى ملك ، وتخويل للملك إعداد دستور تقوم فى ظله حياة نيابية يمثل فيها الشعب ، نواب يختارون فى انتخاب عام . لما تم هذا التغيير تنافست احزاب الحكم فى مصر . بعد انتخابات حرة مرة أو انتخابات زائفة ، تعبث فيها السلطة كما تشاء ، ويعبث خلالها بارادة الشعب على ما تهوى احيانا ، فانضم شريك ثالث للسفير البريطانى والملك المصرى ، ذلك هو الحزب الذى تمارس بعض السلطة حكومته ، ففى ظل الحكم النيابى كان يتم إفساد القضاء بصور منها :

١ – يكون لزعيم الحزب قضية خاصة ، فيرفعها إلى محكمة ، فيقضى له بما يطلب ، فيكافأ المستشار الذى يرأس المحكمة بتعيينه وزيرا . وقد تم تعيين أكثر من وزير ، لمثل هذا الغرض .

٢ – يبلو محامٍ ما فى تأييد حزب ما بلاء حسنا ، فيضم إلى الاعضاء ، ويضم لرؤساء الحزب عند تجولهم فى الاقاليم والولائم الفاخرة ، وتعد السرادقات الواسعة ، فيصل إلى منصب القضاء فى أقرب فرصة تالية بأهون سبيل .

٣ – يخرج المحامى الوزير الذى يشغل مكانا مرموقا فى حزبه ، من الوزارة فيشتغل بالمحاماة ، ويصبح منتظرا عند الجميع أن يعود فى تعديل وزارى قريب وزيرا ، فيقبل على مكتبه أصحاب القضايا ، وينقدونه أتعابا ضخمة ، تتيح له أن يقتنى الضياع ويبنى القصور فإذا ذهب إلى المحكمة ترافع أمام قضاة عينهم حينما كان وزيرا أو عينهم حزبه الذى ينتمى إليه ، فيقابل بالاجلال علنا ، وبلا تحشم ، وكثيرا ما شاهد المترددون على جلسات المحاكم المحامى الحزبى ، الوزير الحزبى يدخل الجلسة ، فيقف رئيس الجلسة ، ويحييه علنا ، كما أصبح من

التقاليد المرعية أن الوزير الحزبي السابق ، حينما ينتهي من مرافعته في إحدى مدن الريف في الصعيد أو في الدلتا ، يمضي إلى المحطة ليستقل القطار ، ومن حوله القضاة والمستشارون الذين كان يترافع أمامهم منذ ساعات ، وربما ينضم إليهم السيد مدير الاقليم أو محافظه، ولا يخلو الحال من أن ينضم إلى هؤلاء جميعا أنصار حزب صاحب المعالي الوزير ، فيهتفون بحياته ويلهبون الاكف بالتصفيق .

٤ - وجاءت الاحكام العرفية - بحالة جديدة من حالات فساد القضاء واتلاف كل أسباب النزاهة وضماناتها للحكم . ففي ظل الاحكام العرفية لا تستأنف الاحكام ، وانما تعرض على مكتب ينشئه الحاكم العسكري لمراجعة تلك الاحكام ، ثم يثبت ما يشاء فيها ويلغي ما يشاء ، بلا قيد وإلى غير حد ، وهذه المكاتب ليست محاكم ، فليس لها حصانة القضاء ولا هيبتها ، وقد ترى المكتب مليئا بالمحامين وذوي المتقاضين وأصدقاء القضاة ، فإذا بالعدالة قد أصبحت شبحا ، والحق طيعا، والقانون يداس بالاقدام علنا .

ومع ذلك يبقى المواطنون في مصر مؤمنين بأن قضاءهم من أنظف القضاء في الشرق والغرب ، وهذا الظن لم يكن كله وهما فالقضاء المصري حيث تنأى الخصومة عن اصحاب السلطة ، ويصبح طرفاها من أفراد الناس ، حتى ولو كانوا على شيء من الثراء أو الجاه ، لا يهتز ميزان العدالة في يد القاضي في حين أن فساد أنظمة التقاضي في بلاد عربية كثيرة كان امرا مقطوعا به ، وقد حدثني أديب الشيشكلي وكان رئيس الدولة الحقيقي في سوريا ، وهو يزور مصر وأنا وزير خارجيتها بالنيابة بأن أكثر القضاة في وطنه ، كانوا من فساد

الزمة ، وكان بذل الاعطية لهم يتم على مسمع من الجميع ، بل يعلم الخصوم. أما القضاء فى أمريكا الذى ينتخب فيها القضاء فهو مثل فى العبث بحقوق الناس ، وتلقى الرشوة بلا تحفظ ولا خجل ، وقد رأينا صورا من هذا التعفن فى قصص رايد تعرضها الشاشة الفضية .

لقد بدا لى أن أروى للقارىء قصصا تدخلت فيها السلطة علنا فى قضايا شهيرة معروضة على القضاء فى واقع الامر قصص طريفة فى ذاتها منها :

١ - قضية زواج الشيخ على يوسف «باشا» صاحب جريدة المؤيد .

٢ - قضية مقتل على كامل فهمى الثرى الذى قتلته زوجته الانجليزية مرجريت ، التى حوكمت فى لندن فهربت .

٣ - قضية سليم بك حسن وكيل مصلحة الاثار المصرية سنة ١٩٣٨ وما حولها .

٤ - قضية مقتل السردار لى ستاك - قائد الجيش المصرى وحاكم السودان فى الوقت نفسه .

وأقدم هذه القضايا هى قضية الشيخ على يوسف الذى كان صحفياً، وفد إلى مصر من قرية فى الصعيد ، هى قرية بلصفورة التى هى من أعمال محافظة جرجا ، وقد طلب العلم فى قريته ، التى ولد فيها وقد ترك قريته وذهب إلى قرية بنى عدى بمركز منفلوط حيث أخواله . ثم مازال يلتمس أسباب المجد ، متذرعا بصلابة خلقه ، وثباته وطموحه غير المقرون بالتهيب ، حتى أصدر جريدة المؤيد فى أول ديسمبر ١٨٨٩ ، فما لبثت حتى أصبحت أكثر الجرائد المصرية ذيوعا . ولم يكن لواء مصطفى كامل قد صدر بعد، إذ كان صدوره فى يوم الثلاثاء ٢ من

يناير سنة ١٩٠٠ ، وبفضل سطوع نجم اللواء ، وانتشاره، أصبح على يوسف أحد كبار ذوى النفوذ ، إذ اتخذه الخديو عباس حلمى مستشارا يهتدى برأيه ويعمل بنصحه ، وكان يطيب له الجلوس معه ، والتحدث إليه ، ولما كان طموح على يوسف لا يقف عند حد فقد طمع فى أن يخطب لنفسه الانسة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات شيخ الطريقة الوفائية . وكانت فتاة جميلة وذكية ، وكان أبوها يصحبها إلى كل مكان يقصده فرآها الشيخ على يوسف فوقعت من نفسه موقعا ملك عليه زمام قلبه ، وكان والد صفية صديقا لعلى يوسف ولم يكن لديه مانع من تزويجها لعلى يوسف وإن كان يكبرها كثيرا فى السن إلا أنها كانت مأخوذة بشهرته وعلو مقامه ، وتردد اسمه على الألسن ، فوافقت على الزواج ، ولما كان زوج أختها السيد محمد توفيق البكرى هو نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يخشى أن تقوم عقبة فى طريق هذا الزواج ، فقد أخذ العروس إلى قصره ، وعقد لها على الشيخ على يوسف ، ثم نشرت جريدة المقطم نبأ هذا الزواج فى عدد ١٦ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وفوجىء أبوها بهذا الزواج فهاج هائجه أن تزوج ابنته الحبيبة إلى قلبه والاثيرة عنده بغير علمه ، وفى غير دار ابيها ، وإن كان العقد تم فى بيت أختها الشقيقة ، وانتهى الأمر بأن أعلن الشيخ عبد الخالق السادات بأنه غير راض عن هذا الزواج ولا يقره لا للظروف التى لابسته ، فحسب ، بل لعدم كفاءة الزوج ، لأنها من نسل النبى ، وشمل الخديو صديقه وجليسه ومستشاره على يوسف ، بعطفه فانقسم المصريون إلى فريقين ، فريق يؤيد الزواج ، ويرى على يوسف أهلا للزواج من صفية بنت عبد الخالق السادات ، وإن كانت

حفيدة لرسول الله ، فإن علي يوسف بعلمه ومكانته وثروته ، وعقله وقربه الشديد من الحاكم ، يرتفع إلى مقامها ، ورفع والد صفية الأمر إلى القضاء الشرعى ، ووكل الزوج اكبر المحامين ، وشغلت القضية الناس ، ولما كان الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل قد أغضبه هذا الزواج بما شابه من أخطاء كان علي يوسف وتوفيق البكرى جديرين بتجنبها فقد اشتد موقف المواطنين ضد علي يوسف، وعندها لم ير الخديو عباس بدا من أن يتدخل فى القضية صراحة فى جانب صديقه علي يوسف ، ولما عرضت القضية فى صيف سنة ١٩٠٤ وكان الخديو عباس خارج مصر مصطافا فى باريس فقد أوفد أخاه الامير محمد علي ليضغط على القضاة ليحكموا لصالح الزواج باقراره ، ولكن الرأى العام كان ضد هذا القرار ، وانتهى الأمر بصدور حكم فى يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٠٤ بالحيلولة بين الزوجين حتى يفصل فى القضية نهائيا إذ اجلت بناء على طلب محامى علي يوسف ، وهو الاستاذ حسن صبرى الذى عين رئيسا لوزراء مصر سنة ١٩٤٠ . ولم تتحمس الحكومة لتنفيذ حكم الحيلولة إذ سافر علي يوسف إلى الاسكندرية يقابل وزير الداخلية بطرس غالى باشا ، الذى كان قد وضع الحكم فى درجه، فاستحال تنفيذه فما كان من الشيخ أحمد أبو خطوة الذى أصدر الحكم إلا أن لجأ إلى قاضى القضاة وكان تركيا تعينه تركيا حسب الاتفاقات الدولية آنذاك بين مصر وبريطانيا وتركيا ، فأعلن أنه سيقفل أبواب المحاكم الشرعية إن لم يتم تنفيذ حكم الحيلولة ، ولما سمعت الناس بقرار القاضى وقاضى القضاة بالدعوة إلى اضراب المحاكم الشرعية حتى يتم تنفيذ حكم الحيلولة بين الزوجين ، هتفوا فى الشوارع للاسلام

ولقضاة الشرع ، والتهب الموقف . حتى انتقلت الزوجة إلى منزل الشيخ عبد القادر الرافعى وكان من كبار قضاة الشرع ، حتى حكم بالحيلولة فأحس كل من الخديو واللورد كرومر بالهزيمة ، ولكن عاد الوالد ، فرضى عن زواج ابنته من على يوسف بعقد جديد أبرم فى بيته . بعد أن تدخلت السلطات جميعا فى هذه القضية وعلنا .

أما القضية الثانية فقد بدأت بجناية وقعت فى باريس ليلة العاشر من يولية سنة ١٩٢٣ بفندق سافوى بلندن .

وكان القاتل هو ابن الثرى المصرى على باشا فهمى الذى كان يملك مساحة كبيرة من الأرض الزراعية فى المنيا ، وقد مات وترك أكثرها لابنه على كامل فهمى ، الذى كان قد رأى الشابة الفرنسية مرجريت آن فهام بها ، ودعاها وهو فى الثانية والعشرين من عمره فى مصر ، فرأت من آثار غناه والترف الذى يتقلب فيه ، مدعاة إلى قبول زواجه فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، وما لبث أن تنافر الزوجان حتى انتهت حياتهما الزوجية برصاصة اطلقتها على زوجها الشاب ، فأردته قتيلا ، ثم قدمت إلى المحاكمة فترافع عنها المحامى الانجليزى الشهير مارشال هول الذى حصل لها على البراءة من محكمة انجليزية منحازة ضد الشرقيين بعد أن صور لها الزوج القتيل بوحش أدمى أذاق زوجه الويلات ، وجاءت الزوجة إلى مصر ومعها حكم من محكمة جنايات لندن ببراءتها وقد رفعت دعوى ميراث طلبت فيها الحكم لها بربع تركة زوجها ، لأنها برئت من تهمة القتل والشريعة تمنع ميراث القاتل فى تركة قتيله .. وهى بمقتضى حكم البراءة ، لم تقتل زوجها إنما دافعت عن نفسها .

وعرضت القضية على المحكمة العليا الشرعية برياسة الشيخ طه حبيب والسيد أنور حبيب الذى عينه السادات مدعيا اشتراكيا ، ثم

رئيسا لديوان المظالم ، فأبى الشيخ طه حبيب أن يقضى لمرجريت أن قاتلة زوجها على فهمى لأن محكمة لندن برأتها، فقد قرأ ترجمة الحكم إلى العربية ، فعرف أن المحكمة برأت القاتلة المضبوطة بآلة قتل فى يدها ، لا لأن الدليل ضدها ضعيف بل لأن القاتلة اوربية والقتيل مصرى، فلم تمثل بالحكم ، ورفضت طلب الزوجة الاجنبية. وكان الملك فؤاد يريد أن يحكم لها بربع التركة رغبة فى إرضاء الاجانب والمندوب السامى البريطانى ، فطلب صراحة من الشيخ طه أن يقبل دعواه فلم يمثل القاضى الشرعى الشجاع لطلب الملك، وأصر على موقفه فكان أن عزله الملك من القضاء وهو بعد صغير السن وكانت امامه سنوات منتظرة فى المحكمة الشرعية ، وكان المتوقع أن يزيد معرفته اثناءها ، وأن يعين رئيسا للمحكمة الشرعية .

فكانت هذه هى القضية الثانية التى تدخلت فيها السلطة بلا حياء فى قضية معروضة على القضاء الشرعى ، وفى اتجاه الظلم والعسف .

أما القضية الثالثة وهى قضية سياسية بحتة ، أسفرت فيها السلطة البريطانية عن وجهها القبيح كما لم تفعل قط من قبل .

فقد كان الحكم فى تلك القضية يهمها أعظم الاهتمام ، فقد كانت قضية زعيمين كبيرين وإن كانا فى وقت القضية رجلين أقرب إلى الشباب، وأعنى بهما الدكتور أحمد ماهر والاستاذ محمود فهمى النقراشى وكلاهما تتلمذ على يد عبد اللطيف بك الصرفانى أحد زعماء حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، أى الحزب الوطنى القديم ، ومدبر حركة العمل السياسى المباشر أى قتل الانجليز وأعوانهم ، وقد تحول هذان الزعيمان من صفوف الحزب الوطنى إلى صفوف الوفد ، ولما

تدهور الموقف السياسى والوطنى فى مصر بعد إجهاض ثورة سنة ١٩١٩ ، راحت السلطة البريطانية تتعقب الوطنيين وتراجع ملفات القضايا السياسية القديمة ، لتسوق الذين تصدوا لها بالبندقية إلى المشانق والسجون . وكان من هؤلاء الخصوم القدامى للاحتلال البريطانى ماهر والنقراشى . وعرضت قضيتهما على محكمة جنايات مصرية يرأسها مستشار انجليزى اسمه «مستر كرشو» .

وكانت حالة العدالة فى مصر قد ساءت حتى أصبح من قضاة مصر أجانب، منهم انجليز ومنهم فرنسيون ومنهم أرمن. ولما انتهت المرافعة من الاتهام والدفاع عن قضية ماهر والنقراشى هذه ، ودخلت القضية فى دور المداولة من القضاة أصر المستر كرشو على وجوب الحكم على «ماهر» و «النقراشى» بالموت ، وعلى اقل تقدير على «ماهر» لثبوت الاتهام ضده ، وكان مع «المستر كرشو» مستشاران مصريان هما كامل ابراهيم بك ومصطفى عزت .. ويرفض المستشاران المصريان رأى المستشار الانجليزى ، فبذل جهدا مضنيا لثنيهما أو لثنى أحدهما على الاقل عن رأيه فلما لم ينجح ، نطق مضطرا بحكم البراءة ، ولكنه كتب خطاب استقالة ارسله إلى المندوب السامى البريطانى يعلن فيه أن الحكم لا يتفق مع رأيه ولكنه نطق به عملا بتقاليد القضاء ، ولكنه يخرج على تقليد آخر وهو افشاء سر المداولة لأن ضميره غير مستريح وبذلك ثبت للمصريين ولغيرهم كيف كانت تتدخل السلطة التنفيذية فى أمور العدالة .

والقضية الأخيرة هى قضية سليم حسن بك وكيل مصلحة الآثار فى سنة ١٩٣٨ وكانت مصلحة الاثار تتهم دولة فرنسا بشكل دائم . إذ أن

الظروف أتاحت لفرنسا بفضل كشف حجر رشيد اثناء حملة نابليون على مصر ، أن تكون وثيقة الصلة بهذه المصلحة ، فبقى رؤساؤها على وجه التواتر فرنسيين ، وبلغ من اهتمام فرنسا بهذا المنصب والاستئثار به دون غيرها من الأمم أن تنص اتفاقية سنة ١٩٠٤ المعروفة بالاتفاق الودى الذى ابرم بين فرنسا وبريطانيا لتسوية خلافات الاستعماريين الفرنسي والبريطاني فى مصر والمغرب على أن منصب رئيس مصلحة الآثار المصرية من حق فرنسا . ولكن الايام جرت طويلا منذ سنة ١٩١٤ ومعها تطورات وتغيرات حتى وصل أثرى مصرى إلى منصب وكيل المصلحة ، وكان سليم حسن هذا الاثرى ، مصريا صميما تنطق قسمات وجهه بمصريته وريفيته، وقد وفق إلى اكتشاف الهرم الرابع من جهة ، وإلى وضع قواعد لتقييم ما تسفر عنه الحفريات الاثرية فى مصر وهى الحفريات التى كانت تقوم بها بعثات اجنبية بريطانية أمريكية وفرنسية والمانية وايطالية . ولما كانت مصلحة الآثار قد غزاها النفوذ الاجنبى فقد كان نصيب تلك البعثات الاجنبية من غنائم الحفريات نصيب الأسد ، وكان نصيب مصر ضئيلا ، ذلك لأن مندوب مصلحة الآثار فى عملية التقسيم كان دائما بمقتضى عرف غير مكتوب بين جنسية البعثة الاجنبية التى يتم الاقتسام معها ، وبذلك كان يحابيها ويحقق أغراضها ، فلما جاء سليم حسن قلب هذا النظام الظالم وأمر بأن يكون ممثل مصلحة الآثار فى جميع الحفريات مصريا ، وبذلك استقام الميزان وضاعت على المكتشفين الاجانب فرص النهب والسلب باسم العلم ، فحقد الأثريون الاجانب فى مصلحة الاثار المصرية على

«سليم حسن» وما زالوا يتربصون به الدوائر حتى اتهموه باختلاس مبالغ ضخمة من اعتمادات حفريات الهرم التى كان يديرها ويشرف عليها . وبدأت النيابة المصرية تحقق مع سليم حسن ، واخذ مدير المصلحة العام المسيو «دريتون» يدير الحملة على سليم حسن ، وكان «دريتون» صديقا للملك فاروق ، فانحاز الملك بكل ثقله مع الاتهام الموجه لسليم حسن ، واهتز ميزان العدالة فى هذه القضية ، وكان سليم حسن أول أثرى مصرى عرفه العالم أول مستكشف بين مستكشفى آثار مصر يدخل السجن ، فتطيب نفوس الدوائر الاجنبية التى أضاع عليها هذا الاثرى اسلابا ذات قيمة لا تقدر بمال، ولكن شاء الحظ أن يكون هناك صراع حزبى بين عنصرى الوزارة التى كانت تحكم آنذاك وهما الحزب السعدى برياسة أحمد ماهر، والحزب الدستورى برياسة الدكتور محمد محمود . وشاء الحظ أيضا أن يكون وزير المعارف والتربية ، آنذاك الدكتور هيكل وكان وزير العدل أحمد حسين دستوريا كذلك، كما كان النائب العمومى يكن باشا أحمد من الدستوريين ، ولذلك استحال حبس سليم حسن وإرساله إلى المحكمة لحماية هؤلاء الثلاثة له فى حين كان رئيس الحكومة ورئيس الديوان الملكى تقربا إلى الملك ضد سليم حسن ، واستمر الشد والجذب بين الفريقين ، وتبدو مخاطر الجو مهددة لسلامة الاثرى المصرى الكبير ، فتنهار أعصابه ، ثم يبرق نور الأمل ، فيستعيد هدوءه ، حتى سقطت الوزارة وتولى الوزارة الجديدة على ماهر حليف السعديين خصوم سليم حسن فأيقن الرجل أن النهاية واتت ، وأنه ذاهب إلى السجن ولكن شاء الحظ الحسن للمرة الأخيرة أن يكون وزير

العدل مصطفى الشوربجى بك وهو من زعماء الحزب الوطنى القديم ، وكنت أعرفه ، فذهبت إليه وحذرته من مغبة الانسياق مع مؤامرات الاجانب ، فأمر فى الحال بحفظ الدعوى ، ووافق على ذلك رئيس الوزارة الجديد على باشا ماهر الذى كان يناصر سليم حسن وهو فى الديوان الملكى إذ غلبت عنده دواعى المصلحة الوطنية حينما تلقى عبء الحكم وأدرك أن التاريخ سيحاسبه .

وحسمت القضية لمصلحة مصر ، بعد أن كادت هذه المصلحة تتبدد وتضيع .

وكانت إحدى القضايا التى يطيب فيها للسلطة التنفيذية العبث بالعدالة وسفك دمها علنا والقانون يشاهد ويسكت عقدة .

طرقة طويلة مظلمة يروح فيها تاريخ مصر الحديث ويغدو

لكم تأملت فى هذه الطرقة الغريبة ، ولكم صممت أن أحدث الناس عنها ، وعما تثيره فى نفسى من الخواطر .. إنها طرقة فى دار قديمة ، بالنسبة لمعاييرنا نحن الآدميين ، وأنيستنا نحن أهل القاهرة ، وقد كانت طرقة فى دار ثرى من أثرياء العهد التركى الشركسى ، له صلة قربى أو مصاهرة ، بالأسرة الحاكمة ، ثم استحالت الدار الى مقر للقضاء العالى ، وبعد ان كانت مثوى لاهل النعمة والجاه ، تموج بالحريم ، ثم بالجوارى اللاتى يقتنين اصحاب الثراء من كل جنس ولون ، وان كن جميعا من ذوى الحور العين ، رشيقات القد ، نحيلات الخصر ، هيفاوات ، فاتنات ، منحهن الله جمال الوجه ، ومنحن أنفسهن بدروب التزيين والتطرية ، ملاحة مجلوبة ، وحسنا مصنوعا يفعل فعله فى القلوب ، ويكسبن منه مزيدا من النعيم ، ويخفقن به السلطان على «الباشا» ومن حوله ، فيحكمن ويصرفن أمور القصر ، وما بعد القصر ، على هواهن ، وأكثر الرجال فى محيطهن صاغر مطيع .. كانت الطرقة فى قصر منصور يكن باشا ، الذى لا اعرف مكانه من الحكام ، ثم آل

الهلال - فبراير ١٩٨٤ .

الى الدولة ، ربما لان الباشا مات بغير عقب ، فورثه بيت المال ، ثم خصصت الدولة ، داره الفسيحة ، الى محكمة رفيعة ، فانقلب فيها الحال ، وداستها أقدام النساء والرجال ، وشهدت قضايا اكثرها مأسٍ يشقى بها المتقاضون ، ويثرى من ورائها ، الذين يعملون فى مجال الخصومات والمنازعات .

واختارت الدولة الطرقة الغربية فى الدور الاول من المبنى العريق ، وخصصت فى طرفها حجرة فسيحة ، مكانا للأمين على الدعوى العمومية ، وممثل الاتهام ، أى النائب العام ، ونثرت حول هذه الحجرة ، مكاتب لأعوان هذا الموظف الكبير ، من رؤساء للنيابات ووكلاء لها ، ورؤساء أقلام ، وسعاة وخدام ، ومن أجل ذلك لا تدرى أشهدت هذه الطرقة ، جيلا بعد جيل وعهدا بعد عهد ، أم اصابها النحس ، فقد احتشد فيها ، وتزاحمت على أرضها ، أقدام رؤساء الدولة ، وكبار وزرائها ، ورجال الشرطة ، ورجال الصحافة ، ورجال تجذبهم السلطة ببريقها ، ويستدرجهم الزحام بكل ما يثيره من فضول ورغبة فى الوصول : الوصول الى بناء ، أو الى شخص ، أو الى مكانة . وسبق مع هؤلاء العظام ، افراد ، وصلوا اليها ، على الرغم منهم ، وعيونهم زائغة، وأيديهم مكبلة ، وخواطرهم منهوبة ، لا يدرون ما المصير ، يحتلون الاهتمام وتتسلط عليهم العيون ويرقبهم اصحاب الاقلام ويحصون عليهم كل خطوة ويسجلون كل حركة ولفتة ثم يصوبون اليهم فى اللحظة الأولى، كل ما عندهم من ملكات الرقابة والفحص ، ثم يوجهون اليهم لبمات تضىء وتنطفىء فى سرعة لاهثة ، هؤلاء هم الذين شاء لهم الحظ، أن يقتلوا الحكام ، ويزيلوهم من الوجود ، أو الذين يحاولون ذلك فلا

ينجحون ، فهؤلاء وهؤلاء ، هم ضيوف هذه الطرقة ، الذين يصبحون أخطر الناس طراً ، وأحقهم بالحفاوة ، يجرى بين يديهم الحكام ، ويسبقهم ويتبعهم ، كل صاحب شأن ، وتتوقف الاذان والعقول ، بحثا عن خبر .

إذن لقد وقف فى هذه الطرقة ، كل هؤلاء الذين أرادوا ان يغيروا الأمور فى مصر ، كل منهم بدوره ، وكل منهم يمثل عهدا وظرفا وحالا ، واذا أنت جمعت الاصوات التى أدت الى سوق هؤلاء الشبان - وكلهم شبان - الى هذه الطرقة المظلمة ، وضممتها بعضها الى بعض ، اجتمع لك «تاريخ مصر الحديث» . فأعجب كيف يسطر التاريخ بدماء مسفوكة وبطلقات نار ، لا تكاد تلمس جسد الفريسة المقصودة حتى تنتهى صفحة من تاريخ بلادنا وتبدأ صفحة .

وهكذا تختلط السياسة والمبادىء ، بالجريمة وسفك الدماء ، وتدعى السياسة حينما تتورط فى الجريمة ، انها ليست جريمة ، انما هى انفجار لضيق أبى أن ينزاح أمام رغبة شعب ، يريد مزيدا من السعادة والحرية ، وآخرون يسمعون هذا الكلام ويردون عليه : لم يتغير لرصاصات القتل شيئا ، فسبيل التغيير ، هو بث الأفكار الجديدة ، وذيوعها بين الناس ، وتسللها الى القلوب والنفوس ، فى حين لا تزيد طلقات الرصاص عن أن تكون علامة على الغليان ، واشارة الى أن التغيير واقع لا محالة ، فى تدرج وعلى مهل ، ولكنه واقع إن أجلا وإن عاجلاً . ولم تكن مصر تعرف هذا الاسلوب العنيف من العمل السياسى. كانت سماؤها الصافية ونيلها الهادىء ، وبعدها عن الزلازل والبراكين ، والعواصف والأنواء ، هو ضمان الرفق فى كل شىء فى

مصر . الا ان القاعدة لها استثناء ، وكان الاستثناء ابراهيم ناصف الوردانى الذى لم يزد عمره عن ٢٤ عاما ، وكان نحيلا ، قمحى اللون ، تشوب وجهه سمرة مصرية ، وكان فوق ذلك هادئا فى الظاهر ، شديد العصبية والحساسية فى الباطن . أطلق رصاصه فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ على ضحيته ، فارتجت البلاد ارتجاجا شديدا ، فقد كانت رصاصاته الست أول ما فرق الهدوء المصرى التقليدى ، وقادوا ابراهيم الوردانى ، الى الطرقة الطويلة المظلمة ، وجرى وراءه الصحفيون الاجانب قبل الصحفيين المصريين ، فلم تطرف له عين ، ولا يختلج فيه عصب ، ومضى مكبل اليدين ، صامتا ، مطبق الشفتين ناظرا الى الامام هادئا ثابتا ، وقال المعلقون ممن يعرفون علم النفس : إن هؤلاء الذين يقدمون على قتل الكبراء ، دون ان يفكروا فى الهرب ، يشعرون بأن الفعل الذين أجمعوا أمرهم على ارتكابه ، هو هدف حياتهم ، به يتحقق وجودهم ، ومن ثم فهم لايشعرون بشىء من حولهم ، ولا يفزعهم ان مصيرهم الموت ، ولايخيفهم شىء من مظاهر السلطة التى تحيط بهم، لانهم يحلقون فى دنياهم . ولما دخل الوردانى الى غرفة النائب ، لم ينكر فعلته، ولم يبد ندما على إتيانها ، وبررها بأسباب عديدة ، وأكد انه كان وحده ، وليس له شريك ، ولا محرض ، ولا معين إلا عقله وقلبه .

وخرج بنفس الهدوء الذى دخل به حجرة النائب العام ، وجرؤ بعض الناس ، ان يهتف بحياته ثم يعدو هربا من القبض عليه ، فابتسم ابتسامة خفيفة ولم يزد .

وبعد أن عاد الى سجنه ، خلت الطرقة الطويلة المظلمة من الاقدام ، التى كانت تدق سطح الطرقة فى عدوها ، ولم يبق فيها الا حاجب امام

غرفة موظف كبير يهوم برأسه تحت ثقل النوم الذى هاجمه من فرط السأم . ولم تمض أيام حتى امتلأت الطرقة الطويلة المظلمة بممثلى السلطة وأعوانها من ضباط تلمع على أكتافهم نجوم نحاسية صفراء وضباط يلبسون الثياب المدنية حتى لا يعرفهم الناس . لانهم ضباط الامن والمباحث ، ولم يكن ضيف هذه الطرقة شاب واحد ، هادىء صابر، ومطمئن ، بل سبعة من الشبان أكثرهم طلبة هم على مراد الطالب بمدرسة المهند سخانة ، والذى اشتغل بأعمال الخبرة الحرة بعد ذلك أمام المحاكم فاشتهر بكفاعته ونزاهته على نقيض ما اشتهر به الخبراء فى تلك الأيام من عدم الكفاءة وخراب الذمة ، ومحمود انيس المهندس ، وشفيق منصور الطالب بكلية الحقوق ، الذى بقى يمارس العمل السياسى السرى العنيف ، حتى نفى الى مالطة خمس سنوات فى الحرب العالمية الاولى ، ولم يهزه النفى والاعتقال فعاد ، يطلق رصاصاته ، ويدرب صغار أعوانه ، حتى صعد الى المشنقة سنة ١٩٢٥، وعيد البرقوقى الذى أصبح فيما بعد محاميا فى طنطا ونائبا ذا ميول وفدية كما كان زميله عبد الخالق عطية الذى كان طالبا بمدرسة الحقوق ثم تخرج فيها وأصبح عضوا بمجلس نقابة المحامين ، شارك فى محاكمة مصطفى النحاس أمام مجلس التأديب ، ومحمد كمال الطالب بمدرسة المهندسخانة الذى لم يعد أحد يسمع عنه ، وحبيب حسن المدرسى .

ساقتهم السلطة الى الطرقة المعهودة بتهمة المشاركة فى جريمة الوردانى ، بقتل بطرس غالى ناظر النظار ، وقد كان أكثرهم عصبيا ، محتجا على القبض عليه ، ساخطا على الاغلال التى وضعت فى يديه ،

كما كان أكثرهم يتلفت يمينا ويسارا باحثا بناظريه عن أحد من ذوى قرباه ، ودخلوا الى النائب العام واحدا فى أثر واحد ، وخرجوا والمرارة تفيض من وجوههم ، واحالتهم الحكومة الى قاضى الاحالة ، وكان متولى بك غنيم ، فقال ان المنسوب الى هؤلاء كان شروعا فى الشروع فى الجريمة وهو أمر لايعرفه القانون وبالتالى لايعاقب وفى جلسة ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، افرج القاضى عنهم ، وقرر فى شأن التهمة المنسوبة اليهم انه لا وجه لإقامة الدعوى ضدهم ، فكان الافراج عنهم يوم عيد وطنى ، نظم فيه الشعراء القصائد ، ونشرت الصحف فيها نبأ الافراج فى صدر صفحاتها الاولى ، وهى لا تكاد تخفى سرورها .

ولكن هذا الحكم كان تطورا فى حياة القانون الجنائى فى مصر ، فقد أدركت السلطة ان قرار قاضى الاحالة ينبىء عن أن هناك ثغرة فى القانون سينفذ منها الذين يتفقون على ارتكاب الجريمة دون ارتكابها فعلا ، فيكون اتفاقهم تآمرا على أمن الناس ، وإن لم يصدر عنهم شىء يحرمه القانون ، فيجب عقابهم على اتفاقهم الذى يسمى «بالاتّفاق الجنائى» وولدت جريمة بهذا الاسم ، وأصبحت من أشهر جرائم قانون العقوبات ، وقد وصفها كبار الفقهاء والمحامين معاً بأنها من أكبر مشكلات القانون .

ومضت على جريمة القتل السياسى سنوات دون ان تتبعها واحدة مثلها ، وان بقيت هذه الحادثة الاولى مشهورة ، ومذكورة على الالسن ، لم يجرؤ الشعراء الرسميون على أن يقولوا فيها شيئا عدا رثاء القتيل «بطرس غالى» بقصيدة من شوقى ، لان شوقى فى تلك الأيام ، لا يدع عظيما ينتقل الى رحمة الله إلا وشيعه الى قبره بقصيدة ، وقد كان

مطلع قصيدة شوقى :

غالى فى مديح ابن بطرس غالى

وقد عوض الشاعر الشعبى بأزجاله وأراجيزه تسجيل هذا الحدث الخطير ، فحفظها الشعب وتناقلتها الألسن ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وأعلنت بريطانيا الحاكمة المستبدة بالسلطان الاحكام العرفية ، فاظلمت الشوارع وقصفت الأقلام ، وأخرست الألسن ، وتفتتت الجماعات والاجتماعات ، وامتلأت المعتقلات بأفراد من الشعب بعضهم عظماء ومعروفون ، وأكثرهم من عامة الشعب أخذوا بالشبهة ، وحبسوا بالوقيعة والوشاية ، وشحت الارزاق ، وغلت الأسعار ، فعادت الطرقة الطويلة المظلمة تستقبل ضيوفها وكثرت أقدام السائرين فيها ، والذاهبين والآتين ، من المتهمين ، والمحامين ، والقضاة ، ورجال النيابة، فقد شرع فى قتل السلطان حسين كامل مرتين ، مرة فى شارع حسن الاكبر بالقاهرة وقد قبض على المتهم ، فعرف ان اسمه محمد خليل وانه من اهل المنصورة ، وقد جاء ليقتل السلطان الذى قبل ان يحكم بلاده فى ظل العدو الغاصب ، وحقق معه نائب عام جديد ، ثم سيق الى المشنقة ، فحاول اثنان من شباب «الحزب الوطنى القديم» أى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد قتل السلطان حسين كامل نفسه بقنبلة ألقياها على موكب السلطان فى ناحية رأس التين من شقة الشارلمان محمد شمس الدين ونجيب الهلباوى ، فقضى عليهما بعد ان مرا بالطرقة الطويلة المظلمة أياما بالسجن مع الاشغال الشاقة ، وأتما مدة العقوبة ، واختفى محمد شمس الدين ، أما نجيب الهلباوى فقد كانت له قصة جديرة ان تعرض على الشاشة لانها تفوق قصص الشاشة

البيضاء طرافة وإثارة ، فقد تحول الشاب الوطنى الذى كان يلهب عواطف تلاميذه بكلماته الوطنية الحارة ، وكان من تلاميذه فى مدرسة رأس التين أو العباسية باسكندرية ثلاثة لمعت أسماؤهم وعظمت مكانتهم، وارتبطوا بالعمل السياسى ، كان أولهم وأكبرهم شهرة محمود فهمى النقراشى وكان ثانيهما وثالثهما اثنين من تلاميذ النقراشى هما عبدالرازق احمد السنهورى الفقيه العظيم ، وسليمان حافظ وكيل مجلس الدولة الذى حمل تحت إبطه يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ وثيقة نزول الملك عن عرشه ، ومضى الى قصر رأس التين ليقابل الملك ، وهو ينتعل حذاء من المطاط ، ويرتدى بنطلونا من صوف الفانيلا ، وسترة من التيل الابيض الرخيص .

نجيب الهلباوى استاذ كل هؤلاء فى الوطنية ، حينما خرج من السجن ، رأى أبواب الرزق موصدة ، ورأى بعض اخوانه فى العمل السرى قد أصبحوا وزراء مثل احمد ماهر باشا ووكلاء ووزراء كمحمود فهمى النقراشى ، ونوابا كالدكتور شفيق منصور ، فطلب منهم ان يلحقوه بالعمل ، فتلكأوا ، فباع نفسه للشيطان ، وذهب يسىء بزملاء الكفاح السابق ، وتردد على الطرقة الطويلة المظلمة فى دار القضاء العالى بميدان باب الخلق ، لا ليحاكم كما حوكم من قبل ، ولا ليدفع عن نفسه تهمة القتل حينما جرؤ على أن يشرع فى قتل سلطان البلاد ومليكها ، دون أن يحفل بمستقبله ولا بمصير رأسه ، بل عرفته الطرقة الطويلة المظلمة هذه المرة ، واشيا ، وموقعا بأشجع شباب مصر فى تلك الأيام ، وكان فى هذه المرة ، يسير فى الطرقة المعهودة ، متلفتا يمينا ويسارا ، اذ كان خائفا من أن يراه أحد ، وقد غير زيه ، وخرج من

إهابه ، ولعب دور شاهد الملك فى القضية التى كانت من أكبر الجرائم فى وقتها . ولكن قبل ان تقع تلك الحادثة الرهيبة المعروفة بحادثة مقتل السردار التى وقعت فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وقعت حادثة قبلها ، اهتزت لها مصر ، وربما العالم العربى لانها كانت هذه المرة شروعا فى قتل رئيس الوزراء المصرى ، ولكن هذا الرئيس كان فوق منصبه الرسمى ، رئيسا تحبه جماهير الشعب ، وتبالغ فى حبه الى حد رفعه الى مرتبة القداسة، ذلك هو سعد زغلول ، وكان سعد ، زعيم الأمة ، قد ذهب فى يوليو سنة ١٩٤٤ فى الساعة السابعة من صباح يوم فى شهر يوليو الى محطة مصر ليستقل القطار الى الاسكندرية ليقدموا الى الملك التهانى بالعيد ، وسار سعد على عادته على رصيف المحطة فى بطء وتثاقل ، والناس على الجانبين يهتفون باسمه ، ويتدافعون نحوه لولا ان سياج الشرطة يدفهم دفعا هينا لينا ، لعلم الشرطة إن هؤلاء المتدافقين أحباء وليسوا خصوما ، ولكن برز من بين صفوف هؤلاء المتدافقين شاب ، دنا من الرئيس دنوا شديدا ولم يظن أحد انه ينوى شرا الا ان الشاب أخرج من جيبه مسدسا وأطلق منه عددا من الرصاصات أصاب بعضها ساعده وصدره ، ونقل الرئيس الى مستشفى بالمنيل يديرها طبيب مصرى تعلم فى ألمانيا ، كانت أمه المانية ، يدعى على ابراهيم رامز ، فأجرى للرجل الكبير الجريح عملية ، استخرج بها القذائف ونجا الرئيس من الموت ، على الرغم من انه كان يعانى من مرض السكر ، وكان قد دنا من السبعين ، وكان ضعيفا واهنا لعلل أخرى منها الربو .

وقبض على الجانى ، فإذا هو كالعادة شاب ، دون الخامسة والعشرين ، يطلب علم الطب فى إحدى جامعات المانيا ، وكان فى لجنة

شباب الحزب الوطنى بهذه الدولة ، وكان قد نقم على الزعيم لانه وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء ومعقولون ، فعز عليه أن يكون غاصبو بلده ، شرفاء ، وسيق الشاب الى الطرقة المظلمة ، فى دار القضاء العالى ، وعليه حراسة مشددة ، لان السلطة توهمت الجانى ، ليس سوى أداة لعدد من زعماء الحزب الوطنى القديم ، إذ كانت صلات زعماء حزب مصطفى كامل ، بألمانيا ورجالاها خلال الحرب العالمية الأولى وثيقة بحكم ان المانيا كانت عدوة بريطانيا ، ومن ثم كانت صديقة للوطنيين المصريين ، وحينما خرج على عبد اللطيف من الطرقة الطويلة المظلمة ، لم ترسله سلطات التحقيق الى المحكمة ، بل أرسلته الى مستشفى الامراض العقلية ، لأحد سببين ، أولهما ان تكون الزعامة قد أثرت ان يكون من اجترأ على الهجوم عليها واطلاق النار ضدها مجنونا، او لان الشاب كان قد خلط فعلا فى كلامه ، وهو يحقق معه ، فى المكاتب التى تقع على جانبى الطرقة الطويلة المظلمة .

ولم ينقض على هذا الحادث شهور ، حتى شهدت نفس الطرقة عددا من الشبان منهم محام واحد ، وطالبان فى المدارس العالية ، وعمال وموظفون صغار ، وقد أحاطتهم الدولة ، بحراسة غاية فى الشدة ، لا بأمر الدولة نفسها ، بل بأمر السلطات البريطانية التى كانت تحكم مصر فعلا والممثلة فى المندوب السامى البريطانى ، وكان وقتذاك قائدا بريطانيا من أشد قواد بريطانيا لانه القائد الذى كتب له ان يفتح القدس وينتزعها من الحكم العثمانى ، ويضمها لاملاك ومستعمرات التاج ، حينما دخلت فلسطين تحت الهيمنة البريطانية باسم الانتداب ، ذلك هو اللورد اللنبى ، وكان وجه اسمه «السير لى ستاك» وكان يشغل وظيفة

القائد العام للجيش المصرى والحاكم العام للسودان فى وقت واحد ، وكان القائد عائدا الى بيته في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، فأطلق عليه اربعة من الاشخاص المجهولين ، الرصاص فنقل الى المستشفى حيث مات فى صباح اليوم التالى ، فقامت قيامة بريطانيا فوجهت إنذارا عنيفا خاليا من اللياقة الواجبة بين الدول ، وفرضت على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه وعاقبتها بطرد الجيش المصرى من السودان واحتلال الجمارك واطلاق يدها فى زرع ما تشاء من أراضى منطقة الجزيرة بالسودان ، وفرضت الحكومة مكافأة ضخمة لمن يرشد عن مرتكبى الجريمة ولم ينقض سوى بضعة أسابيع حتى كان المهدى السابق نجيب الهلباوى قد قطع صلته بماضيه تماما ، وراح يبلغ السلطات عن أبناء البقية الباقية من عصابة اليد السوداء التى بدأت عملها السرى العنيف خلال ثورة ١٩١٩ ، فأردت عددا من ضباط الجيش البريطانى والموظفين البريطانيين وشرعت فى قتل عدد آخر من الموظفين المصريين الموالين لبريطانيا وفى مقدمتهم رؤساء الوزارات والوزراء .

ولذلك فرحت السلطات البريطانية حينما وضعت يدها على أفراد هذه الجماعة التى استمرت سنوات تقتل فى شوارع القاهرة كبار أعوان بريطانيا من المدنيين والعسكرين وختمت أعمالها بقتل القائد العام لجيش مصر ، السير لى ستاك ، الذى مر ذكره ، وشهدت الطرقة الطويلة المظلمة ، ما لم تشهده من قبل ، من متهمين سياسيين بلغ عددهم الثمانية يتقدمهم المحامى الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته السياسية بأن اتهم بمشاركة ابراهيم الوردانى فى جريمته ، وكان من

الاحتياط والتحرز بحيث لم تستطع السلطات إثبات أية جريمة ضده ، فاعتقلته بعد اعلان المحاكم العرفية ونفته الى مالطة وبقى هناك منفيا ، بعيدا عن الاهل والاقارب ، خمس سنوات ، فلما اطلق سراحه جمع حوله عددا من الشبان منهما الشقيقان عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت ، والعامل ابراهيم موسى ، والموظف محمود اسماعيل ، واستأنف نشاطه السرى حتى يقضى عليه ، وتردد هو وزملاؤه على تلك الطرقة الطويلة المظلمة أسابيع بل شهوراً كثيرة ، حتى حكم عليه بالموت ونفذ فيه وفى اخوانه حكم الموت فى يوم واحد ، وبقيت الطرقة تستقبل روادها ، فأستقبلت محمود عيسوى الشاب الذى قتل احمد ماهر باشا رئيس الوزراء ، وذلك باطلاق الرصاص عليه فى مجلس النواب فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، ومحمود على حسن الذى قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى ٣٠ ديسمبر ١٩٤٩ ، وغيرهم فى قضايا كل منها صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، والطرقة لا تتغير ، تشهد الاحداث ، وترى رأى العين صانعيها من الشبان الذين يدفع بهم التحمس غير المضبوط اليها، لتفتل لهم الحبال ، فيصعدون المشانق ، وعلى شفاههم ابتسامة ربما لانهم ساروا على ارض هذه الطرقة ، فكتب لهم الخلود ، وان كان القانون ينكر أعمالهم ويزدريهم ازدراءً ، فى حين تقول الطرقة ما لم يشهده مكان سواى ، وعرفت عشرات من الشبان ، صنعوا الجانب الدامى من تاريخ مصر ، ودفعوا الثمن حياتهم .

الديمقراطية

حقيقة أم سراب ؟

الديمقراطية نوعان ، نوع يتجسد فى الدساتير والقوانين والمراسيم، وهى مايشغل بال دعاة الحرية ، وطالبو حقوق الانسان .

وديمقراطية ، يعيشها الناس ، ثم يحافظون عليها ، بالدم والروح ، مهما ضعف شأنهم ، وقلت وسائل الدفاع فى أيديهم .

الديمقراطية ، خداعة جذابة ، لانها تتحول الى وثيقة ، تعد الناس ، بحقوق كاملة ، وضمانات عظيمة ، وتكبل الحاكم ، ملكا كان أو أميرا ، أو رئيسا بقيود ، تجعله لا يتحرك ولا ينطق ، وربما لا يفكر ، الا فى ظل رقابة من الشعب ، وهى تعد بعد ذلك بمحاكمة كل من تسول له نفسه بالخروج على هذه القوانين أو خرق هذه الضمانات .

وقد ألفت الشعوب أن تحارب ، حتى تحصل على وثيقة من هذه الوثائق ، فتظن ان الحرية دانت ، وأن حصون الاستبداد تهاوت ، وتقيم ليوم ظفرها به ، الاعياد وترفع الاعلام ، وترتل الأناشيد ، ثم لا يمضى إلا القليل ، حتى ترى يدها فارغة من كل ما ظنته حرية حقيقية ، ويعود الظلم الى سابق عهده ، ويعانى الضعفاء المذلة والمهانة .

أما الديمقراطية الحقيقية ، ذات السلاح المشهر فهى ، لاتكتب فى نص ، ولا تسجل فى ورقة ، انما تولد وتحيا ، مهما ضؤل نفوذها أول

الهلال - يونيه ١٩٨٢ .

الامر ، فى قلوب أناس لا يطيقون أن تمس ، ولايترددون فى أن يتنادوا، بالدفاع عنها ، وتتوالى من أجلها المعارك ، وتكثر الضحايا ، ولكن تبقى فى جميع الاحوال عزيزة الجانب . وهذا النوع من الحرية ، لايحتاج الى الساسة فقط ، انما يحتاج الى المربين ، وكتاب الصحف ، ومؤرخى التاريخ ، ومؤلفى القصص والمسرحيات ، حتى لا تمضى ساعة ، الا ويسمع المواطن ، أو يقرأ ، أو يرى دعوة ملحة الى تقديس الحرية او الذود عنها ، أما ديمقراطية النصوص والقوانين ، فقد بلغ الامر بهوانها الى انك تقرأ دستور دولة كامبراطورية هيلاسلاسى ، وتقارنه بدستور دولة عريقة فى الدستورية والحرية كفرنسا ، فيروعك ان حقوق الشعب وضماناته فى دستور هيلاسلاسى ، أعظم واكبر ، من حقوق الشعب الفرنسى . فما من حق من حقوق الناس ، ولا ضمانة من ضمانات تلك الحقوق الا نص عليها الدستور الاثيوبى ، وفى نفس السنة التى مات فيها فى تلك الدولة ذاتها مائة ألف جوعا وعطشا ، كانت سباع الملك أو الامبراطور ، تأكل من يده أغلى الطعام ، أما حقيقة هذا الدستور فهى ليست الا مجرد وعد من الحاكم بانه سيحكم بما يريده الشعب ، كما فعل «محمد على» والذى أصبح واليا لمصر ، حينما قبل سنة ١٨٠٥ أن يحكم مصر ، بشروط زعمائها وعلى رأسهم ، الزعيم العظيم عمر مكرم الذى وسد لمحمد على منصة الحكم ، لانه توسم فيه الصلاح والكفاءة ، ولم يتردد الوالى الجديد فى أن يلتزم فى حكمه بشروط الزعماء ، أى بالعدل والاصلاح ، ولكنه نسى ذلك بعد حين ، ونفى الزعيم الذى لولاه لما عرف سطوة الحكم ، وعظمة نفوذه ، وقد فعل الاميران ابراهيم ومراد فى سنة ١٧٩٥ بحضور المشايخ البكرى والشرقاوى والسيد عمر مكرم

حينما ثار الشعب فى وجه مظالم الحكام ، وفساد أمرهم ، وعدوان اتباعهم على الشعب وحقوقه وكرامته ، فوقعت وثيقة شبيهة تماما بوثيقة الملك جون سنة ١٢١٥ ، وقد دعى القاضى لتحرير هذه الوثيقة ، ثم «فرمن عليها» ، أى جعلها فرمانا ، أى مرسوما أميريا ، ولكن هذه الوثيقة التى أصبحت فرمانا ، مضغها الزمن بين فكيه ، ثم بصقها ...

ومعنى ذلك كله أن الوثائق ، مهما كانت جليلة ومهما بدت مقدسة ، ومهما اقسم الحكام باحترامها ، والنزول على مقتضاها ، لا تلبث حتى تفقد معناها ، فلا يلتفت اليها صاحب سلطة ، ولا يتمتع بها صاحب حق..

وديمقراطية الدساتير ، والقوانين ، والمراسم ، والعهود والمواثيق ، هى سراب خادع ، لها بريق يخطف الابصار ، ولها جمال تستريح له النفوس ، ولكنها أكاذيب ، لا تصدق ، وبرق خاطف ، لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ولقد جربت الامم فى العصور الحديثة ، هذه الديمقراطية ، وأصيبت بخيبة أمل كبيرة ، فقد قامت أكبر الثورات الحديثة فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وكانت تنادى بالمساواة وبالحرية وبالاخاء ، وخُيِّل للشعب الفقير، والطبقات المحرومة من الملبس والمسكن والغذاء ومن المشاركة فى الحكم ، بأدنى نصيب ، وخُيِّل لهذه الطبقات التى كانوا يسمونها بالفرنسية بـ «سان كيلوت» ومعناها الذين لايجدون ما يستر العورة ، خيل إليهم انهم غدا سيشاركون حقا فى الحكم ، وأن صوتهم سيسمع، ورأيهم سيطاع ، وأن المهانة التى يعيشون فيها ستنتهى ، فلما جلس الثوار ، ليضعوا أول دستور للثورة قننوا هذه المهانة ، فدستور سنة

١٧٩٢، قرر أول ما قرر حرمان من كان خادما أو يمتهن عملا غير محترم من أن يكون له صوت ، كما حرم كل فرد لا يؤدى ضريبة بقدر حدده القانون من أن يكون ناخبا ، فعرف الفقراء والمحرومون أن ما عقدوه من الآمال ، تهاوى وسقط على الارض ، وانه يجب على الشعب أن يثور ثلاث ثورات دامية ، سالت فيها الدماء انهارا ، وتراكمت فيها الرؤوس الطائرة أكواما ، حتى يصبح لكل فرد من الرجال وحدهم صوت . وفعلا ثارت فرنسا فى سنة ١٨٢٠ ، وفى سنة ١٨٤٨ ، وفى سنة ١٨٧٠ ومع ذلك بقى سن الناخب مرتفعا ، وبقيت طبقات عديدة محرومة من التصويت ، وحرمت المرأة طويلا ..

ولما أصبح لكل ناخب صوت ، بقيت للحكومة سقطات ، تملك معها التضييق على المعارضة وصحافتها ، ونواديها ، وأحزابها ، ووسائل تعبيرها عما ترفضه ، وتراه ماسا بالمصالح العامة .

ولا تزال الاحزاب فى فرنسا – على سبيل المثال – تطالب بمزيد من الديمقراطية ولعله من الخير ان نعرف ماذا جرى فى بلادنا ، وسندع جانبا الديمقراطية التى بدأت فى عهد اسماعيل سنة ١٨٦٦ بمجلس شورى النواب ، الذى قضى عليه الاحتلال ، واقام مقامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، حتى جاءت سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العالمية الاولى ، فأقام اللورد كتشنر الجمعية التشريعية التى دهمتها الحرب فى تلك السنة ، فأوقفت حياتها . سندع ، هذا التاريخ جانبا ، لا لانه خلا من محاولات جدية ، لمحاربة المعارضة ، والوقوف فى وجه الحاكم المطلق ، ولا لان الدور الذى قام به أمثال عبد السلام المويلحى فى مجلس شورى النواب ، ولا ما فعلته الجمعية التشريعية فى مقاومة

مشروع مد امتياز قناة السويس ، كان قليل القيمة ، بل لأن هذه الومضات السريعة القصيرة العمر ، لا تعتبر حياة دستورية متصلة ، فقد كانت الهيئات المقامة خلالها ، أجهزة عاجزة ، ولدت مهيضة النجاح، ضعيفة الصوت ، مكبلة مقيدة .

ولكن ما حدث سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ بعد ثورة ١٩١٩ ، كان صفحة جديدة حقا ، وكانت هذه الصفحة مبشرة ، بتطور حاسم ، فى شأن حقوق الشعب ، وممارسته إياها ، ومحافظته عليها ، وجدية القدر الذى تمتع به الشعب - بمقتضى نصوص الدستور - من الرقابة على الحاكم، ومحاسبته ، والمشاركة الكاملة فى وضع القوانين ، وتعديلها ، وفى اقتراح نصوص جديدة فى الدستور .

لا يستطيع أحد أن يقول ان دستور سنة ١٩٢٣ ، كان نموذجيا وانه وضع قيودا حقيقية وجدية على سلطات الملك ، والسلطة التنفيذية ، ولكن ما تضمنه الدستور من هذه القيود كان كفيلا ، بأن تولد حياة سياسية حرة ، أو تبشر بذلك .

انتخبت اعنى عينت الحكومة ، لجنة لوضع مشروع الدستور ، من ثلاثين عينا من أعيان مصر ، كان من بينهم عدد غير قليل من فقهاء القانون فى مصر ، يمكن ان تضعهم بلا تردد فى مصاف أعظم فقهاء القانون فى اوربا ، فكان من بينهم أو فى مقدمتهم حسين رشدى باشا «رئيس الوزراء فى فترة الحماية والحرب العالمية الاولى» وعبد العزيز فهمى بك «باشا» ، ومحمد على علوبة بك «باشا» ، وتوفيق دوس «بك» ، وعبد اللطيف المكباتى بك ، وكانت تعاونهم أمانة نقية ضمت واحدا من ألمع رجال القانون وأساتذته فى مصر وهو أحمد أمين بك «أستاذ فى

مدرسة الحقوق فيما بعد» وعبد الحميد بدوى بك «رئيس لجنة قضايا الحكومة فيما بعد» .

ودارت مناقشات من اعضاء هذه اللجنة الثلاثينية حول ما يجب ان يكون للشعب ، وما لا يكون للملك والسلطة التنفيذية ، كانت كأناشيد الحرية ، والدفاع عن الحقوق الشعبية ، وكان وجه الجمال فيها انها لم تكن خطبا منبرية ، تدعو الى الحرية المطلقة ، وسيادة الشعب غير المحدودة ، بل كانت مناقشات فقهية ، مؤيدة بالحجة والبرهان القانونيين ، والاسانيد المستقاة من داستير الدول الحديثة ، ومن كتب الفقهاء ، ومن أحكام محاكم فرنسا وبلجيكا وايطاليا ، واحيانا بريطانيا وألمانيا ، وكان المصدر الاصلى لهذا الدستور المصرى ، الدستور البلجيكى ، وكان مبرر الاستناد الى هذا الدستور والاعتماد عليه ، أن بلجيكا ، دولة ملكية ، وبرلمانية ، ونحن اى مصر كانت دولة ملكية وكان فقهاؤها ، يتوقون الى ان يكون لها نظام دستورى برلمانى شبيه بدولة كبلجيكا ، لا يعتدى فيها الملك ، ولا الوزراء على حقوق الشعب ، وكان كل شىء ، يعد بأن الدستور الحقيقى قادم ، والحياة السياسية الحرة مقبلة ..

وكانت بريطانيا ، التى أذنت لهذا الامل ان يساور النفوس فى مصر - تشاهد كل ما يجرى وتضحك فى كمها ، لانها كانت تنوى ان تطيح بهذا الدستور ، وأن تطفىء بغلظة هذا الامل ، اذا رفضت الاغلبية ان تضفى على الاحتلال البريطانى الشرعية ، فيكون الحاكم الحقيقى هو المندوب السامى ، وتكون البرلمانات «المجالس التشريعية» والانتخابات والاحزاب والازمات لعبا يتلهى بها الشعب حينا ويعانى بسببها حينا آخر ..

ولكن الشعب استقبل هذه الحياة الدستورية ، التى بدأت أيامها فى ١٥ من مارس سنة ١٩٢٤ ، بعد انتخابات كانت مثالا للنزاهة والحيدة - على رأى مؤرخى تلك الحقبة - اكتسح فيها حزب الوفد ، خصومه اكتساحا مروعا ، ولست أنسى يوم ذهب الملك مع رئيس الوزارة وزعيم الاغلبية فى عربة ملكية مذهبة ، تجرها خيول مطهمة ، ويجرى أمامها سياس حفاة ، يلبسون طرابيش من عهد محمد على ، وعصيا مذهبة أيضا ، فقد وقفت يومذاك فى ميدان الاسماعيلية - ميدان التحرير اليوم - فلما أهلت السيارة الملكية ، ورأيت الملك جالسا الى جوار الزعيم ، أحسست بأن قلبى كاد يقفز من الفرح على الرغم من أننى نشأت فى مدرسة الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ، وهى مدرسة كانت لا تطمئن مطلقا لسعد زغلول وجميع زملائه من حزب الامة الذى أسسه اللورد كرومر ، عميد الاحتلال البريطانى وممثله ، كنا - نحن الشعب - نحسب ان الملك قد روض ، وأن أظافره قد نزعت ، وانه دان بالطاعة للشعب ، بدليل انه جلس الى جانب الزعيم الذى كان وجهه يطفح بالبشر والسرور ، أولا لانتصاره القريب فى الانتخابات ، ولانتصاره اليوم ، بجلوسه مع الملك فى عربة واحدة . ولكن هذه الآمال - كالعادة انطفأت سريعا - فالانجليز دبروا مع الملك مقتل البريطانى السردار لى ستاك باشا ، قائد الجيش المصرى ، ثم امروا بوقف البرلمان ثم حلوه ، ثم أوقفوا الحياة النيابية ، وعينوا على رأس الوزارة ، مستشارا سابقا فى محكمة الاستئناف العليا ، انحدر من أصل تركى ، وباع نفسه بلا تردد للانجليز وللملك ، واعانه على حكم البلاد بالحديد والنار ، ابن

باشا آخر هو اسماعيل صدقي باشا الذى كان لسخرية القدر ، زميلا لمصطفى كامل فى مدرسة الحقوق .

وأظلمت الدنيا ، وانطفأت مصابيح الحرية ، وساد حكم الارهاب ، وذهب زعيم الاغلبية الى فندق «سميراميس» ، نائيا بنفسه عن الحياة العامة ، فلما ذهب إليه فريق من الطلبة هاتفين به بوصفه «أب الأمة» ، ضحك فى سخرية مرة «أنا اليوم أبو النوم» . واخلد للراحة .

ومعنى هذه المأساة ان الدستور الذى وعد الشعب ، بملك مقيد ، وشعب مطلق ومؤسسات سياسية ، راسخة ، وحقوق للناس واضحة ، داسته الاقدام وتنكر له حتى الذين وضعوه . فعبد العزيز باشا فهمى - الذى نطلق اسمه على شارع من أكبر شوارع القاهرة - بعد ان كان يدافع عن الدستور سنة ١٩٢٣ ، قال انه ثوب فضفاض ، تتعثر فى ذيوله مصر ..

وأوقف الدستور مرة أخرى فى سنة ١٩٢٨ ، على يد محمد باشا محمود ، وكان تعطيل الدستور لسخرية القدر أيضا - على يد حزب اسمى نفسه حزب الاحرار الدستوريين وكانت دعواه انه الحزب الذى وضع رجاله الدستور والذين تواصوا بأن يحموه ..

ثم استبدل بدستور سنة ١٩٢٣ ، دستورا وضع سنة ١٩٣٠ على يد اسماعيل صدقي باشا ، وكان آنذاك دستورا ليس فيه فضول ، ولا اتساع يؤذى مصر التى لم تألف الحرية والحقوق الدستورية .

وألغى الدستور الجديد ثم عاد الدستور القديم سنة ١٩٣٥ ، بعد ثورة قصيرة العمر من شباب الجامعة ، كان لسخرية القدر للمرة الثالثة، هدف شبانها أن يحملوا زعماء مصر على أن يتحدوا ليؤلفوا

وفد مفاوضة وقع فى نهايتها وثيقة ارتضوا فيها جميعا بالاحتلال البريطانى، اجراء مشروعا لمدة ٢٥ سنة ..

واستمرت مصر تحكم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم بالاحكام العرفية، مرة للحرب العالمية ، ومرة لحرب فلسطين ، ومرة لحريق القاهرة ، ومرة لقيام ثورة سنة ١٩٥٢ ومرة لحرب السويس ومرة لحرب سنة ١٩٦٧ .. وبقى الدستور يشاهد ويتأمل بعد ان حلت محله دساتير لا تقل عن ثلاثة.

وليس لهذا الكلام كله الا معنى واحد .. هو ان الدستور لايوفر حرية، ولا يرد عدوانا ، ولا يحمى حقا ..

النصوص الجميلة التى تتحدث عن حريات الشعب وحقوقه ، والتى تكفل للجميع أن يبدوا آراءهم ، ويعبروا عما يخالج نفوسهم ، وتحميهم من الاذى والتعذيب ، والسجن والاعتقال ، وتضع لأماكن الحبس والحجز والتحفظ قواعد ، تبقى للخصوم السياسيين ، للدولة ، كرامتهم، وانسانيتهم ، هذه النصوص تؤنس الشعب ، وحينما يحصل عليها المناضلون ، بعد كفاح مرير وجهاد شاق ، يهنئون بعضهم بعضا ، ويحسبون انهم حصلوا على شيء . والواقع أن أيديهم خواء ، وان المسافة بينهم وبين الهدف المنشود ، طويلة ، ومليئة بالعقبات والصعاب.

فالحرية السياسية ، تبدأ من الواقع المادى ، لحياة الناس . ما مقدار نصيبهم من التعليم والثقافة ؟ كم يكسبون ؟ فى أى نوع من المسكن يعيشون ؟ وكيف يتداوون ويعالجون ؟ وماذا يفعلون حينما يطردون من وظائفهم ؟ وأخيرا ما مدى استعدادهم للدفاع عن حقوقهم، اذا ما وقع اعتداء عليها ؟ .

فحرية النصوص ، هى نصوص لا اكثر ولا أقل ، وحرية المؤسسات، تبدو أكثر مناعة ، ولكن ليس هناك مؤسسات تستعصى على الظالم ، وعلى العسف والطغيان ، الدساتير تلغى ، والمجالس التشريعية تحل ، وكبأر القوم ، يمكن ان يتغيروا .

ولست أدعو الى الحرية الاجتماعية ، أى حرية كفالة الرزق ، وحرية مستوى معيشة مقبول ويحفظ على الانسان البسيط كرامته وانسانيته ، ويعينه على تذوق لذائذ الحياة البسيطة المتواضعة ، فهذه أيضا ، اكثر استعصاء على الشعوب .

وانما الذى أؤمن به واعتبره الحرية الحقيقية أن نعلم الناس ، كيف يحرصون عليها ، وكيف يطلبونها ، ونعلم أنفسنا كيف نمارسها فى حياتنا اليومية ، حتى تصبح تلك الحرية ، الهواء الذى نتنفسه ، والطعام الذى ناكله .

فنحن فى الاغلب الاعم ، لا نحترم حرية الآخرين ، وحينما يجور الآخرون على حريتنا نقبل الجور من الكبير صاحب السلطة ، مهما كان الجور صارخا ، ونرفضه على استحياء ، من متوسطى النفوذ، ونرفضه بعنف وغلظة ان وقعت من ضعيف .

وفى حياتنا صور من العدوان على الحرية ، نقبله ونسكت عليه ، ونعتاده على الرغم من انه واقع فى مجالات ، هى أولى المجالات ، رعاية للحرية ، وفهما لها ، فمثلا لايستطيع محام ولا صاحب قضية ولا شاهد أن يعرف متى يصل الى قاعة المحكمة ، فالمكتوب منذ نحو مائة أو يزيد على جميع الاعلانات القضائية ان من تصل اليه دعوة من المحكمة فهو مأمور بأن يكون فى رحابها فى الساعة «الثامنة افرنكى صباحا» . ولم

تتغير هذه العبارة ، حتى بعد ان زال العمل بالتوقيت الغربي ، ولكن المهم ان المحاكم تفتح جلساتها حينما تريد ، فقد تبدأ عملها فى العاشرة والحادية عشرة ، أو التاسعة ، وعلى المحامين كبارا وصغارا ، وعلى المتقاضين من نوى الاعمار الكبيرة أو الصغيرة ، ان يتركوا ساعات طويلة ، يقتلهم الملل ويثقل عليهم الشعور بالاهانة والتحقير ، وقد يكون لهذه الظاهرة ألف سبب وسبب ، وقد يكون نصيب القضاة الافاضل فى حدوثها ضئيلا جدا فما أحسب قضاتنا إلا حريصين على احترام المواعيد والحضور فى الوقت المحدد فى صحيفة الدعوى ولكن تحول بينهم ظروف الزحام وفوضى المرور وضخامة جدول الجلسات، ولكننا فى نهاية الامر أمام ظاهرة تقع فى محكمة ، وعندما تبدأ المحكمة عملها فلم تجر العادة بأن يعتذر رئيس المحكمة عن التأخير للظن بأن هذا يخدش مقام القاضى أو يحط من قدره ، ولكنى أذكر انى سمعت بأذنى رأسى قضاة بلغوا أعلى المناصب يعتذرون للمحامين وللجمهور بصوت مسموع عن التأخير ، كما اذكر انى رأيت فى محكمة قنا القاضى أحمد نشأت ، صاحب كتاب الاثبات ، يهرول ليصل الى قاعة المحكمة فى الميعاد ، ولم يبدأ عمله الا بعد ان اعتذر وهو يلتقط انفاسه ، رحمه الله .

وقد يرى بعض الناس ان هذا المثل لا يمت الى رعاية الحرية بسبب، وأراه وثيق الصلة بها ، فاحترام وقت الناس ، وظروفهم ، هو جزء من احترام الناس أنفسهم ، ولا يهمل رواد قاعات المحاكم ويتركون وكأنهم أشياء ، إلا لان الاحساس بكرامة الآخرين ضعيف أو معدوم .

والظاهرة المتصلة بهذه الظاهرة ، هى ازدحام كشف قضايا المحاكم بمائة أو مائتين أحيانا من الدعاوى ، وتحول قاعة المحكمة الى

سوق هائجة مائجة من الرجال والنساء والاطفال ، ومن اصحاب الملابس الافرنجية ، ومن اصحاب الملابس البلدية ، وتدافعهم ، ومعاناة الواحد منهم للضغط ، واحيانا الركل غير المقصود ، وما يشبه الخنق ، إذا اراد أن يصل الى منصة العدالة ، ويعانى المحامون ما هو أنكى وأشد بلاء ، فقد ألغيت منصة المحاماة التى كان المحامون يترافعون منها ، وأصبحت المرافعة همسا فى أذن القاضى ، وسط ضجيج خارج القاعة يصل الى آذان القضاة والمحامين والشهود ، وبذلك زالت أكبر ضمانة حرصت الدساتير على النص عليها وهى علنية المحاكمات ، وعلنية المرافعات ، وعلنية النطق بالاحكام ، واصبح الدخول الى قاعة المحكمة والخروج منها - والمحكمة اكثر الدور التى اعدت لحماية الحقوق وتنفيذ القوانين - أصبح الدخول الى هذه القاعة والخروج منها، جرعة مرة من احتقار القانون ، والاحساس بصوريته وعجزه وسوء ادارته .

ولا تحسبن ان شعبا تجرى فيه شئون العدالة على هذه الصورة ، يمكن ان يغضب اذا ما اعتدى على القانون ، أو تعطل الدستور ، ففى قاعات المحكمة تلقى الدروس التى تعلم افراد الشعب العاديين معنى سيادة القانون ، وجلال هذا القانون ، وهيبته .

وإنى لأوثر ان يصدر قانون بتأجيل نظر القضايا خمس سنوات لكيلا يزيد عدد القضايا فى أية محكمة عن ثلاثين قضية ولو تفه أمرها ، وقل شأنها . وانصح بألا يحال الى المعاش قاض ، وان يتحول القضاة المحالون الى المعاش ، الى قضاة يتقاضون الفرق بين معاشهم ومرتبهم، لتكون منهم دوائر ، تعرض عليها القضايا بأقل الاجر . ولو

فرض رسم اضافى على القضايا لتوفير مرتبات القضاة ، لما شعر أحد بهذه الزيادة .

مثل ذلك يجرى فى عيادات كبار الاطباء ، الاساتذة الذين ينشئون الجيل الجديد ، ويعلمون الشباب ، معنى احترام الانسان للانسان ، فيغرسون فى نفسه ، التعصب للحرية ، ورفض كل مساس بها .

وقبل أن أتكلم عن ظاهرة عيادات الاطباء أسجل هنا مدى دينى للاطباء الكبار والصغار ، فقد كنت منذ اليوم الاول لولادتى طفلا مريضا وعرفت رواد طب الاطفال المتخصصين :

عبد العزيز نظمى وحافظ عفيفى ثم عرفت عبد العزيز اسماعيل وسليمان عزمى وأجرى لى على باشا ابراهيم عمليتين بلا مقابل ، فأنا لا أشكو من حال العيادات عن عدم تقدير لاعباء الطبيب أو لجحود فضله .

فعيادات كبار الاطباء يتكدس فيها المرضى وأهلوهم ، وينتظرون بغير نظام ولا ترتيب ، ولا منطق مفهوم ساعات ، ومنهم صاحب العلة ، ومنهم صاحب الحاجة ومنهم من تقدم به السن ، ومنهم من يصحب طفلا - على وجه الاضطرار - فى حين ان هذه الآفة المؤذية ، يمكن للسادة كبار أطبائنا ، وأصحاب الصدارة بين اساتذتنا كما يمكن للنقابة ، ولوزارة الصحة ، ان يلجأوا الى نظام بطاقات الدخول . فلكل مريض بطاقة يحدد فيها موعد حضوره ، فاذا تأخر عن هذا الموعد ، حل محله صاحب الموعد التالى ، وخلت العيادات من هذا الزحام الكريه، واختفت ظاهرة ترك الناس كأنهم اشياء لا تحس ولا تعى ، ليس لديها

ما يشغلها ، والوقت عندها لا قيمة له ولا ثمن . هذا الاعتداء على كرامة المريض والسليم ووقته وراحته هو عدوان صارخ على الحرية ، ولكننا نقبله ، ونحسب انه من قضاء الله ، نذعن له ونستسلم ، مع ان قليلا جدا من التنظيم والتدبير ، يحفظ على المواطنين احساسهم بكرامتهم ، حينما يصان وقتهم ، ونعفيهم من الملل والضيق ، الذى قد يورث المرض، وهناك آفات أخرى مماثلة .

هذه الافات والعلل ، هى فى مجموعها ، سند الحاكم الظالم ، عندما تسول له نفسه ، ان يفتك بالحرية ، أو يعطل قوانينها ، أو يخلق لها قوانين تخنقها ، فقد قال أجدادنا : «إن ما أغرى فرعون على عدوانه ، قلة من يرده » .

فنحن أحوج ما نكون الى برنامج طويل ، تتواصى به الاحزاب ، ودعاة الحرية ، وطلاب الديمقراطية ، يلقنون به الشعب ، كيف يرفض كل ظلم مهما صغر ، وكل اعتداء على الكرامة مهما تفه ، فان فى حياتنا من رواسب الماضى ، تقاليد ، تؤله أو تحترم على الاقل الموظف الذى يخافه الناس ، ولا يعرفون كيف يراجعونه فى قرار ، أو يعرضون عليه مظلمة . هذا الطراز من الموظفين ، ينظر اليهم المجتمع بأنهم «أقوياء» ، ويراهم أحق بالوظيفة الكبيرة ، والمهمة الضخمة ، اما الذين يألفهم الناس ، ويستطيعون الاقتراب منهم والتحدث اليهم ، فهم «ضعفاء» لا يصلحون للرياسة - وقد حدثنا عبد الرحمن الرافعى عن الكشافين والسناجق فى عهد الامراء والمماليك ، وفى أوائل حكم محمد على فقد جرى الفلاحون على احترام الكشاف أو السنجق أو الملتزم ،

الذى يبتز من الفلاح المسكين ، آخر درهم فى جيبه لحساب الضرائب والرسوم والعوائد ، مستعملا الكرباج ، مستغلا «الفلقة» . فاذا جاء واحد من هؤلاء ، أقل قسوة وغلظة ، سخر منه الفلاحون ، وحقروا أمره، واطلقوا عليه اسماء النساء .

وفى هذا الجو ، باضت الروح الاستبدادية ، وأفرخت ، ولاتزال هذه التقاليد سائدة ، وما نستتبعه ، واقتصر همنا على طلب الغاء القوانين المقيدة للحرية - وهو طلب لا يجب ان نتهاون فيه - فنحن لانهيىء للحرية جوها ، الحرية لا تقوم بدستور ولا تلغى بدستور ، وهى لا تولد بقانون ، وتزول بقانون ، انما تولد وتحيا وتورق وتثمر ، بشعب يحارب من أجلها، ويرفض ما يمسها ولو من بعيد .

هذا العالم المجنون

لا أدرى كيف يستطيع واحد من أربعة آلاف مليون من بنى آدم يعيشون فى هذه الكرة الارضية، أن ينام ملء جفونه أو بنصف جفونه بعد ان يعلم انه يوجد الآن ٥٠ ألف قنبلة أو سلاح نووى، نصفها مملوكة لامريكا والاتحاد السوفيتى. وان القدرة التفجيرية لهذا العدد الهائل من القنابل والاسلحة الذرية تساوى مليون قنبلة من حجم قنبلة هيروشيما التى فتكت فى اقل من دقيقة بمائتى ألف من أهل هذه المدينة التعسة .. وأن ١٦ ألفا من هذه القنابل، من القنابل الاستراتيجية أى القادرة على اجتياز القارات فى اقل من ٣٠ دقيقة، تصل بعدها إلى أهدافها بالضبط، أو بالقرب من تلك الاهداف ، مع خطأ لا يزيد على بعض ياردات قليلة.

ولكن السعى الدءوب فى تحسين تلك القنابل المهلكة، وزيادة عددها كما جاء فى مقال للدكتور ميشيل فرح أستاذ العلوم المصرى، لا ينقطع باضافة قنبلة النيترون «وصواريخ ام اكس»، وقاذفة القنابل (ب١) وغواصات تريدنت حاملة الرؤوس النووية.

وقد كان الناس يتحدثون منذ بضع سنوات مضت عن امتياز من يسبق الطرف الثانى فى اطلاق السلاح الذرى ، اذ كان ممكنا فى تلك

الهلال - مارس ١٩٨٣ .

الايام تصور ان السابق فى الشر، يبطش بعدوه، ويمنعه من الرد، ولكن يقول فرانك برنابى الرئيس السابق للمركز الدولى لبحوث السلام ان تكنولوجيا الهلاك الحديثة من غواصات حاملة الرؤوس النووية ، والحاسبات وأشعة الليزر، قضت تماما على فكرة تفوق الضارب الاول على من يرد عليه .. فالهلاك المحقق هو مصير من يضرب أولا، ومن يرد عليه ثانيا، وبعبارة أخرى، انه اذا قامت الحرب النووية فالكوكب الارضى كله مصيره الفناء.

واذا كان خطر الفناء بالسلاح الذرى، الذى يهدد العالم، حقيقة لا مجازا، جدير بأن يطير النوم من أعيننا، فان هناك خطر فناء آخر، يهدد نفس العالم، ولكنه لا يبدو لنا واضحا، لانه لا يظهر فى كل بلاد الدنيا بدرجة واحدة، اذ انه يختفى تماما من دنيا الاغنياء، ليبدو مجسدا، يسير وكأنه هيكل عظمى، تكاد عظامه تتفكك بعضها من بعض فى معظم بلاد العالم، هى بلاد حزام الفقر.

وحزام الفقر هو تعبير حديث يحيط من كل عشر دول، ست دول، هى الدول التى لا يجد أبناؤها ما يملأون به بطونهم، فيصابون بأمراض المجاعة، ويتحولون الى سيقان وأذرع كالعصى الرفيعة، ووجوه شاحبة، وعيون انطفأ فيها البريق، وغابت فى محاجرها، وجماجم ضخمة ، لا تتحرك فوق أعناقها الا بصعوبة أو مشقة.

هذه هى بالضبط حال ستة أعشار العالم، الذى ينتج ما ذكرته لك من الاسلحة والقنابل.

إن سكان الدول الغنية – أى التى يحيطها حزام الغنى – عددهم ١٤٠٠ مليون يعيشون فى الدول المتقدمة التى تقع فى ثلث الكرة الارضية وفى شمال هذه الكرة بالذات أى فى أوربا الغربية، والولايات

المتحدة، والاتحاد السوفييتي واليابان.. وكلما تركنا نطاق هذا الحزام، وانحدرنا نحو الجنوب، فاننا سنقترب شيئا فشيئا من حزام الفقر، الذى يطحن خلفه ٢٤٠٠ مليون انسان يهددهم الموت جوعا، وينجون من هذا المصير البشع حتى اليوم ، بمعجزة ولا أحد ينزعج لمأساتهم، ويفكر جديا فى ردها. صحيح تكتب المقالات وتعد البحوث، وتجأر بالشكوى مؤسسة الاغذية والزراعة المعروفة (بالفاو) ولكن الحال لا تتغير الجوع يتقدم بخطى ثابتة ومعه منجل الموت، يحصد به الأرواح، والأغنياء يأكلون أحيانا أكثر مما يلزمهم ويستهلكون كل شئ من الطعام الى الشراب الى الوقود والطاقة، بلا تدبر، ولا شعور بالاثم.

ولكن قد يستيقظ الجميع ذات صباح فلا يجدون طعاما.

فقد كانت مشكلة العالم منذ سنوات مضت، هى كيفية التخلص من فائض الطعام المتراكم فى مخازنه، ومنذ أكثر قليلا من عشر سنوات، كانت الولايات المتحدة تمنح المزارعين لديها معونات ضخمة لكيلا يزرعوا مئات الالوف من الافدنة. وكانت البرازيل تلقى بالفائض من البن فى البحر، أو تستعمله وقودا، أما اليوم فلم يعد لدى العالم الا مخزونا لا يزيد عما يستهلكه العالم، فى ٢٧ يوما. أى احتياطى ٢٧ يوما من الغذاء وهو ما نعيش عليه فعلا. وقد ينفد هذا المخزون لسبب أو لآخر، وعندها يحدث أسوأ ما يمكن أن نتصوره.. سينطلق الجياع فى كل مكان، ليبحثوا عما يسد رمقهم، ولو بأكل الادميين من الاطفال والنساء، والجيف والقمامات التى تملأ الشوارع..

والذى نقوله على أنه المستقبل هو الواقع الآن فى بعض بلاد ساحل افريقيا الغربى التى ظل أهلها لسنوات متعاقبة ينتظرون سقوط الامطار

على أرضهم فلا تسقط، ومن ثم فقد بقى خمسة وعشرون مليونا من الفلاحين يتطلعون إلى السماء فى انتظار أن تمطرهم الرياح الموسمية، ومرت سنة وراء سنة والجفاف يلتهم مواشيهم، ويجفف ابارهم، وبالتالى دماءهم فى عروقهم: لقد أكلوا البذور التى يعتمدون عليها فى الزرع، والحيوانات التى تعينهم على تهيئة أرضهم.. ولم يبق أمامهم الا ان يموتوا فى بطء، ثم بسرعة فهلكت منهم الملايين.

ولجوعهم وضعفهم، وضعف مقاومة اجسادهم، تفشت بينهم الامراض الفتاكة، فأرسلت اليهم هيئة الصحة العالمية، شحنات ضخمة من الادوية، وعددا كبيرا من الاطباء، وخيام المستشفيات، الا ان أكثر من حكومة افريقية، رفضت قبول هذه المعونة الطبية، اذ قالت ان الموت بالمرض، أخف على بنيها الجائعين من الموت بالجوع.

ولكن الخطر ليس مقصورا على الفقراء، فهو يشمل الاغنياء أيضا، خذ مثلا مشكلة تغذية العالم بالقمح، فالدول الست الكبرى المصدرة للقمح اجتمعت فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ فى روما، وأوضحت أن الموقف دقيق للغاية، وأن العجز فى المنتج من القمح حقق عجزا عن المطلوب العالمى بلغ ٦٠ مليون طن، ولذلك طلبت منظمة الدول المصدرة للقمح من الدول الغنية أن تكف عن تقديم القمح كغذاء للماشية حتى لا تتجاوز الزيادة فى سعر القمح (آنذاك) ٣٥٪.. وحدث مثل هذا العجز فى الارز فالمطلوب منه للعالم أقل من الكميات التى يمكن تصديرها من الدول المصدرة لهذه الغلة، والولايات المتحدة أعلنت برنامجا منذ سنوات بهدف تقليل صادرات علف الحيوان لان أهم مكوناته دقيق الذرة، وذلك بقصد استبقاء كميات الذرة فى البلاد لتعين على زيادة انتاج اللحوم.

لكن لم يكن لأنباء أزمات انتاج الاغذية على اختلاف انواعها، وتفشى المجاعات أى أثر على العالم الآخر المشغول بل المنهك فى انتاج الاسلحة والمبيدات الانسانية، وتفضل بقراءة هذه الحقائق:

يقول روبرت مكنمارا الرئيس السابق للبنك الدولى، يوجد اليوم مليار يعنى ألف مليون من البشر تنتمى كلها إلى العالم الثالث ، أى عالم الفقراء والمحرومين تجمدت دخولها بازدياد سنوى دولارين فقط ، أى كان دخل الواحد من هذه المجموعة التعسة فى السنة - سنة ١٩٦٥ : ١٣٠ دولارا سنويا فلم يتجاوز سنة ١٩٧٥ مبلغ ١٧٥. كما ان ما يدفعه العالم الثالث فى شراء النفط وغيره من المواد والسلع التى يحتاجها، ولابد له من شرائها من الخارج، زاد على كل المعونات التى تؤديها له الدول الصغيرة.

وقد كان العالم الغنى مطمئنا إلى المستقبل ظانا إن ثراءه، وتحكمه فى التكنولوجيا هذا الساحر العجيب، وكثرة موارده، وضغطه الذى لا يقاوم على الدول المنتجة للمواد الخام، سيبعد المخاطر كلها، الا أن السنوات الاخيرة، فاجأت عالم الاغنياء بمخاطر دقت ابوابهم بعنف، حتى استولى عليهم الهلع وان كانوا لايزالون يبدون من التجمل بالصبر وضبط النفس، ما لا يستطيعه الفقراء .. فقد جاء التضخم بأهواله، ولا أحد يستطيع أن يكبح جماح هذا الغول وجاءت مع التضخم البطالة، وجاء معها الكساد الذى لم تشهد أوربا الغنية والولايات المتحدة مثله فى أشد سنى الكساد التى عرفها من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣.

والفقر والجوع فى عالم الفقراء، نذرهما فى الدول الغنية، ولا تقل آثارهما عند الجانب المادى من حياة البشر، بل تتجاوزه إلى الجانب

الاجتماعى والسياسى، فالإحصاء الذى قامت به هيئات الدراسة والتحاليل السياسية اثبتت انه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قامت فى أنحاء العالم ١٤٠ حربا اقليمية، كما وقع منذ ذلك التاريخ ٧٦ انقلابا عسكريا، وتقول نفس المصادر أن ضحايا تلك الحروب المحدودة والانقلابات، بلغت ٣٠ ألف مليون قتيل، وهو رقم أنا شخصيا أشك فيه، وتقدر نفس المصادر أن ما ينفقه العالم الآن سنويا على التسليح هو ٥٠٠ الف مليون أى ٥٠٠ مليار، أى أكثر من مليون دولار فى الدقيقة. ولكن السيد حسنى مبارك قدر هذا الانفاق فى الكلمة التى ألقاها أخيرا فى اجتماع هيئة الاغذية والزراعة فى روما بمبلغ ٦٥٠ مليارا فى السنة فقد قال:

لا يعقل أن ينفق العالم ٦٥٠ مليارا فى العالم للتسليح بينما الاحتياجات الضرورية لملايين الاشخاص مازالت غير مستوفاة، ثم قال ان ما ينفق على الصاروخ الواحد، يكفى لغرس مليون شجرة، أو رى مليون هكتار أرض، أو تغذية ٥ ملايين طفل أو بناء ٦٥ ألف مستوصف أو ٣٤٠ ألف مدرسة.

وليس ثمة شك فى أن هذا الاختلال الرهيب بين ما ينفق على التسليح، وما ينفق على الطعام، هو دليل يدين الحضارة الحديثة، ويثبت أن بها خللا لابد ان يعالج، ولكن لا يوجد أحد يفكر فى كيفية علاجه، فلا توجد هيئة واحدة فى هذا العالم الذى وصل إلي القمر، وتطوف الآن أقماره فى اجواز الفضاء والذى يزرع القلوب والاعضاء ويمد فى حياة الذين أشرفوا على الموت، تستطيع ان تشرف على الانفاق الانسانى وتوجهه إلى وجهته الصحيحة وتحول بين ضروب التبذير، والقاء بلايين

الدولارات والجنيهات، في أتون الشر الذى يدمر سعادة الناس، في شكل حروب وانقلابات لا تصل إلى غاية، ولا تحقق لأحد غرضا.

ولا أدل على تغلغل هذا الخلل في أسس حضارتنا، من أن القوى المسلحة تحكم الآن ٥٤ دولة، ولكى تستطيع هذه القوات ان تحقق وثوبها على السلطة، بقمع الخصوم ، لابد من سلاح، وتدريب ومعسكرات، ولذلك فقد باعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى في المدة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٨٠ اسلحة بنحو ثلاثين بليون دولار في حين باعت كل من الصين وفرنسا في المدة ذاتها بثلاثة مليارات.

وعلماء الاجتماع والسياسة يؤكدون ان هذا النزيف لن يقف عند حد، وان العالم – على النقيض– سيواصل توجيه أكثر ماله وجهده على شراء البندقية والمدفع والصاروخ، لانه يعتبر ان هذه الادوات المهلكة هى سبيل الامان والحماية، وان الرغيف والطعام الموفور، والمسكن الآمن، والمدرسة التى تعلم الاطفال، والمستشفى الذى يعالج المرضى، خطوط دفاع واهية لا تقف أمام سطو وغزو الخطوط الأخرى. والمظنون ان العالم سينفق في عام ٢٠٠٠ على التسليح كل سنة الف الف مليون أى مليار بدلا من ٦٥٠ الف مليون هذا اذا امكن ان يبقى هذا العالم المجنون، حتى يتم القرن العشرين، فكثير من المفكرين والمشتغلين بشئون الاقتصاد والتغذية والتسليح، يبدون تخوفا بل وفزعا من حوادث جائزة الحدوث أثناء نقل الاسلحة سواء عن طريق الخطأ أو العمد، ويخيل إلى بعض هؤلاء ان نهاية العالم ستكون بشئ من هذا القبيل، ان استطاع توازن الرعب بين الدول أن يقى العالم من حرب ذرية، فان

الخطأ أو ضعف أعصاب الجالسين وراء منصات الاسلحة الذرية، وعند مفاتيحها، التى تملك ان تفتح ابواب جهنم، لتضع حدا لحياة هذا الانسان الذى طال فقره، وسوء تدبيره لدنياه.

هل تتحقق المخاوف، أم هل ينجح الانسان، فى ان يخرج نفسه من هذا الجنون الذى أصيب به، واستولى عليه.

يحسب بعض الناس ان عالم الاقوياء عالم ميئوس منه، فلا نفع فيه ولا رجاء وانه سيواصل تسابق الهلاك، مدفوعا بالقصور الذاتى، وبالخضوع لما ألفه من التنافس والتسابق من أجل السيادة فمفتاح النجاة فى يد الفقراء، الذين يتجردون من المصلحة، وهم الاكثر عددا والاكثر غنى فى واقع الأمر.

فهل يتحقق الحلم، حلم الضعفاء الاقوياء، الفقراء الاغنياء..؟.

قضية البيضة والفرخة
أو
الفرد والمجتمع

من مشكلات الحياة، معرفة أى الشيئين سبق الأخر فى الوجود البيضة أم الفرخة، فاذا كانت البيضة هى الأصل، فمن باضها؟ واذا كانت الفرخة هى التى بدأت فى دورة الحياة، فمن أية بيضة فقست؟.

ولم أكن أتصور أن هناك مشكلة مشابهة، ولما ووجهت بها خيل إلىَّ أن وجه الشبه قائم، وأن المشكلة هناك هى المشكلة هنا.

فاذا كان المجتمع قد سبق الفرد، فمم تكون هذا المجتمع؟ الم يكن قوامه أفرادا واذا كان الفرد هو الذى سبق المجتمع، فكيف تكون الفرد، ولغته التى يتكلم بها، ويعبر عن نفسه بمفرداتها وجملها ، هى نتاج اجتماعى، لا يتم الا بالتقاء أفراد عديدين، يعلم السابقون منهم اللاحقون، كيف ينطقون وماذا ينطقون، لو ولد الفرد فى فراغ تام، وليس معه أحد سواه على شاكلته، فلن ينطق، ولن يلبس، ولن يجد قدوة يحاكيها ومثل يتآسى به. فيبقى الفرد فردا، حتى ولو انضم اليه بعد ثان وثالث، فإنهم جميعا يبقون بكما، لايعبرون ، بما لا يفقهون.

الهلال - يوليو ١٩٨٢ .

ولكن ليست المشكلة مجرد لغز التسلي وازجاء الفراغ، بل هى من ابتكار عقل مؤرخ كبير. أراد ان يسأل عن العلاقة بين المؤرخ والمجتمع، عن طبيعتها، وعن المؤثر فى طرفى المعادلة والمتأثر. فهل المؤرخ هو بعقله ومزاجه، وأسلوب تفكيره وطريقة تحليله، ونظره إلى مشكلات المجتمع ومنشئها وتطورها، ودوافع الرجال والنساء، الذين يلعبون أدوارهم الكبرى علي مسرح السياسة والقيادة، وهل هم فاعلون يشكلون التاريخ، أم هم دمى فى تيار متدافع، من انفعالات الجموع الهائلة، التى تكتسح أمامها كل شئ.

والحق انك واجد متعة وسعاده، وأنت تقرأ للمؤرخ إدوارد دكار الذى ترجمه الاستاذ أحمد حمدى محمود منذ سنوات هذه التساؤلات العديدة، وما يتفرع عنها، وتعليقاته عليها، وتعليقات كبار المؤرخين ممن نعرفهم، وممن لا نعرفهم مثل جيبون جردت، ومامسون الالمانى، ونامييه، ثم اشبنجلر، وكارلايل، ومايتكه ، وماركس وأخيرا توينبى.

ويبدأ كار ، بأولى صدحاته، فيقول لك ان الانسان الفطري الذي لم يتقدم بعد فى الحضارة ، ولم تتعقد حياته فى ظل مواصفات المدينة، أكثر اجتماعية، أى أكثر ميلا للجماعة، واندماجا فيها، وتأثرا بدفعها من الانسان المتحضر، فالفردية واحساس الانسان بذاته، وميله إلي العزلة، وحرصه على الوحدة، هى ميول حضارية حديثة، وقد بلغت هذه الروح حدها الاقصى، عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، فمبادئ هذه الثورة، التى أكدت روح الانسان المحب للتفرد والانعزال وخوفه من ذوبان شخصيته في محيط المجموع. فالانسان البدائى، لا يجد لذة كبيرة فى أن يترك وحده، بعيدا عن قرينته أو أولاده، أو أعضاء القبيلة،

ولكن الانسان الحديث يشكو مر الشكوى من ضغط المجتمع عليه ومن كونه لا يجد الا بأعظم الصعوبة، وقتا للأنفراد والتأمل الهادئ . وكل وسائل المتع الفردية، وجدت عندما ارتقي الانسان فوجد الكتاب الذي يؤنس وحشة الانسان، وينقل اليه أقوال وأفكار، وربما ما يقترب من أصوات الآخرين ويرى المجتمع الانسانى، يلتقى ويبتعد ، ويتشاجر ويتآلف ، وهو محمى تماما من ضغطهم ودفعهم وكانما يشاهد الناس من وراء حاجز ضيق، من زجاج شفاف جدا.

ولكن هذه الحقيقة تظهر لنا لو تأملنا تطور علاقة الطفل بأسرته، وعلاقة أفراد الاسرة من الصغار بالكبار، والتحولات التى تصيبها. فالطفل عقب ولادته سواء كان انسانا أو حيوانا يلتصق بأمه، ولا يدعها قط، وتسير الام والاولاد حول رقبتها ويديها، وكلما تقدم الزمن، وكبر الطفل وازداد قوة ، وقدرة على الحياة ازداد استقلالا عن والديه، وعن أمه بصفة خاصة، فاذا بلغ الطفل أشده، بعد عن والديه تماما، عند الحيوانات، يجهل الطفل أبويه، وقد يشاجرهما، ويعتدى عليهما، وتتفكك أواصر الاسرة، ويذهب كل لحال سبيله، فالمجتمع والتصاق الفرد بجماعته الصغيرة اى عائلته يظهر بوضوح كلما كان الجيل أكثر حداثة وأقل خبرة، وأقل اعتمادا على نفسه.

وقد كان من الطريف ان اشار (ادوارد كار) إلى قصة «روبنسون كروزو» الشهيرة التى ألفها الكاتب الانجليزي (دانيال ديفو)، والتى حاول بها أن يصور الانسان المنفرد الذى يعيش وحده بعيدا عن الجماعة، لا يؤنسه فى عزلته انسان مثله. ويعلق علي حالة روبنسون بقوله: أن محاولة (ديفو) أنْ يحدثنا عن انسان منفرد، قد فشلت قبل ان

تبدا لان (روبنسون) لم يكن انسانا (مقطوعا من شجرة) كما نقول نحن فى حديثنا اليومي، بل كان انجليزيا ومن مدينة (يورك) وكان معه الكتاب المقدس فى جزيرته المعزولة التى لجأ اليها لما غرق القارب الذى كان يحمله، وبذلك فقد كان له وطن ينتمى اليه، ورب يصلى له، ودين يتعبد به. ثم ساق له المؤلف زميلا مؤنسا، هو الافريقى جمعة - فرايلاى).

وذكر (كار) - على سبيل التداعي- شخصية أخرى هى اسطورة (كريلوف) في كتاب دستوفيسكى الكاتب الروسي العظيم (الشياطين)، ويورد هنا تعليقا عميقا، لان كريلوف انتحر، ليثبت انه حر فى فعل أى شئ يريده فالانتحار هو الفعل الوحيد المتاح للانسان الذي يعيش وحده معزولا عن الناس.

وقد أدى كشف هذه الحقيقة إلي تقرير أن الاختلاف بين المجتمعات البشرية ليس راجعا إلى اختلافات حيوية بين الفرد في كل من هذه التجمعات ، بل راجع إلى اختلاف السلوك الجماعى القائم علي اختلاف الاسس القوية للمجتمع والتعليم والثقافة والمعتقدات الموروثة، يعنى أن الخلاف بين الروسي والمصرى والتركي، ليس مرده اختلافا فى تكوين أفراد كل مجتمع من هذه المجتمعات من حيث أجسامهم وتكوينهم الموروث بدنيا بل راجع إلى اختلاف الظروف التى كونها كل مجتمع من هذه المجتمعات بحيث أصبح يحب أشياء ويكره أشياء، ويمارس عادات، وينفر من عادات أخرى وهكذا.

ولذلك أصبحت الوسيلة المثلى لدراسة الفروق بين الانجليزى والفرنسي مثلا ليست دراسة الانجليزى على حدة، والفرنسى على حدة،

بل دراسة المجتمع ككل. ودراسة المجتمع الفرنسي ككل وتبين الفوارق فى العادات والمعتقدات والسلوك.

ولقد أكدت الروح الفردية خصائص الحضارة الحديثة، ولا سيما مرحلة الرأسمالية، فقد كانت وحدات الانتاج والتوزيع في المراحل الاولى للرأسمالية غالبا فى أيدى أفراد متفردين وقد أكدت العقيدة التى قام عليها النظام الاجتماعى، عقيدة تزكى المبادرة الفردية، ولكن عملية الانتاج والتوزيع، كانت آخر الأمر عملية اجتماعية.

وكلنا لا نستطيع أن ننكر أن المذهب الفردى بقى زمنا طويلا ولا يزال باقيا وقد تستمر أثاره زمنا طويلا، فمن بين الناس من يؤمن بأن الفرد هو الوسيلة والغاية معا فالفرد الحر، المتفوق، الماهر، الغنى هو الطريق إلى مجتمع ثورة الحرية والرخاء والاستقرار، ولكن هذا المذهب يعانى أزمة فكل شئ الآن، يدعو إلى النقيض، الجماعة هى الغاية، والفرد هو الوسيلة، ولكن ليس بها صراع يؤدي إلى تحطيم الواحد منهما للآخر.

وينتقل (كار) بعد ذلك إلى ما يدخل فى اختصاصه تماما فيمتع القارئ بالامثلة والاستنتاجات والاستشهادات ويبدأ هذا الجانب من بحثه فيتساءل: هل التاريخ هو قصة كتبها أفراد عن أفراد يعنى هل التاريخ الذى نقرؤه ونحاول أن نعرف من خلاله ماضينا وما فعل أجدادنا وآباؤنا وما حققته الانسانية وما فشلت فيه، هي حكاية يكتبها مؤرخ فرد عن أفراد عظماء مثل مينا، وسقراط، وموسى ، والاسكندر، ورمسيس وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ومصطفى كامل، وعمر مكرم.

ويمكن الرد، علي هذا التساؤل أن المؤرخ الذى يكتب التاريخ هو بلا شك (فرد) عن أفراد. ولكن هذا الفرد ليس نتاجا شيطانيا ينبت فى أرض معزولة، لم يمر بها أحد ، ولم يروها آخرون، ولم يطبق عليها أصول الزراعة، زارعون تجمعت لديهم أصول الزراعة، خلال أجيال ، وهم يكتبون عن أفراد، نشأ كل منهم فى (حضانة أطفال)، لا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم أحد، فهؤلاء الذين يكتب عنهم المؤرخون ثمرة تفاعلات فى مجتمع، يمور بالحركة، والدفع والجذب والقلق والأسى، والخوف. وقال عن نفسه انه قرر في إحدى محاضراته أن التاريخ هو عملية تفاعل أو حوار بين المؤرخ فى الحاضر والوقائع فى الماضى.

فإلى أى حد يكون المؤرخ، هو فرد، ولكنه لانه انسان، فهو ككل انسان آخر ظاهرة اجتماعية، وأحب أن أنقل عن (كار) عبارته حرفيا:

فالمؤرخ هو حصيلة المجتمع الذى ينتمي اليه، والناطق الشعورى واللاشعورى بأسمه.

وتستهوينى من هذه العبارة قول (كار) أن المؤرخ هو المعبر الشعورى واللاشعورى عن المجتمع الذى هو ثمرته. فلأن المؤرخ هو ثمرة المجتمع، فإنه يتكون ويتخلق فى رحم هذا المجتمع، ويتغذى بدمه، ويأخذ كثيرا من أفكاره وميوله منه، وهو لايدرى وقد كنت أعرف صديقا ولد فى إحدى الدول العربية وكان ينطق جملا تجرى على ألسن أهل هذا البلد فلفت نظره إلى هذا فنفاه بشدة وقال أنا لا أقول ما تنسبه إلىّ فسكت حتي ضبطته ينطق بالتعبير الخاص بذلك الوطن، فارتبك واحمر وجهه وقال: والله ما كنت أشعر بهذا وقد يكون المثل عن تشابه مادى فى نطق الالفاظ، واستعمال المصطلحات القولية، ولكن فى الواقع أن التشابه أعمق بكثير.

فالمؤرخ يتأثر بما يجرى حوله، وإن كان يتصور أنه باق على معتقداته وانه اذا كان حرا فقد بقي كذلك حتى بعد أن فشلت مبادئ الحرية، وفازت أفكار المحافظين، وإن كان محافظا تشبثت منه بالمحافظة، ولو أن الجماهير قد سحقت المحافظين واقتحمت حصونهم.

ويضرب كار مثلا بالمؤرخ الألمانى (مايتكه) فقد الف ثلاثة كتب، كان أولها بعنوان «العالمية والدولة القومية» نشر سنة ١٩٠٧ وقد رأى فيه أن الدولة الألمانية بقيادة بسمارك قد حققت المثل الالمانية القومية، ثم كتابا ثانيا موضوعه : «فكرة منطق الدولة ونشر سنة ١٩٢٥، وكتبه بعقلية جمهورية فيمار الالمانية التى نشأت في أعقاب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولي التى انتهت سنة ١٩١٨ والتى حاول فيها الالمان ان ينبذوا النظام الشمولى وأن يصطنعوا الديمقراطية البرلمانية ثم ألف كتابا ثالثا موضوعه (بزوغ النزعة التاريخية) الذى نشر سنة ١٩٣٦، وكان التيار النازي قد جرفه، فاعتبر كل ما هو كائن حق، فالنازية جديرة بأن يسلم الالمان بها، ويذعنون لها، لانها قائمة وتسود المانيا، وتمتلئ قوة فلما هزمت المانيا النازية بعد انتصاراتها الساحقة من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥، اصابته صدمة مدمرة، وأصبح يعتقد فى ان التاريخ يخضع لرحمة المصالح العمياء (فمايتكه) المؤرخ العظيم، رغم دراساته وابحاثه وتفحصه، وشعوره بالاستقلال، كان صوت المجتمع الذى يعيش فيه. ولكن بقى فى البحث الذى خطه قلم المؤرخ العظيم (ادورو كار) أمران جديران بالعرض: الأول - اذا كان المؤرخ هو ثمرة عصره، وبيئته ولسان مجتمعه الشعورى، فما هو الموضوع الذى يتناوله المؤرخ، أيكون هو سلوك أفراد، أو فعل قوى اجتماعية؟

فهناك مؤرخون يعتقدون أن التاريخ من صنع رجال عظماء و وقد سبقت الاشارة إلى هذا المعنى.

ومؤرخون يعتقدون أن التاريخ هو دراسة تصرفات قوى اجتماعية وهناك من يعتقد باصرار أن فى التاريخ عنصرا يمكن تسميته (بالقوة اللاشخصية الهائلة) ويقصدون بهذه القوة، عنصرا في التاريخ عدا تصرفات الافراد العظماء الذين نسمع أسماءهم ونقرأ أعمالهم ومواقفهم وألفاظهم هذا العنصر يعلو على الأشخاص، ويبدو تيارا مستقلا عنهم، وخارجا عن ارادتهم، وبعيدا عن صفاتهم وخصائصهم ، ويبقى حتي بعد زوال هؤلاء الاشخاص، واختفائهم عن مسرح العمل العام، أو عن مسرح الحياة نفسها، هذا العنصر أو التيار، هو روح الجماعة ، وهو فى الواقع العامل المؤثر فى توجيه التاريخ، ومسار الأحداث والجماعات البدائية هى التى تؤمن بان العنصر الرئيسى في التاريخ هو الفرد، وكلما تقدم الانسان ، ولكن تعقد المجتمع، وتعقدت بالتالي تصرفات الانسان الفرد لما ينفعل به ويخضع له من ضغوط في المجتمع لايمكن تبينها من دراسته ومراقبته وحده، لان هذه الضغوط، لا تنصب على الانسان مباشرة بل إنها تتكون بعيدا عنه، وتكون حوله جوا هو الذى يصوغ شخصيته آخر الامر ، ويحدد قراراته ويلهمه بالدوافع والحوافز، كما يزوده بالكوابح والقيود.

وقد دافع أمريكى حديث عن النظرية التى تؤمن بالافراد واتهم أصحاب النظرية بقوله: أنتم تقتلون الشخصيات التاريخية قتلا جماعيا عندما تنظرون إلى هذه الشخصيات باعتبارها دمى للقوى الاجتماعية، والاقتصادية.

ويقول مؤرخ أن علماء علم الحياة كانوا فى القديم يقنعون بتعذيب الحيوانات بوضعهم فى أقفاص أو أحواض سمك أو معارض زجاجية دون محاولة دراسة الكائن الحى في بيئته، ومن ثم فقد كانت هذه الدراسة ناقصة تماما، لا تقع على كائن حي كامل، بل تقتصر على كائن لا هو ميت ولا هو حى، ولكن بقي مؤرخون، تستويهم دراسة شخصيات التاريخ العظيمة ويرونها السبيل الجيد لوضع تاريخ جيد في حين أن المؤرخ الانجليزى (اكتون) يقول : ليس هناك خطأ أكبر من نظرة الانسان إلي التاريخ القائم على الشغف بالشخصيات الفردية العظيمة.

ولكن ثمة خطأ من نوع آخر ولكنه مع ذلك يلحق ضررا مساويا فان استبعاد سير العظماء إطلاقا وإهدارها، يؤذى التاريخ، فان دراسة الشخصيات العظيمة أفادت التاريخ كثيرا ولكنها وحدها لاتقيم تاريخا كاملا.

وثمة نقطة أخرى ذات أهمية وخطر وهى عدم جواز إصدار أحكام منا فى أيامنا على أفعال وسلوك أقوام تصرفوا حسب ظروفهم وبواعث أنفسهم فى بيئات تخالف بيئاتنا وفي عهود لا تشبه عهودنا ويجدر بنا أن نفهم الحقيقة التالية: أن ما يقع من الجماعات فى بعض الظروف لا يمثل تماما، ما قصدوه وفكروا فيه، فان الناس يقصدون شيئا لغرض محدد ولكن لاتزال الظروف تجرفهم إلى اتجاه آخر، حتى ينتهوا إلى قرارات لم تخطر لهم على بال، وكالسفينة التى تجرى فى بحر تسوده تيارات تحتيه، فما لم تكن قبطان السفينة منتبها جيدا وما لم تكن أدوات الضبط والتوجيه فى السفينة سليمة تماما ما استطاع القبطان أن يصل إلى هدفه

إن الجماعات تحقق أهداف المجتمع التى تعيش فيه وتتأثر بالزمان الذي تحياه وإن كانت شعاراتها تعلن شيئا آخر.

ويقرر كار قول كارل ماركس: أن التاريخ لايصنع شيئا، فليس لديه ثروة طائلة ، وهو لا يحارب أى معارك فالواقع أن الذى يفعل كل شئ هو الانسان الذى يحيا حقا، والذى يملك والذى يحارب.

وقد قال (كار لايل) ما يؤيد هذه النظرة:

«إن الدافع الاول للثورة الفردية، هو الجوع والعرى، والاضطهاد باسم العدل الجاثم على أفئدة خمسة وعشرين مليونا، هذا وحده هو الدافع، وليس التفاهات المجروحة أو الفلسفات المتناقضة للمحامين الفلاسفة، وأصحاب الحوانيت الاغنياء هذا الذى يحدث فى كل الثورات المماثلة فى جميع البلدان.

إن المقصود هنا هو أن الشئ المؤثر فعلا فى توجيه التاريخ ليس فردا ولا أفرادا بعينهم، بل ليس الالوف، بل الملايين المجهولى الاسم، منهم أمراء يعللون بغير وعى إلى حد كبير ويكونون قوة اجتماعية والمؤرخ ليس بحاجة فى الظروف العادية لأن يحاط علما بعلاج فرد متذمر أو بقرية منتشرة ولكن ملايين الفلاحين المتذمرين.

والرجل العظيم لاتكون عظمته بقدر ما يمثل هذه الغابات الخفية لملايين الناس، الذين قد يجهلونها بعقولهم، وإن كانوا يحسونها بلا وعى، يقول «كار» إن الفرد فى عمله يعمل واعيا من أجل غاياته الذاتية، ولكنه غافل غير وا ع لغايات الله ومن الكلمات المبكرة المعبرة عن هذا المعنى قول آدم سميث اليد الخفية، وقول هيجل «مكر العقل» .

وفي القرآن يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم «ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى» ارادة الله هنا، هى إراد الشعب.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيطان مع الفذ (أى الفرد) والله مع الجماعة».

حينما تكره
الشعوب ذاتها

ماذا يعنى ابن خالدون بقوله «العرب اذا تغلبوا على منطقة اسرع إليها الخراب»؟ «العرب يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الصعاب».

وماذا يعنى سعد زغلول بقوله «إن مصر لايمكن أن تعيش مستقلة فإن حصلت على استقلالها، فإنها لن تلبث حتى تضيّعه»

هل العرب حقا متقاعسون ومقصرون.. وهل المصريون شعب متواكل يعتمد على الغير، وخاصة بعد حصولهم على الاستقلال؟

إن ابن خلدون يتهم العرب بذلك حيث يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الشاق والصعب، وعلي نفس الوتيرة يشير سعد زغلول إلى تقاعس المصريين وتواكلهم بعد حصولهم على الاستقلال.

يتناول الكاتب الكبير فتحى رضوان هذه القضية المهمة بالمناقشة والتحليل .

من مشكلات الأدب العربى، ما كتبه الفقيه والمؤرخ واللغوى ورجل السياسة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المولود فى تونس سنة ٧٣٢ هجرية (١٣٣٢) ميلادية والمتوفى فى مصر والمدفون بها سنة ٨٠٨ من هجرة الرسول (١٤٠٦م).

الهلال - نوفمبر ١٩٨٦ .

وابن خالدون الذى يعد أكثر أهل الفكر ذيوعا من العرب مثله فى ذلك مثل المتنبي بين الشعراء ، هو عربي قح، يتكلم العربية كأفصح كتابها، وينطق بها كأبلغ المتكلمين بها. وقد ترك فى مكتبتها كتبا لا يبلي لها ذكر ، ولا ينقطع لها أثر، مادام فى الدنيا علماء يبحثون عن الحقائق، ويدفعونها. ومادام هناك طلاب معرفة، ويبحثون عن الكتاب الجيد، والفكر المثير.

إلا ان هذا العالم المؤرخ الفقيه والإمام، ترك لقرائه من قومه وللآخرين فى مختلف اللغات، مشكلة اختلفوا فى تفسيرها أول الأمر، ثم فى ردها إلي أسباب تخيل كل منهم شيئا منها، ونحن اليوم ندلى بدلونا في هذه المعضلة التى تستأهل الدراسة والتأمل وجملة الأمر أن مؤرخ العرب العظيم، وواضع أسس علم الاجتماع كما يروى العلماء المستشرقون فى العرب رأى فى كتابه الذائع الصيت والمعنون «المصير وديوان المبتدأ والخبر فى أيام الغرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ومقدمة هذا الكتاب البديع الرائع، التى اخملت ذكر الكتاب، وتفوقت عليه فلم يعد أحد يذكر الكتاب بقدر ذكره للمقدمة وقد أفرد صاحب المقدمة والكتاب فى المقدمة عدة فصول لا توحى فقط بأن ابن خلدون هاجم العرب وانتقصهم، وحط من مروءاتهم، وأنكر شمائلهم وحسبك أن تعلم أن من بين هذه العناوين «العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» و«العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»..

وقد حير الناس وأذهلهم ان ابن خلدون العربى لغة ونشأة وتعليما والذى وصل بحذقه، ومواهبه التى لا تنكر ، وعلمه الذى لا يحد، إلى أكبر مناصب السياسة والحكم التى تساوى الآن رئيس الديوان، وكبير الآمناء والوزير ومستشار الأمير، ورئيس كتابه، ولم يبد عليه طوال اضطلاعه بهذه الوظائف المهمة، وتلك المراكز العظيمة، أنه ضيق بأهل البلد الذي يسعي الحكم فيه، أو يدير دفة السياسة له.

تحقير العرب

وقد أثار هذا الموضوع الدكتور مصطفى الشكعة عميد كليات الأداب في الدول العربية، وصاحب المؤلفات الرضية الكثيرة، التي تبلغ مبلغ الموسوعات احيانا في كتاب له حديث اسمه «الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته» والكتاب جدير بان يختص به، اساتذة التاريخ والاجتماع في كلياتنا، وصحفنا ومجلاتنا فضلا عن أساتذة الأدب فقد بسط حياة هذا العالم العظيم، في عبارة يترقرق على سطح ألفاظها معانيها فتكون سهلة التناول قريبة الأهداف، وقد وقف وقفة غير قصيرة فى الباب السابع من كتابه الذى عنونه (ابن خلدون والعرب) فجدد الاهتمام بهذا الجانب من حياة هذا الانسان النابه والرائد .

وقد قال الدكتور مصطفى الشكعة أولا فيما قاله ابن خلدون في هذا الباب المحير والمربك ما ألخصه لك فيما يلى:

لقد ذهب الدارسون في قضية ابن خلدون والعرب مذهبين متباينين.

وشكلوا فريقين متناقضين فريقا يرى ابن خلدون يقصد العرب جملة، وفريقا يرى ابن خلدون يقصد الأعراب البدو دون غيرهم.

ويري طه حسين أن ابن خلدون يقصد تحقير العرب وأن حافز ابن خلدون على ذلك الموقف من أهله العرب ما وصلوا اليه من ضعف وتدهور وتفسخ فى العصر الذى عاش فيه ابن خلدون وربط بين حالهم آنذاك ورأى ابن خلدون فيهم ونقل عن طه حسين قوله فى هذا الصدد. ليس غريبا أن يزدريهم ابن خلدون ولاسيما انه عاش فى ظل الاسرة

البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفريقية الشمالية فى القرن الخامس وخلص الدكتور طه حسين أن حملة ابن خلدون الظالمة كانت موجهة ضد العرب.

ويشاطر هذا الرأى الاستاذ محمد عبد الله عنان الذى يعتبر مؤرخ المغرب فى كتبه العظيمة والعديدة ويقول الدكتور عن الاستاذ عنان ورأيه بأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن ابن خلدون يقصد إهانة العرب أنفسهم ويعنى بذلك سكان الجزيرة العربية وليس الاعراب أو البدو ويبرر اعتقاده هذا بان ابن خلدون وهو يشرح نظريته.. فى ان العرب إذا تغلبوا علي أوطان أسرع اليها الخراب، يذكر ابن خلدون ان العرب حينما تغلبوا على العراق والشام تقوض عمرانها كذلك خربت إفريقية لما جاء اليها بنو هلال وبنو سليم، ويرد عنان على هذا الاتهام الظالم بقوله: إن العرب هم الذين افتتحوا منافذ الاناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس وافتتحوا شمال افريقيا حتى المغرب الاقصي ثم اسبانيا وعبروا جبال البرينيس إلى فرنسا، وهذه كلها أقطار وعرة النيل من البساط التى يسهل غزوها وقد افتتحها العرب جميعا فى أقل من قرن وكان ابن خلدون قد ذكر من بين مثالب العرب هو إقبالهم علي السهل من الأمور وهربهم من الشاق والصعب منها.

ثم أورد الدكتور مصطفى الشكعة فى القسم الذى يرى نقيض رأى طه وعنان والقائل بأن ابن خلدون لم يقصد العرب فى حملتهم بل قصد الاعراب كل من الدكتور على عبد الواحد وافى، والاستاذ ساطع الحصرى ومن المؤرخين الاجانب المؤيدين هذا الرأى البارون دوسلان الذى ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية. أما الدكتور الشكعة نفسه

فمع الرأي الذى يقول أن ابن خلدون لم يقصد سوى الأعراب والدليل عنده على ذلك ما قاله ابن خلدون في الباب المعنون «العرب لا يتغلبون إلا علي البسائط» انهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعبث وينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم ويري الدكتور ان هذا الكلام لا يمكن ان ينطبق إلا علي الاعراب لأن العرب قبل الاسلام وقبل قيام دولة الزاهرة وحضارتهم الباهرة في دمشق وبغداد والقاهرة مثل مكة والمدينة والطائف وصنعاء ومأرب، أى كأنهم أهل حضر وليسوا أهل فقر. كما أن ابن خلدون حينما قال إن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب والسبب فى ذلك أن العرب أمة توحش باستحكام عوايد التوحش فيهم فصار لهم خلقا وجبلة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة فيه، وهو كلام بدوره لا ينطبق إلا على الاعراب ، ولا علي العرب ذلك من شأن الاعراب ولاسيما أن هذه العبارة جاء فيها من الألفاظ الخيام والأوتاد والحجر والأتان.

فما هى حقيقة الأمر في هذه المشكلة؟

الرأى عندى أن ابن خلدون كان يعنى العرب، العرب أصحاب الحضارة الرفيعة التى امتدت من المحيط الأطلسى حتى أقصى حدود المحيط الهادى حينما التقى بأرض أسيا عند الصين.. وهى حضارة صنعها العرب بطرق عديدة تدل على أن العرب أمة حضارة وعلم وبناء وعمران.

فقد استمدت أصولها الأولي من القرآن وأحكامه التى قالت فيما قالت: إن الانسانية أمة واحدة، «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» ثم حينما اتسع مكان هذه الحضارة أفسحت صدرها، لكل صاحب موهبة أو قدرة أو طاقة أو تاريخ، ليساهم فى بنائها فترجم لها المسيحيون واليهود واحتلوا مكانة رفيعة بين رجالات الدول الاسلامية، واحتفى بهم زملاؤهم من العلماء المسلمين، وناظروهم وحاجوهم، وقرأوا لهم وترجموا عنهم ، وحسبك ان تذكر أن الذى ترجم الفلسفة اليونانية هم العرب، وان العرب أخذوا هذه الحضارة عن كتب العرب وأن العرب اسموا أرسطو المعلم الأول وأسموا فيلسوفهم (ابن رشد) المعلم الثانى وان نبيهم يقول اطلبوا العلم ولو فى الصين والذى قال «ساعة علم خير من عبادة سبعين سنة» كما قال.

فهذه الحضارة العربية التى شادها العرب هى فى الواقع حضارة انسانية وكان عند ابن خلدون وقائع تدل على أن العرب أو الاعراب أو كليهما معا ميل إلى التخريب والنهب والسلب فان تاريخ هذه الحضارة التى استمرت أكثر من عشرة قرون فيها من آلاف الدلائل والشواهد ولست استطيع أن أتصور أن مؤرخا عظيما كابن خلدون الذى تعمق التاريخ ووقف على فلسفته وجوهر حكمه أن يخلط بين العرب والاعراب، وأن تعوزه العبارة فيقول عن شيئين جد مختلفين ومعنيين جد متباينين لفظا واحدا وعبارة واحدة، فالعرب والأعراب ، لا يخلط بينهما إلا أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وحينما يجلس عالم كابن خلدون ليؤلف كتابا فى مثل خطر كتابه وعمقه ودقته وكثرة ما فيه من الحقائق والافكار والخواطر فيقع فى هذه الهفوة الكبيرة فيسب أهله وأباءه وأجداده ويرميهم بأقبح النعوت وينسب إليهم أشد المثالب، فماذا إذن التعليل لهذه الظاهرة

الغريبة يفسرها أمر من عنصرين.

العنصر الأول اختلاط فكرتين أو إجتماع شعورين عند العرب منذ دالة دولة الاسلام الكبرى التى قامت فى المدينة فدمشق فبغداد فالقاهرة ثم فى مدن الاندلس وجنوب أوربا، وصقلية.

الشعور الأول : شعور الفخر والاعتزاز والمباهاة. والشعور الثانى شعور بالنقص. يبلغ بهم إلى درجة المرارة.

أما العنصر الثاني فهو ثمرة الشعورين معا، وهو رغبة مرضية تدفعهم إلى النيل من أنفسهم، والحط من أقدارهم، والسخرية بماضيهم والإعجاب الذى لا حد له باوربا وأهل حضارتها ونظامها وفنها. والعربى وربما الشرقى كله. بقدر ما يعجب بالحضارة الغربية ينسى مكاسبها وعيوبها وما يصاحبها من فساد وظلم وعدوان وفسق ودعارة بل قد يعجب بهذه كله ولايراه عيبا، ولسنا ننسى ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه: «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى قال فيه إن مستقبل النهوض ببلادنا هو الأخذ بالحضارة الأوربية حلوها ومرها وخيرها وشرها، وقد سبقه إلى هذا القول قاسم أمين بالنص.

نحن الآن نرفض أن نهزم ونرفض أن نتأخر ونرفض أن يحل بنا الفقر والضعف، فنحاول أحيانا أن نصلح من أمرنا ونحن نتسلح بماضينا الفاخر والباهر وأحيانا أخرى نصاب باليأس ونعتقد أن ما نحاول هو عبث ومنذ أيام قال لى طبيب كبير (لا أمل لنا) وهو طبيب ناجح ماديا ومعنويا تعلم فى مصر وتعلم فى أوربا ولكن نوبات اليأس هى نوبات نفسية يصاب بها كل من يمر فى محنة .

لقد ذكرت وأنا أكتب هذه السطور ما سجله سعد زغلول زعيم ثورة

١٩١٩ والذى عرف بانه رمز المصرية لكونه (باشا) ابن فلاح بين باشوات ينحدر أكثرهم من أصول تركية وشركسية فقد قال سعد فى مذكراته الخاصة ما يلى عن كل طوائف المصريين.

قال عن الفلاحين والمزارعون أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ولا تثور لهم ثائرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم وهى الجهة الاقتصادية فهم منصرفون عن كل عمل عام إلا وسوس لهم وسواس فى صدورهم بالدين وأحكامه. وذوو الوجاهة والنفوذ فهم يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الأشتغال بها من السلطة والنفوذ من الغاية فاذا انسوا من الاشتغال ومباشرة ما يبتغون من سلطة وجاه انصرفوا عنها وتبرأوا منها والموظفون لم يبحثوا عن الوظائف ولا الترقى لكى يفيدوا الأمة بأعمالهم فيها ويستفيدوا هم منها ببسطة فى المال وفى الحياة بل لكى يستفيدوا الفوائد المادية فقط، وهم الواحد منهم فى وظيفته بأن يرضى ذمة رئيسه صاحب الكلمة النافذة ولو أغضب رئيسه لنقله من مكانه.

وقليل منهم من يعرض مصلحته الخاصة فى حق ينصره أو باطل يخذله وترى الواحد منهم وهو خال من الوظيفة يشخص العلة ويصف الدواء، وينتقد على العاملين أعمالهم، ويقبح كل عمل مخالف للعدل أو الذمة حتى يخيل لسامعه أنه اذا تولى الاحكام انصلحت الاحوال وصارت على أحسن نظام فإذا دخل فيها انعكست الاية وصار ذلك الحر فى القول رقيقا فى العمل وذلك المستقل فى الفكر ألة صماء يحركها الرئيس كيف شاء وذلك الغيور على الحق فى مقدمة العاملين

على إخفائه يسير على هذا حتى إذا تغير رئيسه عليه ورأى المستقبل مظلما فى عينيه عدل إلى حالته الأولى وأخذ يسخط على الزمان والمكان وانتظم فى سلك الاحرار.

وعن التجار قال سعد : والتجار لا يشتغلون بالأمور العمومية الا على مقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة لا يهمهم بعد ذلك شكل الحكومة إن كانت مقيدة أو مطلقة.

وقال عن العمال والصناع والفعلة لا يهتمون الا بأعمالهم وقبض أجورهم ولا يتحركون لعمل عام الا اذا حركته عوامل الدين أو رأوا فى الثورة ما يسهل عليهم عمل السلب والنهب (مذكرات سعد زغلول كراسة ٩ ص ٤٠٠ - كما يراجع كتاب دور سعد زغلول فى السياسة تأليف دكتور عبد الخالق لاشين).

ثم يحمل سعد حكمه على الأمة كلها فيقول بالجملة فليس فى جميع هذه الطبقات قوة الاعتماد على النفس التى هى منبع الحياة فيه ثم فهى دائما تسعى بالحاجة إلى الغير للاستعانة به ولا تحس من نفسها القدرة على الوصول إلى الغاية معملها الذاتى ولأنها مكثت فى الذل والاستعباد أجيالا عديدة فانها تبحث دائما عن سندها لدى الحاكم فاذا لم تجد منه ندا لها ضعفت وان وجدته تقوت وسلمت لهم الايام.

فان قرأت هذا الكلام لوجدته كرجع الصدى من كلام ابن خلدون وحكمه على العرب، فالمصريون والعرب كلاهما شئ لا يعتمد على نفسه ولا يهتم بالشئون العامة، الا اذا كانت مصلحة خاصة فى هذا الاهتمام.

وقال سعد «إن مصر لا يمكن أن تعيش مستقلة، فان حصلت على الاستقلال فإنها لن تلبث حتى تضيعه».

ولا يمكن أن يكون هذا حكم سعد على أمته وشعبه الذى أيد ثورة سنة ١٩١٩ واضطلع باعبائها واصطلى نارها، إنما هو حكم لحظة أكتئاب وضيق، وعدم رضا عما يجرى، الشعور بأن الطريق مسدود نحو الجهاد والمقاومة، الخلاصة أن الأمم التى تمر بالمحن والمصاعب والشدائد والمصائب يحس مفكروها ودعاتها أحيانا باليأس يفجر نفوسهم والقنوط يسود حياتهم فاذا هم فى لحظة أو وقت يحملون على أوطانهم، ويلعنون أهليهم وذويهم وينسبون إليهم كل نقيض ويسندون اليهم كل رذيلة ولكنه قول إلى حين.

عقل العربى

هذا عنوان كتاب وضعه كاتب أوروبى لا أظن إنه معروف لدى دوائرنا الفكرية والمشتغلين من علمائنا وكتابنا بأمور الاستشراق هو «روفائيل بتاى» .. وهو كتاب جدير لا أن نقرأه ونتأمل فيه، بل لعله كان جديرا بأن يكون من عمل مؤلف أو جماعة من المؤلفين العرب .. فما يعنيه «روفائيل باتاى» من عبارة عقل العرب « The arab mind » هو «كيف يفكر العرب» وأحرئ بالعرب فى هذه المرحلة من حياتهم العامة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تتكاثر خلالها وتتضافر دواعى التغيير والتطوير وضغوط الداخل والخارج على كل ما يجرى فى بلادنا وما يتصل بها، أن تفكر فى «كيف تفكر» وما هى وسائلنا عندما نتناول المشكلات، ونواجه الأزمات وتلم بنا المصاعب وتحتشد فى حياتنا المتاعب وما هى الحوافز الدفينة التى توجه عقولنا ونفوسنا وهل ثمة قوالب موروثة نصب فيها أفكارنا وتصوراتنا وتحد من قدراتنا فى الإحاطة بالأمور التى تؤثر فى حاضرنا ومستقبلنا وما هو الجيد الصالح من تلك القوالب وما هو الردئ والقبيح منها وكيف نستزيد من الحسن وكيف نتخلص من السيئ ؟!..

ولابد من أن أصارح القارئ الكريم بأمرين حاولت - من حيث لا أشعر - إخفاءهما، ثم وجدت انه لا داعى لهذا الاخفاء أولهما اننى لم

● الهلال - أغسطس ١٩٨٣ .

استطع أن أقطع بشئ فى الدين الذى يؤمن به الكاتب وان كنت قد رجحت منذ اللحظة الأولى انه يهودى ولكنه لم يقل حرفا واحدا فى هذا الصدد وقد قدم نفسه فى فصل تمهيدى من فصول هذا الكتاب قص فيه وقائع حياته الفكرية وبدء صلته بالاستشراق والدراسات العربية، ودراسات الشرق الأوسط، ولغاته وتراثه الفولكلورى فى العادات والملابس، والمصنوعات المختلفة والجامعات التى لحق بها، وتتلمذ فيها وهى جامعات تعددت فكان منها جامعات ومعاهد فى موطنه الاصلى «المجر» وفى المانيا ثم فى القدس وأخيرا فى جامعات الولايات المتحدة وقد توثقت علاقاته بهذه الجامعات وارتفعت درجته العلمية شيئا فشيئا حتى أصبح أستاذا من أساتذتها ومرجعا من مراجع علمائها.

قال هذا كله دون أن تصدر عنه عبارة واحدة تشير الى دينه وهو أمر غير طبيعى خصوصا عند حديثه عن ذكرياته فى الشرق العربى بعامة وفى القدس بخاصة وهى منطقة تتعقد فيها أمور الدين والعقائد والخلافات والانتماءات فى هذا الشأن.

الامر الثانى هو أننى لم أفرغ بعد من قراءة الكتاب وهو فى حاجة الى قراءة تأمل ومراجعة وتفكير لا لأن الموضوعات التى عرض لها معقدة بل على النقيض لانها من الموضوعات التى تشغل بال الكاتب الكبير والمفكر فى مصر، وفى العالم العربى، والتى نلوكها ونطيل الاشارة اليها وتحليلها وقد يبدو غريبا أن تكون المسائل التى نتناولها كثيرا تزداد صعوبة وغموضا بهذا التناول الذى كان جديرا أن يؤدى فى ذاته الى الألفة بينها وبين الكاتب .. ولكن هذه الألفة هى موطن العلة فالألفة قد تكون منزلقا الى التفـ رات السريعة والسطحية لانها تغرى

بعدم بذل الجهد، باعتبار أن الموضوع المطروق بين ومعروف وأن كل ما يحيط به، واضح.

ولكنى آثرت أن أتحدث عن هذا الكتاب، لمجرد لفت النظر اليه وبيان محتواه والتنوية باسلوبه وطريقته فى تناول موضوعاته لأنه استقر فى يقينى أننا فى أشد الحاجة الى الكثير من مؤلفات على منواله يكتبها كتابنا الذين تشغلهم شئون السياسة والذين وقفوا حياتهم على الدراسات التاريخية والجغرافية والاجتماعية.. على أن أعود اليه بعد الفراغ من قراءته والتعرف على الفكرة التى تقف وراء جميع النتائج التى أعلنها فيه والتى قد تكون ثمرة والتى لا تزال تتمخض عن تطورات بعيدة المدى لا يبدو منها حتى اليوم وعلى الرغم من ضخامة الأحداث فى هذا الشرق الا مقدماتها والفصل الذى كتبه المؤلف عن حياته حقيق بأن يلخص بين يدى الحديث عن الكتاب كله لانه يكشف لنا عن منهج هؤلاء الذين يتصدون لدراسة أمورنا والكشف عن مخبأت نفوسنا وعما تنطوى عليه دخائل عقولنا مما قد يخفى علينا على الرغم من انه يبدو واضحا لمن يقف منا موقف الفاحص «المحلل».

يقول «باتاى» فى أولى عبارات الفصل الذى كرسه للحديث عن نفسه ، انه لابد أن يعترف انه يعانى من ميول «رومانسية» بل من ارتباط استمر عمرا كاملاً بينه وبين «العربى» أما كيف بدا هذا الارتباط فلم يعد الان قادرا على التذكر ولكنه يذكر ان والده اصطحبه وهو بعد فى العاشرة من عمره الى زيارة «اجناز جولد تسهر» وعندما كانا فى طريق العودة الى البيت قال له والده: «تذكر انك صافحت أعظم مستشرق على قيد الحياة».. فلما بلغ الحادية عشرة أخذ يقرأ مغامرات

«كارل ماى» وانه تأثر بصفة خاصة، من استكشافاته الخيالية فى الصحراء العربية، وفي يوم تال قرأ بالصدفة فى إحدى الجرائد المجرية أشعارا جميلة للشاعر «والتر دى ماير» عن البلاد العربية وهو لا يزال يحتفظ بصورة رسمها لنفسه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وهو يرتدى الكوفية ويضع فوقها العقال العربى.

ويقول انه لابد أن يكون قد زار فى هذا الوقت نفسه ضريح الصوفى التركى «جول بابا» فى بوادبست، وهو الضريح المتخلف عن عهد الحكم التركى للمجر والذى يحوى داخله المدفن ذا الشاهد الذى تتوجه صورة حمامة.

ويقول روفائيل باتاى إنه فى ذلك الحين لم يستطع ان يميز بين العربى والتركى وان كان يعلم انهما ليسا واحدا وانهما معا من المسلمين مما جعله يضيف الى العربى تحفة الضريح التركى للصوفى الشهير «جول بابا».

ويقول انه فى بداية دراسته فى جامعة بودابست، حضر فصولا فى العبرية والسريانية والفارسية وقراءاته فى القرآن وتاريخ الادب العربى والتاريخ القديم للشرق الاوسط وقد انتقل الى جامعة «برسلاو» فى المانيا حيث قيد له الحظ ان يتتلمذ على المستشرق الالمانى الشهير «بروكلمان» الذى قال عنه انه بروتستانتى كما قال عن الجامعة التى كان بروكلمان يلقى فيها دروسه انها جامعة كاثوليكية مما يدل على أن الظلال الدينية تشغله فى بيان الوقائع وتحديد الشخصيات وبعد فصلين دراسيين فى جامعة بروسلا وحضر ندوة عى اللاهوت اليهودى ولما عاد الى بوادبست واصل دراسة اللغة العربية وروائع أدبها مثل معلقات الجاهلية والقرآن..

وفى بوادبست أيضا درس الفسلفة اليهودية فى القرون الوسطى وفى سنة ١٩٣٣ سافر الى فلسطين بعد حصوله على اجازة الدكتوراه فى الفلسفة وطاف بشوارع فلسطين وسمع أهلها يتكلمون فتبين أن كل دراساته فى اللغة العربية القديمة والمعاصرة لم تمكنه من أن يفهم ماذا يقول العرب فى أحاديثهم اليومية، ثم لحق بالجامعة العبرية التى كانت قد تم تأسيسها منذ ثمانى سنوات مضت قبل سنة ١٩٣٣ وهناك ركز على طائفتين اثنتين فقط «فلسطينولجى» أى الدراسات المنصبة على فسلطين والتى تشمل التاريخ والجغرافيا التاريخية وطبوغرافية البلاد .. ثم اللغة العربية.

وهذا كله يرينا كيف يحضر علماء اليهود أو علماء الغرب، انفسهم ليقوموا بالادوار التى تقتضيها تطورات الاحداث السياسية فى المنطقة التى تهمهم وتشغل بالهم فى الليل والنهار.

وما ان وضع روفائيل قدمه فى القدس حتى نجح فى أن يظفر بصداقة شيخ عربى تعلم فى الأزهر ويعتبر من مشاهير مدرسى العربية فى فلسطين وهو الشيخ أحمد فخر الدين الكنانى الخطيب أحد أعضاء أسرة من أكبر الاسرات العربية فى القدس.

وقد توطدت العلاقة بين العربى والعبرى، فخلال خمسة عشرة عاما قضاها الاخير فى مدينة القدس كان يرى صديقه الفسطينى الازهرى المسلم مرة فى الاسبوع على الأقل ، وكانا قد عقدا ميثاقا بينهما مؤداه أن يعلم «باتاى» صديقه الكنانى الخطيب «اليهودية» فى مقابل أن يعلمه الخطيب «العربية» ويقر باتاى انه بفضل الشيخ الخطيب استطاع ان يلقى نظرة باطنية على عرب القدس وان ينشئ بينه وبينهم حالة من

المعرفة الحميمة ويضيف انه قدمه الى أصدقائه العرب وعلمه الاساليب المحلية للممارسة أو المساومة فى أسواق المدينة ويقول باتاى انهما اضافا الى هذا الميثاق بندا يقضى بانه عند وقوع أحدهما فى خطر يهدد حياته يأتى الاخر لانقاذه وانقاذ اسرته وفى ١٩٣٤ حصل باتاى على درجة الدكتوراه للمرة الثانية ولكن هذه المرة من الجامعة العبرية فى القدس وكانت هذه الاجازة أول اجازة دكتوراه تمنحها هذه الجامعة لطالب يتخرج فيها.

وحدد العالم اليهودى منهجه وهدفه فأصبحت الدراسات الثقافية والانثربولوجية «علم الاجناس البشرية» لليهود الشرقيين فى فلسطين.

ويزعم أن عطفه على العرب، واهتمامه بهم لم يضعف فقط بدليل إنه كسب أصدقاء عربا جددا، وانه قام بصحبتهم الى مختلف انحاء فلسطين كما زار جميع الدول العربية المجاورة وان بقيت اورشليم القديمة «القدس» هى مركز اهتمامه الأول وقد واظب على التردد على مكتبة «الخالدى» فى القدس وقد انشأ علاقة مع أمين هذه المكتبة الشيخ أمين الانصارى الذى يطرى «باتاى» صفاته فيقول انه لم ير قط رجلا آخر فى مثل جماله وجلاله ولكنه مع صديقه الأول الشيخ أحمد الخطيب زار مرارا قبة الصخرة ثم ألف أن يقضى سهرات رمضانية فى المقاهى التى تتناثر حول الحرم ثم تلقى «باتاى» منحة دراسية من مؤسسة «مايكنج» الأمريكية، ثم حان له أن يدخل فى الدور الأخير دور الاتصال المباشر بالمؤسسات الأمريكية ، وتلقى الدرجات فيها والارتقاء فى المكانة العلمية فيها وسنسرد هذه الخطوات سريعا وفى ندوات هذه المؤسسة تعرف على عدد كبير من علماء «الانثروبولوجيا» الذين طالعوا من قبل

آثاره العلمية وكتابه الذى ضمنه النصوص العبرية المتعلقة بهذا العلم وقد كان ولا يزال هو الكتاب الوحيد .. ودعا ليلقى على طلاب جامعة «كولومبيا» محاضرات عن الناس والثقافات فى الشرق الاوسط كما دعى الى جامعة بنسلفانيا ليلقى نفس المحاضرات ثم عين استاذا فى جامعة «فيلادلفيا» وكانت هذه المحاضرات هى أهم ما يحدث به علماء الجامعات الامريكية ثم اضاف اليها محاضرات عن «المجتمع والثقافة فى اسرائيل» وتجاذبته الجامعات فكان يحاضر فى جامعة نيويورك وجامعة أوهايو الى جانب «كولومبيا» ثم طلبت منه امانة الامم المتحدة أن يكتب لها تقريرا عن الظروف الاجتماعية فى الشرق الاوسط وبناء على دعوة الاستاذ» فيليب حتى» اللبنانى الاصل أخذ يحاضر فى موضوع الثقافات والناس فى الشرق الاوسط هذه المرة فى معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة برنستون.

ويقول المؤلف انه بعد استقراره فى الولايات المتحدة أصبح زائرا مواظبا لفلسطين ولكنه حرم من زيارة القدس القديمة ومن زيارة أصدقائه العرب فاسرائيل نشأت وأصبحت دولة مستقلة وأصدقاؤه العرب أصبحوا فى الضفة الأخرى من نهر الاردن الا انه انتهز فرصة وجوده فى الشرق العربى بعد حرب سنة ١٩٦٧ ببضعة أسابيع فمضى الى القدس القديمة وهناك فقط دليل تليفون المدينة وبحث عن رقم تليفون صديقه القديم أحمد الكنانى الخطيب وادار القرص فردت عليه زوجة صديقه فأنبأها بأنه قادم لزيارة زوجها فى الغد وفى الغد ذهب الى بيت الشيخ أحمد وفى الموعد طرق الباب وفتحت له زوجته وأحسنت استقباله وتركته لحظات فى حجرة الاستقبال وجلس هو يستعيد ذكرياته وكان قد

تجاوز السبعين دخل الشيخ احمد صاحب الدار فتعانق الرجلان وأخذا يبكيان من فرط السرور بلقاء تم بينهما بعد ٢٠ عاما من الفراق والوحشة.

وأحسب أن القارئ الكريم ثقلت عليه هذه التفصيلات الكثيرة التى تبدو أنها بلا معنى والحقيقة اننى حرصت على إيرادها، لأثبت أن أمثال المؤلف يعدون لمهام ذات شأن فى دنيا السياسة ولكن الاعداد يتم أولا فى مجالات العلم والبحث لان السياسة اليوم - وقد كانت دائما -. علما، لم توضع له فى الماضى أصول ثابتة فى كتب لكن فى العصور الحديثة وضعت هذه الكتب وكثرت: وضعها مؤرخون وأساتذة علوم اجتماعية واقتصاد واحصاء وعلوم جديدة كعلم النفس بفروعه وعلم الاجتما ع بأقسامه وعلم الانسان من حيث أجناسه وتطوراته ومستقبله.

فإن «روفائيل باتاى» حينما ذهب وهو صبى لزيارة المستشرق «جولد تسهر» فى بوادست بصحبة ابيه يوم أن قال له أبوه: لقد صافحت اكبر مستشرق على قيد الحياة كان يعنى اثارة شوق الصبى الصغير للوصول الى مرتبة شبيهة بمرتبة الرجل الذى صافحه والذى قدمه اليه أبوه اذا لابد أن يكون الوالد قد توسم فى ابنه الاستعداد للعمل فى مجال الاستشراق والتفوق فيه وهو مجال يهم دوائر السياسة ودوائر المخابرات ودوائر التخطيط الحربى والاقتصادى والاجتماعى.

والخطوات التى خطاها مؤلف هذا الكتاب لم تقع اعتباطا انما جاء ت بناء على خطة تستهدف كسب عالم كبير عنده الاستعداد المطلوب للمهمة التى أعد لها وللعلم الذى أريد أن ينقطع له ويعمل فى ميدانه.

وقد قدم روفائيل باتاى لكتابه بعد ذلك بمدخلين أولهما:

من هو العربى الذى سندير عليه الحديث ؟! .. هل هو البدوى الذى يتجول فى الصحراء مع بعيره أم هو كل فرد يسكن المنطقة ؟!.. أم هو كل انسان يتكلم اللغة العربية ؟ أم هو من يجمع بين الكلام بالعربية كلغة قومية له، مع الاسلام ؟ أم هو رجل تثقف - الى جانب اللغة - بثقافة الغرب واصطنع وسائلهم فى الحياة، ومناهجهم فى العيش؟

والمدخل الثانى: ماذا يكون عقل العربى ! هناك عقل جماعى حتى يمكن أن نتحدث عن عقل العربى ؟! أم أن العقل هو جهاز فردى، تماما كالنفس والجسد بحيث لا يمكن ان يوجد عقل عام لكل العرب أو لكل الترك أو لكل الانجليز تجتمع فيه خصائصهم العقلية العامة بحيث يمثل هذا العقل الرجل المتوسط فى قومه فيتصور الأمور كما يتصورها أغلب بنى جلدته ويتأثر بها تأثرا واحدا مع تفاوت بسيط ويسلم بأشياء ويرفض أشياء وهكذا ..

والمدخلان طريقان نتناولهما فى الحلقة التالية من هذا البحث.

رحلة كاتب صهيونى
فى العقل العربى

فى الحلقة السابقة، قدمت للقارئ الكريم كتاب «عقل العربى» كما قدمت مؤلفه المجرى «روفائيل باتاى» واكتفيت بتلخيص فكرتين جعلهما المؤلف مفتتح دراسته: الاولى ... هل يمكن أن يكون هناك عقل «عقل عربى» و «عقل عجمى» ، «عقل انجليزى» أم أن العقل جهاز شخصى، يستعمله فرد بذاته، ولا يمكن أن يكون لجماعة ما عقل تتشابه خصائصه ومزاياه عند كل فرد فى الجماعة من العلم والجهل والفقر والغنى والقوة والضعف والانتساب الى الطبقة الحاكمة أو الطبقات المحكومة والاقامة فى المدينة والاقامة فى الريف.

والفكرة الثانية: من هو العربى الذى نتحدث عنه عندما نتحدث عن عقل العربى.

أما الفكرة الأولى : وهى «العقل الجماعى»، وهل هو حقيقة فعلية، أم هو مجرد إفتراض نظرى، فتناولها المؤلف على النحو التالى :

يجب أن نسلم بداءة ذى بدء، أن كل ما نقوله عن عقل جماعة من الناس هو «تجريد» والحق أنه يوجد عقل فردى، أو خصائص أو شخصيات، بنفس القدر من الصحة عندما نتحدث عن أجساد بشرية، ومع ذلك فقد درجنا على استعمال لفظى «الجسد البشرى» ونحن نخبر

● الهلال - سبتمبر ١٩٨٣ .

عن اكتشافات جديدة عن خصائص لم تكن معلومة من قبل عن «الجسد البشرى» وأن عمليات التجريد التى نقدم على القيام بها سواء عن الجسد البشرى أو العقل البشرى، ليست سوى عمليات تعميم فنحن حين نقول عن دلالة محيط الرأس للانسان والذى نعنى بها حيث طول الرءوس وقصرها وهذه العملية عملية قسمة طول راس الانسان على عرضه ثم ضرب حاصل القسمة فى «١٠٠» ثم نقول بعد ذلك بالنسبة للعربى البدوى بأن طول رأسه يتراوح بين ٧٢ و ٧٥ سنتيمترا ونقسم الاجناس الاخرى من حيث طول الرأس وقصرها وهذه العملية تتم باختيار الف فرد من الجنس المراد وضعه فى درجة بين الاجناس وأخذ مقاس رءوسهم بالطريقة السالفة الذكر واعتبار هذا الالف من الجنس عينة ممثلة للجنس كله، فهى عملية تعميم أى أن ما نراه غالبا فى جزء أو عدد من أفراد جنس أو جماعة بصفة عامة نعتبره خصائص الجماعة كلها، مع ما يقترن مع هذا التعميم من خطأ أو تجاوز.

وقل أن نصادف فى كتابات السيكولوچيين الاجتماعيين أى علماء النفس الذين يقيمون اعتبارا خاصا لظروف الناس الاجتماعية ولا فى كتاب الانتروبولوجيين ذوى الاتجاه النفسى أى علماء الجنس البشرى أصحاب هذا الاتجاه «يعتبر عقل الجماعة» أو «العقل القومى» أو «عقل الجنس» وما إلى ذلك من الاصطلاحات لانهم يؤثرون بدلا من هذه الاصطلاحات استعمال لفظ «الشخصية» و «الخاصية» وفى دراستهم يناقشون العناصر المشتركة فى «الشخصيات الفردية» أو «الخصائص الفردية» بين أفراد جماعة معينة من بيئة اجتماعية ثقافية بالذات.

وقد كان من أوائل العلماء الذين تصدوا لمشكلة الفرد وخلفيته الثقافية الاجتماعية «رالف لنتون» والعالم النفسى «ابرام كاردنر» وفكرة

«الشخصية الاساسية» قد نماها واستوفى جوانبها، هذين العالمان وقد قامت دراساتهما على الاسس التالية :

أولا : أن تجارب الانسان المبكرة تترك أثرا باقيا فى شخصيته ولا سيما أجهزته المعبرة عنه والكاشفة عن خصائصه.

ثانيا : وهذه التجارب ذاتها تترك أثرا مماثلا لمن يتعرض لها من أفراد نفس الجماعة.

ثالثا : أن وسائل تربية الاطفال وتنشئتهم المستعملة فى جماعة معينة تترك أثرا مشابها فى أطفال الجماعة، وإن لم يتطابق الأثر فى جميع الأحوال .

رابعا : تتباين وسائل تنشئة الأطفال النموذجية أى المعتبرة نموذجا فى الجماعة من هذه الجماعة الى تلك.

فاذا كانت هذه المعطيات الأولية صحيحة ومؤيدة بثروة ضخمة من التجارب والملاحظات فانه يترتب عليها ما يلى :

١- أن أعضاء أية جماعة يتمتعون أو يمرون بتجارب مبكرة مشتركة.

٢- وبناء على هذه التجارب المتشابهة تتكون لهم خصائص شخصية كثيرة مشتركة.

٣- وبما أن تجارب الطفولة فى مجتمع تختلف عنها فى مجتمع آخر، فإن شخصيات الأفراد لابد أن تتباين فى مجتمع عنها فى مجتمع آخر.. ومن ثم يمكننا أن نعرف الشخصية الاساسية لمجتمع «شعب، طبقة، طائفة».

إنها تلك الشخصية التى يشارك فى خصائصها الجزء الاكبر من أفراد ذلك المجتمع، وهى كما قلنا تختلف فى مجتمع عن مجتمع آخر،

لاختلاف التجارب المبكرة فى الجماعات الانسانية المتعددة وهذه الشخصية الجماعية لا تتطابق مع شخصية الفرد فى الجماعة على حدة ولكنها «إن جاز لنا أن نستعمل تعبيرا آخر تتطابق مع اسلوب تقدير القيم الذى يستعمله أفراد هذه الجماعة التى توضع تحت الدراسة.

وليس ثمه شك أن الجماعة الانسانية فى أى موقع فى الارض لا تصا غ فقط بالتجارب المبكرة فى حياة أفرادها بل بمئات من العناصر المادية والروحية ابتداء من البيئة الطبيعية: الجبل أو السهل، النهر أو البحر، والغيط أو الصحراء، وبالصناعات : الزراعة أو الصيد أو الرعى أو صيد البر أو صيد البحر وصيد الطير وصيد الحيوان وجدب البيئة وقلة الرزق بها، أو خصوبتها وغناها وكثرة الرزق فيها وقد لاحظ ابن خلدون الفارق الكبير بين الغزالة فى الجبل وبين العنزة فى السهل - الاولى عنيفة قوية العضلات رشيقة كثيرة الحركة حساسة. عصبية تترقب الخطر وتخشاه وتتعبه بالجرى الشديد الذى تعينها عليه رشاقتها وقلة لحمها فى حين أن العنزة مترهلة بطيئة الحركة هادئة مستقرة لا تنتظر خطرا ولا تتوقاه.

ولا يمنعنا من تقرير هذه الحقيقة قول العلماء فى «انثروبولوجيا الجماعة كلاكوهان ومرى الذين يحذران من الوقوع فى خطأ الاعتقاد بأن الجماعة يمكن أن تكون لها «عقل مشترك» اذ لا يكون لاية جماعة عقل مشترك الا بقدر ما يكون لهذه الجماعة ذاتها ساقان مشتركان.

ويقول المؤلف أن أية بيئة ثقافية اجتماعية تؤثر على الافراد الذين يعيشون داخل بطاقتها وتطبيعهم بطابعها بقيمها وبالمسلك المتعارف عليه فى مختلف المواقف، بالمقبول و«المرضى عنه» من الافعال وردود

الافعال فضلا عن الحاجات والغايات الموجهة بثقافة الجماعة .. ويضيف الكاتب أنه أثناء الطفولة أن العضو الصغير فى الجماعة يستبطن بالتدريج أوامر جماعته التى تغرس فيه عن طريق والديه والمربيات «الدادات» والمدرسين والقساوسة «أى رجال الدين».. وكل الأشخاص الأخرين الذين يمارسون السلطة فى المجتمع وفى السن المبكرة تشق هذه الأوامر طريقها فى نفس الطفل مستغلة إغراء المكافاة عن الفعل الجيد أو الفعل المتفق مع توجيهات الجماعه أو خطر التهديد بالعقاب على الطفل السيئ أو الطفل المخالف لتعليمات الجماعة أيضا وعلى مر الزمن ينجح اسلوب المكافاة والعقاب فى أن يستقر فى باطن الفرد ويخلق ما يعرف فى النظرية الفردية بالذات الأعلى الذى يتسلط على الشخصية ويهيمن عليها أى يحل محل العوامل الخارجية وبهذه الطريقة يصبح الفرد المثقف والمتأقلم مع جماعته ممثلا صادقا لبيئته الجماعية الثقافية ويصبح عضوا فى الفئة المتفوقة عدديا فى المجتمع والتى تكون بخصائصها الشخصية «النموذج» لهذا المجتمع.

وختم الكاتب كلامه بقوله : لذلك أنا أجرؤ على تعريف الشخصية لوطن ما أنها المجموع الكلى للحوافز والمعتقدات .. والقيم التى يؤمن بها العدد الأكبر فى مجتمع قومى.

ويريد المؤلف أن يفرق بين الشخصية القومية وبين الشخصة «النموذج» فالشخصية القومية تنطبق بالنسبة للمجتمعات الكبيرة كوطن مثلا..

أما الشخصية النموذج لجماعة ما فتنطبق على المجتمعات الصغيرة كطائفة فى وطن ففى الشعوب التى تتكون من أجناس مختلفة يمكن

البحث فيها عن الشخصية «النموذج» لا الشخصية القومية وبتطبيق هذه النظرية على العالم العربى فإن الانسان يجد على سبيل التأكيد الشخصية «النموذج» الواحدة لاهل الشمال فى السودان وثانية لأهل السودان فى الجنوب ويجد الباحث أن الفرق بين الشخصيتين كبير الى درجة انه لن يستطيع أن يضع الشخصيتين فى اطار شخصية قومية واحدة.

فاذا كانت الاجناس فى جماعة متقاربة .. فان الباحث يستطيع أن يضعها جميعها فى اطار الشخصية القومية مع وجود هذه الاجناس التى تحمل كل منها اسما فالأغلبية المسلمة فى العالم العربى قريبة غاية القرب من الأقليات غير المسلمة بحيث يمكن أن تدخل الاغلبية والأقلية فى اطار الشخصية القومية بعكس الحال فى المثل السابق عن شمال السودان وجنوبه.

ويقول أن نظرية الشخصية القومية تفيد فى الدراسات عند المقارنة بين مجتمعات انسانية محتلفة وان كان أعضاء هذه المجتمعات لا تشعر بوجود هذه الحقبة الاخيرة فان أعضاء كل مجتمع انسانى يشعرون بأنهم أعضاء فى وطن .. وأنهم يفكرون تفكيرا مشتركا وأنهم يحملون نفس القسمات.

وكل أقلية تعيش مع أكثرية تشعر بأنها جماعة قومية والغرب ابتداء بأعظم مفكر الى أبسط عضو فى مجتمعهم يدركون الشخصية العامة التى ينتمون اليها، واذا قرأ الانسان مقدمة ابن خلدون «١٣٣٢ - ١٤٠٦ ميلادية» الذى هو بلا جدال أكبر عبقرية عربية بين مؤرخيهم فضلا عن أنه أكبر عبقرية انتجها الغرب فانه يثير انتباهه المرة بعد المرة

بتعليقات «ابن خلدون» على الشخصية العربية التى تضيف الى صورة الشخصية العربية كما يراها مؤرخ يمكنه أن يراجع تاريخ سبعة قرون مضت من تاريخ العرب.

وان كان من الملاحظ أن ابن خلدون حينما يتحدث عن العرب، انما يعنى «البدو» الذين يعيشون أصلا فى الصحراء ويفدون الى المجتمعات الحضارية .. ومن ثم جاء ما يشير اليه ابن خلدون من التخريب الذى تحدثه القبائل العربية فى المجتمعات المتحضرة التى تفد إليها.

وينتقل المؤلف - بسوء نية واضح من ابن خلدون الى المقريزى فينقل عنه شهادة سيئة غاية السوء فى المصريين فيقول انهم «ينقصهم الثبات، ولا يعرفون حسم الامور، كسالى يعيبهم القنوط، شرهون، عديمو الصبر، يحتقرون الدرس، يملؤهم الخوف، والغيرة ويميلون الى السباب والى التزييف ومستعدون أن يسلموا مواطنيهم الى السلطان ويتهمونهم لديه وإن كانوا ليسوا جميعا على هذا الخلق وإن كانت هذه صفات أكثرهم» ويعود المقريزى المرة بعد المرة الى تأكيد هذه الصورة البشعة للمصريين وابراز خطوطها على ما فيها من مجافاة صارخة للحقيقة.

واذا كنت قد أوردت ما أقتبسه المؤلف من ابن خلدون والمقريزى فليتضح للقارئ منهج المؤلف العادى للمصريين والعرب.

وليس ثمه شبهة فى أن شهادة المقريزى السيئة فى حق المصريين لا تصدر من نقص فى وطنيته ولا خطأ فى حكمه ولا هوى فى تقديره انما فاته على الرغم من سعة علمه وكونه مؤرخا عظيما أن يدرك أن المصريين ينعتهم بتلك النعوت انما هم ثمرة قرون من الحكم السيئ والحكومة المختلة والسلاطين الاغبياء الذين يتسمون بالقسوة والغلظة

والشره وسوء السيرة والذين يستعينون بأسوا الوزراء وأشد الرجال جهلا وأعظمهم طمعا.

ويورد المؤلف عددا من الامثلة العربية الشائعة يعدها نوافذ يطل منها على النفس أو الشخصية العربية مثل : «أنا وأخويا على ابن عمى» «وانا وابن عمى على الغريب» يعتبرها دليلا على قوة الرابطة الاسرية فى حين هى فى الواقع دعوة الى الترابط ضد الاخوين فهى دعوة سياسية ووطنية أكثر منها دعوة عائلية.

وينقل عن المقريزى ما ذكره من أقوال أحد صحابة رسول الله كشعب الأحبار الذى قال انه عندما خلق الله الدنيا، جعل لكل شئ فيها قرينا وقد قال «العقل» إنى ذاهب الى مصر «قال الاستسلام: إنى ذاهب الى البادية» فقالت الصحة : إنى ذاهبة معاك اليها.

ثم عاد فنقل عن المقريزى ثانية شيئا قريب الشبة مما سبق فقال حينما خلق الله الدنيا قال معها عشرة أنواع من الخلق والطبع فخلق الايمان والشرف والشجاعة والتمرد والكبرياء والنفاق والثراء والفقر والهناء والشقاء قال الايمان انى ذاهب الى اليمن فقال الايمان انى ذاهب معك اليه» وقالت الشجاعة انى ذاهبة الى سوريا فقالت الثورة: أنى ذاهبة معك اليها» فقالت الكبرياء انى ذاهبة الى العراق فقالت الصفة انى ذاهبة معك» وقال الفقر إنى ذاهب الى الصحراء فقال الشفاء إنى ذاهب».

ويقول روفائيل باتاى، ان هذه المقتبسات من المقريزى تدل على أن إحساس العناصر العربية داخل نطاق الامة العربية وبالفوارق بعضها البعض احساس قديم وهو يدل على أن أعضاء تلك الامة يتأملون فى شخصيتهم القومية ويدركون انها موجودة وهو شئ ينكره البعض اذ

يذهبون الى القول بأن العرب لم يكونوا يحسون بوجود عام لهم وبقيام قومية تظلهم وتشبه أواخرهم.

وقفز المؤلف بضعة قرون لينقل عن كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى وضعه طه حسين سنة ١٩٣٨، أن العقل الشرقى من حيث صياغة الفكرة والتلقى والفهم والحكم ويبرر هذا بحجة أن العقل المصرى كان جزءا من عقل أهل البحر الابيض المتوسط وهؤلاء من الغرب وحضارتهم أوربية وكل الدلائل تشير حتى فى العصر الحديث أن مصر قد اتخذت نموذجها فى كل جوانب الحياة المادية والروحية من القريب وهى تتطور نحو التطابق مع اوروبا ويضيف المؤلف نقلا عن طه حسين أيضا أن مصر قادرة على أن تحتفظ بشخصيتها سليمة ومتماسكة حتى فى وجه الموجة التى باشرتها قوى خارجية كثيرة ذات سلطان عقيم ، بحيث لا يكون ثمة تخوف من تحلل مصر أمام غزو الغرب.

ونقف عند هذا القدر ، لنكمل الحديث فى حلقة قادمة بإذن الله.

معالم شخصية الإنسان العربى عند كاتب صهيونى

فى حلقتين سابقتين قدمت كتاب «عقل العربى» أو كيف يفكر العربى، وهو الكتاب الذى وضعه المؤلف المجرى الاصل «روفائيل باتاى»، وقد تساءل فى أقسامه التمهيدية عن أمرين، أولهما : هل هناك شىء اسمه «عقل العربى» أو عقل «التركى» أى هناك حقا عقل مجرد ، لا ينتسب الى فرد بذاته إنما ينتمى الى شعب ككل ، وهو فى هذه الحال، لا يمثل عقلا موجودا بالفعل بل عقلا متخيلا، يضم الخصائص الاساسية والكبرى لعقل شعب من شعوب الأرض، يتفق عند صفات معينة بفضل المعيشة المشتركة بين أفراد هذا الشعب لسنوات عديدة ، والبيئة الجغرافية الواحدة، والتاريخ الذى يروى لجميع أفراد هذا الشعب قصة وجودهم ، وما تعرضوا له من مآس ، أو ما صادفوه من محن وما حققوه من انتصارات ، وما تركوه للناس من بعدهم من آثار باقية ، مادية ومعنوية .

ثم انتقل المؤلف الى أمور تقع فى حياة الانسان ، فى الايام الاولى من طفولته ، تطبعه بطابع ظاهر ، فان تعرض أطفال شعب لاسلوب

● الهلال - أكتوبر ١٩٨٣ .

واحد فى التنشئة والتربية ، تقاربت خصائصهم وتلاقت صفاتهم وان اختلفت أعمارهم وحظوظهم من الثقافة ونصيبهم من الثروة والمكانة والنفوذ .

وبعد أن فرغ المؤلف من ذكر هذه المقدمات ، بدأ يعدد الأمور التى يتعرض لها الطفل العربى، والتى تخرجه فى قالب مشترك مع بقية أنداده وزملائه فى العروبة من الاطفال .. وهذه الامور هى فى رأى المؤلف :

١ ـ طابع القسوة ..

٢ ـ طابع التمييز بين الأطفال الذكور والاطفال الإناث .

٣ ـ فترة الرضاعة .

٤ ـ الجذور الاولى للعلاقة بين النساء والرجال فى المجتمع العربى .

ثم تحدث عن مرحلتين فى حياة العربى «الذكر والانثى» ، فجعل لمرحلة دخول الطفل الذكر الى عالم الرجل فصلا قصيرا ولبناء الطفلة الانثى فصلا مشابها .

وما يرويه المؤلف فى هذا القسم من كتابه فى لغة العالم ومنهجه القائم على الملاحظة والمقارنة ، والوثائق المكتوبة أحيانا ، ليس سوى مجرد ملاحظات شخصية للمؤلف ،ليس فيها من العلم شىء وهى فى حقيقة الأمر ملاحظات عن ظواهر شائعة فى العالم كله ، لا تقتصر على «العرب» ، ولا على أطفالهم ذكورا كانوا أو إناثا ..

وهذه ملاحظات مرد أكثرها رغبة المؤلف فى انتقاص «العربى» والحاق العيب اليه، والى تربيته لأطفاله ، مع الزعم بأن هذا العيب عيب «العربى» ، لا يشاركه فيه غيره من الشعوب .

وأنا لا أقر هذه الملاحظات ، ولا أتناولها كحقائق انتهى اليها المؤلف بعد البحث والتحقيق ولكنى أذكرها واتأمل فيها ، وأعرضها على القارىء ليرى فيها منهجا من مناهج الاوربيين الذين يتوفرون على دراستنا ككل : أدبنا ، ودينا ، وتراثنا العلمى، وتاريخنا الاجتماعى والسياسى ، وحياتنا اليومية ، وعلائقنا مع غيرنا من الأجانب ، وصلات دولنا بسواها من الدول وهم يبذلون فى هذا جهدا فهم يتركون بلادهم ليعيشوا بين ظهرانينا ويختلطون بأفراد الشعب فى حياته اليومية ، فى أحيائه الشعبية ويحاولون تفهم لغته العادية ، وحظ أمثاله الموروثة وعاداته وأعياده ، وأفراحه ، وأحزانه ، ويتظاهرون فى كل هذا ، بأنهم يغوصون فى أعماقنا ، ويدققون فى صغائر وكبائر مايتردد فى صدورنا وما يضطرب فى عقولنا ، ويردونه الى أصوله الخفية ، وبواعثه الدفينة ، ليقفوا على حقائق تصوراتنا ، والبعيد من جذور معتقداتنا .

والحق أنهم يتجشمون عناء، ويبذلون جهدا لا ليعرفوا عن أنفسنا مالا نعرفه، حبا فى الحقيقة بل على النقيض هم يتكلفون هذا الجهد ، ويصبرون على هذا العناء، ليقولوا لنا .. اننا نضرب لكم المثل فى دراسة حياتكم أنتم والوقوف على مداخلها ومخارجها ، وتبين ظواهرها وخوافيها ، لنثبت لكم أننا جادون ومجتهدون ، وأنتم كسالى فارغون .

ثم لكى يقولوا لنا : «نحن نفعل مانفعل لنقف على عيوبكم أيها العرب لنصلحها لكم ، ونرسم لكم طريق الخروج مما ترديتم فيه » .

وعندها سنصدقهم نحن العرب لاننا نجد بالفعل جهدا خارقا وجمعا لوقائع عديدة ، ووثائق مطمورة ، وارتيادا لاماكن مجهولة ، وأبنية

مغمورة ، وأسماء مجهولة ، وكتب ضائعة . وعندها يسهل عليهم أن يزعزعوا ثقتنا بأنفسنا ، فنتجرع سموم ما انتهوا اليه من دواعى تخلفنا .

ومرد تصورنا وأكثره ـ عندهم ـ يجتمع فى كلمتين : ديننا وما اصطلح عليه من عِلل ، وثقافتنا وما امتلأت به من نقائص !

والحل فى رأيهم أن نأخذ عن الغرب اسلوب حياته ، ومنهج تفكيره وأساليب بحثه ودرسه ، وبالجملة أن نجرى فى فلكه ، ونتعلق بذيله ، ونكون منه كالتابع للسيد. ويهذا يسهل على الغرب ، ان ينزعنا من جذورنا ويعلقنا فى الهواء ، فلا نحن كانفسنا ولا نحن كالغير ، وانما نحن مسخ مشوه ! .

أما الظواهر التى أحصاها المؤلف «روفائيل باتاى» فنبدؤها بظاهرة «القسوة» ! .

ويتساءل هل هناك نموذج عام لتربية الطفل وتنشئته ، فى العالم العربى ؟ .. يعنى هل يحرص العربى الغنى والفقير ، المثقف والامى ، صاحب النفوذ والعادى ، على أن يخرج طفله على صورة ما ، هى الصورة المفضلة عند العربى أينما كان ؟! . كأن يكون الطفل ، فصيحا لان العربى محبا للفصاحة ، شجاعا لان الشجاعة حاجة من حاجيات الحياة العربية البدوية أصلا التى تستلزم اجادة ركوب الخيل ، واستعمال السيف، وتحمل شظف العيش. وككل الاسئلة ذات الاهمية ، يكون الجواب صعبا . ويزيد من صعوبة الاجابة عن هذا السؤال بالنسبة للعربى وتنشئته للاطفال ، لعدم وجود مادة كافية للبحث . ولكن

يمكن الوصول الى نتيجة تقريبية .. فهناك مثلان هما العراق والمغرب، نجدهما فى موضوع تنشئة الاطفال وتربيتهم أقرب إحدهما الى الاخر ، من أقاليم أخرى كاليونان، أو الطليان أو جنوب اقليم الصحراء الزنجية. فالتشابه الثقافى بين العراق والمغرب على تباعدهما الجغرافى يرشح للفكر أن هناك عاملا اساسيا فى تنشئة الاطفال فى العالم العربى كله.

والامر الثانى انه ثبت فى الدراسات التى تناولت نواحى مختلفة فى العالم العربى ، أن هناك على الأقل بعض السمات المتشابهة فى طريقة تنشئة الأطفال .

من ذلك ظاهرة العقاب البدنى ، فالدراسة لاحوال الحياة العربية ، يتم اللجوء الى تأديب الاطفال بالعقاب البدنى ، أى بالضرب أو الصفع أو الركل أو ربما الجلد على الأقدام العارية ، أما فى الغرب فالاباء لا يميلون الى توقيع جزاء بدنى على الاطفال اذا اخطئوا ويكتفون مثلا بالتأنيب والتوبيخ الشديد، وحرمان الطفل من غذاء شهى أو لعبة يحبها أو رحلة يتمناها .

ويمكن الخلاص الى نتيجة وهى انه فيما يتعلق بالاذى الجسمانى فان العالم العربى كله متفق على اصطناع هذه الوسيلة .

والظاهرة الثانية السائدة فى العالم العربى كله أن صورة الاب ، هى دائما صورة الاب الشديد ، الجاف ، القاسى، الحريص على التمتع بالسيادة فى العائلة ، وأما الام على النقيض ، وهى الطرف المحب العطوف . وتدور على الالسن أقوال تؤكد هذا التناقض ، وتظهره .

ومن هنا ينشأ الطفل العربى ، وهو يحترم أباه بل ويخافه ، وينطوى

على تـعلق مـلـؤه المودة لامه . ويبـقى حب الاطفـال لأمـهم حتـى بعد زواجهم ..

ويسبب هذا التناقض فى تربية الاطفال ، نجد الامهات العطوفات ، أما رافضات صراحة استعمال القسوة مع أطفالهم ، وأما يحاولن فى الخفاء منع وقوع آثاره عليهم أو تخفيف هذه الاثار .

وانتقل المؤلف الى ظاهرة تفضيل الأطفال الذكور على الاطفال الإناث .

ويقول انه منذ أن تحمل الأم ، والعائلة كلها ترجو أن يكون الجنين ذكرا ، فاذا جاء المولود ذكرا ، فرحت الأم ، وفرح أكثر منها الاب ، وفرحت الاسرة كلها ، أما اذا كان المولود بنتا ، شعرت الوالدة بالحزن، وشعر الوالد بالعار ، وشملت الاسرة كلها خيبة الامل . ويرتكب المؤلف خطأ فيشير الى الآية القرآنية :

«واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، لا يدرى أيمسكه على هون أو يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون» .

وعلى الرغم من انه يذكر الاية ويذكر رقم السورة ، ورقم الاية الا أنه يصر على أن هذا القول صادر عن الرسول ، وليس كلام الله تعالى.

ويمضى الصهيونى يقول: انه على الرغم من ذلك النصح «النبوى» فان عادة وأد البنات اى قتلهن وهن صغيرات استمرت فى بعض نواحى الجزيرة بعد انتشار الاسلام لاجيال .

ثم يقول انه وإن كانت عادة الوأد لحسن الحظ قد اختفت الا ان

تقاليد الخجل من البنت والشعور بالعار عند مولدها قد انتقل الى الاجيال الحديثة . وأن الرجل الذى لا يرزق بالبنين لقبه «أبو البنات» وان هذا اللقب يكشف عن الشعور بالمهانة . والحق انه لا يدل على شىء من ذلك ، فأبو البنات قد يعبر عن شعور بالعطف على ذلك الرجل ، دون أن يخالط هذا الشعور احساس بمهانته أو قلة شأنه .

ومن المضحك أن المؤلف يقول انه فى أحوال كثيرة قتل الاباء بناتهن عند إرتكابهن ما يخل بالخلق . وأن ذلك بقية من عادة وأد البنات .

وقد نقل المؤلف عن الكاتب الفلسطينى موسى العلمى ، فقرة يصف بها مولد طفل ذكر فى عائلة فلسطينية ، وكيف شملت البهجة الام والاب والجدة والجد، وجميع أفراد الاسرة ، حينما اعلنت الداية أن المولود «ذكر» ، وكيف ارتفعت الزغاريد، وعلت الضحكات ، فى حين انه لو كان المولود انثى لتفرق الجمع فى صمت ، ولترك الوالد يعانى من شعوره بالعار وحيدا . ويدلل على التفرقة بين الاولاد والبنات . ان الاولاد يرتدون أثواب البنات حتى يصلوا الى سن الخامسة فلا تصيبهم عين الحسود ! .

ومما يترتب على هذه النظرة أن المرأة تتأثر بمولودها فان رزقت بنتا اعتبرت خادمة فى منزل زوجها بلا أجر ، وان رزقت ولدا اعتنى بها وعوملت معاملة حسنة !...

والطفل الذكر يعامل معاملة غير الطفلة ، وهذا يظهر فى المظهر الثالث الذى استوقف نظر المؤلف ، فالطفل الذكر يبقى على ثدى أمه ترضعه حتى يصل الى الثالثة من عمره ، واذا بكى من الجوع ، أو من

شيء تسرع الام فتلقمه ثديها ، ليسكت ويستريح ، في حين أن البنت تسلم لغير الأم لتتولى إطعامها ، وتحرم من الالتصاق الطويل بجسد الام ، ويرتب المؤلف على هذا النظام في الرضاعة أمورا ضخمة ، فالطفل الذكر، من طول التصاقه بأمه ، يرضع مع لبن أمه ، شعوره بالسيادة وانه يكفي ان ينطق بطلب حتى يلبى طلبه في الحال - مع أن البنت تترك تصرخ ولا أحد يلتفت اليها .

والتصاق الولد بأمه وبصدرها بصفة خاصة يجعله يؤمن بأن المرأة، هي مخلوق وظيفته جنسية وعملها هو ارضاء رغباته بل نزواته ، وأنه يكفي أن يرى نفسه مع امرأة حتى يفكر في أن يحاول معها ارضاء نزواته الجسدية ، ولو لم يكن قد رآها من قبل ، ولا تحدث اليها وهو يفترض انها لابد ان تطيعه وتلبي أوامره .

ومن ثم فقد قام المجتمع العربي على قسمين ، قسم للرجال مستقل بهم ، وخاص لهم ، وقسم للنساء . وذلك حتى لا يقع الاختلاط المؤدي الى اتصال الرجل الفوري بالمرأة لانه اعتاد كلما رأى امرأة ، أن يشبع ميله لها ، الذي رضعه مع لبن أمه ، والانثى بدورها لا تقاوم رغبة الرجل ولا ترده عنها ، لأنها ألفت طاعته ، في شخص الوالدة التي أباحت له صدرها ، أكثر مما يحتاج، أي حتى بعد سن الفطام .

ويذكر المؤلف شيئا لم اسمع به وهو ان الامهات العربيات اعتدن أن يدللن أولادهن ، ويحاولن ارضاءهم اذا بكوا فاذا كانوا قد تجاوزوا سن الرضاعة ، دغدغن أجسادهم في المناطق الحساسة منها ، ليبعثن ضحكهم . ومع الزمن يألف الولد هذا التدليل الجسدي ، ويهيئه لحياة

ملؤها المتعة الجسدية ، مما يحيل المجتمع العربى الى مجتمع تسوده تلك الرغبات، مما يجعل الرجل فى خوف من سرعة استجابة «نسائه» الى المثيرات البدنية ، مما يؤكد انفصال الجنسين .

والطريف أن المؤلف يرتكب خطأ فادحا هنا ويزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا لفظا واحدا يطلق على الاطفال سواء كانوا ذكورا أو إناثا، فالاب يقول عن أولاده جميعا «الاولاد» ، ولا يوجد لفظ يطلق على الدرجة سواء كانت من الاناث أو الذكور، فى حين أن كلمة «طفل» التى يقابلها لفظ «عيل» هى لفظ ينطلق الى المولود الذكر والانثى وهى التى تقابل في الانجليزية لفظ child ، ولفظ infant بالفرنسية ويسترسل المؤلف فى خطأه فيزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا «الاولاد» و «البنات» فليس فى عقل الانسان العربي وجود «للطفل» ولا «للاطفال» ، وهو ادعاء ممتلىء جهلا كما ترى !

وهكذا يمضى هذا الكاتب الصيهونى فى اخلاط أفكاره !

أيام فى الجزائر

أكتب هذه السطور عقب عودتى من الجزائر بعد زيارة لها لم تدم سوى خمسة أيام، ولذلك فأنا لا أزعم أنى عرفت الجزائر معرفة تسمح لى بالتحدث عنها حديث العارف بها، الواقف على خصائص أهلها، ومداخل ومخارج عاصمتها، فالأيام الخمسة التى قضيتها فى عاصمة هذه الدولة العظيمة، صرفت أكثرها فى داخل فندق الأوراس العظيم، دائرا مع أكثر من ألف زائر، جاءوا من أقصى المعمورة وأدناها، وشملوا الأبيض والأسود والأصفر والمسلم والمسيحى والبوذى، والشبان الذين تطفر من جوانبهم الحيوية والشيوخ الذين يسيرون متئدين. وقد قيدت الأيام أقدامهم، ونظمت الأعوام حركتهم، والمتطرفين الذين حاولوا فى بلادهم أن يقلبوا كل شىء، ويغيروا كل نظام والمحافظون الذين يؤمنون بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن التغيير الحقيقى الذى يريح الناس ويسعدهم، هو التغيير الذى يأتى مع الأيام، لاتحس بخطاه، ولا تدرك حقيقة مسعاه، وهو فى الواقع دائب لايكلف.

وقد كان بوسعى أن أقول لك أنى فتنت بالدنيا التى احتواها الفندق العظيم، بأدواره التسعة، وبما سمعته على ألسنة رواده، ونزلائه وما أكثر مادته، وأعظم تنوعه، وما أغنى تجارب الذين قالوه جادين ومازحين، راضين وغاضبين.

● الهلال - أبريل ١٩٨٣ .

ولو فعلت لكان حديثي عن فندق بالجزائر، لا الجزائر نفسها، أو عن أمة من البشر، لاذت بفندق، وراحت تدبر حياتها، وكأنها استقلت عن الدنيا، واكتفت بذاتها عن كل ما عداها، ولكنى أريد أن أحدثك عن الجزائر ذاتها..

والجزائر ذاتها عزيزة عليَّ، أثيرة عندى أحبها غاية الحب، بعد بلدى مصر، كما لم أحب قطرا ولا بلدا سواها، وأنى فى هذا الحب قد تأسيت بالبدوى الذى سئل عن أحب بنيه إليه فقال: الغائب، حتى يعود، والمريض حتى يشفى، والصغير حتى يكبر.. *إلخ*، وقد كانت *الجزائر* من بلدان المغرب، الغائب، والصغير والمريض والفقير، على جمال أرضها، ونفاسة موقعها، وجلال تاريخها، وعظم مواردها، وضخامة الدور الذى أدته فى الماضى وفى الحاضر الجارى وفى المستقبل المأمول.

افترس الإستعمار الفرنسى الجزائر سنة ١٨٣٠ قبل أن تسقط جميع الدول العربية تباعا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فتونس سقطت فى براثن الاستعمار قبل سقوط مصر بعام واحد إذا ابتليت بالغزو البريطانى سنة ١٨٨٢، فى حين هجم الطليان على ليبيا، قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١١، وسقطت دولة المغرب سنة ١٩١٢، وقد كان لاحتلال فرنسا للجزائر قصة لاندرى أهى ملهاة تضحك، أم مأساة تبكى، ولكن الاحتلال الفرنسى وقع على أى حال.

ففى سنة ١٧٩٤ احتاجت فرنسا إلى القمح الجزائرى، فقبلت الجزائر أن تبيعها قدرا غير قليل من هذا القمح، ولم تقنع الجزائر بتقديم صفقة البيع، بل عززتها بمنح فرنسا تسهيلات مالية لتستطيع أن

تتم الشراء، فبلغ ما شغل ذمة فرنسا من ثمن القمح، ومن التسهيلات الممنوحة ما قدره ثمانية عشر مليونا، استمرت حكومة فرنسا تماطل وتسوف فى سدادها، وكانت تتذرع كل مرة بسبب، فمرة تزعم أن القمح الذى اشترته لم يكن كله سليما، وتارة تشكك فى صحة حساب الثمن، وحساب القرض، حتى انتهى الأمر إلى الهبوط بكل ذلك إلى أحد عشر مليونا من الفرنكات، فقبلت الجزائر أن تقبض مقابل حقوقها سبعة ملايين فرنك، ومع ذلك لم تدفع فرنسا شيئا مطلقا.

فلما كان اليوم التاسع عشر من إبريل سنة ١٨٢٧ استدعى «الداى حسين» وهو اللقب الذى كان يحمله رئيس الدولة الجزائرية قنصل فرنسا ثم سأله أن تدفع دولته الدين الذى يشغل ذمتها، فأجاب القنصل فى غطرسة وغلظة بأن دولته لن تكتب شيئا فى هذا الموضوع، فغضب الحاكم الجزائرى الأعلى وأمر القنصل بأن يبارح مجلسه، فأبى القنصل أن يطيع الأمر متحديا، فما كان من الداى إلا أن انهال ضربا على هذا القنصل الجلف غير المهذب، «بمنشة» كانت فى يده.. وفرحت فرنسا بهذه المناسبة، فقد كانت تتلمس أدنى ملابسة لغزو الجزائر، ولا يبعد أن يكن مسلك القنصل، متعمدا، ومقصودا.

واستمر مؤرخو الغرب، يدعون أن «الداى» أضاع استقلال بلاده، لأنه استسلم لنوبة غضب فى لحظة، ففرج عنه ضربه منشة، وهو تصور أبعد ما يكون عن الحقيقة.

ولكن «مترنيخ» وزير خارجية فرنسا، وبطل السياسة الخارجية الأوربية كلها فى ذلك الحين، قال أنه ليس معقولا أن تنفق فرنسا مائة مليون فرنك، وأن تعرض حياة أربعين ألفا من الجنود والضباط

الفرنسيين ثأرا لكرامتها القومية من أجل الإهانة التى لحقت بقنصلها يوم ضرب بمنشة، وقد قاوم الجزائريون الغزوة الفرنسية التى تمت فى عهد الملك الفرنسى شارل العاشر، الذى تولى العرش بعد سقوط الجمهورية، وعودة الملكية إلى فرنسا، ولم يعد هناك بعد ذلك سياسى واحد فى أوربا، لا يعلم بأن فرنسا قامت بهذه الغزوة، لأن شارل العاشر كان فى حاجة إلى عمل ضخم، يكسب عطف الفرنسيين، بعد أن بلغت الحالة السياسية والمالية فى فرنسا، فى عهد عودة الملكية أخطر دركات السوء، وأن العمل كله ليس سوى عمل استعمارى.

وقد كان مما زعمه القادة الفرنسيون أنهم بغزوهم للجزائر، أنقذوها من غزاة آخرين، وأن الغزو استوحى الروح المسيحية وأن المسيحية باركته، وختموا أكاذيبهم بأن الحضارة الحقة لن تدخل إلى الجزائر إلا على أيدى الغزاة الفرنسيين.

ولكن الشعب الجزائرى أدب هؤلاء الغزاة فقد انبرى لمقاومتهم وصدهم بقيادة القائد المغوار المظفر الموهوب، الأمير عبدالقادر الجزائرى فقد استمر يدافع عن أرض بلاده شبرا شبرا ضد هؤلاء البرابرة الذين ينسبون أنفسهم إلي المسيحية كذبا وبهتانا والحق بهم هزائم مدوية، كان دويها فى فرنسا، وفى أوربا كلها، عنيفا، فقد ثبت للعالم كله الفارق العظيم، بين الاستعماريين المسلحين بأحسن أسلحة ذلك الزمان، مع عدد لا ينفد من الميرة والذخيرة، فى حين كان المجاهدون الجزائريون قادمين من الصحراء على صهوات جيادهم، ولا سلاح عندهم إلا بنادقهم، وما يغنمونه من أسلحة الفرنسيين الغزاة.

ولما استطاع الفرنسيون أن يأسروا «عبدالقادر الجزائرى» بعد سنوات طويلة من القتال، أحسوا أنهم مدينون له بالتكريم والإعزاز، فقد

ترفع عن كل دنايا القتال، ومكائده، فلم يقتل شيخا، ولا طفلا، ولا امرأة، ولا لجأ إلى حرق القرى ولا تعذيب الأسرى، ولا نقض العهود، مع براعة في المناورة، وشجاعة في الهجوم، فنقلوه إلى فرنسا، ثم سمحوا له أن يختار منفاه، فاختار سوريا منفى له، وقد جاء المصورون الفرنسيون فرسموا لوحات رائعة للقائد الجزائرى الفذ، وأودعت إحدى هذه اللوحات فى متحف «اللوفر» بباريس، وقد بدا فى تلك اللوحة، وهو يمتطى صهوة جواده، كأنما هو نسر محلق فى السماء.

وليس هذا المدخل التاريخى، مجرد رواية لمقدمة الحياة السياسية الجزائرية فى القرنين الأخيرين من حياتها، بل إنها الخلفية «للحياة الجزائرية اليوم»، فقد طبعت هذه المآسى، الشعب الجزائرى، خلال المقاومة الباسلة عند وقوع الغزوة ثم عند اندلاع الثورة الجزائرية فى الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤، التى بهرت الدنيا، بمواقعها التى كانت ضروبا متصلة فى البطولات النادرة، التى تحدت الموت والبربرية الأوربية التى زعمت أنها أوربية. وحضارية ومسيحية.

فأنت فى كل مكان فى الجزائر لاتجد إلا شعبا جادا متجهما، يكاد لا يعرف الابتسام، دع عنك الضحك وهو يتحدث إليك فى اقتضاب، يجيب بأقل الألفاظ، بنعم أو لا، وهما مادة الحديث، أما الثرثرة، فلا يعرفها ولا يطيقها، والناس فى شوارع الجزائر، يسير أكثرهم فرادى، كل ماض فى سبيله، وإذا سار اثنان معا، فقد لا يدور بينهما حديث، وأن تبادلا الحديث ففى وقار وحرص.

لقد عرف الشعب الجزائرى من نكبات الاحتلال وويلاته، ما لم تتعهده أمة عربية أخرى، ذلك لأن الجزائر كانت ضحية الاستعمار

الفرنسى الأول فى الشرق العربى، وكان وقوعها فى الشاطىء المقابل لشاطىء فرنسا، مغريا لهذه الأخيرة، بأن تتشبث بها، وتنشب فيها أظفارها، وكان جمال طبيعة الجزائر المدنية، والجزائر الدولة، أمرا يخلب لب الفرنسى، فيعدها امتدادا لبلاده، فإن مناطق الجبال، فى الجزائر، هى امتداد لجبال الألب الخضراء الفاتنة، وقد تزرى بجمال المناطق المشابهة فى إيطاليا وفرنسا وسويسرا، وقد كان الغزو الفرنسى سياسيا ودينيا، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية، تؤيد هذا الفتح البربرى، وكان الجزائريون لا يوصفون بأنهم جزائريون فى البلاغات العسكرية، بل يسمون بالمسلمين، فكان ذلك باعثا للجزائريين إلى التمسك بإسلامهم، فى الظاهر والباطن، والإحساس بأنهم مقصدون بالذات، لأنهم مسلمون شديدو الإيمان لدينهم، مع وطنيتهم المتقدة، وعروبتهم الصلبة.

وقد تكهن عدد غير قليل من الساسة والقادة الفرنسيين أن الحرب ستبقى بينهم وبين الجزائريين وأنها ستكون حربا عوانا تكلفهم الأموال والأرواح، وتورطهم فى الجرائم والمغازى، وتلطخ سمعتهم، وقد تحقق هذا كله وبحذافيره، وفى مقدمة هؤلاء الساسة البارون لاكويه.

وقد كانت تمر فترات تبدو فيها الحرب قد بلغت نهايتها مثلا فى سنة ١٨٤٧ بعد انتهاء مقاومة الأمير عبدالقادر، ولكن ما لبثت أن قامت ثورات فى السنوات: ١٨٥٩ و١٨٦٤ و١٨٧١ بقيادة قبائل بنى سناشى وأولاد سيدى الشيخ.

والجزائريون عاشوا قرنين متصلين من الزمان، يقتلون بلا حساب وتحرق قراهم، وتهدم بيوتهم، ويعذب رجالهم وشبابهم، وتنهب

محاصيلهم، فلما كانت الثورة سنة ١٩٥٤، جن الاستعماريون جنونا، فلم يتركوا موبقة حتى قارفوها، ولا دنية إلا اقترفوها، فأصبح من حق الجزائريين أن يتركوا الابتسام والخفة لسواهم.

ومع ذلك فليس ثمة مدينة في العالم العربي كمدينة الجزائر، تبهج النفس، باتساع شوارعها، وجمال ميادينها، ونظافتها وأناقتها، وخلوها من الضجيج والغبار والفوضى.

ولعل الأثر الباقي من الاستعمار الباغي، في حياة الجزائري، هو عجز الأجيال الكبيرة عن التخاطب باللغة العربية، فقد دبرت فرنسا، حملة ضارية، بلغت أقصى الشدة، لتنزع الجزائريين من أصولهم العربية، فحرمت عليهم التعلم بالعربية، وبالتالي التكلم بها، حتى أصبحت العربية غريبة في مدن الجزائر وأن بقيت تعلم وتلقن مع القرآن الكريم في القبائل والريف.

ولعل هذا الحاجز الصفيق الذي أقامه الاستعماريون بين الجزائريين والعرب، قد ضاعف من ضيقهم وترفعهم عن الاختلاط بالآخرين ولكن عودة الجزائر إلي العربية كانت عودة الحبيب إلي حبيبه، فقد أخذ هواري بومدين على عاتقه تعريب الجزائر، فأصبحت العربية لغة التعليم في جميع المدارس الإبتدائية والثانوية وبعض أجزاء الجامعة، وأصبح الجيل الجديد كله، يتكلم بطلاقة، وحرص على القواعد، حتى بات يشعرك أن تسمع عربية أطفال الجزائر، من بنين وبنات، كما حدث لي، في حي القصبة المجيد، فقد انتهزت فرصة خروج التلاميذ والتلميذات من مدارسهم، ووقفت بينهم وسألتهم بالعربية فأجابوني بها، وسألت واحدة منهم: هل تحبين الممثلين المصريين، فقالت: «زي السكر» فلم

أستطع أن أمنع نفسى من تحيتها بقولى: «بل أنت مثل السكر» فاحمرت وجنتاها.

وترى آثار التعريب فى بعض الأحوال، فلا تسمع مثلا لفظ «أوتوبيس» وإنما لفظ «الحافلة» هو اللفظ المستعمل، وجميع لافتات المحال العامة بالعربية البسيطة الواضحة، التى تكاد تكتب عربية مصرية.

وقد خصصت وقتا للجلوس أمام شاشة التليفزيون الجزائرى ووقتا آخر للإذاعة الجزائرية، فأرضيانى معا، فالمذيعات الجزائريات شابات جميلات وقورات، ينطقن العربية الصحيحة، بمخارج ألفاظ مصرية، خالية من عجمة العامية الجزائرية، ويبدو من إلقائهن أنهن يثقفن أنفسهن، وكذلك كان وقع كلام المذيعات الجزائريات، ينطقن العربية باستقامة، ويعلقن بلا تردد ولا تعثر، يفسد على السامع فهم ما يقولون، وبلا ميوعة تنفر النفس، وتؤذى الذوق، وقد راعنى تعليق إحدى المذيعات على رسالة مستمعة قالت إنها تقيم بناحية «سيدى فروج» فقالت المذيعة: «يا أختى أنت تقيمين فى حى سيدى فرج، لا سيدى فروج، وسيدى فروج هذا، «نطق غربى» فتحاشيه إذا كتبت لى مرة أخرى.. وهذا حرص لاتجده عندنا فنحن نميل إلي تقديم الأفرنجى على العربى، حتى باتت أكثر شركاتنا وحتى مؤسساتنا العامة تعرف بعدد من الحروف الأجنبية، وأصبحنا ندخل على كلامنا أجزاء من كلمات أجنبية ككلمة «تريد» بمعنى التجارة «كومبانى» بمعنى الشركة، وغلب «البوتيك» و«الكافتيريا» و«البار» و«الريستوران» على «المحل» و«المطعم» و«الملهى»، وهذا مالا تراه فى الجزائر، التى يسمى الشارع فيها «نهجا» والشارع

الصغير «جادة» والأصغر «حارة» والتى تطلق أسماء شهدائها على شوارعها وميادينها فى حين أننا فى القاهرة فوضى فى إطلاق الأسماء بحيث، حرم أكثر أبطالنا مثل «عمر مكرم» بطل الوطنية المصرية الأول، و«محمد عبده» بطل الثورة العرابية، و«عبدالرحمن فهمى» بطل ثورة ١٩١٩ و«لطيف باشا سليم» قائد أول ثورة عسكرية فى مصر من التكريم.

ومما يلاحظ فى شوارع الجزائر أنك تجد المرأة الجزائرية المتحجبة، التى تلبس «البرقع»، وتغطى رأسها بغطاء أصفر فاتح مخروطى، تملأ الشارع، وتسير بنشاط، وهمة، وبلا تعثر، فقناع المرأة الجزائرية الشابة، لم يمنعها أولا من الخروج وممارسة أعمالها خارج المنزل ولم يقيد خطوتها، ولم يزد فى وزنها، فالنساء المتحجبات جميعا خفيفات الحركة ليس فيهن واحدة ثقيلة الوزن، أو مترهلة.

وفى الجزائر نحو ثلاثة آلاف مصرى، يعملون في مختلف نواحى العمل، وعلاقتهم بالحكومة الجزائرية، حسنة، وبالشعب الجزائرى وثيقة إلى أقصى الغاية.

حكاية
تطوير الأزهر

فى سنة ١٩٦١ ميلادية، طرأ على الازهر تغيير، لم يطرأ شىء من قبيله على هذا المسجد العتيق والعريق، منذ انشىء قبل اكثر من ألف سنة، وذلك بالقانون رقم ١٠٦، وقد كان لصدور هذا القانون صدى بعيد، فقد خيل الكثيرين من علماء المسلمين فى مصر، وخارجها فى العالم الإسلامى، ان الازهر بهذا القانون، خرج من اهابه، وفقد طابعه الذى عرف به، وولد معه، بل تخلى عن رسالته التى انشىء من أجلها، وغايته التى أسس ليسعى اليها، ويعمل لها.

وقد تواصى علماء الإسلام الذين سمعوا بنبأ هذا القانون وعرفوا مداه، وأدركوا مرماه، دون ان يضمهم مكان أو يدعوهم داع، على ان يبذلوا أقصى الجهد لينسخوه، ويحرروا الأزهر الشريف من ربقته.

فماذا يكون هذا القانون، وما هى الظروف التى لابست مولده، والبواعث التى أوحت بتنفيذه ونشره على الناس، والعمل به سنوات استمرت حتى اليوم، وإن كانت قد عدلت أحكامه قليلا.

ولكن يبدو لى انه ينبغى علينا قبل أن نتحدث عن هذا القانون، أن نسلم بشىء من المشكلة الكبرى التى يمثلها الازهر الشريف فى حياة المصريين الذين يعتزون بوجوده على أرضهم، فى عاصمة وطنهم،

● الهلال - فبراير ١٩٨٣ .

وبالعلم الذى أذاعه قرنا بعد قرن، وبالعلماء الذين طرحهم جيلا بعد جيل، وبالدور الذى أداه عهدا فى اثر عهد، وبالجهاد الذى خاض معا معه، فى محنة وراء محنة.

فلم يكن الازهر عند المصريين، وعند المسلمين بعامة، جامعة، يؤمه المصلون وتؤدى فيه شعائر الدين، ولا هو جامعة علم، تلقن الطلاب، وملتمسى المعرفة، حقائق العقيدة، وأصول الشريعة الحنيفة، وفروعها، ولا هو ندوة يتداعى إليها أهل القاهرة، فيناقشون أمور دينهم ودنياهم للتشاور الهادىء، فى حالات الدعة والرخاء، وللبحث عن مخرج من الازمة، فى أيام الضائقات والأحداث المدلهمات.

بل انه كل هذا مجتمعا، وفوق هذا هو تراث ، آل إلى الجيل الحاضر، يفخر به، ويعتز ويباهى ، ويخشى عليه الزوال، ويألم أشد الألم حينما يسمع ان الازهر، لم يعد قادراً على ان يؤدى شيئا مما نجح فى أدائه فى السنين الخوالى، وانه صورة بلا روح، وانه ذكرى لماض، يتلكأ فى طريق الحاضر، والمستقبل.

وليس فى وسع أحد أن ينكر أمرين جد متناقضين: أولهما ان السنوات المائة الاخيرة، كانت سنوات تنديد، بما آل اليه رجال التعليم والتعلم فى الازهر وعجزه عن أن يستبقى ضمن تلاميذه وطلابه، الافذاذ من أبناء الامة، الذين يتوقون الى أن يفرغوا من مرحلة التلقى والتحصيل، ليخرجوا الى خضم الحياة، يعملون وينتجون إلى حياة الناس الجديد من الافكار، والمستحدث من الوسائل ، وينقضون السيىء والفاسد من الانظمة، والتقاليد، ويجدون فى سبيل العيش والحكم، والبحث والدرس.

ضاق به، بل فر منه، على مبارك ومحمد عبده، وسخر منه طه حسين فأطال السخرية، وألم به آخرون إلمامة قصيرة، فلبسوا زيه، وحملوا لقبه، ولحقتهم فترة من الزمن سمات شيوخه وطلابه، فى المشية والقعدة، واسلوب التفكير، والمسلك وان لم يحصلوا من علمه إلا أقل القليل، ومن أولئك أحمد حسن الزيات الكاتب، وابراهيم الهلباوى المحامى، بل وأحمد عرابى الثائر وسعد زغلول الزعيم، ومئات بل ألوف من المحامين وكبار الموظفين المدنيين غير الازهريين ، ورجال القضاء والادارة .

أما الأمر الثانى، الذى هو على نقيض الاول، أن المصريين لم يكفوا عن الاعتراف بفضل الازهر على مصر الحديثة ـ التى تعارف المؤرخون على القول ببدء حياتها منذ حلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على أرض مصر فى يولية سنة ١٧٩٨، بعد أن غادرت ميناء طولون فى مايو من السنة نفسها.. فقد كان الازهر «المشتل» الذى تنقل منه الأشجار الواعدة بالنمو والازدهار والتفتح الى أرض أكثر خصوبة، وأغزر ماء، وأوفر هواء، وأعظم حظا من الرعاية فأكبر الاسماء فى تاريخ مصر الحديثة، هى اسماء رجال بدأوا حياتهم فى الازهر، واتموا تعليمهم فيه، ثم بعث بهم إلى اوروبا، أو لحقوا بالمعاهد العليا الحديثة التى تعلم القانون أو الادارة أو التربية، فنجحوا وتفوقوا ووصلوا إلى مكانة القادة والمصلحين وفى مقدمة، هؤلاء رواد الثقافة والفكر فى مصر: رفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك، وعبدالله فكرى، وابراهيم اللقانى وصالح مجدى، وحفنى ناصف.

فقد كان مبعث الألم الشديد عند رجال التعليم والثقافة وأهل الحكم والسياسة، أنهم كانوا يعلمون أن الازهر، منذ ولد سنة ٣٥٩ من

الهجرة أى سنة ٩٧٠ من الميلاد في الفضاء الواقع شمال اول عاصمة اسلامية وهى عاصمة الفسطاط التى بناها المسلمون بعد ان فتح الله عليهم مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢١ هجرية الموافقة لسنة ٦٤١ ميلادية، وهو يؤدى خدمات جليلة للعلم والثقافة العامة، الدينية، والثقافية ثم بعد ذلك أصبح مركز اللقاءات علمية وأدبية، حتى اصبح لدى عصور ندوة فكرية أدبية جامعة، وفيها كانت توجه حركة التفكير والاداب فى مصر الاسلامية، على غرار مسجد مدينة الفسطاط، الذى كان يعرف باسم جامع عمرو حينا، والمسجد الجامع حينا آخر، والجامع العتيق حينا ثالثا، وأخيراً مسجد أهل الراية.

وكانوا ينظرون الى المسجد الازهر، فإذا هو فى مكانه حيث أقيم - او حيث اقامه القائد جوهر الصقلى، قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وسط مدينة القاهرة، التى كان نواتها قصر الخليفة الكبير، وقصره الصغير، والساحة الفسيحة التى كانت تقع بينهما وتسمى بميدان بين القصرين.

وأن الجامع الذى آل الينا، بدأ فى مساحة صغيرة نسبيا، ولكن الخلفاء الفاطميين وسعوا فيه، وجملوه من الداخل، واضافوا الى أبنيته الاصلية، وكان أول من جدد فيه الخليفة العزيز بالله «سنة ٣٧٨ هـ - ٩٨٨م»، ثم جرى على سنة التجديد هذه الحاكم بأمر الله «سنة ٤٠٠ هـ - ١٠١٠م» ثم حبس عليه اوقافا، ثم تبعه الخليفة المنتصر بالله ثم الخليفة الحافظ لدين الله، وبعد سقوط دولة الفاطميين التى استمرت قرنين، وجاء الملك الظاهر بيبرس فقام نائبه عز الدين ايدمر الحلبى بعمارة جديدة فى الازهر، زادته رواء، وكأن القدر أراد ان يمتحن حب

المصريين للازهر فازاله من الوجود بزلزال عظيم سنة ٧٠٢ هـ «١٣٠٢ م»، فقام الامراء المماليك باعادة بنائه ثم بنى السلطان الاشرف «سنة ٨٨١ هـ - ١٤٧٦ ميلادية» المنارة الجميلة الواقعة بالناحية الغربية.. المنارة التى لا تزال فى مكانها والى جوارها المنارة ذات الرأسين التى أقامها السلطان الغورى سنة «٩١٥ هـ - ١٥٠٩م»، ولم ينقطع الولاة والامراء فى العهد التركى عن التجديد فى مبانى الازهر، وأروقته، وفى زيادة الاوقاف المحبوسة عليه، على أن أعظم ما تم فى الازهر فى هذا العهد من عمارة كان على يد الامير عبدالرحمن كتخدا فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق الثامن عشر الميلادى، وقد اضاف هذا الامير الى منائر الازهر منارتين لا تزالان تزينانه واحدة فى الناحية الشرقية القبلية والثانية فى الناحية الشرقية.

ومؤدى هذا كله أن الازهر انفرد من بين جوامع القاهرة التى بنيت على مر العصور والحقب، كمساجد كانت آية فى بهاء العمارة وجمالها ورواء الهندسة واتقانها ، بعناية الامراء والسلاطين، بعضها يتناول بناءه، ومقاصره، وابهاءه وبواكيه ، وبعضها ينصب على الاوقاف المكتوبة له ولتلاميذه وأرزاق اساتذته وعلمائه، والبعض الثالث، يتجه الى العناية بجانبه العلمى، فينشىء فيه الزوايا، لتدريس مذاهب الشريعة المختلفة، ويعين لكل مذاهب علماء يشرحونه، ويعلمونه للناس، ويتعهدون التلاميذ حتى يخلفوهم فى حلقات الدرس. ومن ثم فقد اصبحت العناية بهذا الجامع العظيم، تقليدا يتوارثه الاجيال، ويحس كل جيل اتيح له أن يزيد فى مساحة الازهر، أو يرمم ما تداعى من بنائه، أو يحمل فى الابنية باضافة نقوش الى النقوش، بأنهم أدوا -

بهذه الزيادة أو العناية ـ واجبا وطنيا، فالازهر عنوان مصر، ووثيقة مجد جدير بأن يصان، ولا تعدو عليه الازمان..

ثم أقفرت الحياة فى مصر، فى ظل ألوان من الحاكم الطاغى الجاهل المستبد الغاشم، فأغلقت فيها دور العلم، وكسدت سوق العلماء والشيوخ، وسادت الامية، ولم يبق الا الازهر ، هو المعهد الكبير الذى يتعلم فيه الابناء، ويعلم فيه الاباء ، حتى جاء عهد محمد على ودبت حياة جديدة فى مصر، ونشأت دولة تحسنت فى ظلها الاحوال، واصبح لمصر جيش يحسب حسابه، واسطول يجوب البحرين الابيض والاحمر، فيلقى الرعب فى قلوب امراء أوروبا، واقيالها، واحتاج الجيش والاسطول والمصانع التى اسسها الوالى الجديد، الى المهندسين والاطباء، والمترجمين والمدرسين والعلماء ، فلم يجد الوالى امامه معينا يأخذ منه هؤلاء، ويعدهم للمهن الجديدة ، ويحضرهم للعلم الحديث، الا الازهر ، فاصبح الازهر حصن الحضارة الجديدة فى مصر، ومنح الحياة التى تدفقت دماؤها فى عروق أبناء البلاد، ثم ارتبط الازهر باسماء عدد من أكبر رجالات مصر، فتجدد فيه الامل، ووقف المصريون ساسة وحكاما، ومصلحين ودعاة، حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، أيدعونه فى مكانه حيث هو يرمم ويعالج بناؤه لكيلا يسقط وينهار ويذهب، ويحاولون اصلاح التعليم فيه، لكى لا يتحول إلى مسجد للعبادة فقط، فتنقطع صلة مصر بهذا المسجد العظيم، فيقبلون باصلاح التعليم الذى بقى فى الازهر، لا هو يتصل بالحياة الجديدة، فيؤثر فيها، ويتأثر بها، ويتجدد معها، ويجدد لها، ولا هو متصل بالعلم العظيم الذى أخرجته للناس مساجد المسلمين فى عواصم الاسلام المنبثة فى دنيا

المسلمين من أقصى الشرق عند سور الصين الى أقصى الغرب عند أمواج بحر الظلمات، المحيط الاطلسى، انما هو ثمالة فى قاع كأس التاريخ الاسلامى، لا تسمن ولا تغنى من جوع، أصبحت زادا لمجموعة من أصغر الموظفين شأنا، وأقلهم عند الناس احتراما، وأعجزهم عن الكفاح فى الحياة، مدرسو اللغة العربية التى تضاءل شأنها، لان كتبها خلت من شيء من العلم الذى ينتفع به الناس فى كل مكان فى حياتهم، وانشاء مصانعهم، وبناء حصونهم، ومكافحة أمراضهم، وتحصين أجسادهم، ومأذونى شرع يعقدون عقود الزواج والطلاق، ومعاونين لموظفى الحكومة، فى دواوين مهجورة احتلت أبنية منهارة تكاد تنقض انقضاضا كتبة لايقوون على كتابة خطاب، أو تحرير مقال أو نظم قصيدة.

وحارت الحكومة الجديدة فى هذا الازهر العزيز الغالى، الذى أضبح يشبه ثوبا قديما امتلأ بالرقع حتى أصبح لا يستر جسدا، ولا يخفى عورة، ولا سبيل الى التخلص منه، لانه موروث من الأجداد، ولأن القماش الذى صنع منه غال بحيث لا يقدر بمال.

ثم حدثت مضاعفة، فقد تحررت الدول الافريقية والاسيوية، والكثير من تلك الدول اسلامية تعض على دينها بالنواجذ وقد كان الاستعمار يحول بين أبنائها وبين مصر زعيمة الاسلام، وبين اللحاق بالازهر وطلب العلم فيه، لان الاستعمار أخذ على عاتقه، تمزيق أوصال الامة الاسلامية، وإغراء اجيالها الجديدة على طلب العلم الحديث بلغات الدول الاستعمارية : انجليزية وفرنسية وهولندية واسبانية، والتهوين من شأن لغة المسلمين العربية، ومن علم المسلمين الموروث، فلما باد الاستعمار،

وهلك سلطانه ، وتهاوت السدود التى أقامها بين مستعمراته ومصر، جاء عدد غير قليل من أبناء تلك المستعمرات ، وطرقوا أبواب الازهر طلبا للعلم واطمئنانا إلى انه يعلم العلم السليم، الخالى من أفات الشرك، وسموم الكفر، فلما جلسوا فى مقاعد الفصول الازهرية، وقرأوا كتبه، هالهم انه علم منقطع تماما عن الحياة التى تموج وتفور، بآراء جديدة، وتطلعات الى دنيا تقوم على صناعة ضخمة، ويحث فى جوانب الكون بعلوم اسمها الطبيعة والكيمياء والرياضيات والفلك وعلم الحيوان وعلم النبات، وهذه الدنيا لا يسمع عنها الازهر، ولا يحاول ان يقترب منها، فأصابهم يأس شديد، وودوا لو عادوا الى بلادهم أو دخلوا الى إحدى جامعات مصر، التى لا تستطيع أن تستقبلهم، لانهم لم يعدوا للتعليم الجامعى.

هنا، اشتد ألم القائمين بالأمر فى مصر، وخيل إليهم أن الواجب يقضى عليهم بألا يقفو مكتوفى الأيدى أمام هذه المشكلة، ولما كانوا ثوارا فقد قالوا، إننا لحسن الحظ، نعيش ثورة، والمشكلة الازهرية لا تحلها إلا ثورة والثورة التى يحتاج اليها هذا المعهد العتيق، ان نفتح أبوابه أمام العلم الحديث، ولكن بحيث لا ينقطع علماؤه وشيوخه ، ولا طلابه وتلاميذه عن الازهر القديم، فيبقون تحت قبته. وفى ظلال منارته ، فكيف يتم الجمع بين النقيضين بحيث نجمع، فى الحلال بين رأسين تباعدا: رأس الدين وكعبته التى لم تجدد وبين العالم المتطور، بل التى انقطعت صلتها بانحاء العالم الاسلامى القديم التى خلقت الحضارة الحديثة والعلوم الكونية لتطبيقه.

وبضربة واحدة أصدرت حكومة الثورة فى سنة ١٩٦١ القانون رقم ١٠٦، وهو يقضى بأنشاء كليات حديثة للطب والعلوم، والتجارة

والهندسة، الى جانب كلياته القديمة، اللغة العربية، وأصول الدين والشريعة.. فمن كان من ابناء العالم الإسلامى راغبا فى طلب العلم الإسلامى القديم من فقه وأصول وتفسير وحديث فعليه باحدى الكليات القديمة فسيجد هناك ضالته اما من كان راغبا فى ان يكون مهندسا وعالما بطبقات الارض، وأجواء السماء وعالم البحار، وخصائص المادة وفنون المال والتجارة، وقوانين الدول والافراد ، فانه سيجد ما يسعى اليه فى الكليات الحديثة، ولكيلا يفقد بركة الازهر ولا يخيب آمال اهله الذين يريدون لإبنهم ان يطلب علم الازهر فسيلقن شيئا عن الدين فى سنة واحدة يلم خلالها بمصطلحات العلوم الاسلامية، وملخصات لموادها الاصلية، وكان آنذاك فى مصر مجلس تشريعى بمجلس الامة، وكان مجلسا فريدا لانه مجلس اتحادى ، يضم ممثلين عن مصر، وآخرين عن سوريا، حينما تمت بين الدولتين وحدة، ذابت فيها الدولتان، وخلقت منهما دولة واحدة هى «الجمهورية العربية المتحدة».

وكان من النواب السوريين عدد غير قليل ممن طلبوا العلم فى أزهر مصر،أو فى معاهد تشبهه فى سوريا، فلما عرض مشروع القانون عليهم، خيل إليهم ان الازهر سيمحى من الوجود، وان الأمر ، لا يعدو أن يكون مؤامرة على الاسلام نفسه، وانهم مطالبون بأن يدفعوا شر هذا القانون بأرواحهم ويبذلوا فى سبيل ذلك دماءهم.

وكانت الجلسة التى خصصت لمناقشة مشروع ذلك القانون هى آخر جلسات دورة المجلس السنوية يقوم بعدها أعضاؤه باجازة طويلة لا تنتهى الا بانتهاء الصيف ومعنى ذلك أن المناقشة فى المشروع يجب أن تنتهى فى الليلة التى عرض عليهم فيها، فانفجر

غضبهم، وأخرجهم الغضب من الاتئاد والصبر فعلا صوتهم، واشتد هرجهم ومرجهم، وارتقى بعضهم المناضد التى كانت فى قاعة الاجتماع ولوحوا بأيديهم، وانضم اليهم بعض نواب مصر ، ممن لم يقل غضبهم عن غضب إخوانهم السوريين ، وكلما تصوروا أن الازهر سيكون كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس، فلم يبق غرابا، ولم يصبح طاووسا، وان عليهم أن يستودعوا الازهر فى رحمة الله، وان ينفضوا يدهم منه، اشتد الغضب، وزاد الهرج، وخيل الى الحكومة أنها على أبواب فتنة لا يعلم الا الله مداها، فتنادى رئيس المجلس، فأقبل زعماء الدولة سراعا، تبدو على وجوههم سمات الجد وانشغال البال، والتوجس واحتلوا منصة القاعة، ثم صاح صائح .منهم: لا تنسوا انكم تعيشون فى ظل ثورة واعلموا ان من كان خصما لهذا القانون ـ قانون تطوير الازهر، فهو خصم الثورة، ومن خاصم الثورة داسته وبالأقدام.

وكان الخطاب موجها لنواب الشعبين المصرى والسورى الذين شكلوا مجلس الامة الاتحادى، ولكنهم لم يعوا التهديد الذى وجه اليهم، فقد تملكتهم ثورة السمع والرؤية، فكان لابد من اعادة الصيحة، للمرة بعد المرة، وكان النواب قد استنفدوا طاقة الغضب، ثم فهموا ما كان يردده الصوت العالى، واستقر معناه فى الاذهان فثابوا الى رشدهم، ثم عادوا الى هدوئهم، وكفوا عن ضجيجهم، ومر القانون بلا مناقشة: الى المواد التى زادت على المائة وقاربت المائتين، مجرد تلاوة بلا تعليق ولا مناقشة فلما تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل، وزادت على الواحدة، شعر النواب بالتعب والملل، فأقتصرت قراءة المواد على تلاوة أرقامها.

ثم دخل القانون فى دور التنفيذ والتطبيق، فبدت عوراته، وكانت بادية من اللحظة الاولى، اذ أصبح الازهر، فى ذيل الجامعات، لا يطرق باب كلياته الجديدة الا من سدت فى وجهه أبواب الكليات جميعا حتى ما كان منها فى صعيد مصر، وخارجها ، ولا ينقل الى هذه الكليات من الاساتذة ومساعديهم، والمدرسين ومعاونيهم الا من ضاقت بهم، الجامعات الاخرى جميعا، والسنة التحضيرية التى فرضت على طلاب السنة الاولى ، كانت عبئا على هؤلاء الطلاب لا يطاق لأنهم عدوها زمنا ضائعا عليهم لأنها لا تعلم الدين، ولا تحببهم فيه، ولا تهيئهم للدراسة التطبيقية والعلمية التى أعدوا أنفسهم لها. والطلاب الافريقيون والاسيويون الذين لحقوا بالكليات الحديثة كان عددهم ضئيلا لا يستأهل كل هذا العناء.

وأسفرت التجربة عن الأمور الآتية:

أولا - يجب أن يكون الطبيب الازهرى، والمهندس الازهرى، والمحاسب والمحامى الازهريان، أزهريين بحق، أى أن يبدأوا حياتهم التعليمية منذ البداية فى الازهر.

أى أن يطلبوا العلم الابتدائى والثانوى فى معاهد الازهر، فتقوم ألسنتهم بلغة القرآن، وتثقف عقولهم بثقافة الدين، فإذا خرجوا الى الحياة العملية، كانوا طرازا جديدا منسوبا الى الازهر بحق، وممثلا للدين تمثيلا صحيحا لا زائفا..

ثانيا: - لكى يستطيع الطالب الازهرى أن يجمع بين الثقافة العربية والعلم التطبيقى الحديث، يجب أن يتلقى فى الدراسة الابتدائية والثانوية نفس ما يتلقاه الطالب العادى فى المرحلتين.

ولما كان الجمع بين تعلم المواد الدينية والحديثة مستحيلا فى سنى الدراسة الابتدائية والثانوية الاربع أو الخمس وجب اطالة سنى هاتين المرحلتين الى ست.

ثالثا : ـ يجب أن تنقسم الدراسة في المعاهد الازهرية الثانوية الى قسمين علمى وأدبى. كما هو الحال فى المدارس الثانوية العادية. وأن يعتنى بتعليم اللغات في المعاهد الثانوية الازهرية.

ورابعا : ـ يسمح لحاملى شهادة الثانوية العامة الازهرية أن يلحقوا بالكليات الحديثة في الجامعات الأخرى.. ويعين من خريجى هذه الكليات معيدون ومدرسون ممن حصلوا على الثانوية الازهرية على الوجه المبين.

خامسا : ـ تلحق الكليات الحديثة التابعة للازهر الى إحدى الجامعات ويقف العمل فى الكليات الازهرية الحديثة حتى يتم تخريج عدد كاف من الحاصلين على المؤهلات الحديثة من الكليات الحديثة، فتقوم على أكتافهم كليات الازهر فى العلوم الكونية، ويكونون أزهريين حقا، وينتخب منهم الدعاة للاسلام فى العالم كله، فيستضيئون فى الدعوة بعلم الدين والدنيا.

ولما كان العبء الذى سيلقى على أكتاف هؤلاء الطلاب ثقيلا، فالواجب يقتضينا أن نختار من البداية هؤلاء الطلاب، ونلاحظ فى اختيارهم النجباء والافذاذ، ولا بأس من أن تمنح لهم إعانات تهيىء لهم سبل العيش لانهم يعدون لرسالة، ولا يعدون للحصول على شهادة.

ثقافة للبيع

جاء فى الانباء أن مناقشة طويلة دارت فى المجلس التشريعي الفرنسى حول بيع إحدى القنوات فى التليفزيون الفرنسى لاحدى كبريات الشركات

وكان فريقا المتناظرين فى المجالس يترافعان عن وجهتى نظر متباينتين.

الاولى ترى أن القناة المراد بيعها يجب أن تبقى حكومية لأن هذا ضمان لها بالوقار والاستقرار والازدهار.

فى حين يقول الآخرون بل تباع فان القطاع الخاص أكثر حيوية وأشد حيدة وأحرص على إمتاع المشاهد ونفعه، وانتهت المناظرة بغلبة القطاع الخاص فقد قرر مجلس الأمة الفرنسى بيع القناة الى شركة بويك وهى ليست شركة بويك للسيارات. بل شركة فرنسية بحتة تقوم بتشييد العمائر وتتخصص فى أعمال البناء فى حين أن الشركة المنافسة كانت شركة نشر وطباعة وعلى الرغم من أن هذه الشركة أقرب الى موضوع الاذاعة المسموعة والمرئية، فان العطاء رسا على شركة بناء لا تمت الى الثقافة والاذاعة لا من قريب ولا من بعيد.

وهذا كله يكون واقعة حال شديدة الارادة تتصل اتصالا صحيحا بالثقافة وهى تدعونا الى طرح السؤال التالى وهو سؤال قديم خلاصته

● الهلال – مايو ١٩٨٧ .

أى الجهتين أكثر احتفالا بالثقافة وأقدر على توفيرأسباب النجاح والتقدم لها. أهو القطاع العام أم القطاع الخاص ولقد ثار نقاش من هذا الطراز فى مصر فبعض كبار الكتاب ذهبوا الى أن سوق الثقافة بارت وعالمها كسد حينما انشئت فى مصر وزارة للثقافة وحينما خضعت الثقافة والهيمنة الحكومية:

فقد أفل نجم الأدباء والشعراء ، وقل ظهور المواهب الجديدة، وانصرفت الجماهير عن الكتب واقفلت المجلات الادبية أبوابها، وقل عدد رواد الجمعيات الادبية والندوات الثقافية.

لقد راجعت تراجم بعض العباقرة فأين الحقيقة فى كل هذا؟

الموسيقى فى أوائل القرن الثامن عشر ، فرأيت كيف أن هذه الشخصيات الفذة الموهوبة، قد لقيت فى البيت الذى نشأت فيه ومن الأهل الذين ينسبون إليهم القهر وسوء المعاملة.

وكيف عوضهم الله عن هذا الحظ السىء برعاية بعض الامراء والملوك، هيئوا لهم سبل الدرس واتقان الفن والتقدم الذى أينعت معه مواهبهم وصقلت صفاتهم وقدراتهم. فكأن الثقافة كانت مدينة لذوى السلطة الرسمية التى تقوم مقام القطاع العام الآن.

كان هايدن استاذ (بتهوفن) ابنا لنجار، وكان النجار محبا للموسيقى وكانت زوجته حسنة الصوت، فورث الطفل عن أبويه حبه لهذا الفن الرفيع ولكن والده أصيب بعسر مالى اضطر الأسرة كلها الى التجوال فى البلاد بحثا عن الرزق، حتى زاره ابن عمه وكان ناظرا لمدرسة ابتدائية فلما شاهد الطفل (جوزيف) ترسم فيه النبوغ، فطلب من أبيه أن يسمح له باصطحابه ولما كان الوالد قد رزق بعشرين طفلا فقد رحب بهذا الطلب ليتخفف من نفقات أحد أبنائه.

ولكن هذا العم كان قاسيا، حتى كان نصيبه من العصا أكثر من نصيبه من الطعام، ولكن مواهبه الموسيقية رغم تعاسة عيشه وما يعانيه من قسوة عمه، واصل تقدمه فى الموسيقى عزفا وتلحينا حتى دفعه وهو فى الثالثة عشرة من عمره الى تلحين أولى أوبريتاته المسماة الشيطان الأجدب التى ما كادت تمثل حتى أقبل مديرو المسرح يظهرون له أعظم الاعجاب وترامى صيته حتى سمع به الأمير باول استرهانزى وكان أحد أبرز أمراء النمسا وكان شديد الاعزاز لهذا الفن فضلا عن اتقانه العزف على الكمان فاستدعى اليه هايتى عام ١٧٥١ وجعله رئيسا لغرفة الموسيقى فى قصره وقد أجرى على هايدن رزقا استمر يتقاضاه من أولاد هذا الأمير ومن أحفاده.

وتجاوزت شهرة هايدن بلاده ووصلت إلى أوروبا فدعى الى بريطانيا حيث أقام نحو عشرين حفلة، والف اثنتى عشرة سيمفونية، وهى التى تسمى بالسيمفونيات الانجليزية ، وكان الاشراف يحيطونه أينما ذهب بالرعاية والاجلال وارسلوا اليه أبناءهم ليتدربوا على يديه، مما اتاح فراغا يجود فيه فنه حتى نظم النشيد الوطنى الالمانى فى ١٢ من فبراير سنة ١٧٩٧ المعروف بـ (المانيا فوق الجميع) وقد وقع فى عيد ميلاد القيصر فى تلك السنة فى جميع مسارح النمسا وفى ربيع سنة ١٨٠٨ اقيمت حفلة فى مبنى جامعة فيينا دعى إليها الأمراء والوزراء وأعيان المدينة وقد وضع مقعده.. بين هؤلاء القوم، وكانوا طوال الوقت يحتفون به، وقد توج هذا المجد كله باطلاق لقب «أبو الموسيقى الحديثة»، ولم يلفظ أنفاسه الا فى ١٦ من مايو سنة ١٨٠٩ حتى كان قد وصل الى غاية الشهرة وذيوع الصيت واحترام الشعب والخاصة وقد عبر عن ذلك كله باقامة أول تمثال له بفيينا.

● موتسارت.. المعجزة

أما موتسارت الذى يعرف بالطفل المعجزة فقد ظهرت مخائل نبوغه وهو بعد صبى صغير وقبل أن يصل الى الخامسة عشرة من عمره حتى أطلق عليه لقب (أما دوس) يعنى المحبوب ويقول مؤرخوه مع ذلك. موتسارت هذا ظل طوال حياته فى ضيق من العيش لا ينفعه رائع فنه ولا عظمة انتاجه، وكان لا يجد قوت يومه الا بشق النفس فكان يقول الموسيقى من لا خير فيه.

وقلوا أيضا موتسارت هذا مات فقيرا محروما.. حتى من تشييع جنازته فلم يصحب جثمانه إلى مقره الاخير غير خمسة من خاصة أصدقائه وحتى هؤلاء حال بينهم وبين ملاحقة جثمانه بعد الطريق فاضطروا للعودة تاركين الجثة لسائق العربة.

وقد ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٥٦ ولم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى حاول أن يوقع ألحانا على آلة البيانو محاكيا شقيقه فلما بلغ الخامسة وقع على تلك الآلة بضعة ألحان من تأليفه وفى السادسة وقع ألحانا أخرى على الكمان وقد أراد أبوه - والطفل فى هذه السن المبكرة - أن يشهد العالم بنبوغ ولده فسافر معه الى ميونيخ ومنها الى فيينا وما كادا يصلان اليها حتى استدعته الاسرة المالكة فاستحوذ الطفل على حب القيصرة وأغدقت عليه الهدايا وقد شجع هذا النجاح الوالد على أن يجوب بابنه كثيرا من المدن الالمانية ثم رحل الى باريس ولندن فلحن موتسارت وهو فى الثامنة لملكة انجلترا عدة مقطوعات للبيانو المنفرد وللكمان المنفرد كما الف فى لندن أول سيمفونية للفرقة الكاملة وهو اعجاز بشرى لم يظفر به سوى

موتسارت. وبعد أن طاف بهولندا وسويسرا عاد الى وطنه سالسبورج عام ١٧٦٦ وفى سنة ١٧٦٧ لحن موتسارت الصغير بأمر قيصر النمسا جوزيف الثانى أول أوبرا له غير أنها لم تظهر على المسرح لصعوبة ألحانها.

وفى سنة ١٧٨٥ طلب منه قيصر النمسا تلحين اوبرا زواج فيجارو وفى سنة ١٧٨٦ زار النمسا شاب صغير من بلاد الراين كان يشتغل بدراسة الموسيقى فقصد الى موتسارت لشهرته، فطلب من موتسارت ان يؤلف لحنا موضوعا اختاره له موتسارت فلما فرغ من تلحينه وأدائه قال موتسارت عليكم أن تهتموا بهذا الشاب فسيكون حديث العالم، ولم يكن هذا الشاب سوى (بيتهوفن) أعظم الموسيقيين طرا.. فماذا كان يعزف بيتهوفن؟.

ولد بيتوفهن فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ بمنزل متواضع فى مدينة بون وكانت عائلته كالعادة رقيقة الحال كان ربها موسيقيا حسن الاستعداد وإنما كان لفقره مدمنا للخمر كى ينسى متاعب حياته ولكنه استطاع مع هذا الادمان أن يلحظ بواكير عظمة بيتهوفن الفنية، فبدأ يلقنه أول درس فى آلة البيانو، ولما ضاقت به سبل العيش لم ير متنفسا لضيقه إلا أن يصبح ابنه موسيقيا يدر على أسرته اخلاف الرزق قبل الأوان فأخذه بالشدة وقسا عليه قسوة بثت فى نفس الطفل المحزن فاكتئب ومال الى الصمت وأثر العزلة. وألزم ابنه بموالاة التدريب على آلة البيانو بالسوط والعصا، وعلى الرغم من أن هذا العنف كان جديرا بانه يقهر الموهبة فى نفس الطفل إلا أنها كانت أكبر من أن تقتل فنضجت حتى تفوق الطفل على ابيه

فلم يبلغ التاسعة حتى كان نابغة عهده فى العزف والتأليف الموسيقى.

● عبقرية مبكرة

ولما كان أهل بون يعرفون الطفل ونبوغه فقد كان سهلا يلحقه أمير (بون) بفرقة بلاط الأمير، ولما بهرت الأمير موهبة الطفل بعث به الى فيينا عاصمة الموسيقى والموسيقيين.. وكان يقيم فيها آنذاك (هايدن) وموتسارت وكان أول من قصده بيتهوفن فى فيينا هو (موتسارت) الذى لم يجد أدنى صعوبة فى تبين هذه العبقرية المبكرة.

وكانت والدة بيتهوفن قد مرضت ، فترك الدرس والعزف ولازم فراشها حتى ماتت ولحق بها زوجها ، وفيما كان بيتهوفن حزينا معزولا فى بون مر بالمدينة (هايدن) الذى ذكر أمير بون بيتهوفن فبادر الأمير بأرسال بيتهوفن الى فيينا.. ولما كان أمير بون الذى بعث بيتهوفن الى فيينا- هو شقيق القيصر.. ففتحت له القصور الملكية وقصور الامراء وهم رعاة الموسيقى فى ذلك الحين، فنقلت موهبة بيتهوفن وأخذت تلهبه الأمراء والأميرات وأعيان القصر الملكى واساتذة الموسيقى.

إلا أنه أصيب بالصمم فكانت الكارثة التى سودت عيشته وأفسدت حياته، ولكن لم يكف قط عن التأليف، اوبراه المعروفة (بفيديلو) لقيت فشلا عظيما اذ اجتمع عليها النقاد.. واتخذوها جراحا إلا ان بيتهوفن بقى يصلح عيبها.. ويعالج نقصها الشائن، وكان إصراره هذا رمزا على الصمود وعنف المقاومة.

● الثقافة والتحرر:

لم أرد من ذلك أن أضع الثقافة فى كنف الامراء والملوك وأهل السلطة وإنما أردت أن أقدم صورة من واقع تاريخ الثقافة الحديث

يكشف عن حقيقة لا يجوز لنا ان نتجاهلها والا أسأنا الى الثقافة فالثقافة يجب أن تتحرر ما استطاعت من هيمنة التجارة عليها، وتسلط اعتبارات السوق والتفاهة مع شدة حاجتها الى الحرية، فى أشد الحاجة الى الانفاق الذى لا يبغى ربما ومن هنا كانت الثقافة فى حاجة الى وزارة يمولها، الشعب، ويغذيها بموارده.

ولقد كان القول بأن الثقافة قبل الثورة ازدهرت فلما جاء ت الثورة أجدبت إذ أن الثابت أن الفترة ما بين ثورتى سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٥٢ شهدت انحسارا ثقافيا تؤيده الوقائع فلقد توالى سقوط المؤسسات الثقافية الواحدة فى إثر الأخرى.

فقد أغلقت السياسة الاسبوعية أبوابها، وطوت جريدة البلاغ صحافتها وعجز سلامة موسى عن مواصلة إصدار مجلاته الشهرية - وهى المجلة الجديدة والاسبوعية التى هى (المصرى) واختفت مجلة الشباب لمحمود عزمى، والجديد، وهى مجلة كن يصدرها المرصفى ومن حوله طه حسين وهيكل ومصطفى عبد الرازق كما سقطت مجلة (الضمير) التى كان يصدرها عبدالحميد حمدى، ومعه عدد غير قليل من الكتاب المجددين..

وإذا كانت (الرسالة) و(الثقافة)، قد عاشتا فترة غير قصيرة ولكن قبل أن تتفجر ثورة سنة ١٩٥٢ كانت هاتان المجلتان مريحتين للأقوال وقارىء الأعداد الأخيرة منها يجدها خلوا من الفكرة والنبض ولونا من الكتابة المدرسية.. فقد هجرتها الأقلام التى نهضت بأعبائها، ومضت سنوات بلا صحافة فكر أو فن أو ثقافة وكانت جمعيات وروابط الادب والشعر، قاعات لا يرتادها إلا عدد قليل

ينقصون ولا يزيدون، وشجبت محاولات مثل الرابطة الشرقية، وعجزت الجامعة أن تفتح للشباب ناديا يؤمه المحاضرون ومستمعوا المحاضرات ومحبو المناظرات إذ انفردت بعض محاضرات الجامعة الامريكية بشيء من الاقبال أما عواصم الاقاليم بما فيها الاسكندرية فقد كان إفقارها وجدبها باعثين على الألم والحزن.. ولم يبذل جهد يستحق الاحترام لانشاء صحافة يومية أو اسبوعية أو شهرية جديرة بالاحترام مع ان أكثر بلاد العالم تعرف صحافة الأقاليم التى تنافس صحافة العاصمة، ولم تستطع الأقاليم إن تغرى الكتاب الكبار بالسفر الى الريف والمحاضرة فيه.

وقد انقلب الحال بعد ثورة سنة ١٩٥٢ ونشأت المؤسسات الثقافية التى لم يكن لها وجود ووضعت ثقافية لا أزعم إنها نجحت ولكنها كانت تعويضا عن الجدب الذى منينا به فى الفترة ما بين الثورتين وللحديث بقية.

المثقفون يتهمون المثقفين

الثابت الذى لا شك فيه، أن لفظ ثقافة - وإن استعمله الجاحظ - إلا أنه لم يظفر بالرواج والذيوع - كما راج وذاع فى نهاية الربع الأول من قرننا الذى نعيش فيه.

ويتجاذب شرف تصدير هذا اللفظ، فى مصر، الكاتبان الكبيران سلامة موسى ومحمود عزمى، ولم أستطع أن أحقق أيهما كان اسبق فى اصطناعه، وتكراره.

وقد جاهدت (الثقافة) أيا كان مدلولها - ومدلولها مختلف عليه كثيرا - جاهدت فى أن تحسن مرتبتها، وأن تعلى من قدرها ، وأن تنافس التعليم، حتى أصبحت أكثر منه على الالسن شيوعا، وأعظم منه فى المحافل والاندية - والصحف والكتب ذيوعا.

وبعد ان كانت (الثقافة) ادارة بوزارة المعارف، اصبحت (جامعة شعبية ، حتى قدر لكاتب هذه السطور، أن ينجح فى أن يجعلها وزارة فى العقد الخامس من القرن العشرين، لعلها كانت أسبق وزارات الثقافة فى العالم، فوزارة الثقافة فى الاتحاد السوفييتى مثلا، كما كتب الدكتور محمد مندور فى إحدى مقالاته (بالمجلة) التى كانت تصدرها وزارة الارشاد القومى بعد زيارة له لموسكو.

ولم يكن ممكنا فى الماضى أن يكون المثقفون طبقة، أولا لشيوع الأمية.

● الهلال - يناير ١٩٨٣ .

وقلة القارئين، ثم قلة الكاتبين، ثم لكساد سوق ما ينتجه الفكر، ويخرجه القلم، فما لم يحظ الكاتب أو الشاعر أو الموسيقي أو المصور بصاحب سلطان، وذى مال، ليضفي على رعايته، ويقدم للمجتمع المترف، يعني (المثقف) بفتح القاف، والمثقف (بكسرها) مغمورا، يجاهد ليتبلغ بكسرة خبز، وشربة ماء، وخرقة تستر العورة، ولكن المدارس انتشرت في أوروبا، بفضل اتصال الاوروبيين بالعلم الاسلامي في مساجد المسلمين في الاندلس، هذا الاتصال الذى أدى الى بداية العلم القائم على التجربة والتطبيق والمشاهدة والمقابلة بعد أن كان العلم الارسطي (نسبة الى ارسطو) كان قائما على فروض تعتبر بدهيات تقام عليها القواعد العلمية، دون أن يتطرق اليها الشك.

ولكن مهما قيل من انتشار التعليم في أوروبا لهذه الملاصقة بين المسلمين والمسيحيين. وتعلم الاواخر من الاوائل، ثم اتساع نطاق المدارس، نحو الميل الى التعلم والتعليم، عقب اتصال الاوروبيين المسيحيين مرة أخرى بالمسلمين في الحرب الصليبية، فان نسبة الأميين كانت أعلى بكثير من نسبة الذين يقرأون ويكتبون كما اقتصر التعليم في الجامعات التي انشئت على طراز حلقات الدرس والتقليد والبحث حول أعمدة المساجد الاسلامية وعلى يدى الشيوخ أصحاب الكراسي، على أبناء الصفوة والاغنياء، في الاديرة أولا ثم في مؤسسات ترعاها الكنيسة ويشرف عليها الاساقفة والمطارنة.. ويبقى الحال على هذا المنوال، حتى ما بعد عهد صلاح الدين. التنوير والبعث (الرينسافى) فلما وقعت ثورة سنة ١٧٨٩ في فرنسا، وسقطت جميع مؤسسات العهد القديم: من ملكية وملوك، أمراء وأشراف ونبلاء،

وأصحاب اقطاعيات وتدفقت جماهير الشوارع الذين وصفوا بأنهم الذين لا يجدون ما يستر العورة (ساق كيلوت) على سجن الباستيل فى الرابع عشر من يولية فى تلك السنة، كان هذا التدفق رمزاً على حدوث تحول ضخم وخطير، هو تدفق الطبقات التى كانت محرومة تقريبا من كل شيء ، ومن التعليم بصفة خاصة، والتعليم العالى بصفة أخص، منذ ذلك التاريخ فتحت الجامعات والمدارس العليا والمعاهد المتخصصة أبوابها لأبناء الفلاحين والعمال من حدادين ونجارين وسباكين وغزالين ونساجين ، وخرج من صفوف هؤلاء العمال الكادحين حقا، عدد من أهل العلم: اساتذة وأطباء ومحامون ومهندسون ، وظهر من هؤلاء عدد من أهل القلم: يكتبون الكتب، ويقومون بالدراسات والبحوث ، ويفلسفون الامور لا كما يفعل أبناء الاغنياء لكن بروح تمتاز بثلاث خصائص: (الاولى) الجرأة فى التجديد، لأن التجديد والتغيير فى مصلحة هؤلاء المفكرين الجدد، فقد كان كل شيء قائما، من قبل الثورة، ضد هؤلاء المفكرين، وضد أبائهم وأجدادهم، وكان العهد القديم، مقدسات لا تمس، ولكنها باتت بلا كرامة بعد الثورة (الثانية) ان الثورة لا تحمي، ومبادؤها المعلنة لا تنتشر، الا بمزيد من نشر التعليم، وفتح أبوابه أمام أبناء الطبقات التى تعمل بأيديها . (الثالثة) أن أدب الواقع، والاتصال الحى بأمور الحياة اليومية، ومشكلات الناس الحقيقية. هو الأدب الصحيح.

وبهذا نشأت جماعة من المثقفين لم يكن لها وجود من قبل، فقد كثر عدد الكتاب، والقراء والمصورين، وأصبح حديثهم مع الناس ، وعن الناس، وأصبح فى متناول العامة الكتاب والصورة، والاجتماع والندوة،

فأصبحت الثقافة شعبية فى دور الانتاج.. وشعبية فى دور الاستهلاك.

شعبية فى الانتاج لان الكتاب والشعراء، والمصورين والفنانين على اختلاف مجالات نشاطهم، أصبحوا من أبناء الطبقات الوسطى، والصغيرة، وقل عدد أبناء الاسر العريقة، والبيوت الغنية من المنتجين للثقافة، وشعبية فى الاستهلاك، لان الكتب أصبحت تطبع طبعات شعبية وأقبل أبناء الفقراء وأبناء أوساط الناس على انتقائها، وازداد حرص هذه الطبقات التى بدأت تستهلك الثقافة، وتنتفع بها ويتذوقها لايمانهم بانهم كلما زاد حظهم من الثقافة، زادت مكانتهم وارتفع قدرهم، هذا من جهة، من جهة أخرى، كان يساورهم شعورهم بان عليهم أن يعوضوا ما فاتهم من الزمان الذى كانوا محرومين فيه من هذه المتعة النفسية الغالية، وأخيرا كان احساس الطبقات العاملة ان الثقافة اصبحت خطا من خطوط دفاعهم لان أبناء الطبقات القديمة الذين يريدون استعادة امتيازاتهم الضائعة، لا يكفون عن مهاجمة أصحاب النفوذ المحدثين، متهمين إياهم بكل عيب، ناسبين اليهم كل نقيصة، فما لم يتسلحوا بالثقافة، ويتزاينوا بها، كانوا فرائس لا حول لها فى هذه المعركة، وأعانوا خصومهم على أنفسهم.

إذن راجت الثقافة رواجا عظيما، وأصبح اسمها على كل لسان، وتحكك بها، من لا يمت اليها بصلة، وأصبح المثقفون طبقة صدقا لا مجازا، ومن ثم فقد أصبح طبيعيا أن نسمع ان المجتمع الاشتراكى، هو مجتمع الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين، وقد جاء ت الصحافة لتزيد من نفوذ الثقافة، ومن جاه المثقفين من جهة، ولتزيد فى الوقت

نفسه مسئولياتهم ، وأعباءهم والثقافة حينما أصبحت زاد العامة، وغذاءها اليومي بفضل الصحيفة اليومية والشهرية والكتب رخيصة الثمن، قليلة الصفحات أصبح المثقف اكثر الناس قربا من ابناء الشعب سواء كان كاتبا أو شاعرا أو زجالا او مصورا، او مطربا، فهؤلاء هم الذين يصنعون مزاج الناس، وهم الذين يصوغون عقولهم، ويغذون قلوبهم.

يأخذون عنهم الافكار، ويزجى بكلامهم وفنهم ودأبهم الفراغ، ويتشبه بهم، واخيرا يحتمى بهم.

وهنا مربط الفرس.

فالمثقف بفضل المكانة التى وصل اليها، أصبح عليه أن يؤدى رسالة ذات ثلاث شعب:

أولا: يقدم الأفكار للناس.

ثانيا: يمنع وقوع العدوان على هذه الافكار.

ثالثا: يشد من أزر المجتمع حينما يستفحل هذا العدوان.

فالمثقف تحول من شاعر يرضى صاحب السلطان فى بلاطه، بالطرائف واللطائف، والغرائب والنوادر، ويدهشه بالبديهة الحاضرة، والقريحة المتقدة، واللسان المدرب، والحافظة الفنية، والذاكرة الحديدية، الى ديدبان ساهر على حقوق الشعب يتصدى بقلمه وريشته ولسانه، للظالم والظلم، وللتخلف والاستغلال والرجعية والجهل.

وبالتالى أصبح هدف مهام السلطة ، تضيق به إن لم يكن فى صفها وتحاول مهما بلغت الحرية فى المجتمع أن تحرس لسانه، وتخنق صوته، وتغيب شخصه، ففى المجتمع البدائى الفقير، ما ايسر أن تبطش القوة بالكاتب الناقد، بالاعتقال ، والحبس وبالتنكيل

والتعذيب ، هذا إن نجا من القتل او النفى، وفى المجتمع الغنى ما اشق بقاء الكاتب المعادى لاصحاب النفوذ، فالصحافة والطباعة ودور النشر ومؤسسات الاذاعة المسموعة والمرئية فى أيديهم ورهن إشارتهم، وفى وسع هؤلاء الاقوياء ان يجعلوا حياة المثقف كاتبا أو فنانا، أو صحفيا جحيما لا يطاق، يعانى الركود والغياب عن المجتمع.

ولما حمى وطيس الصراع بين الطبقات فى فترات التحول وضخمت أنياب وأظفار المتعالين على النفوذ والهيمنة أصبح دور المثقف فى هذا الصراع حرجا غاية الحرج قاسيا غاية القسوة، فاحتمال الضغط، ومحاولة الثبات فى وجه الشدة العاتية الجارفة، جهد قد يعجز عن بذله الفرد. والمثقفون كطبقة.

فالمثقف ــ وإن طبع على القتال ـ رجل فكر وتأمل، يميل الى العزلة، والزعامة التى فرضتها الأيام عليه، تقتضيه الخروج من عزلته ، ومزاحمة الجماهير، فى مواكبها الهادرة، ومظاهراتها الثائرة ، متلقيا الضربات، والوقوع تحت سنابك الخيل، أو تجرع آلام الرصاص الطائش والمتعمد، فان لم يفعل واثر السلامة، ونأى بنفسه، فهو ساقط من عرشه الادبى ، أو فار من جيشه الابى، أو على الاقل، متهم بأنه قوال غير فعال ينقصه الايمان، يخون رسالته، ويقع تحت عبء أمانته، فار فرار الجندى من المعركة، عندما يشتد أوارها، وتتلهب نارها.

وقد صعب فى الأغلب الأعم على حملة الأقلام أن يؤدوا هذا الدور كما تطلبه منهم الجماهير، ومالوا الى اتقاء السلطة لان رزقهم بيدها، وعيشهم معلق بكلمة منهم.

ومن ثم فقد طال تحليل الكتاب المحدثين لدور المثقفين فى الصراع

القائم على مئات الجبهات في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، من أجل الحرية السياسية حينا، وفي سبيل الحرية الاجتماعية حينا اخر، وضد أهوال التفرقة العنصرية طورا، وضد التفرقة الطائفية أو المذهبية طورا ثانيا: وكاد ينتهي تحليل هؤلاء المحليين الى القول بأن من سمات طبقة المثقفين التردد الشديد عند الازمات، انشغالا بالنجاة الشخصية واتقاء للتهلكة، وأن المثقف في معظم الأحوال ، وصولي وربما أيضا - لوصوليته - انتهازي.

والمفارقة الكبيرة في هذا الاتهام، هو ان الذين يوجهونه ويصرون عليه، هم مثقفون أيضا، هذا كله، اذا سلمنا بأن المثقفين يمكن تصنيفهم جميعا كطبقة، وإن ما يمكن أن يؤخذ عليهم من عيوب وأفات ليس مردها أنهم بشر، وأن الثبات في وجه الشدائد، من الصفات التي يندر توافرها في الناس أيا كانت انتماءاتهم الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية.

وإذا كان مترجمو حياة (برناردشو) يسجلون عليه انه في بداية حياته العامة، عندما بدأ اتصاله بالكفاح الاشتراكي، فر عندما بدأ في آخر الشارع رجال الشرطة يحملون هراواتهم ، ثم عرف بعدها عن نفسه انه تعوزه الشجاعة المادية، وان كان يتمتع بالشجاعة الادبية التي تعينه على مواصلة نقد الانظمة السيئة والمؤسسات الظالمة التي يعيش في ظلها البشر.

وبالمثل فان ما يأخذه الناس خصوم الشيخ محمد عبده من انه تحمس أول الأمر للثورة العرابية ثم لم يلبث ان تخلى عنها، وانقلب ضدها، غير مدرك أن الحركة التي أيدها كانت ثورة، وإن للثورة

منطقا يخالف منطق الحياة العادية ولكن الذين وجهوا هذا النقد للشيخ محمد عبده، أخطئوا لأن الشيخ محمد عبده لم يتخل عن الثورة العرابية حينما واجهت مخاطر الفشل، بل لان الشيخ محمد عبده لم يكن ثوريا أصلا، ولكن الثورة جرفته في تيارها، شأن كل ثورة في أي مجتمع تقوم فيه ثورة، فهي تهب على هذا المجتمع كما تهب العاصفة التي تقلع أمامها الأشجار والأشياء والأبنية.

وتحويل الامثلة الفردية الى قاعدة عامة، خطأ، يقع فيه الباحثون من أجل التبسيط والتيسير.

ويبقى بعد ذلك أصل الموضوع، وهو هل المثقفون طبقة؟ وهل هم طبقة من أفاتها الميل الى خيانة المثل التي تنادى بها؟ وعلى الاقل عوزها للشجاعة التي تقتضيها رسالتها.

لكن من يستطيع الاجابة على هذا السؤال. فانه من الاسئلة التي تثار لا للإجابة عليها، بل لتبقى باعثا على التأمل والتفكير، في أن المثقفين ودورهم هو موضوع الحضارة في عصرها الحديث، موضوع اليمين واليسار، والاشتراكية والرأسمالية ومستقبل الانسان كله، وحقيقة تأثره بالتطورات الهائلة التي جعلت الانسان الآلي، منافسا للانسان الحي، والتي جعلت (التكنولوجيا) خادم الانسان المطيع، وسيده الجبار المتحكم، وجعلت التقدم لونا من الفزع الذي يهدد الحضارة بالموت جوعا في مكان ، وبالموت بالاسلحة الذرية، في قارات.

ومع ذلك لابد لنا من أن نفكر في السؤال، لانه قادر على أن يلهم ويوحي، ويربك ويريح.

فلنفكر إذن فالتفكير يعوض صاحبه في الحال عن التعب والعناء والقلق..

ثقافة للبيع

محنة الأدب والثقافة

من متناقضات الحياة أن السلعة الثقافية أغلى ثمنا.. وأعظم كلفة من السلعة العادية التى تسد حاجات الانسان الغريزية من طعام أو ملبس أو مشرب أو مطية يركبها الانسان ليبلغ هدفا أو سلاحا يدفع به عن نفسه عادية الآخرين .

فالكتاب والمسرحية واللوحة زيتية كانت أو مائية كلها سلع ثقافية تكلف الكثير من الأموال وتستنفد الطويل من الأوقات، والعظيم من جهة التحضير والاعداد والتنفيذ والاخراج ومن ثم حصل التناقض الذى قوامه أن الانتاج الثقافى لا يتأتى لعامة الأفراد، وهم لا يقوون على أداء تكاليفه فى صورته اللائقة به، ومن يتصدى لإدارة واستغلال مكتبة أو مطبعة أو مسرح لتعرض للإفلاس فى الأغلب الأعم، فتقفل الصحيفة أبوابها بعد شهور قليلة من بدء نشاطها وتسدل الجريدة الستار على مسرح أعمالها. وقد يحاول صاحب المكتبة أو الجريدة أو المسرح الاتصال بالجماهير وعرض إنتاجها فى مثل الصورة القديمة أو فى صورة جديدة معدلة ..

وكم من جريدة ومسرح ودار نشر فى مصر . لحق بها الكساد فتوارت عن الانظار ، وعاش صاحبها بعد ذلك سنوات يحاول أن يسد

● الهلال - يونيو ١٩٨٧ .

ديونه ويتفق عن طريق (سنديك) عينته المحكمة أو عن طريق التراضى والحل الودى .

يحدث هذا فى حين تقوم إلى جانب الجرائد الكاسدة والمسارح التى بارت سوقها ودور النشر التى دهمها الإفلاس مشروعات تجارية ناجحة أشد النجاح تدر على أصحابها الدخل الوفير والكثير .

وقد يحدث استثناء فى الظاهر فيكسب صاحب الجريدة أو المسرح أو المطبعة أو المكتبة رزقا وفيرا والحقيقة أن هذه المنشآت الثقافية قد وقعت الى مصادر رزق لاتمت إلى العمل الثقافى بأدنى صلة فاستطاعت أن تعيش وتواجه ظروف الزمان التى تثقل العامل فى الحقل الثقافى بالنفقات الباهظة .

ففى مصر، ظهرت صحف كان أصحابها من غير المصريين ، إذ كانوا من أهل المشرق العربى، وقد تبنت الدول فى الغرب بعض هذه الصحف، لتروج بين المصريين فكرة . الذين اتخذوها سبيلا لنشر زعامتهم وبث مذاهبهم فنجحت هذه الدور نجاحا عظيما، ودرت على المشرفين عليها والمتصلين بها وافر الرزق ، فأصبح هؤلاء من ذوى الثراء العريض، وتصدروا المجتمع، ووصلوا الى أعلى المراتب ولا أحد ينكر أن هذه الصحف أسدت يدا جليلة الى الثقافة . فخلقت هذه الصحف مجالات فكر، ونقد، ودعوة عادت على البلاد كلها بخير غير قليل ولما تطورت الاحوال تخلصت تلك الصحف من شوائب صلاتها بجهات النفوذ التى دفعت بمحررى هذه الصحف والمشرفين على إدارتها الى مجالات الرأى وانتهى الامر ناسين هذه الصحف التى انصرف المصريون عنها . وساء ظنهم بالقائمين على أمرها . وتحولت وربما على الرغم من أصحابها أو برضائهم الى منابر رأى وفكر .

ولسنا بصدد نقد هذه الظاهرة ظاهرة النشاط الثقافى الذى يقف خلفه أناس لا صلة لهم بالثقافة - انما نحن بصدد ارتفاع كلفة العمل الثقافى وعجز الفرد العادى عن النهوض به وتحمل أعبائه وإذا تجلد صاحبه وباع ما يملك واقترض واشرك معه سواه فان هذا الجهاد الدامى الجدير بالثناء والاشادة لا يمكن أن يطول وقد يخرج الصحافى المجاهد من جهاده مصابا. بأكثر من علة تضعف جسده . أو تهرم قلبه. أو تطفى نور عينيه. والذين شاهدوا أمين الرافعى صاحب الاخبار بعد أن كانت رائجة يطبع عشرات الألوف فى اليوم الواحد كسدت تماما وقل قراؤها ، وخفت صوتها ثم اختفت من الوجود ، وبعد قليل انحنى ظهر صاحبها وشابت رأسه، وأصبح يسير فى الطريق وحيدا وساقاه لاتقويان على حمله .

ذلك لأن الاخبار كانت لسان حال الأغلبية فلما اختلف أمين الرافعى مع هذه الأغلبية ، تخلت عنه واستمرت جريدته فى الاضمحلال . والرافعى يأبى أن يغير موقفه أو يخفف من غلوائه .

وقد نقول إن هذا أمر طبيعى لأن الصحيفة سياسية ، والسياسة أمرها قل. ولها فى كل حال شأن وهذا صحيح إلا أن ماجرى على أمين الرافعى صاحب الجريدة اليومية السياسية، جرى على أصحاب مشروعات ثقافية ، فعزيز عيد الذى حاول أن ينشىء مسرحا يعرض فنا جادا انصرف الناس عنه ومعه زوجته الممثلة الشهيرة فاطمة رشدى التى اسماها المعجبون بها بـ سارة برنارد الشرق. وحدث هذا ليوسف وهبى الذى عاش سنوات يدير مسرحا من أكثر مسارح القاهرة رواجا، بفضل ما تمتع به من قدرة فائقة فى الدعاية واستثارة لاهتمام

الجماهير، بانتاجه وأخباره الخاصة، ولا أنسى الأيام التى كنت أرى فيها يوسف وهبى الممثل الشهير ، بمكتب أخيه المحامى اسماعيل وهبى وهو لا يخجل من أن يمد يده ليأخذ سيجارة من صديق يعطف عليه ويود أن يواسيه.

إن هذه صورة من محنة الأدب والثقافة فى بلادنا آثرت أن يعرفها الناس من جهة ، وأن يعرفوا الاهوال التى تعترض سبيل الذين يريدون أن يخدموا الثقافة .

وإذا كان أمراء الاقطاع والأثرياء الذين كانوا يبسطون الرعاية على الشعراء والفنانين وهواة الموسيقى، ويقتنون ما ينتجه المصورون والرسامون من تحف وروائع - اذا كان هذا العصر انتهى وأختفى معه هؤلاء الأغنياء الذين كان بعضهم أقرب ما يكون من غنى الملوك وثرائهم ونفوذهم فلم يعد من يحل محلهم سوى الحكومة فالثقافة الآن - ولاسيما فى العالم الثالث - هى البديل عن الأمير الاقطاعى الذى تولى الإنفاق على فرق الموسيقى التى شغفت بفن البالية وانفقت على فرقه ألوف الجنيهات ولابد من أن نضع خطة للنشاط الثقافى للدولة، فإن حياتنا الثقافية هزيلة الى أبعد حد، ولا يزال الإنتاج الثقافى إرتجالا من جهة أخرى وكلنا نعرف قداسة الانفاق الحربى، والحرص على استمرار وجوب توسيعه حتى فى السنوات العجاف، فهذا إنفاق على مرفق تتعلق به حياتنا، ويرتهن به وجودنا ولكنى ازعم - وهو زعم لن يلقى ما يستحق من الاحتفال والتصديق - ان الانفاق الثقافى، يجب أن يأتى بعد الانفاق الحربى مباشرة وهو أهم بكثير من الانفاق على التعليم ويحسبهما أمرا واحدا والواقع أن الفرق بينهما شاسع، وتأثير كل منهما يختلف عن تأثير الآخر، بمقدار عظيم.

فالتعليم يخلق العظم الذى ينشئ الوجود القومى، ولكن الثقافة هى التى تكسو هذا العظم لحما، والثقافة تسبق الحرب، وتصاحبها وتبقى بعدها فالانتعاش الروحى، والرغبة فى التغيير وكراهية القصور فى حياتنا والتخلف والتطلع الى مزيد من الحيوية، والاتساق، والحركة، لاتتم الابالثقافة. فهى التى تحمى حياتنا من الرتابة والسوقية والجمود والفجاجة والغلظة والقبح وإذا كنا نشكو هذه السمات فى حياتنا التى تؤدى الى التحلل والتخلف والاهمال الشديد وجهل الواجب والفتور فى أدائه، فذلك لأن ثقافتنا مضمحلة وسطحية ولانعتنى بها عنايتنا بمرافق أقل منها شأنا .

والفرق – فى الواقع – بين أمة وأمة، هو الفرق بين ثقافة وثقافة . وأى إصلاح نطمع فيه ونطمح له، لايمكن أن يتحقق بكل ما نقترحه من وجوه التغيير والتقدم، فسبيله الوحيد والفعال والناجح والسريع هو ثقافة واسعة النطاق وعميقة الأغوار ، يقوم على نشرها وتوصيلها الى جميع طبقات الشعب ، أناس يعتبرون العمل الثقافى لونا من الجهاد الروحى . أو قل ضربا من الآستشهاد .

فاذا كنت تسير فى القاهرة وكأنك تسير فى مدينة ضربتها طائرات الأعداء بالقنابل فهى كأطلال مدينة سابقة عليها ، واذا كنت ترى جهارا نهارا عمائرنا الأثرية أماكن لطهو الفول والخضراوات وتقديمها للناس واذا كانت المدينة العظيمة لا روح فيها ولا عمل ، واذا كنا الى الآن لم ننتج دائرة معارف عربية. ولم نترجم أعمال الفكر والفن والأدب العظيمة والشامخة فى بلاد الأخرين ولغاتهم.

فلأن الثقافة نشاط حيوى مهمل ومتروك ولا يشغل بال أحد من

الحكام وكذلك لا يشغل بال أحد من المحكومين وإذا كانت فرنسا قد أقامت مناحة لقطع أربع شجرات قديمة توطئة لاقامة مبني معرض الفنون الأربعة (كاترارتو) فيتبارى الشعراء والكتاب والمصورون وكبار المسئولين فى البكاء على هذه الاشجار .

وكنا قد قطعنا فى السنوات الاخيرة أشجارا جديرة بمثل هذا الاعزاز دون أن يحس أحد أو يتحرك أحد .

وإذا كانت الاحداث الكبرى تقع فى بلادنا فلا يبدو أن نبأها قد وصل الى سمع أو اتصل بنفس فذلك كله لاننا أمة ولا بد إذن من دعوة مجلجلة ومعضلة لتصبح الثقافة ثقافة لا شيئا شبيها بحاجياتنا الدنيوية التافهة والصغيرة .

أزمة الثقافة العربية
سببها فكرى أم روحى

يكتب كبار كتابنا فى أكبر صحفنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية والشهرية مقالات مستفيضة تملأ صفحات ، ثم تمضى الأيام والسنون وهذا النشاط مستمر وموصول ، ولكن تبحث عن صدى له، أو اثر عند عامة الناس أو خاصتهم فلا تجد شيئا .

ويؤلف هؤلاء الكتاب أحيانا كتبا ويعلن عنها، وقد يباع الكثير منها أو القليل وتتداولها الايدى، ثم تفتش عن شيء تركته هذه الكتب فلا تجد إلا العدم فكل ما يكتبه كبار كتابنا ومعهم صغارهم يطلع على الناس، ثم يطوى وينسى وكأن شيئا لم ينشر، أو شيئا يصبح ويقرأ، ورأيا لم يطبع ويعلن . وهذا هو موطن الداء وبيت العلة .

كبار كتابنا ولو ألفوا القصص، أو نظموا القصائد ، أو دبجوا المقالات عاجزون تماما على أن يلهموا الناس بخاطر، فلا هم يثيرونهم ويغضبوهم ولا هم يرضونهم ويحصلون على إعجابهم والحياة نفسها العامة، والشخصية لا تتغير فى بلادنا .

فاذا أردت أن تصلح الحياة الثقافية فلا تبحث عن غلاء سعر الكتاب ولا عن رداءة طبعه ، ولا سوء مظهره، ففى الماضى كان كبار الكتاب فى

● الهلال - مايو ١٩٨٤ .

فرنسا مثلا لايجدون مطبعة لتطبع منشوراتهم الثورية، فكانوا يكتبونها ويكتبها أعوانهم والمؤمنون بهم، بالحبر على قصاصات من ورق صغير ربما كان بعضه ممزقا ولكن الأيدى تتداوله سرا وقد تحفظه عن ظهر قلب فلا يلبث أن يكون فى كل بيت وعلى كل لسان ويظهر أثره فيما يفعله الناس فى الشوارع وفى الجماعات التى تختفى عن أعين الشرطة وعيون الدولة .

ولسنا نطلب بطبيعة الحال أن يكون كل الكتاب ثوارا ولا أن تكون الكتب والمقالات كلها من طراز ماكتبه فولتير وجان جاك روسو قبيل ثورة ١٧٨٩ ولكننا نذكر ذلك لنرد على الذين يعزون الفكر البحت الذى لا يقبل بالسياسة ولا بالحكم ولا بظروف الناس اليومية المألوفة .

والثابت أن النفوس لا تظفر بالقوة والطاقة والحيوية أو بمزيد من القلق، أو بخيال فسيح ، أو بجرأة تبدو أحيانا إندفاعا وتهورا إلا اذا صاغتها أحداث حياتها صياغة غير عادية أى لابد للمثقف قبل أن يثقف سواء كان يعانى فى حياته الخاصة بفضل مواهبه ، وخصائصه فيفكر فيما لا يفكر فيه زملاؤه وانداده أو يرفض ما يقبله مجتمعه أو يفطن الى حقائق عقلية أو روحية غابت عن الأخرين فهو بفضل هذا التميز يقلق الذين حوله بما يقوله ويبدو غريباً عنهم أو شاذاً أو غير طبيعى أو خيالياً يعلو فوق الواقع ويحلم بالمستحيل أو يدعو إلى ما ينفع . فالمثقف أصلاً ثائراً أولا .

ولا ينتظر بطبيعة الحال أن يكون كل المفكرين ثواراً، وإلا لا نقطع تعاقب المفكرين وتسلسلهم بالوفاة وبالعجز وبالتوقف عن الانتاج لأية علة ولخلا مكان الكتاب والشعراء والمصورين طويلاً حتى يأتى العباقرة

الذين يتمتعون بهذه الصفات التى نذكرها لا يتفق مع الحياة العادية التى لا بد أن نعيشها والتى لاتطاق من غير الكاتب والشاعر والاديب والمفكر والفنان ولكن مع التسليم بذلك فان المثقف بكسر القاف فى العادية وإن لم يكن ثائرا ولم يكن كل ما يكتبه ثورة إلا أنه لابد إذ أردت أن تدخله فى زمرة المثقفين بكسر القاف أيضا ان يكون فى خلقه ومسلكه ومنهجه شئ من صفات الثوار وأخلاقهم ومواقفهم ويتفاوت الكتاب فى نصيبهم من هذه الثورة وبقدر هذا التفاوت يتفاوتون فى القيمة وفى الاثر وربما يحتاج هذا الكلام الى مزيد من التوضيح لذلك أقول أن المفكر والفنان كلاهما فى الأصل ثائر فهما اشبه الناس بالرسل والأنبياء الا أن ما يدفعهم أصلا الى الكتابة والتفكير والعمل الفنى بأنواعه من الصورة والتمثال الى الأغنية والعمل المسرحى هو إحساس بالقلق فى المجتمع الذى يعيشون فيه ورغبة فى التغير ورفض لبعض الواقع واستشراق للمستقبل والا لما فتح فمه ولا أمسك بقلمه أو أزميله أو فرشاته وبقدر ما تكون ثورته على هذا التغيير وإصراره عليه وتحمله للمتاعب والآلام الناجمة عن هذا الموقف يكون لانتاجه من الأثر فى المجتمع ايقاعه وعند من يتلقون آثاره بخاصة وهذا هو السر فى أن كثيرين من رجال الثقافة يمرون فى حياتهم منسيين وغير ملتفت اليهم منكورين أو مرفوضين لأنهم يتكلمون بلغة غير لغة المجتمع ويفكرون فى أمور لا تخطر على بالك وقد يبدأ الكاتب أو الفنان مثقفا أى قادرا على منح المتلقين لادبه وفنه طاقات فكرية أو روحية تنتقل إليهم منه بطريق العدوى فلا يقتصر دورهم على القراءة والاستمتاع بما قرأوه أو المواظبة عليه أو الاشادة به بل يحسون بأن ما تلقوه من الكاتب أو الفنان هو

دعوة لهم بأن يعملوا شيئا ما وليس ضروريا أن يكون هذا الشئ ظاهرا ومعلنا فما أكثر الذين قرأه لكتاب كبار وتأثروا باطنيا بما قراه فتغيرت حياتهم جزئيا أو كليا وقد يتأثرون ولكن بقدر لا يكفى لاحداث التغير الكفيل بإخراجهم من النطاق الروحى أو الفكرى الذى ولدوا فيه وعاشوا لا يتجاوزونه ولكنهم يحسون مع ذلك بالارتباط بالكاتب الذى بدأ يوثر فيهم فيواصلون القراءة حتى يأتى يوم فاذا هم شىء آخر وقد يلهمهم هذا التغيير المتدرج الى أن يجردوا أقلامهم كما يجرد الفارس سيفه ويعلنوا ما استقر فى يقينهم فاذا بهم دعاة ومثقفون يكسر القاف بعد أن كانوا مجرد متلقين وبهذا الانفعال تتسع دائرة الثقافة ويتعمق أثرها ويتحول المجتمع من الركود واللامبالاة والعجز عن التأثر بالثقافة والفن والادب الى متذوقين لكل هذه الضروب من الانتاج الفكرى والروحى ويكون هذا قمة النجاح الثقافى .

فاذا شكونا من حالة الثقافة العربية ومن ركودها ومن قلة ما يخرج للناس من كتب يتردد صادها فى جنبات العالم العربى وتستثر الأقلام وتبتعث النقد وتنشر معارك حولها وتعلو لها أصداء الاعجاب والتقدير وتعتبر من معالم الحياة الفكرية فالأصل لكل هذه الظواهر التى لا ترضينا بل التى تحزننا الى أن المنتجين أى المؤلفين والفنانين والكتاب قد أصبحوا موظفين يعيشون حياة رتيبة لا قلق فيها ولا خوف ولا تطلع ولا مغامرة ولا أحلام رفيعة يتقاضون مرتبات ثابتة تكفل عيشهم ثم يمضى كل شىء على حاله.

واذا قارنا أحوال الكثرة الغالبة من كتابنا ومفكرينا الذين يتولون الآن تثقيفنا بالذين سبقونا لوجدنا هذه الحقيقة الصارخة أن الجيل الذى سبق لم يكن أكثر اطلاعا ولا أعمق فكرا ولكن كانوا جميعا ثمرة

التجارب المرة واحيانا المعارك القاسية وانهم ندبوا أنفسهم لابداء أراء كلفتهم الكثير فى مجالات الفكر والسياسة ولقد طحنت الحاجة أكثرهم تحت رحاها فعرفوا الحرمان وكابدوا المشقة فهيأتهم هذه النشاة لخوض معارك من أجل الحياة فى ذاتها ومن أجل أفكارهم اصطلوا نيران القهر وكيد السلطة وسخط المجتمع أو كل ذلك مجتمعا ولذلك نجحوا فى أن يقلبوا الاوضاع السائدة وأن يفتحوا ، أبوابا لم يكن أحد قادرا على أن يفتحها أو أن يقف على عتبتها .

وليس حتما أن يأتى على شاكلتهم الجيل الذى يليهم فلكل جيل ظروفه، فاذا كان من الادباء من حارب الاستعمار الاجنبى فلا تثريب على أدباء جيل تال أن أعطاهم القدر من وطأة الاستعمار فحاربوا قوي ظالمة سواه قد تكون هذه القوى مصرية، ولكن الغاية أن يكون فى المثقف شىء من النفحة الربانية التى نفخها الله فى آدم وأن يكون ممن تعلو عندهم رسالة الثقافة فتصبح لونا من الدين وأن تكون مهمة التثقيف معاناة وتحملا ومكابدة، فاذا كان المثقفون ممن يخلدون للراحة ويقبلون الحياة على علاتها فان ما يكتبونه ولو وزع منه الآلاف وطبع على ورق مثل مقاسه أوراق البنكنوت فان ماسيصدر عنهم لن يحرك ساكنا ولا يثير حاقدا ولا يغير وضعا موروثا ولا يصحح عيبا سائدا فتشتد أزمة الثقافة باختفاء أمثال بيرم التونسى الذى نفى وذاق أهوال الغربة والجوع والعقاد الذى أصيب بالسل، وعبد الرحمن شكرى الذى اشتدت عليه وطأة الغربة ولا شىء يمنع أهل النعمة من أن يكونوا على رأس أهل الثقافة ، ففى الادب الروسى اجتمع دستوفسكى الذى كان فى قاع المجتمع يكاد يموت جوعا وتولستوى الكونت حفيد الاغنياء أصحاب الضياع ولكن كلاهما كانت تؤرقه قوة التمرد على المجتمع العصرى الذى علق المشانق للاحرار وقذف بهم الى سعير الجليد .

السلف الصالح

يجب الالتفات إليه والاحتفال به

أهدى إليَّ الكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أمين كتابه الفذ ، المعنون «تطبيق الشريعة الإسلامية» فقلبت صفحاته على عجلة ، وكلما وقع نظرى على عنوان فصل ، وددت لو قرأته من فورى .

ولكننى غالبت نفسى حتى وصلت الى الفصل المعنون «تأملات فى حقيقة أمر السلف الصالح» ، فوقفت عنده وطالعته فى الحال ، وسر ذلك إنى رأيت هذا الفصل ذاته فى مجلة المصور فى الفترة التى كان الاستاذ حسين أمين يكتب خلالها مقالاته التي أفزعت قوما واسعدت قوما ، وأهمت أخرين فلم يسعدهم ما قاله الاستاذ حسين، ولم يفزعهم وانما أثار خواطرهم . وحملهم علي التساؤل وربما دفعهم الى مناقشة ما قرءوا مع أنفسهم حينا ومع إخوانهم وأصدقائهم حينا أخر. ولعل الحوار استمر والوصول الى رأى يطمئنون اليه يبدو أبعد من أن تناله الأيدى . قرأت عنوان هذا الفصل بنفس النص أو بنص سواه فاقبلت عليه وبعد أن قطعت فى القراءة شوطا ، جاء نى ماصرفنى عن اتمامه ، وبقيت مشوقا أن أعود اليه ولكن الحوائل استمرت تمنعنى عن تحقيق هذه الرغبة حتى جاء نى الكتاب حاو لسبعة عشر موضوعا الى جانب

● الهلال - ابريل ١٩٨٥ .

المقدمة فبعثرت الفصول الستة الأول بنظرة عجلى ثم وقفت عند الفصل السابع فقرأته فى نهم وشوق فسرنى من هذا المبحث الاسلوب الذي كتب به والمادة الغزيرة التى فاض بها ، ثقة الكاتب بنفسه وبرأيه وهو يضرب بمعول كبير ، يحمله ساعد شديد فى موروثات عزيزة على المسلمين والعرب. وهو مؤمن بأن ما يهدمه لابد أن يزول غير ملو بالا لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجرىء ، فى نفوس الاغلبية الكبرى من بنى قومه فى مصر، وفى غيرها من أقطار الناطقين بالضاد والمؤمنين بأن سلفهم الصالح هو خير الناس أجمعين ، نقاء سريرة وخلوص نية وغزارة وايثار على النفس وبذل للروح وحرص علي خير الأمة وسلامتها واستماتة لا تهدأ لتوفير أمن هذه الأمة وتأكيد عزتها وأن هذا السلف قدوة ومثل للناس فى المشارق والمغارب وفى القريب من الأيام والبعيد. ولمن آمن بمحمد ورسالته ولمن آمن بعيسى ودعوته ولمن آمن بموسى وعقيدته ذلك لأنهم كانوا قبل كل شىء أناس صالحين عالمين مجاهدين ، لا يقبلون الخطأ ولا يقاربون الزلل ولو صغر وهم مع ذلك أناس من الناس يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ويتزوجون النساء، ويشتهون كما الادميون فليسوا هم معصومين لأن العصمة لله وحده ولا هم ملائكة فالانسان عند الله خير من الملائكة لان الانسان هو الذى اصطفاه الله ليكون خليفته .

وسر اشفاق الكاتب المجدد الشجاع من المبالغة فى توقير السلف الصالح ونسبة كل فضيلة له ، ونفى كل نقيصة عنه. أن المسلمين بسبب هذا الموقف الذى تكاد تكون أمة المسلمين قد انفردت به دون سائر الامم، أن المسلمين كانوا يسيرون بأقدامهم فى الحياة الى الامام وأعناقهم ملوية الى الخلف ، لأنهم اعتبروا ان السلف الصالح فعل لهم

ومن أجهلم وأجل أمتهم ودينهم . ماسيعجز عنه كل جيل قادم . مما يحتم علينا وعلي الذين سيأتون من بعدنا ، ألا يرفعوا أعينهم عن رجال هذا السلف وائمته وعظمائه . يستوحون فى الملمة ، ويحاولون محاكاتهم عندما تنفرد السبل، أو تقع الحيرة، ويأنسون بمثلهم وقدوتهم عند الرخاء والفرج .

وقد لخص الكاتب أن ما دأب عليه الخطباء والوعاظ فى المساجد ، والكتاب ومؤلفى الاشعار وما تنشره المطابع ، وما يردده ويكرره الاساتذة والمربون فى المدارس كاد يثبت فى وهم عامة المسلمين والصحاب أجمعين أمورا ثلاثة .

الأول : أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا فى أن يكون مثل هذا السلف الصالح .

الثانى : أن الاجيال التالية للسلف الصالح مجبولة على النقص والفساد تالف حالها .

الثالث : أن تطبيق الشريعة كان أمرا ميسورا وقت أن كان ذلك السلف الصلاح على قيد الحياة ، وهو الأن متعذر لفساد الناس بعدهم، وسيظل متعذرا الى ما شاء الله (ص١٠٢) .

واحسب أنه من السهل المتاح أن نصل الى القضية التى عرضها الاستاذ حسين أحمد أمين على محكمة الرأى العام العربى الاسلامى ، وربما الانسانى كله ، وهى قضية السلف الصالح فى كل زمان ومكان وعند كل أمة ودين .

ويتعين على كل من ينهض بالرد والتعليق على مقال المؤلف كتاب تطبيق الشريعة أن يلفت النظر الى أن الكلام يدور حول السلف الصالح يعنى أن المناقشة لا تجرى حول السلف على اطلاق .

فالسلف الذى تحبه جماعة المسلمين وتقدره ، وترفع مقامه، وتعلى من شأنه وتبذل كل طاقاتها البلاغية ، وقدراتها البيانية فى الاشادة به ، والدعوة اليه هو السلف الصالح، أى السلف الذى سبق غيره الى عمل خلد به اسمه ونبه له ذكره وكان سيد هذا السلف وإمامه وقمة أمجاده هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قرب الرجل من رسول الله وأخذ عنه بعض مناقبه وفضائله جاز أن يضم الى قائمة السلف الصالح ولم تدخل التقاليد الاسلامية الدينية أو الفقهية أو العلمية ، رجلا من المسلمين أو العرب الى هذه القائمة النقية الشيقة. المجاهدة المؤمنة العالمة والمعلمة بسبب قرابتها لرسول الله بل أن فى ذوى قربى رسول الله ، وحتى الذين لم يخرجوا عليه ، من ينتقص التاريخ الاسلامى من قدرهم . أو على الاقل يحفل بهم . ومن احترمهم التاريخ الاسلامى من أعمام رسول الله أو أبناء عمومته أو اخواله من ذكروا لهذه القرابة دون أن يحسب لهم سبقا فى الدين أو أو اثرا فى العلم فهم اقرباء الرسول وحسب .

فلتنظر بتجرد دون تحيز الى ما فعله السلف الصالح الاسلامى من أجل الاسلام ومن أجل خير الانسانية فى مجالات العلم، والفقه والادب والفن والسياسة والحروب ، وسن السنن الرفيعة للخلق الانسانى، والتقاليد السامية لنرى هل يستحق هؤلاء التكريم الذى نالوه والمكانة التى احتلوها أو انهم فعلا نماذج عظيمة للانسان فى كل مكان وزمان وأن التأمل فى تاريخهم . والتأسى بهم ومحاولة محاكاتهم والنسيج على منوالهم : واجب دينى وواجب تربوى لبناء انسان أعظم وأشرف منوالا .

لقد صنع السلف الصالح فى أولى طبقاته شيئا لم يصنع مثله على مدى التاريخ الانسانى، فلا الفراعنة ، ولا اليونان ولا الرومان. ولا أهل

الصين ، أو الهند استطاعوا فى أقل من عشرين عاما أن يقيموا دعائم دين يتضمن فى قواعده نظرة شاملة الى الكون ودعوة عامة للانسانية مع ارساء قواعد ثابتة لأصول الحكم وإدارة الدولة. خلاصتها العدل والمساواة وتحرير بنى أدم وتكريمهم ودعوتهم الى العلم والتعليم والاخاء والترابط . والتسامح مع المخالفين فى الرأى وتحريم الظلم والتنفير من الجهل ومن الغلظة ومن السوقية ثم اقاموا دولة على صحراء قاحلة جدباء اتسعت أقطارها وترامت أملاكها . واستطاع صغار من شبابها أن ينازلوا امبراطوريتى العالم فى أولى سنى حياتها فهزموهما وأجلوهما عن أرض شاسعة كانوا يملكونها ، ثم انشئوا حضارة ليس حتى اليوم ارفع منها منارا ثم وضعوا اسس العلم الحديث فى كل درب ومجال. فبأى منطق علمي أو علماني، أو مقياس قومي أو انساني. نحكم على هذا السلف بالحمد والثناء والاشادة ، والتمجيد .

ثم أرونى كتابا واحدا، أو مؤرخا أو عالما أو فقيها أو مشرعا قال فى شىء مما أثر عنه أو حفظ له . إن احدا من السلف الصالح تجاوز الطبيعة الانسانية. وأصبح إلها يعبد ، أو عبقريا لا يخطىء ولا يزل ولا يملك أحد أن يناقشه أو يحاجه أو يثبت عليه السهو او الخطأ أما مايخافه ابننا العزيز الاستاذ حسين أحمد أمين فيما يخافه من أمور ثلاثة وهو أن يستتر فى عقول عدد من المسلمين أو جماعة منهم أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا فى أن يكون مثل هذا السلف الصالح وإنى اناشد كل من يعرف القراءة والكتابة أن يقرر ما إذا كان لم يسمع منذ حيا على الارض حتى بلغ أرزله إذا تبقى له ذلك أن كاتبا أو خطيبا أو داعيا كف للحظة عن دعوة أمة المسلمين والعرب إلى التشبه بالسلف

الصالح ومحاكاته بأن لنا فى رسول الله اسوة حسنة. أما الأئمة فقد درجوا ان يقفوا إذا كانوا من السلف الصالح، امام الامراء على المنابر وفى المساجد والاسواق يتذكرونهم بما كان من الرسول والخلفاء الراشدين من إقامة العدل وتحريم الظلم وكراهية الدنيا وحب الاخرة .

ولقد ادخلوا فى قائمة الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز - الذى لا يعجب الاستاذ حسين أمين وقد تأخر به زمانه عن هؤلاء الخلفاء قرنا أو يزيد من الزمان لأنهم رأوا منهجه قريبا من منهج الخلفاء الراشدين وكان مسلكه هذا قاطع الدلالة فى أن جماعة المسلمين لم يروا فى سمو السلف الصالح . مجرد صورة تعلق على صدر التاريخ الاسلامى. ينظر اليها ويعجب بها ولا يفكر احد فى الأخذ بها . والنسج على منوالها ، بل أن كتابنا وشعراء نا درجوا على القول بأن قوادنا الذين حاربوا من أجل الاسلام فى القرون الحديثة، كانوا بمثابة أحفاد للرسول . ولعمر ولخالد بن الوليد ولطارق بن زياد بل أن شوقى منذ أقل من خمسين عاما حيا مصطفى كمال قائد تركيا حينما وقف يحرر بلاده من غزو الانجليز والفرنسيين قال :

يا خالد الترك .. جدد خالد العرب .

وقد دخلت وأنا صبى صغير الى منزل أحد الزعماء فوجدت لوحة مهداة الى قرينته يقول كاتبها لهذه السيدة :

«عائشة أم المؤمنين وأنت أم المصريين» ولم تكن لهذه السيدة نصيب فى الجهاد للاسلام أو على علم بشىء من أحكامه إنما هو الاهابة بنا أن نرفع أعيننا الى السلف الصالح، ونحاكيه ونتأسى به ونتعقب خطاه أما الشر الذى يخشاه الاستاذ حسين هو أن نعتقد أن الاجيال التى

جاءت بعد السلف الصالح مجبولة على النقص والفساد ، فان تاريخنا الحديث وربما الحديث جدا يتضمن الدليل على أن حتي صغار شبابنا يحسبون انهم قادرون على أن يعيشوا كما عاش أوائل السلف الصالح في الملبس والمأكل والزي والمشية والخطوة، والكلمة والاشارة ، لعل مبالغتهم في هذا وحرصهم على أحياء الماضي والعيش في أجوائه هو الجدير بتنبيه من الأستاذ حسين أن القديم الموغل في القدم، لاخير في تبعته، إنما الخير في بعث مبادئه. وفضائله فهذه لاتبلى وهي مطلوبة في كل عهد أما مظاهر هذا القديم وأشكال حياته فهي أمور تتطور وتتغير وتزول والتاريخ الاسلامي ملئ بوقائع دول اسلامية. واتسع ملكها وتألقت حضارتها ونشأ في ظلها القادة ومنشئوا الدول ، وأهل الفكر، كما حدث في غرب أوربا عندما قامت الدولة الأموية في هذا الطرف الاقصى من أوربا ، فكانت عواصمها مثابة للعلماء الذين أخذوا عن المسلمين أصول العلم الحديث في الطب والهندسة والفلك والعمارة والفلسفة والرياضة ثم قامت دول أصغر شأنا كالادارسة في المغرب والفاطميين في مصر والشام ودول الممالك الذين شادوا علما رفيعا وحكما سامقا أما القول بأن الشريعة كان تطبيقها ممكنا في عهد المسلمين الأوائل حينما كانت النفوس صافية، والاخلاق سامية . فهذه حجة قلة من المسلمين يدفعهم الى هذا القول كراهيتهم للاسلام في ذاته . وخوفهم علي مالهم وسلطانهم في ظل حكم الشريعة .

وقد ساق الاستاذ حسين أحمد أمين مثلا لمنهج أقوام في تقدير رجال السلف الصالح فيخطئون في الميعاد الذى يقودون به الرجال فهم

مثلا يقولون عن عمر بن عبد العزيز انه من أعظم خلفاء الاسلام لمجرد ورعه وتقواه في حين لم تجلب السياسة المالية والادارية لهذا الخليفة غير خراب الدولة. ولنسلم جدلا في أن فضل عمر بن عبد العزيز يقتصر على الورع والتقوى ، وأنه حاكم تنقصه القدرة الادارية ، والكفاءة المالية. فهل اذا صح حكم الاستاذ المؤلف على عمر بن عبد العزيز سقط كل السلف الصالح، وهل السلف الصالح، أهل ورع وتقوى ومع ذلك يقبلون النهوض بأعباء الحكم. الا يذكر المسلمون أن ابا ذر الغفاري طلب من الرسول أن يسند اليه ولاية من ولايات المسلمين ، فرده الرسول بقوله : إنك امرؤ بك ضعف ، يعني أنه رجل تغلبه الرحمة . فلا يأخذ الخارجين على القانون بالشدة التي تروعهم. وهم مثل شائع على ألسنة المسلمين، مما ينفي عن المسلمين انهم لا يعرفون لما يلزم الحكام من حزم وعزم وشدة عند الاقتضاء ولين عند الحاجة .

وإذا كانت الدولة الاموية قد خربت – بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فلأن الخلفاء الذين سبقوه لم يكن لهم تقوى عمر بن عبد العزيز ولا ورعه ، وأنهم أحالوا الخلافة الى ملك عضوض ، ولأنهم استعملوا رجالا غلاظ الاكباد ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي استعمل أقواما في مثل بطشه كزياد بن ابية فاشاع في الدولة الفزع وبات الناس على كره للحكام ونقمة عليه ، فلما فشت الدعوة للعباسيين التي تزيت بزي الدعوة العلوية، اقبلوا عليها، وأعانوها على النصر لان الخلفاء ظنوا انهم في غنى عن خوف الله وتقواه . ولا احسب ان عمر ابن عبد العزيز قد اخطأ حينما قال لعامله على مدينة حمص ، حينما

تهدم حصنها نطلب من الخيلفة مالا ليعيد بناء الحصن فقال له حصنها بالعدل فهذه قولة حق وتوجيه حاكم عادل وحصيف فان حصن حمص لم يتهدم لأن المسلمين لا يصلون بل لأن حاكم حمص رجل ليس به ورع ولا تقوى فهو يبدد المال على ملذاته وشهواته، وذوى قرباه حتى لايجد فى خزائنه ما يبنى به الحصن أو يرممه قبل أن يتهدم .

والغريب من الأمر ان الاستاذ المحقق، يريد أن يصرفنا عن الانشغال بالسلف لنرى أمور دنيانا كما تقع اليوم، ولكنه يضرب لنا الامثال برجال هم من السلف ، ولكن جمهور المسلمين كرههم لامور يكره أمثالهم لامثالها. فهو يبدى إعجابه بيزيد بن معاوية الذى لم يل أمر الخلافة بمبايعة صحيحة من المسلمين بل لأن أباه أخذ هذه البيعة له، وهو لايزال على أريكة الملك. وقد جعل وراء كل صحابى فى المسجد ، جلادا يحمل سيفا ليبايع الجميع لابنه لاحبا فيه ولا إعجابا به ، ولا اطمئنانا اليه بل لأنه ابن معاوية فاذا كنا نضن.. على عمر بن عبد العزيز الاموى بالثناء عليه لزهده وورعه وكرهه للظلم ووقوفه فى وجه التعذيب والمطاردة للعلويين لأنهم خصوم الحاكم ، فما أحرانا الا نضرب الامثال للمسلمين بيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفى ، مادمنا لا نريد أن نشغل بالسلف بعامة .

وإذا كان لابد أن نعدل بالمعيار الاسلامى التقليدى الذى يحكم على الحكام بالورع والتقوى ، دون الكفاءة والمقدرة السياسية والإدارية فأحرى بنا أن تكون الكفاءة الادارية والسياسية وحدها هى المعيار الذى نقيمه لنحكم على آبائنا وأجدادنا . فقد ثبت أن أشد الحكام كفاءة.

حينما لا يتحلى بالعدل والاناة والبعد عن اصطناع أساليب القهر ومطاردة خصوم الدولة فان مصيره البوار.

وفي المقال أشياء أخرى تستحق المناقشة ولكن قد يطول القول فلنبق ذلك الى مقال آخر باذن الله، وحسبنا أن نشكر الاستاذ حسين أحمد أمين الذى يشق لقراء العربية طريقا شاقا وعرا يكلفه الكثير من الجهد عند الاعداد والتفكير والعرض، بعد البحث والتأمل والتنقيب ، ويكلفه أكثر من ذلك تحمل العداوات وآلام الخصوم بالحق وبالباطل ، حفظه الله من كيد الكائدين ووفقه الى خدمة وطنه ودينه بفضل علمه واجتهاده وإيمانه .

رمضان أمتع شهور الناس

لقد نجح المصريون ربما منذ عهد الفاطميين ، فى جعل شهر رمضان شهرا لا نظير له ولا ند بين شهور الناس ، طوال الأعوام ، وفى كل بقاع الدنيا .

لقد كان من حظى أن أشاهد فى بعض أقطار العالم أعيادا قومية ودينية ، فى الشرق والغرب ، وكان بعضها معارض فنية ، ومهرجانات يتألق فيها الذوق ، وتصل فيها الجماعة الإنسانية فى التعبير عن ألطف ما فى أعماق نفوسهم من مشاعر الأخوة ، والميل إلى البهجة ، والرغبة فى الغناء والترقص ، والدعابة والفكاهة . والخروج نوعا ما من رتابة الوقار والتقاليد الراسخة ، إلى حد التزيى بأثواب مهرجين ، ووضع تماثيل تحاكى الحيوانات فوق الرءوس والتنكر فى ملابس غير مألوفة والاتيان بحركات غير مقبولة ، ولكن كل هذا إذا قورن بما استقر عن المسلمين المصريين فى شهر رمضان من طقوس للتفريح ، والتماس السرور ، والبحث عن مجالات تتسامى فيها الروح ، ومجالات نقيضها يترخص فيها البدن ، تفوق شهر رمضان المصرى على ما عداه من الشهور .

ولعل مرد ذلك أن الشعب المصرى شعب طبع منذ طفولة تاريخه ، بتدينه ، وبحبه العميق للفن ، وفرحه الشديد بالحياة وتلقائية تعبيره عن

● الهلال – يونيو ١٩٨٢ .

كل ما يتعلق به ، فى دنياه وآخرته ، وتدفق هذا التعبير ، فى حديثه الشخصى ، ونشاطه الاجتماعى ، وقد سجلت نقوش المعابد منذ آلاف السنين كيف كانت حياة المصرى مع زوجته وبناته وبنيه وخدمه ، على شواطئ النيل والبساتين القائمة على هذه الشواطئ وحدائق قصوره وبيوته واحتفائه بالصيد والقنص ، واتقانه لصناعة الجعة . وحرصه على اقتناء البخور الذى يمطر به المعبد والدار ، وآلات الرقص والموسيقى . وتصوير كل هذا على جدران المنازل وحوائط القبور .

كل هذه الطاقات وجدت طريقها إلي التعبير فى أسلوب احتفال المصريين بحلول شهر رمضان ، حتى آخر أيامه . وهو احتفال يبين ما يظهره المصريون من الفرح والبهجة فى جميع أعيادهم ، بل ربما شابت أعيادهم ، سمة من سمات الحزن أو الاكتئاب ، كان أبلغ تعبير عنه ذهاب الأسرة المصرية كلها فى العيد إلى المدفن والمبيت مع الموتى ، وهجر المدينة فى تلك الأيام التى كان يجب أن ينسى فيها الإنسان المدفن ومن فيه ، إلا أن يكون مصاب الأسرة فى فقيدها ، مصابا حديثا لم تلتئم جروحه .

أما فى رمضان فكل علامات المرح والسرور والبهجة ، والسهر حتى السحور وإعداد المطاعم الشهية ، والمشروبات الباردة والساخنة ، وتمتد السهرات ، وتتبادل الزيارات ، والإكثار من أنواع النقل الغالية الثمن ، التى تستورد من تركيا وأوربا ، والتنافس فى إقامة المآدب ودعوة الأصدقاء والأقارب .

ولقد كان من حظى أن أصوم فى مصر ، فى القاهرة ، وفى الصعيد ، والريف فأرى التباين الخفيف فى الأساليب والتطابق فى

الروح والجوهر ، فالمصريون فى شهر رمضان ، يبعثون شعبا آخر . وحياتهم تستحيل إلى حياة لا يعرفونها طوال العام .

ومازلت أذكر كيف كان رمضان عند الأطفال ، مناسبة ينتظرونها ، ويشاركون فيها ، ويظفرون بأجمل وأشهى وأمتع ما يظفر به الطفل .

وقد كنت أحب كل ما فى رمضان حتى المدفع الذى يعلن لحظة الإفطار والذى كان جديرا بأن يبعث الفزع ويدعو إلي الخوف ، كان عندنا فرحة مضاعفة . تهتز له كل جارحة من جوارحنا ، فإذا دعينا للطعام ، فتناهبتنا هذه الأطعمة الكديدة وتلك المشروبات الفريدة ، فالواحد منا يرى أمامه من الأطعمة «الكنافة» و«القطائف» وكأنما صنعا لرمضان وحده ، مع الحلويات التى نأكلها أكثر العام ، كالبسبوسة «والبقلاوة» و«أم على» أما مشروبات رمضان فهى «قمر الدين» و«الخشاف» وتزدحم الموائد حتى عند أفقر القوم باللحوم على أنواعها والدواجن والاسماك غير المشهيات التى تتقن إعدادها وحفظها لشهور عديدة المرأة المصرية ، الغنية والفقيرة ، الحضرية والريفية ، فإذا فرغ القوم من الطعام امتلأت الشوارع والحارات والأزقة بجيوش من الأطفال ، يحملون فى أيديهم الفوانيس المصنوعة من الصفيح المزخرف، والزجاج الملون ، والشمع الذى تتراقص شعلته مع الهواء فى حين تتوالى قذائف القنابل الصغيرة وتتعالى فى سماء الميادين والحارات على السواء ألوان تنبعث من كبريت كان يسمى «كبريت الهواء» يصنع من عيدان طويلة وغليظة ، تشعلها الأطفال ثم يدورون بها فى أيديهم مرة ومرتين ثم يقذفون بها فى الهواء ، فتنبسط دوائر حمراء وصفراء وزرقاء ، تبعث فى قلوب الآباء والأمهات فرحة تمتص بفضلها أحزان العام ، على أنه لا يلبث أن يضاف إلي هذه المهرجانات الضوئية ، لون

آخر من البهجة يبعثها أعواد مغطاه بمادة رمادية تشبه «الأردواز» تشعل كذلك ، فتنبعث منها طاقة ، تتراقص فيها أضواء صغيرة باهتة البياض ، سريعة الحركة ، تسمى «الشمس والقمر والنجوم» وقد يظن ممن يعيشون الآن ، وممن لم يشهدوا رمضان القديم . أن هذه المتعة الضوئية لا تزال باقية ، والحقيقة انها اندثرت كما اندثر معها كبريت الهواء ، فالباقى منها ليس الا ذبالة ضئيلة ، لا تقاس وأضواء الألعاب القديمة وكان للمصريين سعادة مبعثها «المسحراتى» الذى أختفى من حياتنا منذ زمن غير بعيد وما بقى منه ، ليس إلا سبحا ضئيلا ، يجرى فى بعض الشوارع ، وكأنما هو مذهب تتعقبه أجهزة الأمن ، لا يكاد يظهر حتى يختفى ، أما . «مسحراتى» العهد القديم فقد كان له صوت رخيم ، ويؤدى أغانى قصيرة جميلة عذبة ، وكان الكبار والصغار يسمعونه فيطربون من جهته ويحسون بشئ من الراحة النفسية ، كأنما الذى يسمعونه هو لون من الذكر ، أو الدعاء أو الصلاة . وكان المسحراتى فنانا شعبيا ، يرتجل الأغانى حسبما يطلب أصحاب الدار الذى يمر بها ، ففى كل بيت طفل أحب أهله أن يدللوه ويمتعوه بسماع أغنية من المسحراتى ، فيعطون اسمه لهذا الفنان العجيب فيصنع أغنية فى الحال ، فتأتى آية فى الأحكام . وقد كان لنا قط نحبه جيمعا . ونؤثره على أطفال البيت فطلبنا من المسحراتى أن يتغنى باسمه وكنا قد أطلقنا عليه «أصلان» فراح المسحراتى يصف أصلان بك ، ويقول عنه أصيل الجدود ، ياللى كرم طبعك والجود» حتى إذا ما انتهى الشهر الفضيل وأردنا أن ننفح المسحراتى ببعض هبات رمضان فى العيد ، قدمنا له «أصلان» فلم ييئس الفنان الأصيل ، وراح يقبل القط ويصف عيونه الجذابة وشعوره اللماعة والجميع سعداء .

ولست أنسى جلستي في شرفة منزلي بشارع «سلامة» بالسيدة زينب ، وهو الشارع الذى شهد أحداث رواية «عودة الروح» والذى جمع بالفن فى عدد من الأدباء كان منهم الحكيم والمازنى وعلى مقربة منه عاش المنفلوطى والبشرى ، وكان بيتنا نحن مملوكا لملكة من ملكات المسرح فى تلك الأيام هى البريمادونة «ملياديان» أى الممثلة الأولى في مسرح الشيخ سلامة حجازى . كنت أجلس فى شرفة هذا المنزل فأرى الفتيات قبل الإفطار يحملن فى أيديهن سلاطين «الطرشى» تتراقص على حافتها أعواد الجرجير الأخضر ، وأتصور بخيالى الخيار والبصل واللفت والفلفل حمراء وخضراء فى هذه السلاطين ، كما تمتلئ سلاطين أخرى بالفول المدمس الذى كانت تشتهر بإعداده محلات ، تستعمل انضاجه عائلات . تفد كلها إلى القاهرة من الواحات ، وتستعمل فى مواقدها بقايا «القمامة» التى تلقى فى الشوارع ، فيجمعها أهل الواحات ويستخدمونها فيما يسمى «المستوقد» .

أشياء كلها انتهت . ولكن الذين شاهدوها لا ينسونها أبدا ، ومن ذكريات رمضان أننى صمته في لندن فى شهر ديسمبر ، نهار لندن فى هذا الشهر ينتهى الساعة العاشرة مساء فكان صومنا طويلا ، وكان البرد يزيد من جوعنا ، وكان رمضان عجيبا فى هذا الزمهرير ، فلا مدفع ولا مسحراتى ، ولاشئ مطلقا من مظاهر رمضان . ولا طقوسه . مما زاد من وحشتنا . وحدث أن دعانا عضو فى مجلس العموم البريطانى . عاش فى مصر أكثر من ربع قرن وشارك فى أكبر مشروعات الرى فى بلادنا . فقد كان مهندسا ذائع الصيت . وهو السير مردوخ ما كدونالد . زرناه فى مكتبه فدعانا إلى تناول الغداء فى مطعم مجلس العموم فخجلنا أن نقول له أننا صائمون واننا فى رمضان ، مع أن هذا الاعتذار كان سيوفر علينا موقفا أكثر إحراجا عند الغذاء . فقد

لبينا الدعوة وذهبنا إلى هذا المطعم الأنيق الفاخر . وأخذنا نتلفت حوالينا فى دهشة عظيمة . فقد كان حوالينا أكبر شخصيات المجتمع البريطانى فى رأينا على مقربة منا مستر تشرشل أكبر ساسة أوربا . وغير بعيد منه مستر أتلى زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال . وقريبا منه مستر «الانبورى» أكبر الاشتراكيين فى تلك الأيام ، وكأننا فى متحف الشمع لمدام تيسو الذى يعرض تماثيل عظماء رجال بريطانيا . مع فارق هو أن المتحف الذى رأيناه فى مطعم البرلمان الانجليزى كانت شخوصه من الأحياء يتحركون ويتكلمون .

وجاء موعد الطعام . وجاءنا الخادم . مرتديا الفراك . وطلب منا على عادة خدم الفنادق والمطاعم فى انجلترا فى تلك الأيام بأدب جم ورقة عظيمة أن نذكر ماذا نريد أن نأكل . وما كدنا أن نعلن لمضيفنا أننا صائمون . حتى رأينا السير مردوخ ما كدونالد عضو مجلس العموم الذى كان فى ذلك الوقت فى السبعين من عمره حتى قفز على قدميه . وضرب جبهته بيده صائحا : كيف ارتكبت هذا الخطأ .. فى رمضان أدعوكم لتناول الافطار - كان يجب على أن أذكر ذلك ...

وحاولنا أن نخفف عليه . ونقول له أنه يستحيل عليه أن يذكر فى لندن أن رمضان دانى . فرفض اعتذارنا عنه وقال :

أنا عشت في مصر نحو ثلاثين سنة وأعرف رمضان كأنه أحد أصدقائى ، فكيف أخونه هذه الخيانة . وصمم على ألا يمد يده إلى الطعام تأديبا لنفسه .

ومازلنا به حتى هدأ روعة وتناول طعامه وهو يتمتم . رمضان رمضان .

هو الشباب دائما

النار والوقود ، والفكرة والإلهام

ليس فى العالم اليوم أعلى من صيحة الشباب . بل أن العالم اليوم لايشغل إلا بالشباب : تعليم الشباب ، تجنيد الشباب ، الحرص على حيوية الشباب ، حركات الشباب ، هى كل المعين الذى يستمد منه الكتاب موضوعاتهم وبحوثهم ، وهى مجال مترامى الآفاق ، لدراسات المؤرخين والنفسيين والاجتماعيين ورجال الاقتصاد .

ويلذ للكتاب أن يطرفوا قراءهم بصور عجيبة من وثبة الشباب الحديثة ، لانها تبدو للقراء خارقة للعادة ، ومباينة للمألوف ، إذ تعود الناس . أن تكون مقاليد الأمور فى أيد أرعشتها الشيخوخة ، إذا أردنا أن نعطى للمسألة صورة متشائمة سوداء - أو فى أيدى رجال حنكتهم الظروف ، وعلمتهم الأيام ، إذا أردنا ألا نغلو ونسرف .

وكم من مرة سمعنا أن بالبو حاكم طرابلس الإيطالى قد أطلق لحيته ليخفى صغر سنه وحداثة عهده بالأعمال ، وأن فلانا من الوزراء ، أو رؤساء الدول ، لم يتخط بعد الثلاثين من سنى عمره .

● الهلال - يناير ١٩٣٥ .

ولكنا نخطئ إذ نحسب أن وثبة الشباب ، التى نراها اليوم ، وثبة فريدة لم يسجل التاريخ شبيها أو نظيرا لها ، لأن تاريخ الدنيا كله ، منذ عرف للدنيا تاريخ ، هو صنع الشباب ، وليس يعرف الناس عملا قلب وجه البسيطة أو ثنى عنان التاريخ ، إلا وكان الشباب صاحب فكرته أو واضع خطته بل منفذه كله .

ويسير على القارئ أن يتحقق هذا ، لو أنه جلس في مقعده ، وتأمل فى تاريخ البشرية ، واستذكر اسماء أبطالها ، ويحث عن عمرهم واحدا بعد واحد ، ليكتب سجلا للقادة ، ويضع خطا بقلمه تحت اسماء كبارهم وليكتب سجلا آخر للانبياء ، وليحصى بقية المكتشفين والمخترعين وأصحاب المبادئ والعقائد ، وليخرج من هؤلاء جميعا ، الذين بدأوا عملهم بعد أن انحدروا إلي خريف الحياة ، وليبق الباقين الذين تفتحت أكمام شهرتهم فى ربيع أعمارهم . فإذا وجد أن الذين نادوا بالمبادئ والذين قادوا الجيوش والذين فتحوا للناس أبواب التفكير والتصور والذين ألهبوا الثورات وأضرموها كانوا جميعا من الشباب الذين يجرى دمهم في عروقهم حارا والذين يضطرم خيالهم فى رءوسهم مديدا ، استطاع أن يعرف أن الدنيا التى نعيش فيها ليست إلا خلق الشباب وصنع يديه حقا !

ليس فى تاريخ قادة الجيوش اسماء ألمع ، ولا أكثر لألاء من الاسكندر المقدونى ورمسيس الثانى ، ونابليون بونابرت .

واسكندر الأكبر لم يجتح بجيوشه فقط الولايات اليونانية المعادية لبلاده ، ولم ينطلق على رأس جنوده لتمزيق الفرس ، فاتحا فى طريقه إلى الهند أفغانستان ، ومتوليا فى طريقه إلى مصر على سوريا

والعراق ، بل إنه الرجل الذى نقل إلى الشرق ثقافة الاغريق والقائد الذى كان يحلم بدولة إنسانية ، تمتزج فيها الصبغة الشرقية بالصبغة الاغريقية . وقد تم للاسكندر بعض هذا ، على الرغم من أنه ارتقى عرش أبيه في العشرين ، وأنه فارق الدنيا فى الثانية والثلاثين .

أما رمسيس الثانى الذى كان يجول بجيوشه فى سوريا والعراق ذهابا وجيئة عشرات السنين ، فقد كان على رأس جيوشه المظفرة فى الثامنة عشرة من عمره . وليس نابليون مجهولا ، حتى يجوز لنا أن نذكر أنه عرف فى الثورة الفرنسية كضابط عظيم فى الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه قاد جيوش الفرنسيين هازئا معهم بجبال الألب ليهزم النمسويين فى أكثر من موقعة خلدها التاريخ وهو فى التاسعة والعشرين ، وأنه حلم بامبراطورية له في الشرق وهو فى الحادية والثلاثين .

هؤلاء الذين هبوا بخريطة الدنيا ، وعبثوا بالحدود والفواصل ، كانوا جميعا شبانا ، لو أن الواحد منهم كان فى عهدنا الحاضر ، وأراد أن يسلك الطريق الرسمي ، لما زادت مرتبته عن ملازم ثان !

فاذا انتقلنا إلى الجانب الروحي من الحياة الإنسانية وجدنا عجبا .

إن التاريخ يسجل أن أقدم ثورة دينية عرفها ، كانت ثورة اخناتون الملك المصرى القديم فمنذ أربعة آلاف سنة ، فطن هذا الملك إلى وحدة «الخالق» فأثار تعدد الآلهة فى نفسه سخطا على الكهنة ، فترك لهم طيبة ، ولجأ إلى مدينة جميلة بناها لنفسه علي مقربة من تل العمارنة ، وحرر الفن والتفكير من القيود الحديدية المفروضة عليه وقتذاك ، فانتج

الصناع المصريون فنا هو أبدع ما وصل إليه ابتكارهم وافتنانهم وخلقهم .

كان هذا الملك هائما فى ملكوت روحانياته ، شاعرا ينظم القصائد لمعبوده الذى رمز له بالشـــمس ، ويكتب الأناشيد التى يقول عنها أساتذة التاريخ إنها أشبه شـــئ بمزامير داود . هذا الملك الذى قال عن الله قبل أن تعرف الإنسانية التوحيد بآلاف السنين : «إنه واحد أحد» ، ارتقى عرشه فى التاسعة من عمره ، وألم بدينه الجديد فى الخامسة عشرة ، ووقف فى وجه الكهنة . وهزأ بهم ، وبمعتقداتهم قبل أن يقرب من الثامنة عشرة ! لكن لا يزال تاريخ مصر الروحى حافلا باسماء كثيرة ، لن أذكر لك منها إلا اسما واحدا ، لطول القائمة ، ذلك هو اسم «يوسف» .

فان «يوسف» الذى قال لصاحبيه فى السجن : «يا صاحبى السجن أأرباب متفـــرقون خـــير أم الله الواحد القهار ؟» ، والذى أدار مالية مصر ، فى سنى قحطها ورخائها ، لم يكن إلا شابا جميلا ، يفتن بحسنه النساء ، فيراودنه عن نفسه وينقمن عليه إذ يصد عنهن ، لأنه رأى «برهان الله» أمامه !

ولو أنك سألت إنسانا ، كم سنة قضى السيد المسيح عليه السلام فى هذا الأرض وبين الناس ؟ لوجدت فى أجوبتهم بعدا عن الحقيقة ، لأن الصورة التى نراها للمسيح صورة رجل التفت لحيته الخفيفة بعارضيه وأكسبته سمة الرجل الكبير الذى تخطى الأربعين ، ولكن السيد المسيح لم يكن إلا شابا فى فتوة الشباب ، فقد كان فى أول العقد الثالث من عمره .

وكان بطرس الرسول الذى دعا إلى المسيحية ونشرها فى روما ، راكبا حماره الهزيل ، مرتديا دثاره الجافى ، شابا لم يبلغ الثلاثين .

لم يبق إلا صفحة الإسلام ، والناس انطبعت فى أذهانهم صور غريبة للرجال الذين ثبتوا أركان هذا الدين ، والذين ظاهروه وباعوا من أجله النفس والمال ليشتروا بها الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين بقوله : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» .

يحسب الناس أن الذين وقفوا مع النبى (عليه صلوات الله) ، فى وجه العسف النازل به وبهم ، ولدوا رجالا ذوى لحى طويلة ، وأنهم تخطوا سن الشباب ، أو قفزوا فوقه فلم يعرفهم الشباب . ذلك كله لأن التاريخ الإسلامى تاريخ مهجور ، لا تطرق أرضه قدم ، ولا يبحث فى نواحيه باحث .

لكن دور الشباب فى صدر الإسلام دور عظيم ، بل أن الإسلام لم تنم شجرته إلا بدماء الشبان ولم تحم بيضته سوى صدورهم الفتية . ولقد كان رسول الله (ﷺ) يقول يوم أن كان المسلمون مطاردين مراقبين : «اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك» ولم يكن أحب العمرين هذا سوى عمر بن الخطاب ، وقد اعتنق عمر بن الخطاب الإسلام فعلا . ولكن كم كانت سن هذا الذى سيعز الإسلام ويؤيده ؟ لم يكن «عمر» سوى شاب صغير يقترب من السادسة والعشرين من عمره . ولقد اعتز الإسلام بهذا الشاب فعلا ، وأصبح وزيرا للرسول الذى حكم دينه الملايين . ولو أنه عين اليوم فى هذه

السن وزير فى دولة من الدول لاهتزت أسلاك البرق وكتبت المقالات وألفت الكتب !

ولقد دعا الرسول ذوى قرابته مرتين ليفهموا منه دعوته وليعرفوا الدين الجديد عساهم يؤيدونه ويؤمنون به ، فنال الرسول الأذى فى المرة الأولى ، وفى الثانية وقف فيهم يسأل : من منكم سيكون وزيرى وساعدى ؟ فلم يتقدم سوى صبى صغير هو على بن أبى طالب ، وكان فى العقد الأول من عمره ، فاحتضنه الرسول واعتز به . ولا أحسب أن التاريخ الحديث قد سجل فى صحائفه أن دولة قامت على مؤازرة الصبيان ومظاهرتهم .

ولما فتح المسلمون مكة أراد النبى (ﷺ) أن ينصب عليها حاكما ليعود إلى المدينة مع الأنصار . فلم يقع اختياره إلا على شاب ، أتعرف كم كانت سنه وماذا كان اسمه ؟ أما اسمه فعتاب ، وأما سنه فثمانى عشرة سنة . ومكة هى مدينة العصبيات الحريصة على المقامات الدقيقة فيما يمس الكرامة .

وقد أنفذ النبى قبيل وفاته إلى سوريا جيشا فوضع على رأسه أسامة بن زيد قائدا . وكان أسامة شابا صغير السن لم يزد عن الثانية والعشرين من سنى حياته ، وقد أدركت الوفاة الرسول والجيش فى ظاهر المدينة ، فلما مرت محنة الوفاة واستقرت خواطر المسلمين قليلا أقبل أبو بكر على تنفيذ ما أرتآه الرسول فى إرسال هذا الجيش وعلى رأسه هذا الشاب . فجاءه عمر بن الخطاب وطلب منه أن يكون على رأس الجيش رجل آخر أكبر سنا وأعلى مقاما ، فجذب أبو بكر عمر من لحيته وصاح فى وجهه : ثكلتك أمك ، أأعزل رجلا نصبه رسول الله

لاضع فى مكانه سواه ؟ وخرج الشاب على رأس الجيش ممتطيا صهوة جواده وسار أبو بكر - رضى الله عنه - إلى جانبه على أقدامه ، وهو خليفة المسلمين ، وهيبته تعنو لها الوجوه ، وتسكت عمر الذى لم يسكته إلا الحق .

ولقد كان النبى (ﷺ) يقول : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» ولم يكن يقصد بالحميراء سوى زوجته وأحب نسائه إلى قلبه (السيدة عائشة) ولم يكن عائشة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها حين لحق رسول الله (ﷺ) بالرفيق الأعلى .

ويخيل إلى الذين لا ينعمون النظر ، أن أبا بكر كان هرما تقدم به العمر على الرغم من أن النبى (ﷺ) كان يكبره بسنتين . والنبى كان فى الأربعين حينما دعا الناس إلى الإيمان بالله الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فكان صاحبه وخليفته من بعده فى الثامنة والثلاثين فقط .

وبعد .... ليس فى قدرة الكاتب أن يجمع الشبان الذين هدوا الناس وعلموهم وغيروا أساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم . ولو أراد أن ينطلق فى التعداد وضرب الأمثلة لوجد أمامه مثل كولبس مكتشف أمريكا الذى أضاف إلى الدنيا قارة وهو فى مطلع شبابه . وغاندى الذى وقف فى وجه الامبراطورية البريطانية فى جنوبى إفريقيا منذ ثلاث وأربعين سنة . وهو بعد فى الثانية والعشرين من عمره . ومصطفى كامل الذى أيقظ الفكرة الوطنية فى مصر وأنفق من روحه ما أفنى حياته وهو فى ريعان فتوته . فى الثانية والثلاثين .

هو الشباب دائما : النار والوقود . الفكرة والإلهام . الخيال والأحلام . التشبث بالمثل العليا .

هو الشباب دائما : الاستهانة بالحياة ، والسخاء فى البذل ، والهيام بالمصارعة والمجازفة .

صاغ للناس تاريخهم ، ورفع لهم شأن حياتهم ، ومنح للوجود معناه ، وجعل العالم قصيدة مفهومة عذبة مستحبة . فإن طغت على موسيقاه ألحان هرمة . هرمت الإنسانية وشاخت . وإن شدا كالبلبل فى صباح جميل ، أنصتت آذان القدر ، وجعل الناس يطالعون صفحات لم يقرأوها من قبل .

ماذا أريد من الشباب ؟

فى الفترة ما بين العشرين والأربعين من حياتى ، طلبت من الشباب الكثير ، كتبت إليه دائما ، واستحثثته ، وعاتبته ولمته ، ودعوته إلى أن يفكر فى نفسه ، وفى وطنه ، وفى مستقبل بلاده ، وماضيها وحاضرها .. دعوته إلى أن يثق فى نفسه ، وأن يؤمن بقدرته ، على أن يعمل ، وينتج ، ويخلق الكثير .. فلما بلغت الأربعين ، رأيتنى محمولا على أن أوجه الكلام إلى الكهول والشيوخ ، ليؤدوا واجبهم نحو الشباب ، ويفسحوا له الطريق ، وليأخذوا بيده ، وليتجشموا متاعب التفكير الجرئ ، وليؤدوا ضرائب العمل المدروس .

ولا أحسب أن هناك فرصة أكبر قدرا ، لتقدير عمل الشباب المصرى خلال ربع القرن الماضى ، من فرصة التحدث إلى شباب اليوم، التى أتاحها لى الهلال الأغر ..

أن ربع القرن الماضى، هو عهد الشباب المصرى الذهبى . فقد كان هو وحده الذى غير الأوضاع ، وأعاد بناء الوطن ، وأقام أساسا جديدا للتفكير السياسى ، وحدد اتجاهات مصر .

وقد كان دور الشيوخ والكهول ، فى نفس تلك الحقبة ، دور التعويق والتعطيل والإرجاء والتسويف ، أو الاستنكار والتثبيط ، هذا إذا لم يجنحوا إلى المطاردة والمصادرة ، والإرهاب والإخافة ، والاعتقال والمحاكمة .

وقد يعتذر عن الشيوخ والكهول ، بأن الاعتدال والإبطاء ، هما طابعهم المميز لهم فى كل زمان ومكان ، وأن الطبيعة وزعت

المزايا والنقائص ، على فترات عمر الإنسان المختلفة ، ليحدث من هذا الاختلاف والتباين ، التعاون والتكامل ، ولتتم حكمة التوالى والتعاقب .

ولكن الشيوخ والكهول فى مصر ، تجاوزوا فى الخمس وعشرين سنة الماضية ، الاعتدال إلى التفريط ، والإهمال ، والخوف من المسئوليات ، والتشبث بالواقع المرير ، والرضاء به .

لقد كان يعوز شيوخنا الإيمان بشئ . والإيمان هو هذا المولد الكهربائى الهائل ، الذى يحرك الهمة ، ويثير الخيال ، ويدفع إلى المجازفة ، ويخلق الآراء الجديدة ، ويغرى بالقتال والمصارعة . والإيمان يجدد شباب الإنسان ، ماديا وروحيا ، فكم من شيخ أبلت الأيام بدنه ، ومع ذلك بقى متماسكا ، يعلو صوته ، وتلمع عينه ، ويشتعل فى عروقه دمه ، لأنه يؤمن بشئ عظيم ، أو بشئ يراه عظيما ! وكم من شيخ بقى على رأس جماعة من المؤمنين، يجالد ويصارع ، ويكر ويفر ، ويخيف الخصوم ، ويخاف منه الخصوم !

وقد خلا تاريخنا الأخير ، من شيخ من هذا الطراز . فما من أحد منهم كان يدعو فى شبابه إلى التغيير والثورة، والتحرير أو التطور ، إلا تطامنت نفسه ، وقبل أن يستكين إلى جوار ذى سلطان ، سواء أكان صاحب السلطان ، هو الملك ، أو حزب من الأحزاب الرجعية ، أو جماعة ذات نفوذ زائف ، تستمده من المصانعة ، والمسايرة .

ولو راجعت ما كان يكتب قبل سنة ١٩٢٤ ، وما كان يكتب بعد سنة ١٩٣٠ ، لهالك الفرق بين كتابات ملؤها التطلع إلى المستقبل ، وتحدى أكاذيب الماضى ومخاوفه ، وكتابات ملؤها الاستخذاء والاستجداء ..

ومن هنا وقع العبء على أكتاف الشباب .. وقد كان شبابا غير مجرب ، لأن أساتذته اختفوا ، ولأن قادته فروا من الميدان ، فكان يخبط على غير هدى ، ولكنه مع ذلك كان شجاعا واثقا من نفسه ، لأن ما نعيش اليوم عليه ، هو من صنعه وخلقه ، ولقد اختلف موقف الزعماء التقليديين منه فى الظاهر ، وإن اتفق فى الجوهر . فهم بين رجل يتملق الشباب ليستغلهم فى حروبه مع منافسيه ، أو رجل يطاردهم ، إبقاء على نفسه ، وكلا الرجلين لم يتطور ، وكلا الرجلين رفض أن يسير مع الزمن !

ولكن لماذا هذا الكلام كله ؟

ليس هذا الكلام إنكارا لفضل أحد من أصحاب الفضل ، ولا هو من قبيل المفاخرة والمباهاة ، فأصحاب الفضل لا يمكن أن يختفى فضلهم لمجرد كلمة جحود تقال فى حقهم ، فالشيوخ الطيبون الذين حاولوا أن يمدوا يدهم للجيل القادم ، لا يزعزعون من قوة القاعدة ، فهم استثناء صغير ، يدل على تلك القاعدة ويؤكد وجودها .

وإنما الغاية من هذا الكلام أمران :

أولهما : أن يعرف الشباب ، شباب هذا الجيل ، ماذا فعل أخوانهم، الذين اكتهلوا الآن ، ودلفوا إلى الأربعين ، لينتفعوا من تجاربهم ، وليفيدوا من عثراتهم ، وليتعظوا من أخطائهم .

وثانيهما : أن يعرف الكهول والشيوخ ، المصير الذى صار إليه اندادهم واشباههم فى الجيل الماضى ، فيحذروه ويتقوا أن يصيروا إليه وشباب اليوم مرجوون ، على ضوء تجربة الماضى ، ألا يسلموا أنفسهم للاستغلال ، ولا يحميهم منه ألا أن يفكروا لأمتهم ، ولن يتيسر لهم أن

يفكروا إلا إذا وضعوا لها نظاما ، والتزموه بقدر الطاقة . إن المطابع اليوم ، تقذف فى كل لحظة، اكداسا من المطبوعات ، وكل مطبوع يجذب عقل الإنسان إلى ناحية ، فليقرأ الشباب ، ليعرف هذا العالم المتجدد المتطور المتدافع ، وليؤجل ارتباطه بحزب أو بفكره ، إلى أن يعرف مواضع أقدامه جيدا ، فإذا ارتبط ثبت فى موقفه أمام الاعاصير التى تهب عليه من الخارج ، والأعاصير التى تهب عليه من داخل نفسه .

●●●

والشباب المصرى مرجو بعد ذلك أن يعرف قدر المكان الذى تقع فيه لمدة .. ليعرف أن الحضارات نبتت منه ، وأن الرسالات احتمت به ، وأن مصائر الامبراطوريات تحددت على أرضه ، لايزال البحر الأبيض المتوسط ، هو البحر الأكبر ، ولا تزال البلاد الواقعة حوله ، هى بلاد الحضارة ، والخطر السياسى ، لقد سقطت فى يد ميكادو اليابان هونج كونج واندونيسيا وكتل بشرية ضخمة ومساحات اقليمية شاسعة ، وسقطت أوربا كلها فى يد هتلر سيد المانيا ، ومع ذلك كانت موقعة العلمين، وحرب شمال افريقيا ، هما نقطة التحول ، وبدأ انحسار موجة الزحف الفاشستى بعدهما .. فمصر التى تحدد على أرضها مستقبل اسكندر المقدونى ، ثم مستقبل يوليوس قيصر ، ثم مستقبل مارك انطونى وأوكتافيوس وكليو باترة ، ثم مستقبل نابليون ونلسون .. هى مصر التى تحدد على أرضها مستقبل هتلر وبريطانيا ، واليوم يختلف الانجليز والامريكان على قيادة البحر الأبيض ، ويقوم على زعامة البحرية مونتباتن البريطانى وكارنى الأمريكى ، لأن الامبراطوريتين القديمة والجديدة يعلم كل منهما ، ما هو البحر الأبيض المتوسط ، وما دور الدول التى تقع عليه .

فالشباب المصرى يجب أن يفكر على أساس أن أمته لا يمكن أن تكون تابعة ، على الأقل من الناحية الروحية . وأنها لا يمكن أن تلعب دورا وسطا ، فهى إما حكومة تجاهد غاصبيها ، وإما حاكمة فى الصدر، تزحف ، وتؤدى رسالة القيادة .

فلا تلفت أذن حضارات العالم وثقافاته ، قلب الشباب وذهنه ، عن حضارة بلده . ولا يقنع بأدب الغرب وفلسفته ، عن هذه الكتب الصفراء القديمة المتوارية فى رفوف المكاتب المهجورة . وليثق أن فى هذه الكتاب معينا لا ينضب ، وأنه كان مصدر وحى الذين خلقوا حضارة أوربا المادية .

صحيح أن هذه الكتب غامضة وأنها بعيدة عن منال عقل الشباب اليوم ، ولكن العيب فى ذلك ليس عيبها وحدها ، إنما هو عيب الذين هجروها ، ولم يوالوها ، بالرعاية والاتصال ..

وعلى الشاب المصرى أن يؤمن بأن مظاهر الحضارة المادية ووسائلها وأدواتها شئ غيّر الحضارة نفسها ، وأن العلوم المادية التطبيقية ، ليست سوى ثمرة الآداب والفلسفات والموسيقى ، فهى نتيجة وليست سببا للتقدم . فيجب أن نستزيد من أدوات الحضارة الأوربية الغربية من المصانع والمطابع ، ومن الطائرات والتليفونات ، ويجب أن نصطنع أسلوبهم فى البحث ، وطريقتهم فى الدرس . وأن ننظم تفكيرنا، على الصورة التى نظموا بها تفكيرهم .. ولكن لا شئ أكثر من هذا ، إذ يجب أن يحيا تراثنا الأدبى والفلسفى والروحى ، فى نفوسنا من جديد، يجب أن نصل أنفسنا دائما بأجدادنا، لا على سبيل التفاخر والادعاء

والمباهاة ، بل لنكون نحن ، وإلا كنا صورة شوهاء من غيرنا ، فاحتلوا عقولنا ، ونفوسنا ، وذقنا مرارة الحيرة ، وعذاب «التيه» ، كل أمة تعيش على أساس من ماضيها ، فالانجليز واليابان .. والألمان والروس ، لا تزال حياتهم تنبض بدم متجدد من الأجداد .. ولذلك كانوا سادة وتقدموا ..

فلنسلك المسلك الذى ساروا فيه ، وستكسب الإنسانية من ذلك خيرا عظيما ، فنحن أبناء أمة الإنسانية الكبرى ، علمناها فى الماضى ، وسنعلمها فى القريب .. إذا أراد الشباب .

مشكلة نشيدنا القومي

مصر اليوم بين الأمم ، أمة بلا نشيد قومى، وبلا شعار تضعه فوق رأسها ، ولعلها بهذين النقصين فريدة .

وإذا افترضنا أن الحركة الوطنية المصرية بدأت آخر أدوارها الحديثة ، منذ بدأ مصطفى كامل يكتب مقالاته فى جريدتى الأهرام والمؤيد سنة ١٨٩٣ حتى أصدر اللواء فى ٢ من يناير سنة ١٩٠٠ الذى اتبعه بانشاء الحزب الوطنى فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، إذا اعتبرنا أن الحركة الوطنية المصرية فى دورها الأخير قد بدأت فى تلك السنة، فكان هذا الدور قد كاد يكمل قرنا إلاَّ عشر سنين ، ومع ذلك فان تسعين سنة كاملة، انتظمت مرحلة مصطفى كامل، ومحمد فريد، والعمل الثورى خلال حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ثم ثورة سنة ١٩١٩ ، ثم ثورة سنة ١٩٥٢ لم تكن كافية، لتصنع مصر خلالها نشيدا قوميا لها تتغنى به فى جميع المناسبات القومية ، كما تفعل جميع الأمم فى الشرق والغرب، وتعلمه لأطفالها فى رياض الأطفال بل وبيوت الحضانة، وتلقنه للجنود فى الثكنات ، وعلى سطح السفن والبوارج التى تمخر عباب البحر وأمواج المحيط .

ولما أرادت الحكومة أن تستبدل بلحن «والله زمان يا سلاحى» نشيدا غيره ، اختارت لحنا وضع الفاظه يونس القاضى الذى ضمنه كلمة مصطفى كامل الدائمة الرنانة : «بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى» .. وإن كان قد أكمله بكلام لم يقله مصطفى .

● الهلال - يونيه ١٩٨٣ .

ومع ذلك فإن لحن هذه الأغنية لم يتجاوز أن يكون جمله الموسيقية ، هى لحن الإذاعة المميز ونشيد الدولة الموسيقى .

وقد قصرت همتنا ، عن أن نجعله نشيد البلاد الرسمى، بمعنى أن يحفظه أولادنا ، وشيوخنا ، العسكريون هنا والمدنيون ، يعنى أن مصر لاتزال بلا نشيد .

فما هو السر ؟

لقد حاول الشيخ على الغاياتى ، وهو بعد شاب ، يكتب فى جريدة اللواء إبان رياسة تحرير مصطفى كامل، بعث طاقات شعرية وطنية ، تنتفض حماسة وتفيض حرارة ، وأن يضع نشيدا على نسق نشيد الثورة الفرنسية الذى نظمه الشاعر «روچيه دى ليل» وجاءت به فرقة من الثوار من مرسيليا الى باريس ، لتدعم ثوارها فذاع وشاع ، وطرق كل الاسماع ، واطلق عليه اسم «المارسييز» نسبة إلى مرسيليا التى حملت هذا النشيد على السنة بعض أبنائها فتلقفه أبناء العاصمة ، ورتلوه فى كل مناسبة ، وجعلوه هتافهم الثورى ، واشعارهم الوطنى ، حتى بات علما على ثورة بلادهم سنة ١٧٨٩ ، ثم على فرنسا كلها ، فعاش نحو مائتى عام ، لا يغير فيه حرف ، ولا يحل محله شعر ولا لحن .

ووضع الشيخ على الغاياتى نشيدا ، وضمنه ديوانه الشهير «وطنيتى» الذى قدم له الزعيمان محمد فريد رئيس الحزب الوطنى والشيخ عبدالعزيز رئيس تحرير اللواء بعد مصطفى ، فدفع عن المقدمة الرقيقة الأدبية الخالية من العنف ، ستة أشهر فى السجن كانت من نصيب محمد فريد، وثلاثة أشهر كانت من نصيب الشيخ عبدالعزيز ، وسنة كاملة من نصيب صاحب الديوان «على الغاياتى» الذى أثر الهجرة

فترك بلاده سنة ١٩١٠ إلى جنيف فى سويسرا ، حيث خلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس القبعة ، واتقن الفرنسية فأصبح يكتبها ويقرأها ويخطب بها ، كواحد من أبلغ أبنائها وهو ازهرى قح ، وفد من دمياط إلى القاهرة ليلتمس العلم فى رحاب هذا الجامع العريق ، وليحاور فيه كبار علمائه ..

أما النشيد الذى وضعه واقترحه ، فلم يسمع به أحد ، ولم يجربه لسان ، وإن كان الديوان الذى احتواه ، بقى نصف قرن أو يزيد أشهر دواوين الشعراء فى مصر ، قبل أن يطبع ديوان الشوقيات ، وتتداوله الأيدى .

ومضت سنوات بعد ذلك وسنوات وعصر بلا نشيد ، حتى فاض وحى الشعر على أحمد شوقى أمير الشعراء ، فوضع نشيدا مطلعه :

بنى مصر مكانكمو تهيا

فهيا مهدوا للملك هيا

خذوا شمس النهار له حليا

ألم تك أو لكم مليا

وعلى الرغم من أن شوقى قصد أن يكون هذا الشعر نشيدا لبلاده ، فإنه لم يتجاوز النشر فى الصحف ، فلم يحفظه معهد، ولم يحتضنه حزب ، ولم يؤده وظيفة النشيد الذى تجتمع عليه الأمة ، ويحس كل أفرادها أو أكثرهم ، أنه صرخته فى وجه الأعداء ، وهتافهم عند الجلاء ، وكلمة السر ، إذا حانت ساعة البذل والفداء .

وسنرى بعد قليل آفات هذا الشعر وعيوبه كنشيد ، وخلوه من الحرارة وعجزه عن الإثارة .

وجرب أمير الشعراء حظه فى نشيد آخر ، ولكنه كان فى هذه المرة لقطاع من أبناء الأمة ، هم شباب الكشافة ، فلم يكن أسعد حظا من النشيد السابق ، قال رحمه الله فى نشيد الكشافة :

نحـن الكشـافة فى الـوادى

جبـريـل الـروح تنا حـادى

يـارب بعيسـى والهـادى

وبموسـى خذ بيد الوطـن

وقبل أن تنطوى صفحة الكشافة فى بلادنا ، انطوت صفحة هذا النشيد الذى كان لحنه أشبه بمقطوعة ، استجداء ، كانت تطرق أسماعنا ونحن فى دورنا نسمعها كثيرا حتى حفظناها ثم بدأنا نرددها : «الحمد لرب المقتدر» وقامت ثورة سنة ١٩١٩ ، وخرجت الجموع ، لأول عهدها ، تملأ الشوارع ومظاهرات الالوف ، تحمل الالوية المرفوفة وتسبقها نعوش الضحايا ملفوفة بالعلم المصرى ، وفى النوافذ والشرفات ، ربات الخدور ، يهتفن لمصر ، وللموت من أجلها ، والفداء فى سبيلها ، ورصاص الانجليز يأز فوق الرءوس ، ثم يخترم الصدرو فيغسل بلونه الأحمر كل صحائف الخوف واتقاء الموت وكان ذلك كله هو الجو الذى تولد فيه الأناشيد ، أحينا تنبعث من وجدان الشعب ، لا تعرف معها اسم الشاعر ، ولا اسم واضع اللحن ، ولا تدرى من جاء الالهام بهذه الالفاظ ، السهلة الواضحة القوية الرنانة الثائرة ، وكيف عبرت برشاقة وجزالة ، ولطف واناقة ، عن كل ما فى النفس ، وقت الثوران والهياج من رفض الاذعان ، وتحد للقوة ، وأمل فى المستقبل ، واصرار على الكفاح ، وهزء بالمصائب والآلام .

جاءت الثورة ، واشتدت الحاجة إلى نشيد ، وبعد طول المخاض ، ظهر نشيد الشاعر مصطفى صادق الرافعى ، الذى لحنه «صفر على» والذى كان مطلعه :

اسلمى يا مصر أننى الفدا

ذى يدى أن مدت الدنيا

أبدا لن تستكينى أبدا

اننى أرجو مع اليوم غدا

وليس ثمة شك فى أن هذا النشيد، قد الهبت الفاظه نار الثورة ، ولكن وهى تخبو ، خلال من هذه المواعظ التى اثقلت نشيد شوقى فاحالة إلى قصيدة ، وتخلله عبارات المباهاة ، بتاريخ مصر ومجدها ، ولكن بعبارة تضفى مللا وسأما ، كان قائلها قد شفع من كثرة ما أشاد بهذه الأمجاد ، حتى كادت تصبح كمناجاة الاطلال ، فى مطالع الشعر الجاهلى .

وقد احتوى شعر مصطفى صادق الرافعى معان وطنية جميلة مثل قوله :

ويل يا من رام تقييد الفلك

أى نجم فى السما يخضع لك

وطن الحر سما لا تمتلك

والفتى الحر بأفقه ملك

ولكن مثل هذه المعانى ، ليس مكانها نشيد ، فالنشيد فى واقع الأمر إهابة واثارة ، ودعوة ، وتحد ، فالتشبيهات الجميلة ، والحكم الرائعة تبطئ بها ولها حركة النشيد ، ويفقد معها تدفقه ، ويتحول من صيحة

صادرة من قلب الجموع ، إلى مخاطبة من الشاعر للمنشدين ، وقد كان «نشيد المارسييز» بدعوته الافتتاحية : «إلى السلام ! إلى السلاح ! أيها المواطنون فإن يوم النصر قد وافى».. هى النغمة النموذجية التى يجب أن يحتذيها مؤلفو الأناشيد ، ولكنهم اخطأوها جميعا حتى فى أناشيد ، الأمة العربية مثل نشيد : «بلاد العرب أوطانى» ..

المفروض أن ناظم النشيد ، يتصور عدوا أمامه ، ويتصور نفسه قائد جموع تتحفز وتتجح وتتلاقى للهجوم على هذا العدو ، وأنها تتلقى من قائد مجهول الأمر بالانطلاق والركض والعدو والوثوب والقفز فى خفة وسرعة وشجاعة ، فالحديث عن حب المنشدين للوطن ، وإشادتهم بمفاخره ومآثره ، قد يبدو لبعض الشعراء أنه المعنى المحبب ، والحقيقة. أنه المعنى الذى يجب تجنبه ، لأن النشيد معناه أن جموع المنشدين هم طليعة الشعب المهاجم ، فمن الفضول أن يعلنوا أنهم يحبون وطنهم وإنما المطلوب هو إعلانهم أن حبهم لوطنهم العزيز تجسد فى اجتماعهم للقضاء على أعدائه ، وكل من يعمل على تقييده أو انتقاص حريته أو المساس باستقلاله أو عزته .

وقد خطى مصطفى صادق الرافعى خطوة بعد «نشيد إسلمى يا مصر» عندما نظم نشيده الثانى الذى استفتحه بقوله :

حماة الحمى يا حماة الحمى

هلمـوا هلمـوا لمجـد الزمـن

لقد صرخت فى العروق الدما

نمـوت نمـــوت ويحيا الوطن

ولكن هذا النشيد كنشيد اسلمى مصر كلاهما لم يكتب له النجاح المطلوب ، وبقيت مصر إلى اليوم بلا نشيد .

فما هى دلالة هذه الظاهرة ؟

وما هو السبيل للخلاص منها ؟

إن عجز المصريين عن أن يكون لهم نشيد مع كثرة المحاولات ، ليس مرده أن الشعراء لم يوفقوا إلى نص يلقى من الجماهير قبولا إنما سببه أن الجموع لم تحس الحاجة إلى نشيد ، والجموع لم تحس هذه الحاجة ، لأن التربية السياسية فى مصر ، لم تبذل سعيا مؤثرا ومثمرا، يقوى من روح الجماعة والرغبة فى العمل المشترك ، والمستمر والمنظم ونشاهد انتفاء روح الجماعة فى كثير من نواحى حياتنا العامة والخاصة، فما أكثر أسماء العائلات المصرية الكثيرة التى اختفت فى مصر، على عكس الحال بالنسبة للعائلات الوافدة من الأجانب واليهود، وبعض العرب الذين اصطنعوا الحياة الأجنبية ، وحاكوا أساليب الاوروبيين . فقد عرفت مصر ، تجارا كبارا ، اثروا ثراء عظيما ، واقاموا مؤسسات تجارية رابحة ، فإذا مات كبير العائلة من هذه العائلات اختلف الورثة واشتد بينهم الشقاق واختفى الاسم الكبير ، وتعطلت المتاجر الواسعة والرابحة من ذلك : عائلة مدكور ، التى كان يرأسها عبدالخالق مدكور باشا سر تجار مصر ، وعضو الجمعية التشريعية ، ومن ذلك أيضا عائلات السيوفى ، والجمال ، والحمصانى ، والراعى ، والماوردى والمويلحى .

وفى عالم الصحافة أخذت جريدة البلاغ التى أسسها عبدالقادر حمزة باشا ، وكوكب الشرق التى أسسها أحمد حافظ عوض بك ، والجهاد التى أسسها محمد توفيق دياب بك ، والسياسة التى أسسها حزب الاحرار الدستوريين ورأس مجلس ادارتها حافظ عفيفى باشا ورأس تحريرها محمد حسين هيكل باشا .

فى حين بقيت محلات شيكوريل وبواد عدس وبنزايون وبلاتشى ، وكلهم يهود ، كما بقيت جرائد الاهرام ، والمقطم والمقتطف والهلال أجيال ، ولولا تمصير وتأميم الصحافة لاستمرت هذه المؤسسات ، ولا تزال محلات تجارية انقضى على تأسيسها أكثر من قرن قائمة تحمل على جدارها الامامى ، تاريخ إنشائها ، وقد تغيرت الأحوال وعدلت القوانين وانظمة الحكم ، وهى راسخة تباشر نشاطها ، يتوارثها جيل بعد جيل .

فالمصرى لايزال يحسن العمل إذا انفرد ، فإذا اجتمع مع سواه ، أعوزته روح التآلف والتكيف ، والإيمان بأن تعدد الأيدى ، وتقادن المواهب ، يزيد العمل قوة وكفاءة ، ويطيل عمره بعد جيل المنشئين والمؤسسين ولا نزال نذكر أعمالا ومشروعات وافكارا بدأت فى مجال مختلفة ، ثم اختفت بدون سبب واضح ولا علة مفهومة .. خذ مثلا المسرح المدرسى الذى بذر بذوره المرحوم محمود مراد مدرس التاريخ بمدرسة الخديوية الثانوية عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، والذى ألف وأخرج على مسرح هذه المدرسة أوبريت مجد رمسيس ، ثم اتسع نطاق المسرح المدرسى ، وعظم نشاطه ، فما كانت تخلو مدرسة فى القاهرة أو فى ريف مصر أو صعيدها من مسرح ، وفى المدارس كان نظام التوفير بطوابع البريد رائجا ومنتشرا ، وكانت حركة الكشافة مزدهرة ، وبدأ مشروع القرش حياته فى نجاح شمل مصر من اقصاها إلى اقصاها ، ثم انطوت صفحته ، واختفى خبره .

والنشيد الوطنى ، ليس لفظا يحفظ وشعرا يردد وإنما هو إيحاء بالتجمع تعلو به موجة الروح العامة ، وتتدفق لها فى العروق الدماء ،

ويزداد الاتصال بين أبناء الشعب ، وتختفي بها كثير من الآفات التى تتردد بان كل فرد يحس بوحدته وانعزاله ، وانقطاع صلته بسواه .. ومثل هذا الشعور ، يؤخر أموراً كثيرة فى بلادنا ، ويزيد من اعتماد الجماهير على الحكومة ، وانطفاء روح الابتكار ، ومواجهة الآفات والعيوب الاجتماعية ، وتغاضى الإدارة فى الاستجابة .. لمطالب شعب ورغائبه ولا شك فى أن التربية فى عهد الاستعمار ، وفى عهد الحكم العثمانى وحكم المماليك ، وحكم العائلة المالكة ، شجع من هذه الروح التى تأبى التجمع – وتكره التلاقى ، والتنظيم ، والاستمرار والمثابرة ، ولذلك فنحن فى أشد الحاجة إلى منح النشيد القومى العناية اللائقة به ، على أن نفهم سلفا معنى النشيد ، ودوره ، ودلالته .

ولابد أن تتكاتف الأحزاب والصحافة ووزارة الثقافة ، وأجهزتها ، وزارة التربية والتعليم ، والقوات المسلحة وأجهزة الاتصال بالجماهير التى تعرف باجهزة الاعلام ، على وضع النشيد ونشره بترديده مرات فى اليوم الواحد حتى يحفظ ويستقر فى النفوس .

تأملات
«فى كتاب القتل السياسى»

شهدت مصر فى الفترة التى صاحبت ثورة سنة ١٩١٩ وأعقبتها نشاطا سياسيا عنيفا لم تشهد مثله . وذلك بسنوات ، وكان من خصائص هذا النشاط أنه لم يكن ينقضى سوى بضعة أيام أو على الأكثر أسابيع حتى تقع جريمة قتل أو محاولة وبذلك لم ينج وزير من وزراء تلك الأيام من محاولة قتل تهدد حياته . ثم هدأ هذا النشاط حتى كاد يتوقف تماما ثم استؤنف فى الحلقة الرابعة من القرن العشرين وتصاعد حتى بلغ غاية العنف والشدة .

وقبيل ثورة سنة ١٩١٩ أى فى ٨ أبريل سنة ١٩١٥ حاول مجهول قتل السلطان حسين ، قتله بعيار نار من مسدس إلا أن القذيفة لم تصبه وأصيب بعدة جراح وفى يونيو من نفس العام تمت محاولة اغتيال ابراهيم باشا فتحى وزير الأوقاف ووقعت المحاولة فى محطة السكة الحديد بمصر وكانت وسيلة القتل خنجرا ، اذ طعن المجنى عليه ثلاث طعنات ، وحكم عليه بالموت ونفذ فى المقاتل صالح عبد اللطيف حكم الموت ، وفى ١٠ من يونيو سنة ١٩١٩ شرع مجهول فى قتل رئيس الوزراء محمد سعيد باشا أمام منزله بالاسكندرية ولم يقبض على الفاعل .

● الهلال – يونيو ١٩٨٧ .

وفى ٢٢ من يونيو سنة ١٩١٩ تمت محاولة أخرى لقتل محمد سعيد باشا وقد اقتصرت هذه المحاولة على مجرد بلاغ من مجهول عن نية آخر لقتل رئيس الوزراء وأنهم خبأوا قنبلتين فى مكان ما لإتمام الجريمة وقد تم تفتيش المكان ووجدت قنبلتان . لكن الشرطة لم تهتد إلى الفاعلين ثم تلقت النيابة بلاغين فى ٢٢-٦-١٩١٩ ، ٢-٩ من نفس السنة عن التحضير لقتل محمد سعيد باشا ولم تسفر هذه البلاغات عن شيء ، وقد اتهم فى هذا البلاغ الدكتور محمد سعيد باشا أحد رجال التعليم وعبد الحى كيره أحد البارزين فى العمل السياسى السرى اتهم معهما فى هذه الجريمة طالب بالأزهر يدعى سيد محمد على ومحمد شكرى الكرداوى موظف وقد حكم على الأول بعشر سنوات سجن مع الشغل وحكم على الثانى بخمسة عشر عاما ، وقد فر الأخير من وجه العدالة وبقى مختفيا حتى انتهت فترة قيام الحكم بالعفو .

وفى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ قتل الكابتن صموئيل كوهين أثر اصابته بأربعة أعيرة وواضح أن هذاالقتيل كان من الضباط اليهود الذين يعملون مع البريطانيين فى المستعمرات .

وفى يوم ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ اطلق مجهولون على أربعة جنود بريطانيين اثنين برتبة جاويش وعسكريين واقتصرت الاصابة على واحد من الأربعة ولم يضبط أحد كما وقعت محاولة مشابهة فى ١٥ - ١٢ - ١٩١٩ على أحد الضباط الإنجليز ولم يصب ولم يقبض على أحد كما لم يقبض على أحد فى محاولة قتل اثنين من الضباط الإنجليز أثناء سيرهما ومعهما فتاتان انجليزيتان وبعد عدة اعتداءات على جنود وضباط إنجليز وقعت عدة محاولات قتل على الوزير اسماعيل سرى

باشا فى ١٨/١/ ١٩٢٠ ومحاولة أخرى فى ١٢/٢/١٩٢٠ على الوزير محمد شفيق باشا وكان كل منهما وزيرا للأشغال العمومية ومهندس رى كبير ، ثم جاء دور القضية الكبيرة التى سميت قضية المؤامرة الكبرى ووجه الاتهام فيها إلى الوطنى الكبير عبد الرحمن فهمى بك وكان سكرتيرا للجنة الوفد بالقاهرة واتهم معه عددا من خيرة شاب مصر مثل محمد لطفى المسلمى وكان طالب حقوق وامتد عمره وأصبح نائبا من نواب الشرقية وحسنى عبده الشناوى .

وكان كذلك طالبا بكلية الحقوق وتوفيق صليب الذى اشتغل بالصحافة فى أكبر الجرائد والدكتور محمد حلمى الجيار كان طالب طب وحصل على إجازة الطب من جامعة استانبول بعد أن فر من السجن وكان جرجس عبد الشهيد الذى وصل إلى منصب المستشار بمحكمة الاستئناف وحامد المليجى الصحفى وابراهيم عبد الهادى الذى وصل لمنصب رياسة الوزراء وهو الذى فى عهده صدر قرار تنفيذ حل جماعة الأخوان المسلمين بعد قتل محمود فهمى النقراشى . وقد استمرت هذه القضية شغل البلاد والشاغل حتى حكم فيها بعقوبات شديدة أول الأمر ثم خفضت . وعادت محاولات قتل الجنود الإنجليز فى شوارع القاهرة وكان من هذه المحاولات وقع فى ٦ من مايو سنة ١٩٢٠ ثم ٨ من مايو نفس السنة ثم ٩ من نفس الشهر ونفس السنة ومحاولة أخرى مماثلة فى ٢/٦/١٩٢٠ ثم شرع فى قتل توفيق نسيم باشا رئيس الوزراء فى ١٢/٥/١٩٢٠ وقد قبض على المتهم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالموت فى ٢٦/٦/١٩٢٠ ونفذ الحكم فى ٨ من يوليو .

ثم اتهم عدد من المتهمين فى قضية المؤامرة الكبرى التى كان المتهم الأول فيها هو عبد الرحمن بك فهمى بمحاولة قتل شهود الاثبات فى تلك القضية الأولى .

وأطلق الرصاص مرتين على محمد بدر الدين بك مدير الأمن العام فى يومى ١٩٢١/١/١ و ١٩٢٢/١٢/٥ ولم يعرف الفاعل . ثم اطلق عيار نارى على محمد عبد الخالق باشا فى ١٩٢٢/٢/٢٣ واتهم أربعة ، ثم أطلق سراحهم عندما صدر قانون عفو. واستمر إطلاق الأعيرة النارية خلال سنة ١٩٢٢ على ضباط وجنود بريطانيا اثناء سيرهم فى شوارع القاهرة وقد بلغ عدد محاولات قتل هؤلاء الجنود نحو سبع محاولات وتمت محاولة ثامنة فى ١٩٢٢/٤/٢٣ فقتل عبد الخالق ثروت وقبض على أربعة متهمين وقدموا للمحاكمة وحكم عليهم بأحكام متفاوتة.

ولكن حسن باشا عبد الرازق عضو حزب الاحرار الدستوريين والاستاذاسماعيل زهدى قتلا على أبواب نادى حزب الاحرار الدستوريين فى يوم ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ وكان حسن باشا من كبار أعضاء حزب الأحرار ، وقد حوكم على هذه الجريمة الدكتور شفيق منصور وزملاؤه فى قضية قتل السردار البريطانى (قائد الجيش المصرى السير لى ستاك باشا فى ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٢٤) .

وقد وصلت هذه السلسلة الطويلة من حوادث القتل ومحاولته إلى حادث ضخم ، كان له دور كبير تجاوبت به أصداء مصر والعالم كله ، وأعنى به مقتل الجنرال الإنجليزى السيرلى ستاك الذى أسندت إليه الحكومة قيادة الجيش المصرى ليجرده من كل مقومات الجيش ، وليجعل

ضباطه وجنوده أشباحا لا يمارسون شيئا من فنون العسكرية ولا يتحلون بشيء من خلق الجنود المصريين الذين عاشوا قبل الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ يخوضون المواقع ويحققون الانتصارات العظيمة فى السهل والجبل وعند خط الاستواء وفوق الثلوج وكانت بعض خيوط هذه الجريمة تنتهى إلى أيدى البريطانيين الذين ما كادت الجريمة تقع حتى بادروا إلى استغلالها فوجهوا انذارا إلى حكومة مصر طالبين التحقيق السريع فى الجريمة وإنزال أقصى العقاب بفاعليها ، مع طرد الجيش المصرى من السودان عقابا لحكومة مصر وكأن حكومة مصر هى التى قتلت السرلى ستاك وقد أبت الصدفة إلا أن يقتل السير كيرزوق قائد الجيش البريطانى نفسه فى طريق من طرق لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية مما يقطع أن الحكومات لا تسأل عن الجرائم السياسية التى تقع على أرضها إلاّ إذا شاركت فيها مشاركة ثابتة، المهم أن الشرطة ألقت القبض على ثمانية من المتهمين . ثمانية من شباب مصر هم الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته فى العمل السرى عقب تخرجه فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٩ فقد اتهم فى قضية مقتل بطرس غالى باشا سنة ١٩١٨ ، ثم طالبا الحقوق والمعلمين العليا عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت وهما شقيقان ومحمود راشد وابراهيم موسى وراغب حسن ومحمود إسماعيل وقد نفذ الحكم فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٥ . وقد توصلت الشرطة إلى معرفة هؤلاء الشبان بفضل شهادة تقدم بها شاهد ملك هو نجيب الهلباوى الذى كان من قبل متهما فى جناية الشروع فى قتل السلطان حسين كامل .

وبعد وضع اليد على هذه الجماعة النشطة الجريئة ، هدأت حركة القتل السياسى فى مصر لبضع سنوات حتى استعادت شدتها ابتداء من ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وهو تاريخ مقتل الدكتور أحمد ماهر .

فهل كان وضع اليد على هذه الفئة هو السبب فى انقطاع حركة العمل السياسى السرى باعتبار أن هؤلاء كانوا رأس الجماعة التى تستهدف الموت ، وتجازف فى سبيل انقاذ خطة القتل التى التزمتها الواقع أن ذلك يبدو للنظرية السطحية . وتاريخ الحركات السرية يؤكد أن سقوط شعبة من العاملين فى هذا المجال لا يؤدى إلى توقف حركة العمل كله أو سرعان ما يعاود الباقون خارج السجون عملهم أو قد يعود إلى مسرح العمل السرى سواهم فى السر ، إذن فى هدوء العمل السرى بعد انقاذ حكم الموت فى قتلة السردار فى أغسطس سنة ١٩٢٥ . ونفس السبب الحقيقى لهذا الهدوء تغير موقف بريطانيا من المطالب المصرية وما انتهى إليه اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فقد تبين أن موقف العناد من الحركة الوطنية عبث لا طائل تحته ، وأن المصريين مستعدون لمواصلة الكفاح وأن أعمال العنف لا تدل على إنها شعبة منعزلة يمكن محاصرتها والقضاء عليها بل أنها تعبير عن الشعور الوطنى العام وقد حصل تغير الموقف البريطانى على الوجه التالى .

أولا : أفرجت بريطانيا عن سعد زغلول واخوانه وأطلقت سراحهم من المنفى .

ثانيا : خففت وطأة الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية البريطانية .

ثالثا : أبلغت أن مصر دولة مستقلة دستورية ذات سيادة .

رابعا : منحت مصر دستورا كان يتضمن النص على الحريات الجوهرية .

خامسا : جرت انتخابات كانت وحدها الانتخابات ، الحرة النزيهة
ن عشرين انتخابا جرت بعد ذلك وكانت مزورة ، وعاد سعد زغلول
ستقبل استقبال الفاتحين ، والغت الاحكام المعطلة للصحف . والنشاط
حزبى ، وعقدت الاجتماعات وخطب الخطباء فى كل مكان .

تحولت مصر من سلطنة إلى ملكية دستورية يحكمها ملك بنص
دستور على أنه يملك ولا يحكم وأن أساس الحكم فى البلاد هو فصل
سلطان وأن القضاء مستقل والقضاة لا يخضعون إلا لضمائرهم .
ذه الاحكام العظيمة وهذه النقلة الضخمة ، وجو الحرية الذى ساد
عودة المنفيين وإطلاق سراح المعتقلين كانت بلا شك دشا بارداً ألقى
لى نار الذين كانوا يرون أنه لا سبيل إلى إجلاء الانجليز إلا بمطاردة
لإنجليز واعوانهم برصاص البنادق حتى تصبح حياتهم فى مصر
جحيما لا يطاق ، وكان هؤلاء محقين تماما وقد تحرك فعلا كثير من
لساسة الإنجليز نحو تحسين الأوضاع السياسية فى مصر ، وزيادة
لقدر المتاح من الحرية لإبنائها ، وقد نجحت هذه السياسة فعلا ووضع
لمقاتلون المصريون بنادقهم جانبا واستعدوا لخوض حياة سياسية
جديدة ، واستعدوا للانتخابات العامة ونظموا صفوفهم وبهذا الأسلوب
خفت حملة العنف فى مصر وبعد أن كان . ينقضى اسبوع أو أسبوعان
حتى تنطلق رصاصة إلى صدر باشا من باشوات الحكم فى مصر .

واثبتت هذه التجربة أن الوسيلة الناجحة فعلا لتطويق العنف
السياسى هى الغاء مسبباته فإن كان هناك ظلم سياسى وتضييق على
المواطنين ، وإذا سادت روح القهرر ، فلابد من رصاص ينطلق فى
الظلام ، ولابد أن يعلو صوت الرصاص لا صوت المنافسة والجدال ،

وقد استفادت بريطانيا من هذا الدرس في كل موضع من امبراطوريتها، فكلما عنفت الامور واشتد ساعد حملة البنادق وسقط الجرحى والصرعى من أنصار الحكومة سارعت حكومة بريطانيا إلى تخفيف حدة القيود وأطلقت الحريات ودعت إلى دورة من المفاوضات . حدث هذا في الهند وحدث في ايرلندا وحدث أخيرا في قبرص كما حدث في مصر على الوجه الذى أسلفت إليه الاشارة .

وهذه ما نستخلصه من مطالعة الصفحات التي طالعناها في السطور السابقة . ولذلك فنحن ندعو إلى معالجة اسباب الارهاب . ونزيد من مقدار الحرية فيتاح لكل نشاط إنشاء حزبه واصدار جريدته وعقد اجتماعاته . ونعيد النظر في القوانين المكروهة ، وعندها ستخف حالة التوتر ويسود الوطن جو من السكينة الصحيحة والطمأنينة الصادقة .

لا شك في أن الكثيرين وفي مقدمتهم رجال الحزب الوطني القديم حزب مصطفى كامل ، كانوا يرون في كل ما صدر من السلطات البريطانية من مظاهر تفريج الضيق ، وإسباغ صور الحرية على أسلوب الحكم ، هو مجرد خديعة يقصد بها صرف المجاهدين عن جهادهم والقاء الفتنة بين الوطنية بتقديم وهم المفاوضات ولكن الإحساس الغالب كان المقدار المتاح من الحرية وأصبح أعظم من طرقات حملة البنادق من الوطنيين ، ولكنه تقدم نحو الأفضل ويجب استغلاله والانتفاع به . في مجالات الكتابة والخطابة والاجتماع ولهذا كسبت السلطات البريطانية جولة ضد العنف فلما تأزمت الأمور ثانية بسبب أزمة فلسطين عاد العنف إلى سطوته ودوى صوت الرصاص من جديد .

ألفاظ بلا معنى

ليس التضخم ظاهرة اقتصادية فحسب ، يقتصر أثرها على النقد، والأسعار ، بل إن هناك تضخما اجتماعيا أو أدبياً ، يصاحب التضخم النقدى ، ويكون أحيانا أثرا له وذيلا من ذيوله وأحيانا أخرى يكون ظاهرة قائمة بذاتها ، مستقلة عما عداها .

وقد نشأت فى مصر ، منذ سنوات ظاهرة التضخم الأدبى والاجتماعى وكانت له آثار عديدة ، منها الشعور بالحاجة إلى تأكيد معنى بعض ألفاظ ، بتكرارها حينا ، وباضافة لفظ زائد إليها حينا آخر، بتغيير صيغتها ، أو اشتقاقها حينا ثالثا ، لتصور القائل متكلما كان أو كاتبا أنه إذا قال اللفظ المعروف والمتداول وحده وقنع به ، وسكت ، فإن السامع لا يتأثر بمعنى هذا اللفظ الأصيل والمتفق عليه ، أو لا يصدق المتكلم ، ومن ثم فلابد من فعل شىء ، يجعل اللفظ أكثر تأثيرا ، وأشد اقناعا وأدعى إلى الاحترام والتقدير .

ويبدو أن المجتمع المصرى انتابه ما يسميه فرويد ، بالشعور بالنقص ، فأخذ نفسه ، بتضخيم كل شىء يتصل به ، ويعبر عن القيمة أو المركز ، أو الأثر .

ففى مصر ، لم يكن إلا استاذ أكبر ، واحد ، هو شيخ الجامع الأزهر ، فاذا ذكر هذا الشيخ الجليل اقترن اسمه بلقب الاستاذ الأكبر ،

● الهلال - مايو ١٩٨٣ .

شيخ الجامع الأزهر ، وفى هذا السجع غير المقصود ، ما يزين اللقب ، ويعلى من قدر صاحبه . وكان باقى الناس فى عالم الفكر والكتابة ، من رجال التعليم ، أو اساطين القضاء تذكر اسماؤهم بألقاب الدولة الرسمية ، مقرونة بصاحب العزة للبك ، وصاحب السعادة للباشا ، وصاحب المعالى للوزير ، وصاحب الدولة ، لرئيس الوزراء .

أما الأفندية فقد تقرر لهم أن يسبق اسماءهم لقب هو «صاحب الرفعة» إلا أن الأيام اسقطته ، أما لأن صاحب الرفعة كانت أكبر من مقام الأفندية فى المجتمع ، فاستغنى عنها ، ولم يستطع الأفندية ، الدفاع عن هذا التكريم ، لقلة شأنهم ، أو لتواضعهم .

ويحسن أن نذكر أن هذه الألقاب ، أو صيغ التكريم ، كانت من صنع رجل علم ، وصاحب وظيفة حكومية كبيرة هو المرحوم أحمد زكى باشا ، السكرتير العام لمجلس الوزراء قبل الحرب العالمية الأولى التى نشبت سنة ١٩١٤ واستمرت لسنة ١٩١٨ ، والذى تطوع للعمل فى الجامعة المصرية الأهلية ، التى ولدت سنة ١٩٠٨ ، ثم الذى أصبح قبل العالمية الثانية ، حينما كثر الحديث عن العرب والعروبة والجامعة العربية قبل مولد هذه الأخيرة ، «شيخا للعروبة» وقد وفق هذا الموظف الكبير الذى انقطع فى أخريات أيامه للدراسات المصرية التى استندت إلى أمهات الكتب التى خلفها لنا أجلة كتابنا ومؤرخينا وفقهائنا مثل كتاب الأغانى للاصفهانى ، والكامل للمبرد ، والمعارف للبيرونى والقواميس الكبرى : المحيط وتاج العروس ، ولسان العرب ، ومختار الصحاح .

فشيخ العروبة الذى صنع لأبناء قومه المحدثين هذه الألقاب التى كانت تركية وأسماء لآلات وأدوات صنعها العلم الحديث : كالسيارة والدبابة وربما البرقية أيضا ، هو الذى منح الأفندية كل عبارة تكريمهم:

صاحب الرفعة ، فضاعت عليهم ، وبعثت حينما أنشأ الملك فاروق والذين حوله لقبا جديدا زاد على لقب صاحب الدولة الذى كان وقفا على رئيس الوزراء ، فأضيف إليه لقب «صاحب المقام الرفيع» ، ثم جرى العرف على تكريم سعيد الحظ الذى وصل إلى هذا القدر من المكانة ، بنعته بصاحب الرفعة ، ومخاطبته بعبارة : «رفعتك» أو «رفعتكم» ..

وضحك الأفندية الذين كانوا فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، لأن صاحب الرفعة ، كانت أصلا من حظهم ، صنعت لهم ، فإذا بالأيام تدور ، والحظوظ تتغير وتتفاوت ، حتى يصل هذا اللقب الذى كان متواضعا ، ومتواريا ، إلى القمة ، فلا ينعم به ولا ينادى به ، إلا من وصلوا إلى أقصى القمة ، ولم يكن كل هذا ، إلا مظهرا من مظاهر التضخم ، فبالأمس كان أصحاب كل لقب قانعين وسعداء ، بما تم لهم من الألقاب ، وكان كل لقب فى مكانه ، مثيرا للاحترام ، مقرونا بالهيبة ، لا أحد يشكك فى قيمته ، ولا يشعر بالحاجة إلى الزيادة فيه .

وبقى الأمر كذلك ، حتى اهتز المجتمع بعد ثورة ١٩١٩ ، فاقتحم الأفندية المناطق التى كانت وقفا على الباشوات ، ومن انحدر من اصلابهم ، وكان باشوات مصر فى الأصل اتراكا أو شراكسة ، مثل يكن باشا ، ورفقى باشا ، وشريف باشا ، ثم منح اللقب لمصريين اقحاح ، كانوا من ابناء العمد ، ومشايخ القرى ، الذين حرصت بريطانيا على أن ترفع من قدرهم ، وتزيد من مكانتهم ، ليدينوا لها بالولاء ، فكان الباشوات من أصحاب الثروات الزراعية التى تحصى بمئات الأفدنة ، أحيانا بآلافها ، فنشأت عائلات امثال البدراوى باشا ، وحسن الشريعى باشا ، وشعراوى باشا ، وعبد الرازق باشا ، وسليمان

باشا ، وأبو على باشا ، وغالى باشا ، وكان أكثرهم لا يقرأون ولا يكتبون ، ولكن ضخامة أموالهم ، وسعة أراضيهم ، وقربهم من الحاكم ، واصهارهم للأتراك باختيار التركيات والشركسيات زوجات لهم ولأولادهم ، عوضتهم عن الأصل التركى الصميم ، وحفظت لألقابهم مهابتها !

فلما اقتحم الأفندية عالم الألقاب العتيق والعريق ، والمسور ، إهتز المجتمع اهتزازا عنيفا ، فقد أصبح الأفندى وزيرا ، وندا لباشوات العهد القديم ، وذهب الوزراء يحملون تحت أباطهم حقائب المحامين ، ويجلسون مع الفلاحين وأبنائهم ، ويمدون إليهم أيديهم ، ويأخذون منهم النقود ، وجاءت الانتخابات فدار هؤلاء الباشوات الجدد على الكفور والنجوع ودخلوا بيوت أهل الريف التى تكاد تخلو من مقعد يجلس عليه الضيف ذو المركز، أو كوب يشرب فيه ماء ، أو يحتسى شيئا من القهوة، قبل غزو الشاى لقرى المصريين ، فشعر كل الناس أن ألقاب الماضى زلزلت ونزلت عن مقامها ، وأنها فى حاجة إلى دعم ، لتبقى لها هيبتها وجلالها ، فلما جاءت الصحف ، وانتشرت وتداولتها الأيدى كثر كتابها ، واستفاضت شهرتهم ، وكبر مقامهم ، وهؤلاء أيضا من الأفندية الذين لم يزد آباؤهم على أن يكونوا تجارا صغاراً ، وموظفين أفندية فى أدنى الدرجات ، ومضت سنوات لم يظفر واحد من هؤلاء الأفندية المشهورين ومن الكتاب والمحامين والمؤلفين ، بلقب البكوية أو الباشوية حتى العقد الرابع ، فقد أصبح من الكتاب عبد القادر حمزة «بك» ثم «باشا» ومحمد حسين هيكل «بك» ثم «باشا» وفكرى اباظة باشا ، ومن السوريين المصريين انطون الجميل باشا ، وادجار جلاد باشا ، وكريم ثابت باشا.

أما الأفندية المحامون من كان منهم قد وصل إلى رتبة البكوية أو لم يصل فقد كثر عددهم بين الباشوات فأصبح يذكر علوبة باشا وبوسى باشا والغرابلى باشا والهلالى باشا ورمضان باشا .

ولكن المجتمع بقى على شىء من تماسكه» فقد كان أكثر المشتغلين بالأدب يطلق عليهم لقب استاذ ، بلا تزيد ، فلم يكن هناك شعور بالمبالغة فى تكريمهم فكان أكبر كتاب مصر مثل ابراهيم المازنى ، وداود بركات ، والشيخ البشرى ومصطفى المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، لا يسبق اسماءهم ألا لقب استاذ . بل إن عددا من كبار الكتاب ، كان يشار إليه بلقب الأديب التى كانت الدرجة الأقل من لقب الاستاذ ، ولا أحد يشكو من شح المجتمع فى اختيار الألقاب .

وبقى الحال على هذا المنوال بغير استثناء حتى أصبح الاستاذ عباس محمود العقاد وحده دون غيره «الاستاذ الكبير» ولم يشعر كاتب آخر من خصوم الحزب الذى ينتمى إليه العقاد، أن يجاريه فى هذه الميزة، فتطلق عليه صحيفته هذا اللقب أو لقبا يشابهه فتقول الاستاذ الكبير محمود عزمى، أو طه حسين، أو منصور فهمى، أو الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكل هؤلاء كانوا من كتاب جريدة السياسة المعارضة .

إلا أن المجتمع استمر يهتز تحت مطارق التطور السياسى والاجتماعى خلال الحرب العالمية الثانية حتى جاءت الثورة ، فزالت دولة الألقاب زوالا تاما ، وزالت منها الحدود الفاصلة بين طبقة وطبقة ، ولقب ولقب ، وعاش الناس بلا ألقاب .

وكان لابد من سد هذا الفراغ ، فأصبح لقب الاستاذ الكبير ، هو لقب كل من يكتب ، حتى لو كان ناشئا ، ولما أصبح كل «الكتاب كبارا» أصبح من الضرورى أن تسك ألقاب جديدة ، كالعملاق ، وأن يكون

هناك «قمم» ، وأن يكون هناك «رواد» ، وأن يقدم كل واحد من هؤلاء ، عند الاشارة إليه أو التحدث معه ببضعة سطور ، تذكر «كيف» أثرى المكتبة العربية» بما كتب وما ألف ، وهو تقليد لم يكن يعرفه المصريون عندما كانوا يتحدثون عن أساتذتهم الذين سبقوا سواهم إلى العمل الفكرى ، حتى ولو كانوا اساتذة جامعة صاحبوا ثورة سنة ١٩١٩ ، أو سبقوها ، وأسسوا الكليات التى خرجت أكبر أهل العلم ، وأعظم أساتذة القانون والأدب ، فقد عاش ومات عبد الحميد أبو هيف وأحمد أمين ، وعبد السلام ذهنى ، وهم مجرد أساتذة أو دكاترة وأن كانوا ملء القلب والسمع .

إلا أن هذا كله ، خطبه هين ، ولكن الخطب زاد ، حينما ولدت الفاظ، لم تكن موجودة ، أو مسخت الفاظ ، ففارقت معانيها ، أو أضيف حروف جر ، أو غيرها إلى الفاظ بغير حاجة إلى تلك الحروف ، أو صيغت عبارات لتؤدى إلى معنى بذاته ، وهى قد تؤدى إلى نقيضه .

ولست أريد أن أتقصى هنا جميع هذه الالفاظ ، والعبارات ، والصيغ ، حتى لا تطم السيل ، فيجرف أمامه ، الفاظاً عزيزة ، صيغا جميلة ، وعبارات غالية ، ويكون لهذا كله أثره العقلى على أساليبنا وطرق تعبيرنا .

من ذلك قولهم الآن :

فلان ترك بصمة .

وفلان فى الصورة .

وفلان عنده قناعة .

وأكد «على» .

وتواجد .

والإعلام .

البصمة

أما «البصمة» فلم يكن الناس يعرفون عنها حتى آخر القرن التاسع عشر ، ما عرفوه عنها فى القرن العشرين .

وحينما عرفوا عنها ما عرفوا ، اقترنت فى الأسماع والأذهان بالجريمة والمجرمين .. فالبصمة لا تعين أحدا إلاّ الباحثين عن مرتكبى الجرائم ، ومن ثم لم تكن سبيلا للتمييز أو التفرقة بين رجل من غمار الناس ، ورجل عظيم فى مجال الفكر أو الفن أو الأخلاق . والإنسان قد يترك بصمته فى مكان ، دون أن يترك فيه أثرا نافعا ، ولا ذكرى حسنة .

وفى ذات يوم دخلت متجرا ، واتكأت بيدى على صندوق من الزجاج توضع فيه البضائع المعروضة ، فملأت اللوح الزجاجى العلوى للصندوق بصمات أصابعى ، فوقفت لحظة أتأمل فى دلالة هذا الحدث الصغير ، وقلت لنفسى : الآن سأنصرف من هنا ، دون أن اشترى شيئا ، ومع ذلك ستبقى ورائى البصمات ، دون أن يلتفت إليها أحد ، ودون أن تشير إلى ، أو تكشف قليلا أو كثيرا من خصائصى .

وإذا كانت بصمة كل إنسان تخالف بصمة جميع الناس ، وهى بهذا الدليل القاطع على أن إنسانا منا كان فى مكان ما ، وأمسك بشىء ما ، إلا أنها لا تصلح دليلا على خلق هذا الإنسان ولا كفايته ، ولا نوازع نفسه ، ولا خواطر عقله . وقد يتحرك عالم كبير ، ومجرم كبير ، أو إنسان لا فى العير ولا فى النفير بصمات ، ويكشف موظف البحث

الجنائى بصمة كل منهم ، دون أن يكون قادرا على أن يعرف بصمة العالم ، وبصمة الجاهل ، وبصمة المغمور .

ومن الخطل أن نهبط بآثار العظماء وجلائل اعمالهم ، إلى مستوى البصمة التى لا تذكر ولا يعتد بها ، إلا عند ذكر الجريمة وتعقب المجرمين ، والكشف عن شخصياتهم ، وفى لغتنا ، وما ألفنا أن نستعمله عند الإشادة بالأبطال والكبار ، أجيالا بعد أجيال ، ما يغنينا عن هذا التشبيه السيىء الذى يخلو من التكريم الصحيح ، وتتداعى له فى الأذهان ، فكرة الأجرام ، والخروج على القانون ، والإيذاء إلى المجتمع الانسانى .

فى الصورة

يشبه هذا التشبيه الزميم ، اصطلاح جرينا عليه فى السنوات الأخيرة ، إذ لم يكن معروفا منذ ربع قرن من الزمان ، وهو اصطلاح أن انسانا ما ، فى الصورة بمعنى أن هذا الإنسان على علم بالموضوع موضوع الحديث .

والثابت أن الإنسان يمكن أن يكون فى الصورة ، بل فى الصميم من الصورة ، وهو لا يدرى شيئا عن ظروف أخذ هذه الصورة ، ومن ظهروا فيها معه ، والواقعة التى استدعت هذا التصوير .

وجرائدنا تنشر عند وقوع الحوادث الجنائية الكبرى أو الصغرى ، كقتل فى الطريق ، أو سقوط عمارة ، أو تصادم سيارة ، يبدو فيها عدد من الأشخاص الذين كانوا عند أخذ هذه الصور فى الطريق على مقربة من مكان الواقعة ، أو فى المكان ذاته ، ولو سئلوا عن الحادث الذين تجمعوا له وأخذت صورتهم بمناسبته ، لما استطاعوا أن يقولوا حرفا واحداً ، عن هذا الحادث فقد يبقون جاهلين ، ما إذا كان الحادث تصادما ، أو سرقة أو قتلا أو شجارا . فوجودهم فى الصورة ، لا يطلعهم على شىء مطلقا ، وليس هو سبيل المعرفة .

والطفل الصغير يأخذه نووه سنين متعاقبة ، إلى المصور ، فى مناسبات متكررة كعيد ميلاده ، وحوله أمه وأبوه وأخوته ، وهو فى صدر الصورة ، أو المركز بها ، ومع ذلك ، فهو لا يعرف أصلا ممن حوله ولا المناسبة التى صور فيها .

ولكنا نحب أن نستعير من الفرنجة اصطلاحاتهم ، ووسائل تعبيرهم ، ونعد ذلك من باب الإناقة ، أو العلم .

المتغيرات

منذ بضع سنوات تسربت إلى لغتنا عبارة المتغيرات ، نقولها عندما نعنى التغيرات ، ونحسب أننا حينما ندخل الميم على الكلمة الأصيلة «تغيرات» تكون أقرب إلى رطانة العلماء ، وأجدر بالاحترام .

والواقع أننا حينما نستبدل بلفظ «التغيرات» ، لفظ «المتغيرات» لا نقول شيئا له معنى ، ونخطئ خطأ جسيما .

فكل شيء في الوجود متغير ، وكلمة «متغيرات» تنطبق على الإنسان والحيوان والجماد ، وظواهر الكون ، وأقسام الأرض ، والأمم ، والشعوب ، والدول والأنظمة ، والقديم والحديث ، والظاهر والخفى .

فإذا أردنا أن نتكلم عما جاء بعد ثورة سنة ١٩٥٢ أو ثورة سنة ١٩١٩ المصريتين أو ثورة ١٧٨٩ أو ١٨٣٠ الفرنسيتين ، أو ثورة ١٩١٧ الروسية ، وقلنا عما جرى بعدها جميعا ، «متغيرات» لكان قولنا ، هراء، لأن المتغيرات واقعة بالثورات وبغيرها ، قبلها وبعدها ، وفى حالات الهدوء والاستمرار وحالات الانقلال والأزمات .

والتعالم مرض وبيل ، إذا لم نقف فى وجهه استشرى .

القناعة والاقتناع

ومن أكبر الأخطاء الشائعة هذه الأيام استعمال لفظ «قناعة» بمعنى «الاقتناع» وهو خطأ أحبه الكبار ، قبل الصغار والعلماء قبل الجهال ، ففي الأحاديث التي نسمعها في الاذاعة المسموعة أو المرئية ، نجد الزعيم أو الكاتب ، يقول في رصانة : عندي قناعة بكذا وكذا .. ويكتب المحللون في بحوثهم الجليلة عن «قناعات» الشعب المصري أو الأمة العربية .

ولسنا في حاجة إلى جهد إذا أردنا أن نفرق بين القناعة والاقتناع ..

فالقناعة حالة نفسية ، قوامها الرضا بما قسم للإنسان ، أو بشيء معين ، أو كحالة دائمة وملازمة للإنسان .. والقناعة هي ما قال عنها القول المأثور«أنها كنز لا يفنى» ..

في حين أن الاقتناع هو ثمرة جهد عقلي ، ينتهي بالإنسان إلى التأكد من حقيقة معينة أو واقعة محددة ، وقد يكون المصدر الذي يستمد منه اللفظان واحدا ، وقد يتقاربان باعتبار أن في كليهما عنصر الاكتفاء بمعنى أن المقتنع مكتف بما اقتنع به دون غيره ، والقانع مكتف بما حصل عليه أو بما يحصل عليه ، ولكن الفارق بعد ذلك شاسع فرب، رجل مقتنع بشيء ، وإن كان غير قانع ، كأن يقتنع الإنسان بأنه لن يحصل من عمل ما إلا على مبلغ ما ، ولكنه غير قانع ولا راض .

أكد «على» وتواجد

وقد جرى العرف الآن على أن يضاف حرف الجر «على» إلى لفظ «أكد» مع أن فعل «أكد» متعد بذاته ، ولا يحتاج إلى عون من حروف الجر . وفي القاموس أكد الشيء ، وثقة .

ولكن الحالة النفسية التي نعاني منها هذه الأيام ، تدفعنا إلى الشعور بأن اللفظ مألوف ، منذ وقعت دلالته ، ونقص معناه ، فيحتاج إلى إضافة أو تعديل . ومن ذلك العدول عن لفظ «وجد» إلى لفظ تواجد . فالآن نقول تواجدت ويجب أن تتواجد ، بمعنى وجدنا أو يجب أن نوجد .

وفي القاموس تواجد أورى الوجد من نفسه أي الهوى والميل إلى المحبوب .

فالتواجد شيء غير الوجود .. ووجد ، كافية للتعبير عن معناها القديم بلا حاجة إلى هذا التغيير المضحك والمؤسف في وقت واحد ، ويزيد من الأسف له . أنه شائع إلى حد نسخ الأصل تماما .

الإعلام

أما لفظ الإعلام فقد يحتاج منا إلى كلام طويل نوعا .. فمنذ إنشاء وزارة «الارشاد القومي» دار الحديث ، والجدل ، حول اسمها ، وقد كان الاعتراض على لفظ الارشاد ، أنه وإن كان من الفاظ تراثنا ، إلا أنه اقترن في الاذهان بالوعظ ، والوعظ ، بطبيعته مكروه . لأن الوعظ ، صاحب الإنسان منذ طفولته ، فاقترن بهيمنة الوالد والوالدة والمدرس والكبار ، كما اقترن بالقيود المفروضة والتحريم والمنع . كما اقترن بوعظ الوعاظ الذى خلا من الرقة واللطف ، والقدرة على التأثير ، وضرب المثل الحسن .

واعترض على هذا اللفظ أيضا ، أن «الارشاد » توحي بتدخل الحكومة وتوجيهها ، والتدخل في أمور الناس ، ورسم الخطط لهم . وذكر لفظ «الاعلام» تعديل عن لفظ «الارشاد» .

وقد كنت أعرف أن للفظ الاعلام والاستعلام في تاريخ السياسة والدعاية تاريخا .

فقد اقامت المانيا النازية كالعهد بصراحتها في كل ما تقوله وتفعله . وزارة اسمها وزارة «الدعاية» ، وأشرف على تنظيمها وتخطيط العمل فيها ، بكفاية نادرة ، «جوزيف جيبلز» أحد كبار زعماء النازية ، ورجل من أقرب الناس إلى «هتلر» . وقد نجحت هذه الوزارة نجاحا هائلا في الدعوة لألمانيا النازية ، وفتوحها العسكرية ، واستدراج الانصار لها ، ونشر فكرتها ، بالخطة والكتابة ، والصورة ، وتنظيم الهيئات ، وتأليب

الأنصار واضطرت دول الغرب أمام هذا النصر الساحق أن تفكر جديا ويسرعة فى إنشاء وزارة مماثلة ، تكون إدارة مركزية لدعايتها بدلا من الأجهزة العديدة المنتمية لأكثر من وزارة فى الدولة . وفكرت طويلا فى الاسم الذى تطلقه على هذه الوزارة الجديدة ، وانتهت إلى استبعاد لفظ «الدعاية» لأنها نفرت الناس منه فى بلادنا وفى العالم ، ووصمت دعاية هتلر وأجهزته بالكذب والمبالغة وقلب الحقائق ، وإثارة الفزع ، وشراء الأنصار .

وانتهت إلى لفظ «الاعلام» ، وبدأت وزارات الاعلام فى الغرب فى مباشرة عملها ، فتفوقت على وزارة الدعاية الالمانية لهتلر ، النازية ، فى الكذب ، وتصدير الأوهام ، ونشر الوعود التى لا يقصد بها إلا التمويه ، وادخال الأمل الكاذب فى نفوس الأمم المغلوبة على أمرها ، وقد ساعد على سوء أعمال وزارة الإعلام الغربية أنها تضامنت مع الصهيونية العاملة لارتباط الفريقين .

فقد انطوى لفظ «الاعلام» على كذبة صارخة وضخمة ، وذلك لأنه لا يتصور ولا يصح فى العقل أن دولة ما ، تنفر الملايين من الجنيهات بل البلايين ، لمجرد نشر الحقيقة المجردة ، حتى ولو كانت ضدها ، وعلى النقيض من مصالحها .

فالاعلام هو الدعاية ، مع ادعاء الترفع عن الدعاية ، وهو ترفع مكشوف وبالتالى مرفوض .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل ، ويقول لكل منهم «ادعوك بدعاية الاسلام» .

فالدعاية هى واجب كل صاحب رأى ، يؤمن بصحته ، ويرى أن من واجبه أن يروج له ، والإعلام لفظ غربى ، عانينا من كذبه ، وخلطه

للحقائق ، وعبثه بالواقع الصريح والصادق . ومن ثم فإن من الواجب أن نهجره فى صد الدعوة لانفسنا حتى لا نقلد خصومنا ، ونتبعهم كالمواشى ، هم يقولون «الاعلام» فنقول «الاعلام» ، وهم يقولون «الشرق الاوسط» فنقول «الشرق الأوسط» . وهكذا ..

ومن هنا فقد أصررت أن يكون اسم وزارة الدعاية فى بلادنا «الارشاد القومى» ، وقد ذاع الاسم فى كل العالم العربى ولا يزال باقيا فى عدد من الدول العربية الاسلامية .

ولا يصح الاعتراض على هذا اللفظ باعتباره - كما سبق القول - بأنه يوحى بتدخل الدولة فى توجيه الافكار ، وهيمنتها على الرأى العام ، فإذا كنا قد أجزنا للدولة أن تعلم الناس ، وتربيهم وأن نخلق جهازا للتربية والتعليم دون أن نخجل ، فلا أقل من أن نتردد عن إنشاء جهاز للارشاد القومى ، فالإرشاد أقل تكوينا لعقول الناس ، من التعليم ومن التربية .

شريط الذكريات
أنا وأهل الفن

كنت على صلة بالفن وأهله، شببت عن الطوق، فقد شاءت الظروف أن أقضى سنى الصبا المبكر، أو قل سنى الطفولة، فى منزل تملكه بريمادونة مسرح الشيخ سلامة حجازى، والبريمادونة هو لفظ غربى يطلق على الممثلة أو الفنانة الأولى بمسرح ما، وكانت بريمادونة مسرح سلامة حجازى هى السيدة «ملياديان» وكان لها بيت جميل مبنى على ما يشبه نظام «الڤيللات الحديث» فقد كان يتكون من دورين كبيرين، سكن والدى فى الدور الأعلى منه، وسكن فى الدور الأول، مهندس مثل أبى، هو المهندس عبدالرحمن على الذى نال فيما بعد لقب الباشوية فأصبح عبدالرحمن باشا على، وأسندت إليه رياسة مصلحة الأموال المقررة.

وقد بقيت جاهلا لأن صاحبة منزلنا يهودية مصرية، حتى نشأت قضية فلسطين، وأصبح موشى ديان علما من أعلام الصهاينة ووزير دولتهم على أرضنا العربية، وكانت «ملياديان» سيدة جميلة الوجه، مليئة الجسم، تصلح لأداء الأدوار التراجيدية، فى تراجيديا سلامة حجازى مثل «أوديب»، «عطيل»، «روميو وجوليت» كان لها رداء يفصل قامتها الطويلة وامتلاء جسمها بلا بدانة ولا ترهل، ووجه يعلوه الوقار كأنها

● الهلال - نوفمبر ١٩٨٥ .

أميرة، وكانت هذه الفنانة الشهيرة تزورنا فى بيتها بين الحين والآخر، فيفرح كل من فى الدار بمقدمها، ويجتمعون حولها، ويمتلىء المكان بعبق عطرها، الذى كانت تنثره الفنانة الكبيرة، بحركات ردائها الفاخر الثمين، وبمروحة يدها التى تروح وتغدو فى يدها، تتحرك معها القلوب، وكنت طفلا ـ أشبه بقط المنزل الصغير، فإذا جاءت «ملياديان» لزيارة أهلى، كنت فى جانب من صالة الاستقبال الفسيحة، ورحت أتأمل وجهها، واستملى تقاطيع وجهها الجميل المهيب، كأنى أشاهد صورة رائعة ولا أحد يلتفت إلى أو ينتبه إلىّ ما أنا فيه من انجذاب.

وقد زادت صلتى بالفنانة الشهيرة، إذ كلفتنى يوما بشراء علبة سجائر كانت معروفة يومذاك، اسمها سجائر «كريازى» وأظنها علبة من الصفيح المصقول، وقد رسم عليها منظر جميل، هو منظر أسد تجلس أمامه إمرأة جميلة، عارية الذراعين كأنها ملياديان، خرجت من الواقع، وأخذت مكانها على هذه العلبة السحرية، وكان بين يديها سيجارة، المفروض أنها سيجارة من سجائر «كريازى»، وراحت تنفث دخان سيجارتها فى وجه الأسد، فطابت له رائحة السيجارة، وغلب عليه ما يشبه النوم من التلذذ، فأغمض عينيه قليلا، وقد عدت إلى ملياديان، وأنا أنظر إلى الصورة، وأتأمل المرأة الفتانة، والسيجارة التى تدغدغ الإحساس، ويخيل إلىّ أن شخوص الصورة سيخرجون منها، ويأتون ليجلسوا مع ملياديان فى صالون الاستقبال فى دارنا.

كانت هذه هى الصفحة الأولى من حياتى مع الفن، زادت عمقا بذهابى مع أخوتى إلى منزل الفنانة الشهيرة فى حى الظاهر لأراها فى ملابس النوم التى تكشف عن مفاتنها أكثر مما كان يكشف «فستانها»

الرائع، ولعلها قبلتنى وضمتنى إلى صدرها، وهى لاتعلم أننى مأخوذ بجمالها، على الرغم من سنى الصغير، وتجربتى المحدودة مع المرأة وجمال وجهها.

وقد كان بيت ملياديان فى شارع له شأن غريب، ذلك هو شارع سلامة المتفرع من شارع زين العابدين، الخارج من ميدان السيدة زينب، فلعله الشارع الوحيد الذى ظفر من الأدب المصرى الحديث برواية كاملة، وهى ليست رواية عادية إذ هى الرواية المصرية الأولى فى الأدب المصرى المعاصر، وأعنى بها «عودة الروح» التى عرف بها توفيق الحكيم، فقد جرت وقائع روايته، والعائلة المصرية التى لعب أفرادها البطولة فيها، فى شارع سلامة الذى كنا نسكن فيه بيت «ملياديان». وكان توفيق الحكيم نفسه من سكان هذا الشارع، كما كان أحد أفراد الأسرة التى حدث القراء عن شئونها المعيشية، وأزماتها العاطفية، وكان يسكن فى الشارع نفسه أديب من أكبر أدباء مصر، وأحد أعضاء الثالوث الشهير المكون من عباس العقاد، وعبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، وكان الأخير من هذا الثالوث، أى المازنى، يسكن معنا فى شارع سلامة، كما كان يسكن فيه عبدالرحمن الجديلى الذى كان صديقا أو مريدا لأمير الشعراء شوقى، وتلميذا مقربا من الزعيم سعد زغلول، وقد صور معهما فى صورة واحدة فى منزل شوقى كرمة ابن هانىء، وهو القصر المطل على النيل والذى أصبح متحفا الآن، وقد تم أخذ هذه الصورة، بمناسبة زيارة سعد لأمير الشعراء شوقى فى صباح أحد الأيام وليقدم التهانى للشاعر الكبير بمناسبة عقد قران ابنته فى مساء ذلك اليوم نفسه، وللإعتذار عن عدم الحضور فى حفلة عقد

القران لاعتلال صحته، وعدم امكانه الخروج فى المساء، وقد قال الجديلى يومها، «الخالدون» فأشار سعد بيده إلى شوقى وقال: هذا هو الخالد.

وقد كان شارع سلامة يتوسط ما يشبه مستعمرة أدباء، فقد كان يسكن هذا الشارع، مصطفى لطفى المنفلوطى، صاحب النظرات والعبرات وماجدولين والفضيلة، والذى كان يعد من أشهر الكتاب فى ذلك العهد والذى بيع من الطبعة الأولى من كتابه «النظرات» عشرة آلاف نسخة، وكان ذلك فى تلك الأيام، رقما ضخما إذ لم ير المطبوع من أى كتاب عن ألف نسخة يباع منها نصفها فى سنوات إذا راج الكتاب وذاع اسمه.

وكان يقطن قريبا أيضا من شارع سلامة، الشيخ عبدالعزيز البشرى الذى عرف كأبرع كاتب للصور العلمية التى عرفت باسم «فى المرآة» التى كان البشرى يكتب فصولها فى جريدة السياسة الأسبوعية. وهى الفصول التى أتاحت لقراء الأدب العربى فى مصر تذوق فصول أقرب ما تكون من آثار الجاحظ، خفة ظل، وبراعة وصف، ودقة تحليل.

ونعود إلى «ملياديان» فأقول إن شهرتها كانت مستمدة من شهرة أستاذها. ورئيس الفرقة التى تعمل فيها وهى فرقة الشيخ سلامة حجازى، وكان سلامة حجازى فى تلك الأيام ليس مطربا محبوبا كما أحب المصريون بعد ذلك محمد عبدالوهاب إذ كان سلامة حجازى إبان بدء شهرته، وذيوع اسمه بطلا بلا منافس ولا أحد يقارنه فى عظمته، وسطوع نجمه، فلم يكن أحد يدانيه فى قوة الصوت، ورخامته وجمال الصورة، فضلا عن اتقانه للتمثيل، وبراعته فى التلحين، حتى كاد يجمع

فى شخصية المطرب، والمؤذن والخطيب، والملحن المجدد، وكان محبو صوته، والمعجبون بفنه، يقفون أمام مسرحه، عند خروجه منه فى الليل المتأخر، ودخوله إليه فى المساء المبكر، وكانوا يتزاحمون لكى يحيوه، أو يقبلوا يديه، أو وجنتيه، أو يلمسون ثيابه ويشمون رائحته، وكثيرا ما حلوا سيور خيول عربته ليسحبوها بأنفسهم. وكان إذا دخل المسرح ولا سيما بعد إصابته بالفالج، يحيونه وقوفا، ويصفقون حتى تدمى أيديهم، وكان إذا بدأ الغناء ران عليهم صمت وقور محترم.

وجدت أم كلثوم فى أول حياتها منافسة لها هى فتحية أحمد، وقد حاول بعض الناس، أن يبالغ فى إعجابه بفتحية أحمد، ثم اختفت فتحية أحمد وبقى عبدالوهاب ندا «لأم كلثوم» يقاسمها الشهرة، ويزاحمها على حب وإعجاب الجماهير العربية، ثم ظهر فريد الأطرش وشقيقته إسمهان صاحبة الصوت القوى المعبر الذى كان ينتظر له نجاح كبير، لولا أن المنية عاجلتها، أما سلامة حجازى فقد بقى النجم الوحيد الساطع فى سماء الفن والغناء والطرب والتلحين والتمثيل، حتى توفاه الله، ولذلك كانت «ملياديان» لأنها بطلة التمثيل والفن المتفرد الموهوب والمحبوب، شهرة تتعقبها الجماهير، وتحيى فى شخصها زعيم الفن فى أيامها.

ومضت السنوات حتى ظهر فى مدرسة الخديوية شاب بعثته وزارة المعارف «التربية والتعليم» ليدرس التاريخ فى انجلترا، وعاد وقد امتلأ صدره بآمال جسام، منها أن يجعل التمثيل مكملا لتعليم التلاميذ وتثقيفهم، ومعهدا لترقيق أذواقهم، ومدخلا إلى معرفة الفنون الأخرى من غناء وموسيقى ونحت وتصوير، ذلك هو المرحوم الأستاذ محمود مراد الذى درس التاريخ فى مدرسة الخديوية، وأنشأ بها أول فرقة تمثيلية فى

مدرسة ثانوية حكومية، ووضع لها أوبريت كاملاً اسمه «مجد رمسيس»، وقد ألف لهذه الرواية الموسيقية الشعر والألحان، ودعا ملحنين شبانا كانوا في ذلك العهد مبتدئين منهم على صقر على وعبدالرحمن على، فوضعوا لهذه الباكورة ألحانها، ثم تعرف على «سيد درويش» وعلى «محمد تيمور» ووضع لسيد درويش أوبريت الباروكة، فازدهر في مصر المسرح المدرسي، وأصبح في كل مدرسة بالقاهرة فرقة مسرحية، ثم انتقل حب المسرح إلى مدارس الوجهين القبلي والبحري، ودعى كبار الممثلين لتدريب الطلبة، فغرسوا في قلوب بعضهم حب هذا الفن الجميل، فتعلقوا به، وأصبحوا بعد ذلك فنانين كبارا، وقد برز وسط هذه النهضة الفنية الوقورة الناشئة في حضن المدرسة الثانوية وبإشراف وزارة التعليم ومشاركة للأدباء وكبار الفنانين أمثال عزيز عيد وجورج أبيض وأحمد علام الذين أحسنوا تدريب الكوكبة الأولى من هواة المسرح الذي وقعت على عاتقهم النهضة المسرحية القديمة يتصدر هؤلاء جميعا، وتفوق عليهم أحمد محمود حسين، الطالب بالمدرسة الخديوية فأصبح معروفًا لزملائه يشار إليه بالبنان قبل أن يدعو إلي مشروع القرش، وقبل أن يؤسس جمعية مصر الفتاة التي أصبحت حزبا تتلمذ فيه، وتعلم على يديه شباب مصر الحديثة، في مقدمتهم جمال عبدالناصر.

ولصلتي الوثيقة بأحمد حسين إبان تزعمه لنهضة التمثيل في المدارس تعرفت على عدد كبير من زعماء هذه النهضة، أذكر منهم محمود المليجي الذي كان زميل أحمد وتلميذا له، وقد تأثر به وحاول أن يحاكيه ويقلده.

وفي ذات يوم كنت في الزقازيق في الإجازة السنوية كعادتي السنوية، وقد كان لي خال من محاميي هذه المدينة، وألفت أن أقضي في

ضيافته على الأقل شهرا، أنتقل خلاله بين المحكمة صباحا والمكتب مساء أشاهد المتقاضين وأسمع المحامين، وأتابع الجنايات الكبيرة، وكان في الزقازيق في تلك الفترة مجموعة من أكبر محاميي مصر بينهم فكرى أباظة وعلى أيوب الذى عين وزيرا وحامد فهمى باشا الذى أصبح مستشارا نابها من مستشارى محكمة النقض.

وفى ذات يوم كنت في المكتب، مكتب خالى الأستاذ محمد على حمدى رحمه الله فسمعت جلبة لم أعهدها، فجريت نحو الباب، فإذا بى أمام مجموعة من الشبان لايتجاوز عمر أكبرهم العشرين، وكان فى مقدمتهم أحمد حسين، يجاوره زميله الذى عرفته فى مصر محمود المليجى والممثل أحمد فرج النحاس، ووقف وراءهم قليلا طالب طب هو عبدالرحمن الصدر الذى أصبح فيما بعد أحد كبار جراحى مصر، وقد شغل منصب أستاذ الجراحة وعميد كلية الطب فى جامعة الإسكندرية، وكانت معهم فتاة لبنانية حديثة السن اسمها جوليت صيداوى، وسألت ما الخبر فقالوا لى أنهم ألفوا فرقة مسرحية من أنفسهم، وقرروا أن يطوفوا بها خلال فترة الصيف بعض مدن الريف، وقد وقع اختيارهم على مدينة الزقازيق ثم يتبعونها بمدينة ميت غمر، وقد هدتهم الحيلة إلى اختيار رواية فكاهية اسمها «دخول الحمام مش زى خروجه» وكان سر اختيار هذه المسرحية الناجحة أن مؤلفها هو الكاتب المسرحى المشهور يومذاك «إبراهيم رمزى بك»، وكان المؤلف شقيق محافظ الزقازيق اسماعيل باشا رمزى فظنوا أن العلاقة بين المؤلف والمحافظ ستساعد على مد يد المعونة للفرقة إن تعثرت.

ورأيت نفسى واقفا أمام الأمر الواقع.. فاضطررت أن أشارك فى أعمال الفرقة قبل ليلة الافتتاح من المشاركة فى عملية التلقين ولكن لم

ألبث حتى دعيت لأشارك فيما هو أهم وهو تموين وتغذية الفرقة التى جاءت وليس عندها ما يقيم الأود، ولم أربأ من أن أسطو على مطبخ خالى دون استئذان، ولما اشتدت أزمة الفرقة، دعوتهم إلى عملية سطو منظم فى الليل بعد أن نام أهل بيت الخال العزيز، فشفوا كل ما كان فى الحلل والأطباق والنمليات وتركوا المطبخ قاعا صفصفا.

وجاءت ليلة الافتتاح «فكان المسرح الصغير بدوره قاعا صفصفا إذ لم يقبل على مشاهدة رواية «دخول الحمام» إلا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك جاء المحافظ ليجلس فى بنوار الشرف نزولا على مقتضى العلاقة بين المؤلف والمحافظ.. ومع ذلك أدى الممثلون أدوارهم ببراعة دلت على مواهبهم التى نضجت فيما بعد.. وضحك الحاضرون حتى امتلأت عيونهم بالدمع.

وفى صباح اليوم التالى واجهت الفرقة المشكلة الكبرى وهى كيفية توفير المال اللازم للعودة إلى القاهرة، فذهبوا إلى مكتب المحافظ يتقدمهم خالى ليطلبوا المعونة باعتبار أن المحافظة هى عون كل محتاج وكل من انقطع به السبيل، وقد أوصى الله خيرا بأبناء السبيل، ورق قلب السيد المحافظ وأخرج من اعتماد المصروفات السرية أو ما يشبهها، ما يلزم الفرقة لتعود إلى القاهرة، فى الدرجة الثالثة، وقد وقف بعض الذين شاهدوا المسرحية فى الليلة السابقة على الرصيف وهم يلوحون بأيديهم للفرقة العائدة، وكأنها «ساشكوياترا» وزعيمه «دون كيشوت»، وهم بين الضحك ودموع الفراق، ثم سافرت إلى أسيوط.. لأكون رئيس فرقة التمثيل فى مدرسة أسيوط الثانوية وليزاملنى فى المدرسة اثنان من نجوم المسرح والسينما والتليفزيون عماد حمدى الممثل ونيازى مصطفى المخرج وحسن رمزى.

أبوالهول قال لى . . .

(كتاب مجهول)

لا أحسب أن الذين سمعوا بهذا الكتاب الفريد الخصيب، الملىء بالحقائق التاريخية القديمة والحديثة، المتعلقة بالشرق والغرب، والخواطر الأدبية واللمحات الفلسفية، يزيدون على أصابع اليدين فى الوطن العربى كله، وأن كاتبه كان أثناء ظهور هذا الكتاب، ونشره على الناس، ملء السمع والبصر، فقد كان رئيس أقدم الأحزاب المصرية قاطبة، ونعنى به حزب مصطفى كامل الذى أسس فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ قبل أن يؤسس حزب الأمة الذى تحدث باسمه ونشر أفكاره أحمد لطفى السيد الذى بايعه عدد من مريديه والمقربين بفضله بوصفه أستاذ الجيل، دون أن يحددوا الجيل، كما سبق فى الوجود جميع الأحزاب التى تشكلت بعد ثورة سنة ١٩١٩ وفى مقدمتها حزب الوفد الذى قاده زعيم هذه الثورة المجيدة سعد زغلول، وما تفرع على هذه الأحزاب، حينما تفرقت كلمة الأمة، وانهمكت فيما يمكن تسميته بالحرب الأهلية.

وكان مؤلف ذلك الكتاب الفذ فوق ذلك نقيبا للمحامين ووزيرا لأكثر من مرة، وأحد باشوات مصر، وهو بهذا كله أحد أهل الصدارة، وكانت موهبته تؤهله لهذه الصدارة ذاتها وتؤكد حقه فيها، فقد كان من أبرع

● الهلال - ديسمبر ١٩٨٥ .

المتكلمين، يتدفق إذا خطب، وينتقى عباراته، وهو يتدفق فيأتى عذبة وتزداد عنوبة لجمال جرس صوته، وكان يؤكد أثر خطابته فى النفوس، قامة طويلة، وطلعة مهيبة، ورصانة فى الحركة وحسن إيماءة فى اللغة.

ولكن لا أظن أن هذه الأوصاف كلها والنعوت قد أعانت القارىء الكريم على تبين صاحب الشخصية مؤلف الكتاب الذى مضى بين الألف أو ملايين الكتب التى تقذف بها المطابع كتابا مجهولا، لم يثر ناقدا، على الهجوم عليه أو التنويه به، ولم يحفز قارئا هاديا لدعوة زملائه القراء ليفتنوه ويطالعوه ومع ذلك فهو كتاب قيم جدير بأن يحرص على الإنتفاع به، ألوف من عشاق الثقافة الحرة، ومن محبى الإطلاع.

وإنى لا أطيل فى استغلال صبر القارىء، فأطلعه على اسم المؤلف، هو الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى فى ذلك الوقت على قائمة رؤساء هذا الحزب العتيد وإن الذى بعث الروح الوطنية وحفز الشعب المصرى على مقاومة الاحتلال البريطانى، وبث الكراهية له فى القلوب، ودعا إلى مقاطعة أنصاره والتصدى لسياساته بكل وسيلة وفى غير هوادة، وقد فاتنى أن أقول لك أن محمد حافظ رمضان باشا الذى اجتمعت له كل هذه المواهب، كان يتمتع بطاقة رياضية عظيمة، هيأت له فرصة الحصول على شهادة دالة على وصوله إلى قمة جبل (مون بلان) وهى قمة شاهقة من قمم جبال الألب الأوربية التى لم يصعد إليها، إلا عدد قليل يعد على أصابع اليدين على الأكثر، وكلهم من أبطال الرياضة نوى الأجسام التى تجمع بين القوة والرشاقة والمرونة.

ولعل شهرة حافظ رمضان السياسية، جنت على مواهبه الأدبية، فلم يفطن أحد إلى أن الكتاب الذى طلع به على القراء، به مادة دسمة، معروضة فى أسلوب شائق وعبارة أخاذة وعلى الناس لم يفطنوا جميعا

أن هذا الكتاب البديع، هو أول كتاب يؤلفه زعيم من زعماء السياسة فى مصر بعد وفاة زعيمى الحزب الوطنى الأولين مصطفى كامل ومحمد فريد، اللذين ألف أولهما كتاب المسألة الشرقية وكتاب اليابان بلاد الشمس المشرقة، وكتاب أخطار الاحتلال البريطانى لمصر، وألف ثانيهما كتاب تاريخ الدولة العثمانية، فكل الزعماء الذين جاءوا بعد ذلك شغلتهم مشاغل السياسة المحتدمة، فلم يؤلفوا كتابا، ولم يجمع لهم أحد خطبهم التى ألقوها فى المناسبات العديدة، ولا يهم أن تكون من وضعهم، فهى تعبر عن آرائهم ومواقفهم وقد قدم المؤلف كتابه بإهداء بليغ وعذب فيه:

«إلى ناحت «أبى الهول» البعيد عنا بما مر من الدهر» «القريبة منا» بما خالد من الصخر الذى أبدع أقدم تمثال عرفه التاريخ، «عسى أن يكون فى هذا الإهداء بعض الاعتراف بفضل كل خادم للإنسانية» بقى عمله وضاع اسمه، وكل عامل منسى وكل جندى مجهول.

وقال فى التعريف بكتابه:

« ولما كنت قد استوحيت أبا الهول بما خططت للأجيال القادمة من غير الأجيال العابرة، واستلهمت رفيف الأرواح حوله، وحفيف العصور فى ساحته»، ولا أحسب أن القارىء سيفته التأمل فى هذا المعنى الجميل، معنى أن تمثال (أبوالهول) أقدم تمثال عرفته الإنسانية، كان رمزا على كل عمل عظيم خالد، عمله فنان متمكن من فنه، ومتمرس، بأساليب وطرائق مهنته أو هوايته، ولا يبغى جزاء ولا شكورا ولا يسعى إلى تخليد اسمه، أو الإشادة بأثره، بدليل أنه لم يترك على التمثال العظيم الذى تركه يواجه عصف الرياح، وعدوان الرمال وقسوة الأيام

والليالى، التى تبلى الصخر، وتمحو الصروح العالية»، والقصور الشامخة.

وقد فسر المؤلف لماذا اختار لكتابه هذا العنوان الغريب، وكيف تحدث إليه أبوالهول ومتى، فقال فى السطور الأولى من الفصل الأول من كتابه:

«لقد أويت فى إحدى ليالى الخريف إلى مضجعى مبكرا على خلاف عادتى، واستيقظت فى السحر بعد أن أخذت قسطى من الراحة والنوم، وقد أحسست فى نفسى رغبة في الخروج إلى العراء واستقبل النسيم العليل وأقر عينى بجمال الشروق، وانتجع مكانا معينا بعيدا عن الضوضاء أنعم فيه بالعزلة الهادئة واستجلى مباهج الطبيعة وجمالها، فخرجت والناس نيام، ووليت شطر أهرام الجيزة، ثم انحدرت فى سفحها نحو اليمين، وإذا بى أجد نفسى أمام أبى الهول، وقد أخذتنى روعة لمرأه فجلست شاخصا إليه، والمعبد خلفى، حتى تنفس الصبح، ورأيت وجهه يستقبل مطلع الشمس، فتذكرت أنشودة (رع) أبى الآلهة عند المصريين الأقدمين، تلك الأنشودة المدونة على ورق البردى التى تقول «أنت إله السماء، تطلع على العالم فتملأ القلوب فرحا، وترسل أشعتك فى الوجود فتملأ النفوس بشرا، والعيون نورا، فالسلام عليك أنت الأبدى السرمدى»، وتذكرت ما جاء عن النور فى التوراة: أن النور هو أول ما خلق فى الوجود، وتذكرت كذلك ما جاء فى الذكر الحكيم فى «سورة النور»:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة

زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم».

فالمؤلف منذ السطور الأولى يكشف عن اتساع ثقافته، وتنوع مصادرها، وأن كتابه سيكون خلاصة المطالعة التى بدأها منذ شبابه، والتى عززها بأسفار متعددة، فى الشرق والغرب، عرف فيها ألوانا لاتحصى من الفنون، وتذوق فيها أثارا انتجها فنانون مبدعون، ينتمون لأجناس متباينة. ويتمتعون بمواهب مختلفة، من المثال والمصورين والنحاتين والمزخرفين، فكتاب «أبوالهول» قال لى هو فى الواقع خلاصة تجربة أدبية وعقلية لرجل قرأ كثيرا، وعاش طويلا، وعرف من الأحداث شيئا لايحصى وخالط الرجال في مئات من الأوطان مفكرين وزعماء، ورجال سياسة ومحررى شعوب، وصحفيين ومؤرخين وهذا الطراز من الكتب سيكون عادة موسوعة أدب وتاريخ وعلم وسياسة والعنوان لا يكون عادة فى هذا الضرب من الكتب إلا مجرد ذريعة لعرض هذه الدنيا الطويلة العريضة من الأفكار والحقائق وصور الشخصيات وجوامع الكلمة، وخفايا التاريخ، « فسيمون دى بوفوار » حينما وضعت كتابها «الجنس الثانى» وأرادت أن تتحدث فيه عن المرأة فى مختلف أدوار التاريخ، وجميع ما يصدر عن المرأة، في كل صورة ووضع، فتحدثت عن المرأة طفلة، وصبية، وشابة، وأما وزوجة وعشيقة، وراهبة، وغنية، وملكة وفنانة، وجاسوسة، وقديسة، ومتصوفة، وخادمة حان، ومريضة، وجميلة وقبيحة.

وقد اتخذت المؤلفة الفرنسية من هذا الموضوع المترامى الآفاق،

والطور والعريض، وسيلة لعرض آلاف من الأفكار في كل جانب من جوانب الحياة وزينت كتابها بمقدمات من أعظم روايات شكسبير وتولستوى وجيته ومسرحيات سوفوكليس، وبرناردشو، وبيراندللو، وأشعار إمرىء القيس . والفردوسى، وشوقى وإقبال.. ولم يبلغ حافظ رمضان شأن، سيمون دى بوفوار، لأنه لم يكن كتابا منقطعا لهذه الحرفة الشاقة، ولكن كتابه كان مع ذلك ذخيرة حية من التاريخ والأدب والفكر السياسى، واللمسات الفلسفية، والخواطر الروحية، وقد فسر كيف تم اللقاء بينه وبين أبى الهول ومن ثم تم الإيحاء والتلقى فقال «وفيما أنا غايته سمعت هاتفا يقول لى:

ألا ترى الرابض أمامك فى جسم الأسد، ورأس الإنسان، إنه رمز الإنسانية فى حياتها المادية، والروحية والتفت أمامى وإذا بى أرى أبا الهول، وقد راعنى ما بأنفه وشفته من التشويه، فأخذت أسأل نفسى: أية يد همجية ياترى تلك التى امتدت إليه فمسخت ابتسامته، الحلوة، وجعلت منها ابتسامة ساخرة من الإنسانية.

أهى يد الإنسان أم الطبيعة؟

«أهى يد المماليك فى تمريناتهم الحربية أم يد الفرنسيين فى مناوراتهم العسكرية».

«ثم تذكرت أن المماليك كانوا يعتقدون أن لحارس الصحراء أسرارا غامضة، وكانت معتقداتهم تلقى فى روعهم الرهبة منه لا الرغبة فى الاستخفاف به ثم قلت لنفسى لماذا وقع التشويه على رأس الإنسان، وهو رمز العقل، ولم يقع على جسم الأسد وهو رمز القوة، أوقع هذا الاعتداء لأن القوة تهاب ولا تخشى العقل.

ولاشك فى أن المؤلف كان موفقا حينما اختار أباالهول مصدرا

ومبعثا لإلهامه، فأبوالهول لقى من المصريين أكثر من تمثال، وكان فخرهم به، واعتدادهم بانتسابهم إلى القوم الذين صنعوه، والفن الذى أبدعه والفكرة التى أخرجته، متجددا على طول العصور والأوقات والتأمل فى التمثال وعنصرية المكونين له، رأس الإنسان وجسم الأسد، تهزهم من الأعماق، ولاسيما وقد تم هذا الاتحاد، فى تمثال قديم غاية القدم، ووضعه أسلافهم على حافة الصحراء البعيدة التى لا نهاية لها، والتى تخيف سكونها الشبيه بسكون أبى الهول، فلما اعتبروا أبا الهول حارسا للصحراء، قصدوا من ذلك أنه حارس أسرارها، وحامى حمى وادى النيل الذى يجرى تحت أقدامه ليضع أعظم صورة من صور التناقض، للصحراء بجدبها ووادى النيل بخصوبته وخضرته، وكثرة مائه، والذى يأتى بدوره من أصقاع مجهولة، فكان كل ما يتصل بمصر عند موقع أبي الهول عالم من الأسرار، التى تقدمه على تاريخ مصر، سحرا لا يرد، وجاذبية لاتقاوم.

ثم مضى حافظ رمضان فى تخيلاته التى أوصى بها أبوالهول فقال:

«بدرت منى التفاتة إلى أقدم تمثال لم يعرف له التاريخ عهدا فبدت لى عيناه الحجريتان اللتان كانتا متجهتان نحو الأبدية اللا نهائية، وكأنما تتحولان نحوى وتدعواننى إلى المحاكمة فوقفت دهشا أطرقت رأسى وأخذت أسأل نفسى:

أى حديث ياترى ذلك الذى يدور بينى وبين هذا الذى عاصر الكليم والمسيح وعرفهما رسولين يمهدان النفس فى هداية الناس.

كيف أرتب الحديث مع ذلك الذى عرف الإنسانية فى مهدها وشهد عبر المتقدمين وخبر أحوال المتأخرين ورأى الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والجبابرة.

وقد كنت أود أن أنقل لك طرائف وغرائب، وصورا قلمية، مما فاض

به هذا السفر الجميل، الذى بلغت صفحاته ٤٢٥ صفحة وبلغت فصوله عشرة سمى كل فصل منها بالحديث، وقد انطوى كل حديث على فصول فرعية بلغت عدتها أحيانا عشرة أحيانا وأحيانا أكثر من عشرين وقد كان الفصل الأول من الحديث الأول بعنوان رؤية تحتمس، والفصل الأخير ديانات الفراعنة، فى حين أن الفصل الأول فى الحديث الثانى كان بعنوان تطور الحضارة عند الإغريق ويتحدث فى الفصل الثالث عن الحضارة الرومانية، كما يتحدث فى الحديث الرابع عن يسوع المسيح والنصرانية، ويخصص الحديث الخامس للرسالة الإسلامية، ثم يتحدث عن الدولة الأوروبية فى الحديث التالى ثم عن الدولة العباسية فى الحديث التالى ثم عن الحروب الصليبية، ثم عن ضعف البابوية والانقسام الكبير فى الكنيسة، ثم يختتم الأحاديث بكلام جيد عن الاكتشافات الجغرافية، فكأنه تلخيص للحضارة الإنسانية على مثال النسق الذى اتبعه المؤرخ الأمريكى ديورانت. على أن هذا كله هو الجزء الأول الذى كان المؤلف ينوى إتمامه، ولكن يبدو أن سوء استقبال الكتاب، وعدم احتفال النقاد به، هبط من همته وقد ألحق المؤلف بكتابه عددا من الفهارس المفيدة والمعينة للكاتب أولها فهرس الأعلام ثم فهرس الأماكن وهو فهرس لم أر له نظيرا فى الكتب عادة، ثم فهرس الأقوام والأمم، وهو أقدر من سابقه وترى فى هذا الفهرس إشارات إلى الأريين وآل يعقوب والإباضية وأبناء الحسين، وأبناء لاوى، والأتابكة، والأتروسك، والاثنا عشر وأحفاد شرلمان واخوان الصفا.

وبالجملة، يأتى هذا الكتاب فذا وثمرة جهد كبير، واطلاع واسع، واخلاص للوطن وللثقافة وحب عميق للإنسانية.

الباب الثاني :



شخصيات

أثر الشيخ عبدالعزيز جاويش فى حياة طه حسين

الشيخ عبدالعزيز جاويش ، السياسى والكاتب الوطنى هو الى دفع طه حسين الى الصحافة والى النقد الأدبي وإلى الجامعة المصرية الأهلية والي اللغة الفرنسية ، ثم إلى فكرة السفر إلى باريس وطلب العلم هناك.

يحسب الكثيرون أن الحملات التى قام بها «اللواء» جريدة مصطفى كامل ثم عبدالعزيز جاويش ، كانت صراخا عنيفا فى الهواء ، أو أنها كانت حماسة كلامية مسرفة ، وأنها لذلك لم تحقق شيئا ، فى حين أن أسلوب التعقل والتبصر الذى إلتزمه خصوم «اللواء» والذى مال بهم إلى التماس صداقة الاحتلال البريطانى وممثليه ، وخطب ودهم ، وتبادل الرأى معهم ، هو الطريق السوى السليم . وما ذهب إليه هؤلاء هو الخطأ بعينه ، فإن هذه الحملات - حملات اللواء - وإن بدت لبعض المستعقلين أنها اتسمت بالعنف والشدة أحيانا - إلا أنها كانت فى واقع الأمر كالقوارع التى تخرج الناس من جمودهم ، وتبث الشجاعة فى قلوبهم وأعصابهم ، وربما كانت وحدها الباعث في كل ما شمل البلاد من الرغبة فى الإصلاح وكراهية النظام القديم ، والإقدام على تجديد التفكير الدينى والاجتماعى ، فلولا هذه الصيحات المدوية التى انشق

● الهلال - نوفمبر ١٩٨٣ .

عليها قلب مصطفى كامل وعبدالعزيز جاويش ، لما قامت حركة إصلاح ديني ، ولا ترجم كتاب عن اللغات الأوربية ، ولا نبتت فكرة إنشاء جمعية خيرية ، أو بناء مستشفى أو إقامة جامعة أو إرسال بعثة للخارج ، وقد صورت جريدة فرنسية فى عام ١٩٠٩ أثر اللواء فقالت : قد شرح أحد السائحين الذين جالوا فى الديار المصرية ذلك الآن فقال :

«إن الذى يزور الآن قرى مصر ، يرى فيها أمرا مستحدثا ماكان ليخطر على بال أحد ، يرى حلقات من الفلاحين حول رجل يتصدر مصطبة يتحدث وهم ينصتون إليه ، وهذا الرجل فى العادة من القصاصين الذين يروون القصص القديمة ولكنه يقرأ الآن «اللواء» ، ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم ، وبذلك يبدر فى قلوب أولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع ، بذرة جديدة قد تنمو وتثمر فى مستقبل الأيام» .

على أن نشاط الشيخ جاويش لم يذهب كله جهدا سياسيا بل إنه التفت فى عناية واهتمام بالغين ، إلى النواحى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وبذر فيها بذورا كانت هى أصول ما شهدته البلاد بعد ذلك من تطورات وحركات تحرر اجتماعى ، وتحرر اقتصادى ، يبغى فى كل منها قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى رانت على صدر الشعب لتزهق أنفاسه أو تقيد حركاته . وقد بدأ الحزب الوطنى بقيادة عبدالعزيز جاويش وأحمد لطفى وآخرين من زعماء الشعب وقادته فى إنشاء مدارس الشعب ، لتوفير الثقافة الأساسية والسياسية والاجتماعية للعمال فى المدن ، وقام فيها الشيخ بتدريس مادة الدين ، وقد بدأت هذه المدارس بواحدة فى بولاق حي العمال أنذاك ، وعززت

بثلاث مدارس أخرى فى أقسام الخليفة وشبرا والعباسية . ولم تكن هذه المدارس مجرد معاهد ليلية مجانية لتعليم العمال ، بل كانت فى واقع الأمر خلايا للفكر السياسى ، وإرهاصات بالعمل السياسى فى قالب جديد ، يوثق العلاقة بين الحركة الوطنية والعمال ، ويثير فى نفوس هذه الطبقة المحروقة ماديا ومعنويا ، الشوق إلى التعليم وتحصيل المعرفة ، وإشعارها بأن الثقافة سلاح لا يجوز لها أن تهمله ، وقد تخرج فى هذه المدارس مئات انضموا إلى الحركة الوطنية والعمالية ، وقادوها فكانوا قادة فى المجالين ، ضربوا المثل لاخوانهم فى الايمان بأن العلاقة بين الوطنية والتحرر الاجتماعى ، شىء واحد - يكمل بعضه بعضا ، وقد جاء الدليل على صحة هذه النظرية سريعا ، فقد دعا الحزب الوطنى إلى تشكيل نقابات للعمال ، وكانت باكورة هذه النقابات العمالية «نقابة عمال المصانع اليدوية» وقام الشيخ بوضع قانونها ، وأسندت إليه رئاستها ، فأعجب لشيخ ذى عمامة فى هذا الوقت المبكر ، يفكر فى إنشاء نقابة عمالية ثم يضع قانونها ، ثم يتولى رئاستها ، وهو فى الوقت نفسه ، يرأس تحرير أكبر جريدة يومية سياسية ، فيبذر بيد بذور الثورة السياسية ويبذر باليد الأخرى بذور الثورة الاجتماعية والاقتصادية ولا شك أن الميدان المفضل للشيخ مع بذله أقصى الجهد فى الميدان السياسى والاجتماعى هو مجال التعليم ، فقد خلق معلما ، وانتهى معلما ، ولذلك لا يتولانا شىء من الدهشة حينما نطالع البرنامج الذي أعده الشيخ لاصلاح التعليم فى بلادنا ، فدعا الى أفكار متقدمة بمعيار الزمان الذى وضع فيه هذا البرنامج ، ومعيار زماننا ، فقد

اقترح مثلا انشاء «رياض الأطفال» التي انشئت في بلادنا بعد ذلك بنحو ربع قرن ، واسماها «بساتين الأطفال» . وشرح فكرتها بأن منها تلقن للأطفال منذ تفتح حياتهم فى الثالثة أو الرابعة من العمر ، عن طريق الأغانى والأناشيد والرسم والأعمال اليدوية ، والألعاب حتى يبلغ السابعة فيدخل الى مرحلة التعليم الابتدائى ، وقد حصّل قدرا غير قليل من المعرفة في جو يحبب له المدرسة ويحفظه فى فترة الطفولة الأولي من الفرا غ الذى قد يتلف مواهبه «يحجبها» ثم نراه شديد الاهتمام بالتعليم الفنى ، حتى لا يكون التعليم فى بلادنا كله ، حشوا للذاكرة أو الحافظة، بالمعلومات ، علي حسابات ملكات الطفل أو التلميذ ومواهبه الأخرى اليدوية . وهو الأمر الذى يعتبر إلى الآن آفة يشكو منها نظام التعليم عندنا ، لم يبرأ منها .

على أن فى حياة الشيخ عبدالعزيز جاويش جانبا آخر ، كان عظيم الأثر ، ولكنه ضاع فى حياته الصاخبة العنيفة . الا أن الدكتور طه حسين كشف عن هذا الجانب الخطير ، حينما حدثنا فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن بداية حياته . فقد عرفنا في هذا الجزء لأول مرة أن يد الشيخ جاويش هى التى دفعته إلى الصحافة ، والى النقد الأدبى ، والى الجامعة وأخيرا هى اليد التى جذبته الى تعلم اللغة الفرنسية ، والقت إليه فكرة السفر الى باريس ، وطلب العلم فيها . لقد كان الثابت لدي الجميع ، أن «طه حسين» هو غرس يد أحمد لطفى السيد ، وأنه مدين له بكل مافى حياته ، من تطور التعليم من دنيا الأزهر ، الى عالم الجامعات الحديثة ، ومن كتب التراث ، الى الأدب العربى ، بكل مافيه

من ثروة متعددة الألوان والمناهج والدروب ، وأنه لولا ارتباط طه حسين بلطفي السيد ، وتتلمذه عليه ، لبقى أزهريا ، كغيره من الأزهريين الذين وهبهم الله القدرة على الكتابة والخطابة والحديث ، ولكنه فى حدود الأدب العربي التقليدي ، لا يزيد عليه ولا يخرج من نطاقه . ولكن اسمع ماقاله طه حسين . «واتصل الفتى (طه حسين) كذلك بالشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فأكثر الاختلاف اليه ، والاستماع له – وماهى الا أن أخذ يجرب نفسه فى الكتابة ، كما جرب نفسه فى الشعر على يد استاذه المرصفى «سيد المرصفي» ، ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، فلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام ، ولكنه كان نقدا محافظا ، مغاليا فى المحافظة ، الا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهناك كان يخرج حتى طور الاعتدال ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبدالعزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك ، وحثا عليه» .

ثم استمر يتحدث عن أستاذه عبدالعزيز جاويش ، بعد أن أشار الى صلته باستاذه الثانى أحمد لطفى السيد الذى كان يزوره كل يوم فى مكتبه بدار الجريدة فلا يحجب عنه ، وانما يلقاه هاشا له ، مرحبا به ، فاتحا أبوابا من التفكير لم تكن تخطر له على بال ثم قال : كان الفتى «طه حسين» يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فيسمع له صوتا عذبا وحديثا لينا رقيقا ، ويرى من وراء هذا اللين ، وتلك العذوبة عنفا أى عنف ، أن ذكر السياسة أو ذكر الأزهر وشيوخه،

أو ذكر بعض الكتّاب الطاهرين الذين لا يكتبون فى صحف الحزب الوطنى . وكان يحبب العنف إلى الفتى ، ويرغبه فيه ، ويزين فى قلبه الجهر بخصوم الشيخ ، والنعى عليهم ، فى غير تحفظ ولا إحباط ، فهو يرى أنهم آفة هذا الوطن ، يحولون بينه وبين التقدم ، بما كانوا يلجون فيه من المحافظة ، ويعينون عليه الظالمين ، بموالاتهم للخديو ، ومصانعتهم للانجليز .

ثم قال :

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطى ، راضيا عنها معجبا بها ، ثم لم يلبث أن سئمها ، وانصرف عنها ، ولكنه لم يكد يراها فى كتاب مجموعة ، حتى ضاق بها أشد الضيق ، وكتب يصفها ، ويغض منها ، وفرح الشيخ عبدالعزيز جاويش بما كتب الفتي أشد الفرح واستزاده من الكتابة وحرضه عليها ، وألح فى التحريض » حتى ألقى فى روعه الا يدع فصلا من فصول المنفلوطى إلا وأختصه بفصل من النقد ، وكان الفتى قديم المذهب فى الأدب ، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحتمل من اللفظ الا بمكانه من معجمات اللغة ، فكان عيب المنفلوطى عنده أن يخطيء في اللغة ويضع الألفاظ فى غير مواضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت فى لسان العرب ، ولا فى القاموس المحيط» .

وقد لاحظ الفتى أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدث إليه فيها كل من يلقاه الا رجلا واحدا ، لم يشر إليها قط وهو مدير الجريدة «لطفى السيد» .

ثم قال :

«ولكن للشيخ عبدالعزيز جاويش فضلا على الفتى أى فضل ، فهو الذى ألقى فى روع الفتى فكرة السفر الى أوربا حين قال له ذات يوم لابد من إرسالك الى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام» . لم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى استقر فى يقينه أن ليس له بد من عبور البحر ، على أى نحو من الأنحاء ، وأصبح الفتى كاتبا بفضل هذين الرجلين : لطفى السيد ، وعبدالعزيز جاويش ، وأصبح كاتبا بشىء آخر :

وهوانه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته فى الصحف ، الا حبا للكتابة ، ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهما ولا مليما ، على أن فضل الشيخ عبدالعزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه ، فهو الذي عرف الفتى إلى جماهير الناس ، وأوقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا الشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

«كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجرى كلما انقضى عام هجرى ، واقبل عام جديد ، وكان الشيخ عبدالعزيز جاويش ، يحرص على أن يكون للحزب الوطنى احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام فى مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابا وكهولا وشيبة ، وكان الفتى قد انشد فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وانشدها أمام الشيخ عبدالعزيز جاويش فرضى عنها ، وحثه على أن يقول أمثالها .

فلما كان الحفل شهده الفتى مع المشاهدين ، ولكنه لم يكد يأخذ مكانه بين الناس ، حتى قبل من يأخذ بيده وأجلسه على المنضدة ، ولم يقدر الفتى الا أن الشيخ عبدلعزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ،

ويتلطف له ، ويقربه من مجلسه ، فرضى «كل الرضا» وعده فضلا عظيما من الشيخ ، والقيت الخطب ، وصفق المصفقون ، ولم يرع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس ، ورأى نفسه يدعى الى انشاد قصيدته العصماء ، فلبث فى مكانه جاهدا واجما لا يدرى ماذا يصنع ، ولا يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهم الفتى أن يمتنع حياء وخجلا ، ولكن الذى أخذ بيده جذبه جذبا شديدا ، وجعل الذين معه ينهضونه حتى انهضوه وجروه جرا إلى المائدة ، واستقبل الفتى بتصفيق شديد ، منحه قوة وجرأة ، فانشد قصيدته فى صوت ثابت متأن ، ولكنه لم يستقر فى موقفه ، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعادا ، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال ، وأروعه ، حتى خيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظا «حافظ إبراهيم» أو قريبا من حافظ .

«ثم لم يقف الشيخ عبدالعزيز جاويش عند هذا الحد بالفتى ، ولكنه علمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية ، وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها ، ثم ترك أو كاد يترك الأشراف على تحرير هذه المجلة وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف ، وتنسيق ما ينشر فيها من فصول ، ولم تخل «الهداية» من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا ثم أضاف الشيخ الى كل هذا الفضل فضل آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء من ذى القلة القناوى ، أرضاه عن بعض حاله ، وأكبره فى نفسه شيئا ، وأشعره بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك .

«فقد انشأ الشيخ عبدالعزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على الا ينتظر على ذلك أجرا ، فالمدرسة عمل وطنى لا أجر عليه لمن يشترك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئا ، وربما انفق عليها من رزقه ، وكلف نفسه في سبيل ذلك من الحرمان ، وربما ألح على بعض الأعيان وأوساط الناس حتى أشعرهم على أن يعينوه على نفقتها ببعض المال ، وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحا به ، مبتهجا له ، يري فيه شفاء لغيظه من الأزهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركته فى بعض الخير ، «ثم لم يلبث هذا كله أن أنقطع فجأة صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ، ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار ، ولم يره الفتى «طه حسين» منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر فجأة ، وعلى غير علم من أهلها ، وعاد الى مصر فجأة على غير علم من أهلها أيضا ، وعلى كل حال فقد اعان الفتي على الخروج من بيئته تلك المغلقة الي الحياة العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف .

ثم قال طه حسين :

«كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض أصدقائه من الأزهريين بأن مدرسة مسائية انشئت فى مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين ، وكان للشيخ عبدالعزيز جاويش يد فى إنشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى» .

ومعنى هذه السطور أن طه حسين تعلم الفرنسية أول ما تعلمها ، في مدرسة أقامها وأعدها عبدالعزيز جاويش لتعليم الأزهريين هذه اللغة، ولكن وقته لم يتسع لتحقيق دور الشيخ جاويش في بناء هذه المدرسة، ولكني أقطع بأن فكرة المدرسة ، وما تم في شأنها حتى تقوم على قدميها كان عمل الشيخ جاويش وحده ، فقد أخبرني المرحوم الأستاذ على الغاياتي بأنه تعلم الفرنسية وقد كان أزهريا أيضا – في مدرسة أنشأها الشيخ جاويش وأنه الحق بها بناء على أمر من الشيخ بذلك .

ويختم طه حسين حديثه عن أثر الشيخ جاويش في حياته فيقول : «ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس لي ، وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد ألقى الشيخ عبدالعزيز جاويش في روعى فكرة السفر الى أوربا «إلى فرنسا خاصة» فما له لا يفكر في هذا السفر، وما يمنعه أن يبتغى اليه الوسيلة ، والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه ، وأصبحت جزءا من حياته ، جعل ينظر إليها ، لا على أنها حلم يداعبه نائما ، أو يقظانا بل على أنها حقيقة يجب أن تكون» .

وقد لخص طه حسين الفرق بين أثر الشيخ جاويش عليه ، وأثر لطفي السيد فقال :

«وكان صاحبنا «أي طه حسين» موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت ، أحدهما مذهب الاعتدال الذي كان الاستاذ لطفي السيد يدعو إليه ويزينه في قلبه ، والاخر مذهب الغلو والأسراف، ذلك الذي كان الشيخ عبدالعزيز جاويش يقربه به ويحرضه عليه

تحريضا، وكان الفتي «طه» للمذهبين جميعا ، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني» .

وقد قلت تعقيبا على ذلك القول ، أن طه حسين كان أثر حياته مهاجما ، حتى فيما يعدل عنه في قابل أيامه في مجلات السياسة أو الأدب من رأى أو مذهب فهو أقرب الى جاويش ومنهجه ، لكن جاويش انسحب من الحياة السياسية ، بل من الحياة العامة كلها ، بل ترك مصر بأسرها سنين طويلة ، دالت خلالها دولة الحزب الوطني في مقاتلة الاحتلال .. وغلوها في مقاطعة المحتلين ، ونقدهم وكشف عيوبهم ، وتعقب أخطائهم ، وجاء ت دولة أخرى ، ولكل دولة رجال ، وكان لطفي السيد من رجال الدولة الجديدة ، ومن ثم فقد توقفت أسباب طه بلطفي السيد ، الذي يتربع استاذا للجيل ، وقد كان بحق استاذا لجيل الأدباء والسياسيين الذين تولوا الحكم أكثر المدة الواقعة بين الثورتين ، ثورة ١٩ ، وثورة ١٩٥٢ ، فقد كان استاذا لطه حسين ، ولمحمد حسين هيكل، ولمحمود عزمي ، ولمصطفى وعلى عبدالرازق ولمنصور فهمي .

وأزعم أنه لو بقي الشيخ جاويش في مصر ، ولم يصب الحزب الوطني ، حزب مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ما أصابه ، لدخل طه حسين في زمرة كتّاب الحزب الوطني ، ولاصطبغ أسلوب الحزب ، ولاعتنق مذهبه ، ولكن شاء ربك غير ذلك ، فأصبح طه حسين ، دستوريا يمنح ولاءه لحزب عدلي يكن ، وعبدالخالق ثروت ، واسماعيل صدقي ومحمد محمود وآل عبدالرازق ، ودار دوراته التي يعرفها مؤرخو الأدب والسياسة .

ولكنا نعود الى الشيخ جاويش ، فنقول للقارىء الكريم ، قد يبدو لك أننا اطلنا الاقتباس من كتاب الأيام الذى تحدث فيه طه حسين عن مطلع حياته كاتبا وصحفيا وخطيبا ، ولكنا لا نقصد من هذا الاقتباس ، أن نتحدث عن طه حسين ، لأنه من الشيوخ الذين خلعوا العمامة ، وارتدوا القبعة فى الخارج ، والطربوش فى مصر ، ولكنا أردنا من هذا الاقتباس المسرف أمرين :

أولهما : أن نكشف عن حقيقة فى حياة طه حسين ، بقيت مستورة ومحجوبة على الرغم من عظم خطرها فى هذه الحياة ، مبينين كيف تجنى تطورات الأحوال فى بلد ما ، ولاسيما ما كان منها متعلقا بالسياسة والحكم ، على التاريخ وحقائقه الثابتة . فقد أكثر الناس الحديث عن طه حسين حيا وميتا ، مادحين وقادحين ، من أبنائه ومريديه، والغرباء عنه والبعيدين عنه ، فاجمعوا بغير استثناء على أن طه حسين هو تلميذ لطفي السيد ، وأن لطفى هو الذي قاده الى ما وصل اليه فى دنيا الصحافة والسياسة والفكر والجامعة ، ولم يمنحوا الشيخ عبدالعزيز جاويش ، فى رواياتهم وأحاديثهم حرفا ولا أقول سطرا، فكأن طه جاويش لم يلتقيا ، وأن جمعهما عصر واحد ، ومهنة واحدة ، ومجال واحد فى عصر الخديو عباس ، قبيل حرب عام ١٩١٤، وقبل ثورة عام ١٩١٩ ، ومجال واحد هو مجال الصحافة والسياسة والأحزاب ، فإذا تحدث طه حسين عن نفسه أثبت بأنه لثمرة فضل وجهد، واستاذية الشيخ جاويش صنعه على عينيه وتفتح فى أدبه ، وأسلوبه ، وجهاده من روحه . قدمه للناس فعرف ، وحفزه للنقد الأدبى،

فذاع اسمه ، وأحب هذا اللون من النشاط الفكرى وتعلق به ، وواظب عليه ، وحرضه على اصطناع الأسلوب الجاد ، الذي لا يجامل ، ولا يدارى ، وجرءه على مهاجمة أصحاب السلطة والجاه الحكومى والأدبى من الحكام وعلماء الدين إذا تهاونوا ، أو اخطئوا ، فقلده وحاكاه . ثم القى اليه بفكرة السفر الي باريس ، فسافر ، وبأن يتعلم الفرنسية فتعلمها فى مدرسة الشيخ جاويش ، واتقنها وأصبح واحدا من خير الناطقين بها والمعبرين عن أفكاره ومشاعره . وأوقفه أمام الجماهير الحاشدة لأول مرة ، فألف هذه الوقفة ، وأحسن التحدث الى المئات والألوف ، ثم قاده الى الصحافة ، فعرف فنها ، وأسلوب اعداد الصحف وتنظيمها ، ثم جعل منه استاذا للأدب العربي ، فبقى فى هذا المكان حتى أصبح استاذ اساتذة هذا الجانب من حياة المصريين وحياة العرب. أما عن أثر لطفى السيد فى حياة طه حسين فلا تجد شيئا ، فطه حسين كان شديد الولاء للطفى ، وعظيم التقدير له ، ولكن لم يستطع أن يقول لنا ، ولو على سبيل المجاملة أن لطفى أعانه على شيء، أو يأخذ شيئا منه ، ولكن للناس حظوظا ، والشهرة والمكانة رزق «والله يرزق من يشاء بغير حساب» .

الباشا الأحمر

كان أنيقا غاية الأناقة ، منديله الأبيض من الحرير أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذلاته جميعا تلفت النظر بدقة تفصيلها وألوانها .. بدأ حياته العملية متأثرا بمصطفى كامل باشا .. وختمها داعية إلى المذهب الشيوعى !..

عز علىّ أن غادر دنيانا الاستاذ محمد كامل البندارى باشا المحامى والسياسى والوزير والسفير ، والداعية إلى لون جديد من التفكير فى شئون بلادنا وبلاد المنطقة العربية . دون أن يشيع بكلمة تظهر قدره ، وتكشف للناس دوره ، وتحدثهم عن مواهبه العديدة ، وعن عجائب شخصيته الفسيحة المديدة .

وقد كنت أحسب أن موته سيذكر الناس به ، وعلى وجه خاص ، الذين صاحبوه في العمل السياسى التقليدى ، أو العمل السياسى الجديد ، الذي جاء ت به الأيام بعد الحرب العالمية الثانية ، واستقرار روسيا فى أقصى شرق أوربا وأقصى شمال شرق آسيا ، قوة ذات نفوذ، ودولة ذات رسالة ، ولكن لأمر ما سكت الجميع ، ومضى الرجل إلى العالم الآخر ، وكأنه هزأ بالذين صمتوا ولم يتكلموا لأنهم جهلوه ، والذين صمتوا لأنهم ضاقوا به حين كان ملء السمع وملء البصر ، لغرابة أطواره ، وجرأته على منهج الناس المتبع ، وأسلوبهم المحترم .

● الهلال – ديسمبر ١٩٨٣ .

أتم محمد كامل البنداری تعليمه الابتدائی ، والثانوی فی إحدی مدن الوجه البحری ، فی أخريات القرن الماضی بعد أن ولد فی قرية جد قريبة من مدينة الزقازيق ، وقد اشتهرت تلك القرية بأنها خرجت أكثر وكلاء مكاتب المحامين وكتبة تلك المكاتب ، واشتغل بعد أن أتم دراسته فی مدرسة الحقوق الخديوية - نسبة إلى الخديو توفيق فالخديو عباس حلمی اللذين تعاقبا على عرش مصر - والبنداری فی مقتبل حياته ، ثم اشتغل بالمحاماة ، فی الريف ، ثم انتقل إلى القاهرة . وقد قامت بينه وبين الحزب الوطنی الذی أسسه مصطفی كامل ، صلة ما لم أتبينها ، ولكنها لم تكن على كل حال صلة وثيقة ، إلا أنه لم يكن من الممكن كشاب فی أوائل القرن العشرين فی مصر ألا يتأثر بمصطفی كامل زعيم مصر ومؤسس حركتها الوطنية ، وباعث نهضتها في تلك الآونة . يتأثر به عن بعد ، قارئا لمقالاته ، أو مستمعا لخطبه ، أو متتبعا لنشاطه في مصر وفي الخارج .

ولكن ما ماكاد يبلغ سن النضج ، حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، وقرر المحامون ، في مارس من تلك السنة أن يضربوا عن العمل احتجاجا علي مسلك السلطة البريطانية من منع زعماء مصر من السفر إلى فرنسا ليشهدوا مؤتمر فرسای الذي انعقد فی تلك السنة على مقربة من باريس ، ليصفی آثار الحرب العالمية الأولى التی بدأت عام ١٩١٤ ، ووضعت أوزارها فی الساعة الحادية عشرة ، من اليوم الحادی عشر من الشهر الحادي عشر في عام ١٩١٩ ، حتي جری العرف على القول بأنها الحرب التی انتهت فی ١١/١١/١١ .

وألفوا - أی المحامون المصريون - من أنفسهم لجنة لتنظيم الإضراب والمحافظة على تنفيذه بدقة وإحكام ، واختاروا لها من

أسموهم يومذاك برؤساء المحامين ، فوقع اختيارهم فيما وقع على البنداري الذى كان قد ظفر بلقب «بك» لما لمع نجمه ، وظهرت كفايته فى عمله ، وقصده أصحاب الدعاوى ، بوصفه محاميا كبيرا .

وزاد اسمه لمعانا ، حينما اتهم رئيس المخابرات أو المباحث فى عهد الاحتلال ، وقبيل الحرب العالمية الأولى - «جورج فلعبدى» - وكان لبنانيا وفد إلى مصر واحتمى بسلطة الاحتلال الانجليزى وأعجبهم منه مكره ، وسعة حيلته ، وقدرته الفائقة على الاتصال بذوى الشأن نفسه أو عن طريق أعوانه ، وارتقوا به حتى أصبح مرجعهم يختصونه بغضبهم فيحبسونه أو يعتقلونه أو يزجون به إلى السجن فى قضية ملفقة .. فكثرت ضحاياه وتعددت صلاته النسائية ، حتى تورط فى جريمة رشوة، وكان الإنجليز قد ضاقوا بفضائحه ، فتخلوا عنه ، فاتهم وحبس وقدم للمحاكمة أمام قضاء الجنايات .

وذهب محمد كامل البندارى ليترافع عنه ليفضح العهد كله ، بأسلوب جديد من القول لم يألفه الناس من قبل .

ولما أسفرت ثورة عام ١٩١٩ لا عن إستقلال ، ولا عن دستور مستقر ، بل عن حرب أهلية ، كان قضباها : سعد زغلول زعيم الأغلبية الذى يؤيده الشعب ، وعدلى يكن زعيم الأقلية الذي انحاز له أصحاب الأطيان الزراعية ، وباشوات مصر الذين تتصل أصولهم بباشوات الاتراك والشراكسة الذين كونوا طبقة «الذوات» فى عهد محمد علي وأولاده وأحفاده حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، فحجبت أكثرهم عن السلطة ثم جاء ت ثورة عام ١٩٥٢ فخلعتهم من جذورهم أو خلعت البقية الباقية منهم فى شكل أمراء ونبلاء .

انحاز محمد كامل البنداري بك إلى حزب الأحرار الدستوريين ، الذي ألفه عدلي يكن ثم تركه بعد قليل من تأسيسه ، ليتولوا زعامته على التوالى محمد محمود باشا فعبد العزيز فهمى باشا فالدكتور محمد حسين هيكل باشا .

ولم يكن انحياز محمد كامل البنداري لحزب الأحرار الدستوريين لأنه من أبناء العائلات الغنية ، ولا لدم أجنبى يجرى فى عروقه ، فقد كان ابن فلاح من محافظة الشرقية ، ولعله عرف في طفولته وصباه ، ضيق العيش ، ولوعة الجوع ، ولكن «البنداري بك» ، كان يقرأ باللغة الفرنسية كتب القانون ، وكانت فرنسا مرجع الفقهاء والمشرعين والمحامين فى مصر ، وكان يحب أن يفكر ، وأن يعبر عن تفكيره ، في الأوساط التي يغشاها ، يتفهمه من يريد أن يفهم ، ويضيق به من يريد أن يضيق به .

وكان أنيقا غاية الأناقة ، وكانت أناقته تلفت النظر ، فمنديله الأبيض الحريرى ، أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذله جميعا تلفت النظر في دقة تفصيلها ، وتضارب لونها مع لون قميصه ، مع لون ربطة رقبته مع حذائه ، وهو إذا ذهب الي المحكمة ليترافع ، جاء متأخرا ، معلنا أنه عائد لتوه من رياضة كرة المضرب «التنس» فيغيض بزملائه الغيظ ، وينكرون كل ذلك انكارا صريحا وهو غير عابىء بهم ، ولا ملتفت إليهم . وهو إذا تكلم ، اختار من صيغ الكلام ، ما تيقن فى اختياره ، وهو يقطع الكلام ولا يتدفق ، ويؤكد معانيه ولا ينطق ، وتشعر من كلامه أنه يريد أن يقول أو يقول فعلا : أنه استاذ والسامعون تلاميذ أغبياء لا يحيطون بالعلم الذى جاء به .

ولم يكن كل ذلك ادعاء ، بل كان فعلاً يقرأ ما لا يقرأ زملاءه ، وينظر فى الأحاديث إلى أمور يغفل عنها أشباهه ، ولولا هذا الذي بدا حذلقة لوصل البنداري بك الي مركز الصدارة فى حزبه ، ومنصب الوزارة فى أيامه .. ولكن الحظ تأخر به قليلا ، فلم تفته الضدارة ولا الوزارة .

وفي عام ١٩٣٦ ولىً الوزارة حزب الأغلبية ، وانكرت أحزاب الأقلية أشياء من حكم هذه الأغلبية واشتدت حملة أحزاب المعارضة وظهر أنهم كانوا يلقون تأييدا ممن كان يرمز إليه بلفظ «السراى» ، كما يرمز الى سلطان تركيا «بالباب العالى» ويرمز إلى رئيس وزراء بريطانيا بـ « ١٠داوننج ستريت» .. وهكذا .

وكانت مصر الفتاة فى ذلك الحين ، حزب الشباب ، دخلت الى حلبة السياسة ومعها برنامج جديد، يتحدث عن مصر من عهد الفراعنة ، ومصر العربية الإسلامية ومصر محمد على ، وأن مصر يمكن أن تبعث من جديد وأن بعثها سهل هين لو آمن الشباب بأنفسهم ، واستقلوا عن أحزاب الشيوخ التى تجرى كلها وراء السفارة البريطانية والتى قالت يوما - غداة ثورة عام ١٩١٩ - أنها لا تشكو فى مصر الا الى السفير البريطانى ، ولا تشكو فى الخارج الا لبريطانيا ، ولفتت مصر الفتاة هذه الأنظار ، وارتدى بعض شبانها القميص الأخضر ، فى وقت كانت فيه موجة القمصان تشمل العالم كله حتى بريطانيا موطن الديمقراطية التى تضيق بالأحزاب السياسية التى تعتمد على فيالق مسلحة ولو بالهراوات .

ووقفت مصر الفتاة من حكومة الأغلبية الحاكمة موقف المعارضة فأصبح بينها وبين أحزاب الأقلية شىء من الود ، لتوافق المصالح

وتقارب المواقف ، وفى تلك الفترة وبسبب هذه الظروف ، عرف محمد كامل البندارى المحامى وعضو حزب الأحرار الدستوريين زعماء مصر الفتاة ، فأعجبه منهم تجديدهم فى السياسة ، وخروجهم على الأحزاب التقليدية - التى كان يضيق بها هو سرا - ففتح لهم بيته وفتح لهم فوق ذلك قلبه ، فلما اتهم زعماء هذا الحزب الناشيء بالشروع فى قتل رئيس الحكومة ، ذهب محمد كامل البندارى بك إلى المحاكمة ليدافع عنهم لا كما يترافع المحامون الآخرون بل تطرف فى إبداء اعجابه بهؤلاء الشبان الذين رآهم أمل المستقبل ، وعدة الحاضر ، ونجحت مؤامرات السراى فأسقطت حكومة الأغلبية ، وتولى حزب الأحرار الدستوريين الوزارة واختير محمد كامل البندارى بك وزيرا للصحة فتصور بعض الناس أنه سينفض يده من هؤلاء الشبان الذين ورطته حماستهم له فى تصريحات استوقفت المسئولين ، وأثارت غير قليل من الدهشة .

إلاّ أن محمد كامل البندارى «باشا» - إذ منح رتبة الباشوية بمناسبة اختياره للوزارة - استمر يدافع عن شباب مصر الفتاة المحبوسين على ذمة قضية لا تزال معروضة على القضاء وتهمتهم فيها أشد ما تكون خطرا لأنها تهمة الاعتداء على شخص رئيس الحكومة القائمة آنذاك .. بل إنه صرح للصحفيين بأغرب ما سمع آنذاك : إذ قال : «إنه لا ينام كلما تذكر أن الشباب الذي جاءوا به وبزملائه إلى الوزارة محبوسون ، وهو فى الوزارة ، وأن يستغرب أن يكون لعمل الواحد وصفان . فهو جريمة حين ينسب إلى الشباب ، وهو عمل صالح حين ينسب إلى الحكم والى السلطة فيما يقوم به الشيوخ» .

وانزعجت دوائر السياسة من هذا التصريح غير المسبوق ، وتلقفته صحف المعارضة وقالت : إن وزير الصحة الذى عاش حياته يعمل فى المحاكم ويمارس المحاماة ، يدافع عن القانون ينسى هذا كله ويشيد بمتهمين فى يدى القضاة ناسيا أن ذلك مما يؤثر على القضاء - وعلى الأخص على النيابة التي تحقق الدعوى ، والتى هى جزء من السلطة التنفيذية وليس لرجالها حصانة القضاة .

ولم يحفل كامل البندارى بكل هذه الاحتجاجات ، ثم افرج عن زعماء مصر الفتاة ، فذهبوا فور الأفراج عنهم إلى كامل البندارى باشا وزير الصحة فى مكتبه الرسمى فاستقبلهم مرحبا مهنئا وخطب فيهم بنفس المعانى التى قالها ورددها وهم فى الحبس الاحتياطى .

بهذا الموقف اتضحت شخصية محمد كامل البندارى فعرف أنه سياسى غير تقليدى ، وأنه لا يتوقف كثيرا أمام المواصفات التى اتفق عليها مجتمع السياسة فى بلاده . ثم زادت صورته وضوحا ، وشخصيته بروزا حينما تسربت إلى الناس ولاسيما إلى دوائر المعارضة أن البندارى باشا يضايق رئيس الوزراء وهو رئيس حزب البنداري دولة محمد محمود باشا ، وأن رئيس الوزراء يشكو منه فى كل مكان ، وعند كل صديق ، وعند «السراى» بخاصة .

وتعلو شكوى رئيس الوزارة فى تهمة واحدة كبيرة نسبت الى البندارى باشا، هو أنه «عين» لعلى باشا ماهر رئيس الديوان الملكى الذى يسعى لإسقاط محمد باشا محمود، ليقفز إلى الوزارة وأن العمل على هذا الوجه لا يستقيم فى الوزارة، ولذلك يجب إبعاد كامل البندارى من منصبه.

وشغلت دوائر السياسة بهذه الشخصية الجديدة فى المسرح السياسى، وحدث ما يشبه الدوى حينما خرج محمد كامل البندازى باشا من الوزارة مبتهجا كأنه لم يفقد أكبر منصب فى بلاده فى تلك الأيام، وزادت الضجة حينما علم ان الملك فاروق قد وقع اختياره على هذا الوزير الذى ساءت علاقته بحزبه وبرئيسه الذى ارتقى به إلى الوزارة والذى أصبح صديقا لدولة على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى، ليكون وكيلا للديوان الملكى.

وأصبح محمد كامل البندارى رجلا من رجال البلاط الملكى، وإذا به يؤكد انه سياسى من نسيج غريب، فقد سافر رئيس الديوان الملكى الى لندن ليرأس وفد مصر سنة ١٩٢٩ إلى مؤتمر فلسطين الذى عقد ليناقش هذه المشكلة ضمن الوفود العربية الأخرى مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وانفرد كامل البندارى باشا وكيل الديوان الملكى فأتى اشياء غريبة الى اقصى الغاية، فقد رأى الناس الملك يركب سيارته الملكية الحمراء الضخمة ويؤدى صلاة الجمعة فى مساجد قائمة فى أفقر الأحياء حتى ان قائد السيارة الملكية كان يجد صعوبة فى الالتفاف فى هذه الأزقة حتى يصل إلى المسجد الفقير المتواضع فى الحى الفقير المتواضع، ويخرج الملك فيقف على عتبة المسجد ليحيى أهل الحى الفقراء بأسمالهم البالية، وفقرهم الواضح، يصفقون له، ويهتفون باسمه ويرد لهم التحية باسما متواضعا.

وأمسك انصار الملكية التقليدية قلوبهم بأيديهم وتساءلوا: ايكون من وراء وجود البندارى الى جانب الملك سياسة جديدة، يتساوى فى ظلها الفقراء مع الاغنياء.

على أن كامل البندارى كان يمضى فى اشياء أكثر خطورة فقد جاء عيد الهجرة، ورئيس الديوان الملكى غائب، فأعد البندارى خطبة للملك ليلقيها فى هذه المناسبة عن طريق الاذاعة اللاسلكية، وألقى الملك خطبته بأداء جيد، خال من اللحن، وقال فيها شيئين خطيرين مذهلين، اولهما ان الملك قال: إنه يسره أن يستعين بالشباب الذى يجب أن يفسح له الطريق وتتاح له الفرص. والثانى أنه ورث عن ابيه الاستقلال فى الرأى والاعتماد على النفس، فلا يتأثر بمن حوله.

وعاد على ماهر من رحلته إلى لندن، وقد ادرك أن علاقته بالملك فسدت وأنه بعد أن كان المستشار الاثير لدى الملك، وصاحب المشورة التى لا ترد، أقصاه البندارى باشا عن مكانه، وحل محله، فى غيابه، فاستشاط على ماهر غيظا، وأعلن انه لن يبقى فى مكانه الا اذا أبعد البندارى صديق الامس لا من «السراى» بل من مصر كلها. وفقد الملك استقلاله فى الرأى الذى كان يتحدث عنه فى خطبته اللاسلكية، وخضع لتهديد مستشاره القديم، وتخلى عن مستشاره الجديد، محمد كامل البندارى باشا وكيل الديوان الملكى الذى أبعد عن «السراى» وعين سفيرا لمصر فى بروكسل.

على أن محمد كامل البندارى باشا امتاز فى هذه الفترة قبل هذا النفى، ذلك أنه كان يشير علنا وعن مركزه الرسمى، وفى الدوائر الرسمية بشئ لا يقل خطرا عن كل ما قاله ويقوله. ذلك هو العودة الى «الاسلام» فى السياسة والحكم والتربية والتعليم، فى السلم والحرب، وان دستور الاسلام هو الحل لكل مشكلات مصر، ومشكلات المسلمين ومشكلات العالم كله.

ويحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف «التربية تلك الأيام» في ص ١٥٦ من الجزء من مذكراته المعنونة مذكرات في السياسة المصرية عن هذه الدعاية التي كان يروجها محمد كامل البنداري باشا وكيل ديوان جلالة الملك فاروق ننقل منها السطور التالية قال:

«كنت أشهد ذات مساء رواية غنائية تقوم بها فرقة إيطالية على مسرح الأوبرا بالقاهرة، وتصادف ان كان صديقي كامل باشا البنداري وكيل الديوان الملكي ورئيسه يومئذ بالنيابة يشهد هذه الرواية، والتقينا في فترات ما بين الفصول في غرفة الاستراحة، فحدثني فيما كان يروج من بعض هذه الأفكار وبخاصة في نظرية النظام الاسلامي للحكم وقلت له يومئذ: لكن الدستور المصري يختلف في اسسه عن هذا النظام الذي تحدثني عنه، واجاب: كلا، فالدستور المصري يؤيد النظام الاسلامي في الحكم ويؤكده... قلت: كيف يصح هذا ومن أسس الدستور المصرية حرية الاعتقادات يجيز للمسيحي أن يرتد عن مسيحيته في الاسلام من الاديان أو المذاهب المختلفة في أمر العقيدة، كما يجيز للمسلم أن يرتد عن اسلامه الى المسيحية أو غير المسيحية من الأديان أو المذاهب المختلفة في أمر العقيدة، بينما يقضي الاسلام بعقاب المرتد عنه بالإعدام؟... الخ.

ثم قال الدكتور هيكل: فأجابني البنداري باشا: كل هذه تفاصيل يمكن التوفيق بينها وبين النظام الاسلامي وليس في تعارضها معه ما يجعل هذا التوفيق مستحيلا.

وأشهد أنا أن البنداري باشا قرأ لي مقدمة لكتاب صدر في تلك الفترة بعنوان «صور إسلامية» فاتصل بي تليفونيا يطريني ويثني على باعتباري الشاب الوحيد المشتغل بالسياسة العلمية، ويفهم الاسلام فهما صحيحا، يقارب بينه وبين ما يجري في حياتنا المعاصرة.

وسافر البنداری باشا إلى بلجيكا، وعاد لا يتحدث عن الاسلام ولا يدعو إليه، كما كان يفعل من قبل، بل لعله انقطع عن ذكره تماما واصبح شديد الاعجاب بالنازية وبأنها رد الفعل المناسب والطبيعى لهمجية الاستعمار الغربى، وانه كان يرى الضباط النازيين يسيرون فى الطريق وهم الغزاة الفاتحون، لا يرفعون رءوسهم لا يتعالون، واذا اصطدم بهم انسان فى الطريق عفوا، احمرت وجوههم خجلا، واعتذروا من ذلك الاصطدام، ولو كان الخطأ من غيرهم. وان العالم سيبرأ من حكم بريطانيا وفرنسا، واستعمارهما، بفضل النازية، وان عالما جديدا سوف ينشأ.

وغبت عن محمد كامل البنداری باشا فترة، ثم دعانى لمقابلته فى فندق شبرد، وما كدت أجلس حتى سألنى عن رأيى فى الشيوعية، وقبل ان اجيب، تدفق فى بيان طويل يعرض نظرية الشيوعية، ويفصل فيها، ويدفع عنها كل عيب، وانا صامت.

ولكنى أشهد أنه بقى على ايمانه بها، وانه أصبح مرجعا عربيا فى النظرية الاشتراكية وتطبيقاتها، وقد بقى يدرسها للشباب حتى كبرت سنه، وتجاوز التسعين، فقد ألف شباب نادى الجزيرة، وفى مقدمتهم العاملون بالحقل الدبلوماسى، وواضعو رسالات الماجستير والدكتوراه، أن يلتمسوا عنده العلم بهذه النظرية وهو لا يضن عليهم بشئ.

وبقى البنداری باشا إلى جانب ذلك يمارس الرياضة فى مواظبة مثيرة العجب، فى وقت كان زملاؤه ومعاصروه، فى فراش الشيخوخة يعانون الضعف والعجز وهو يقرأ، ويتكلم ويحاضر ويداعب، وكأنه شاب فى العشرين فأنت من محمد كامل البنداری وافقته أو خالفته أمام شخصية، لا ينقطع نشاطها الذهنى، وبذلها الفكرى، وتزودها بالمعرفة.

ذكريات عن شوقى

من حقى أن أتيه على زملائى ولداتى، من أبناء جيلى ، فى فترة شهر اكتوبر سنة ١٩٣٢ . ففى هذه الفترة ، تسلمت من يد احمد شوقى، أمير شعراء العرب، آنذاك ، آخر ما امتع به اهل لغته ، وبنى عشيرته من شعره الذى أطربهم ، وهز أعطافهم ، وأبهجهم ، وواساهم فى الملمات ، وارتفع بهم فى المحن والخادثات ، وملأهم زهوا ، عند جلائل المواقف والانتصارات . وكان ذلك بمناسبة إقامة مصنع إقامة شباب الجامعات والمدارس فى مصر من قروش جمعوها من مواطنيهم ، بعد دعوة وجهها إليهم الطالب أحمد حسين بكلية الحقوق، عرفت بعد ذلك بمشروع القرش ولقيت نجاحا عظيما وإقبالا واسع النطاق .

فكنت قد مضيت إلى كرمة ابن هانى، على ضفاف النيل الغربية، حيث لقيت الشاعر العظيم ، وكنت قد ترددت عليه من قبل مرارا ، وأصبح يعرف اسمى ورسمى، ثم التمست منه أن يخلد نكرى إقامة هذا المصنع الفريد فى شارع إسمه (برج الظفر) ناحية العباسية ، فلبى الدعوة ولم يتردد ، كعادته معى من قبل ان تتوثق علاقتى به ، ويزداد اطمئنانا إلى ، وفى الموعد المحدد بالضبط لتسلم القصيدة المرجوة ، أعطانى الشاعر العظيم، ورقة منزوعة من كراسة مدرسية ، طبقت مرارا، ففقدت رواءها ، وبدت ورقة مهملة ، بسطتها من يدى فألغيت فيها بضعة أبيات ، من شعر ليس فيه شىء من طلاوة شعر شوقى، ولا

● الهلال - أكتوبر ١٩٨٢ .

رنينه ، وحلاوة جرسه ، بدأت بمعنى دارج فحواه «ان الملك بالمال والرجال» وقد نسيت هذه القصيدة ، حتى ان جامعي ديوان شعر شوقى الرابع، اخطئوا فقالوا ان آخر قصيدة لشوقى هى القصيدة الرائعة التى مطلعها : «فتية الوادى عرفنا صوتكم» التى تجدها فى الصفحة السادسة عشرة من الجزء الرابع من ديوان شوقى المخصص لما اسماه جامع الديوان «مكرمات فى السياسة والتاريخ والاجتماع» وهو الديوان الذى جمع بعد وفاة شوقى بعشر سنوات .

وقد كان اول عهدى بشوقى ، فى ذات ليلة ، كنت فيها مع خالى بسينما كان مقرها المكان الذى يشغله الآن ، مسرح الريحانى ، وكانت تعرف باسم (سينما راديوم) ولم تكن من دور السينما الرائجة فرغنا من مشاهدة «الفيلم» وتهيأنا لمغادرة المكان ، فإذا بخالى يصرخ : ها هو ذا شوقى» ، ونظرت إلى حيث اتجهت إشارة يده فإذا بى أرى إنسانا قصير القامة ضئيلا يرتدى معطفا ، ويرفع اطرافه العليا اذ كان الوقت شتاء ، والبرد قارسا ، وفى ثوانٍ اختفى هذا الانسان الضئيل، وكأنه شبح سار ، وقد ذكرت هذا كله فيما بعد ، حينما عرفت عن شوقى بعض عاداته ، وكان منها ، انه لا يحب من مقاعد السينما إلاّ ما كان منها ، قريبا غاية القرب من الشاشة ، وهى أرخص المقاعد واقلها شأنا، فقد كان قصر نظره يمنعه من تبين الصور ، اذا جلس فى المقاعد الممتازة فى الصفوف الخلفية من القاعة .

وذهبت الى قصر شوقى لأول مرة لأطلب منه قصيدة لمشروع القرش وقد شاء الحظ الحسن أن اراه فى الحديقة ، يسير مطرقا بخطى قصيرة متلاحقة ، كأنه على موعد حال ، وهو لا يعدو ان يكون قد اسلم نفسه لخواطره ، وراح يمشى مستمتعا بالوحدة . وخلو المكان من

الناس ، ورأيت نفسي، وجها لوجه، في هذه الحديقة الأنيقة ، أمام هذا القصر الجميل، تبدو لنا صفحته ، ومن بعد ، تنعكس عليه شمس دافئة، وتتراقص عليها ، قوارب صغيرة . ذات شراع أبيض ، وصفها شوقي في إحدى اغانيه فاحسن وصفها - ومد لي الشاعر العظيم يدا ، فإذا هي يد طفل، صغيرة دقيقة نحيلة ، لو ضغطت عليها ، لانكسرت . ونظر إلي ، بعينيه الصغيرتين اللتين كانتا تتراقصان ، فذكرت انذاك ما كنت قرأته من انه ولد بهذه الآفة التي كانت تحول بينه وبين خفض نظره إلى أسفل . وكانت حدته وهي إحدى جواري الخديو اسماعيل ، قد حملته إلى الخديو، وهو بعد طفل في المهد، وقالت له أنه لا يملك أن ينظر الى الارض، فاخرج الخديو من جيبه لتوه بضعة دنانير ، والقى بها على السجادة ، فخطف بريقها ، عينه فنظر إلى السجادة وما فوقها : فقهقه السلطان الكبير، وقال للجارية : عالجيه بهذا الدواء، فإنه جدير بأن يتماثل للشفاء . فأجابت الجدة على الفور ، قائلة : يا افندينا هذا دواء لا يجده إلا في صيدلية سموك :

وقفت امام الشاعر ، في حديقة قصره. وقد اشتد علي ، ضغط الهدوء المطلق ، والصمت الشامل ، وخيل الي اني اسمع وجيب قلبي ، وقد كنت في اضطرابي، فرحا أن كتب لي ان اجتمع بهذا الشاعر الذي ملأ الدنيا ، وشغل الناس وحدنا ، وإلا يكون بيني وبينه حائل من شخص أو شيء .

وتمالكت جاشي وقدمت نفسي لرب الدار وقد غصصت بريقي . ولا أذكر ما إذا كان قد رحب بي أم سكت ، ولكني أذكر اني اندفعت اتحدث في شيء من العصبية عن غايتي من الزيارة ، فمضى امامي في

خطى بطيئة وأنا اتبعه وأتكلم ، ثم ادار لى نصف وجهه، فثابت نفسى إلى السكينة فقد احسست انه اطمأن إلى ، وسره الشأن الذى حفزنى للمجيء إليه . واستوضحنى عن المشروع، وشملت وجهه الصغير ، ابتسامة لا تعرف لها موضعا من قسمات الوجه ولكنك تحسها . ووعدنى بأنه سينظم لنا قصيدة، فحييته مودعا وشاكرا ، ومد إلىّ يده الصغيرة النحيلة ، فبدأ إلى انها أكثر حرارة وانصرفت ، وأنا أكاد اقفز من السرور والبهجة .

ومضت أيام ، وذهبت إلى الموعد ، وقبل يومها لى إنه خرج من داره، وأنه ذهب إلى مكتبه ، ووصفوا موضع هذا المكتب، وكان قريبا من شارع زكريا احمد وادخلت المكتب، ورأيت الشاعر جالسا على مقعد ذى مسندين ، ومن حوله شبان عديدون أنكر منهم الدكتور سعيد عبده الطبيب الأديب الزجال القصاص، وكامل الشناوى ، وربما يوسف حلمى ايضا المحامى الذى اشتغل بالسياسة ، واختير امينا عاما لحركة السلام العالمى فى مصر .

ثم ذهبت إليه للمرة الثالثة فى كرمة ابن هانىء ، وكان فى مكتبه فى الدار، ولكنه خرج إلي الحديقة ، وكانت سيارته تنتظره على الباب، وخيل إلى انه لن يتحدث إلى بحجة أنه لا وقت لديه للحديث ، ولكن ادهشنى انه سار الى جانبى فى الحديقة ، بخطى بطيئة وودودة ، وأعنى بالخطى الودودة ، هى تلك الخطى التى توحى اليك ان صاحبها . يقول عن طريقها لك : لا تطل على . دعنى أمضى، للذى ما يشغلنى غيرك. وانت تؤخرنى ، سار شوقى ، متمهلا ، وسرت معه حينا وخلته حينا، فى مماشى الحديقة ، وانا سعيد بانه لا يتجه الى الباب حيث

ياخذ سيارته .. ولم أكن قد اكتشفت ان ملابسه غير قليلة الأهمية قد وقعت ، هى أن مجلة «المصور» ، كانت قد اصدرت عددا خاصا عن مشروع القرش، اشرفت انا على جمع مادته، وإصداره، وكان قد ضم آراء لعلية القوم حقا فى المشروع ، وكانت ضمن مواده قصيدتان احداهما لخليل مطران والثانية لعباس العقاد. وكانت القصيدة الثانية هى مدار كلام شوقى معى، فقد قال كلاما لم افهم المقصود منه اذ قنع بقوله : «يجب أن تميزوا وانتم تختارون الذين «يكتبون لكم ، وينصحونكم، ويشرفون على مشروعكم .. ابتعدوا عن الاراذل» :

ولم افطن من يعنى بلفظ الاراذل ، ولكنى اصغيت الى نصيحته ، بكل اهتمام فراقه ذلك منى ، واقبل على ، وأطال سيره فى الحديقة ، وأنا بصحبته ، استمتع بهذا القرب، ولا اقاطعه بشىء ثم توقف فجأة ، وفى يده مبسم سيجارته الذى لا يفارقه يعبث به ، ويدسه فى جيب معطفه ، ويدنيه من شفتيه ثم يبعده ، ثم قال لى بلا تمهيد ، وقد احسست أن الشاعر قرر أن يسقط ما بينه وبينى من حجاب الكلفة : «هل تعرف اننى احسن من حافظ ومن مطران ؟!» ..

وهزنى ان أسمع هذا من الشاعر الخجول، الذى لا يطيق صحبة الناس، ويضيق بهم ، وأحيانا يفر منهم ، فقد رأى أنه يستطيع أن يجعلنى موضعا لسر من اسراره ، أو لهم من هموم عظمته . ولكنى لم اقاطعه فقال :

«حافظ شاعر .. ولكن تنقصه المعانى . ويسىء إليه كثيرا أنه محدث عظيم . يخرج من بيته فيرتاد المجالس ، فيخلب لب السامعين بطرائفه وخفة ظله وحلاوة حديثه .. ينتقل من مجلس إلى مجلس ، وفى جميع

الأحوال هو المتحدث ، والناس يسمعون . لا يسمح لاحد غيره ان يتكلم فبدل ان يأخذ من كل زهرة رحيقها ، يعطى للناس أجمل ماعنده فاذا عاد إلى بيته، افرغ كل مافى جعبته ، وشعر بالحاجة إلى الراحة ، وسعى للنوم ..

«أما أنا فلا أحب الكلام وأهرب من الناس، وثقلاؤهم كثيرون ، ويطاردوننى ولا أجد منقذا لى الا الشعر ..

«أما مطران فمتعلم ، على عكس حافظ ، ويقرأ كثيرا ، خصوصا فى الأدب الاوروبى ، والشعر الاوربى ، ولذلك عنده معان، ولكن هذه المعانى فى حاجة إلى لفظ جميل مثلها ، ولكنه يشتغل فى الثقافة الزراعية، فيقضى سحابة نهاره ، فى شئون لا تمت إلى الادب ولا تجلو صدأ النفس ، فتأتى الفاظه خالية من الحرارة والجمال .

«لو وضعت حافظا على مطران ، لخلقت منهما شاعرا .. وسكت ثم قال : «أنا هذا الشاعر ..» .

وتركنى وأسرع نحو السيارة ، وأنا ماخوذ اللب بهذا الكلام الصريح البسيط المباشر، وأنا لا أكاد أصدق . قبل ان يدخل إلى السيارة ، وقف عند بابها وقد استدار نحوي وهو يقول : متى تعود ؟!.

فلوح بيده وهو يقفل باب سيارته : يومين أو ثلاثة ..

تحرك الشاعر ، بعد أن قرأ كلام الادباء والشعراء ، مى ، والمازنى ، والعقاد ومطران، ورامى ، ووعد بأن يكتب قصيدة . سأخذ هذه القصيدة ، وسأذهب بها إلى جريدة «البلاغ» التى كان يصدرها المرحوم عبدالقادر حمزة باشا ، وترددت على دار الشاعر ورأيته فى مكتبه ورحب بى حينا ، وبدا عليه الذهول ، والانصراف عنى حينا ، وان كان

يتدارك اثر سوء استقباله ، فيعود مجاملا . وعلمت اخر الامر ان القصيدة اوصلها شوقى بنفسه إلى صديقه صاحب البلاغ وهى على صدره، واسفت ان القصيدة افلتت من يدى ، وذهبت الى الجريدة على طول ترددى على الشاعر ..

وراعتنى القصيدة ، فقد كانت مطلعا ومتنا ، اثرا عظيما من اثار الشاعر العظيم .

وقد ابهجنا ، واسعدنا مطلع القصيدة .

لا يقيمن على الضيم الاسد

نزع الشبل من الغاب الوتد

كبر الشبل وشبت نابه

وتغطى منكباه باللبد

اتركوه يمشى فى اجامه

ودعوه عن حمى الغاب يلد

واعرضوا الدنيا على اظفاره

وابعثوه فى صحاريها يصد

واذكر اننا زكى مبارك وأنا ـ عرضنا لهذه القصيدة ، وكنت احفظ هذا المطلع ، فرويته للدكتور زكى، فترنح وقطار (المترو) يحملنا على متنه إلى القاهرة ، فاستعاد هذه الابيات مرة ومرتين وثلاثا . وهو ثمل بخمر الفاظها ، ولكنى لم ألبث حتى استوقفنى المصراع الثانى من البيت ، فصدمنى التشبيه فيه ، فشوقى هبط بالأسد الى مرتبة الحمار حينما قال : إن الشبل نزع من الغاب الوتد . ولا يشد الى الوتد الا حمار او

ما يشبهه من الحيوانات ، ولكن بقيت القصيدة آية من آيات نبوغ شوقى، وعظم شأوه ، ولعله قد بلغ الغاية حينما تحدث عن الشبل ، فطلب من الجيل القديم ان يتركوا الشبل يمشى فى الجام ، وان يجرب قوته فى حماية الغاب والذود عنها ، ثم ان يعرضوا الدنيا على اظفار هذا الشبل يعنى يفسحوا فرصة النزول الى ميدان المعارك ، وأن يذهب فى اعطاف الصحراء واطرافها ، يبحث عن الصيد . لم يكن هذا شعرا جميلا فحسب . وانما كان أيضا دعوة الى التجديد ، ودعما للجيل الجديد .

ووجه الخطر فى هذه الابيات ، انها كانت من آخر ما نظمه شوقى ، والمألوف فى الكتاب والمفكرين والشعراء ، إنهم حينما يتقدم بهم العمر ، يؤثرون القديم ويميلون الى المحافظة ، وشوقي وهو على عتبة الدار الاخرى، يتحدث عن المستقبل بروح التفاؤل ويعلن ثقته بالشباب ويقول فيما قال :

سيرى الناس عجيبا فى غد

يغرس القرش ويبنى ويلد

ايها الجيل الذى نرجو لغد

غدك العز وينيال الرغد

وقد قلت ان المرحوم سعيد العريان جامع الديوان ظن ان هذه هى آخر قصائد شوقى ، فى حين أن القصيدة التى تسلمتها منه وسلمتها لجريدة الاهرام ، كانت خاتمة المطاف، وكنت انا اخر من تلقى ابيات الهام الشاعر .

غير اننى بقيت على صلة به ، فقد دعوت إلى فكرة «مؤتمر الطلبة الشرقيين» وكانت الغاية من هذه الدعوة ، العمل على تأييد ودعم الرابطة بين شباب الشرق على مدى اتساعه ، وترامى آفاقه ، بحيث يجمع الشباب المنتمى إلى هذا العالم الفسيح حتى اليابان والصين على المحيط الهادى حتى المغرب على المحيط الاطلسى وعلى الرغم من ضخامة الفكرة ، وصعوبة أو استحالة تنفيذها ، الا ان طموح الشباب، وخياله، قرب البعيد، وذلل الصعب ، او اوهم بذلك . وقد تحمس لهذه الفكرة من بين اساتذتى فى كلية الحقوق، المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهوري، فكان يمنحها من وقته وجهده ، ما زادنى تعلقا بالفكرة وحبا له ، واعجابا بمثاليته . ولقد رأينا ان نصدر لهذه الفكرة أعدادا من المجلات الرائجة فى مصر ، فاخرجت عددين أولهما كان من مجلة السياسة الاسبوعية اكبر المجلات الادبية انذاك وأعظمها رواجا، والثانية من مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال ، وقد نجحت فى حشد عدد من أكبر أقلام العربية فى مصر والمشرق العربى والمغرب العربى ، وترددت من اجل الحصول على قصيدة من شوقى ، لهذه الفكرة ، وكثر ترددى ، وجلوسى معه منفردين حينا . ومع آخرين من محبيه ومريديه ، أحيانا . وكنت ادخل احيانا الى مكتبه فى كرمة ابن هانىء . فلا اجده فيها وإنما أرى مجلدات ، معظمها من التراث العربى مثل الاغانى والامالى، والمعارف ودواوين كبار الشعراء كالمتنبى وابى تمام أراها رصت بعضها فوق بعض، وأراها مقلوبة عند الصفحات التى وصل إليها الشاعر فى قراء ته . ثم اجدها كثيرا ملقى بها على

الارض ، هنا وهناك ، بغير ترتيب ولا احتفال . وكنت المح بينها أجزاء القواميس الكبرى كتاج العروس ، والمحيط، والمصباح المنير. ولم ار فى كل هذا ولو لمرة واحدة كتابا بالفرنسية التى تعلمها الشاعر فى مستهل عمره بمصر ، ثم اتقنها حينما ارسله الخديو توفيق ليدرس القانون ، فتركه ودرس الآداب .

وقد عرضت مناسبة حملت الشاعر على ان يتحدث اليَّ عن محمد عبدالوهاب المطرب الشهير، والذى كان اقرب الناس إلى شوقى، واحبهم إليه . وكان يصحبه إلى دور الصحف حيث يقابل رؤساء التحرير وكبار الادباء ، فقد عرضت على امير الشعراء ، ان يقنع محمد عبدالوهاب بأن يؤدى فى حفلة نقيمها (لمشروع مؤتمر الطلبة الشرقيين) ، ونزود من دخلها ، خزانة المشروع الخاوية . وقد حدثت شوقى فى هذا الشأن ، فى مكتبه ، وكنت واقفا وكان هو كالمضطجع على أريكة من ارائك الحجرة ، فاعتدل فى جلسته وصاح باعلى صوته الضعيف : (يامحمد) وجاء عبدالوهاب ، ووقف بين يدى الامير فى ادب . ورد عليه فى صوت خفيض ثم انصرف ، فاتجه الى شاكيا ، ان عبدالوهاب يغنى فى سرادقات تقام لحفلاته فى الليل وفى الشتاء فيدخل الهواء البارد من خلالها ، وصحة عبدالوهاب لا تتحمل هذا العناء ولا ذاك البرد، وقد احسست عندها ، مدى حب الشاعر، لمن يغنى له قصائده وازجاله فيشدو شدو البلبل حقا ، فيستخف بصوته آلاف المستمعين .

وقد سمعت المطرب يروى بعض ذكرياته مع شوقى ، فقال إنه علم من خادم الشاعر، وكان سودانيا يدعى احمد ان سيده عاد من الخارج

كعادته متأخرا فـى الليل وطلب من تابعه ان يحضر إبريق الماء والطشت ليغسل وجهه ورأسه قبل أن ينام ، وبينما يحضر احمد هذه الأدوات ، يحضر الموت ، ويشتد الم الشاعر فى صدره ، فيأمر خادمه ان يدع ما بيده ويدعو ابنه ليعطيه حقنة ، تصرف عنه الم الصدر، ثم يدرك الشاعر أنها الخاتمة فيقول لخادمه :

«لاتدع احدا .. إنها النهاية . سلم لى على محمد» ثم اغمض عينيه وترك دنيانا . ليبقى شعره مقروءا وذائعا يتغنى به الشباب. ويتغذى به الرجال والشيوخ ، ويجدد من شباب لغة العرب، ويزيدها على الايام جمالا وبهاء .

المثال مختار شاعرا

لقد اعتدت أن أقف ـ كلما أتيح لى الوقوف ـ أمام تماثيل مختار ، ثم أترك نفسى ، تتأثر ، وتنطق مع تأثراتها ، فى عالم فسيح لا ينتهى عند حد ، أنسى فيه دنيانا المحدودة ، التى يعكر صفوها ضجيج لايطاق، ودناءات لاتحتمل ، وأناس صغار ، يخاصمون الفن، ولايدعون أحدا ، ليستلهمه أو يستمع إلى همسه الذى يحرك القلوب ..

كنت أفعل ذلك دائما وأنا مدرك أن ما يصنعه مختار فى الصخر ، وفى البرونز أو الرخام ، هو شعر مجسد ، وأن الوزن فيه والقافية ، هما هذه البراعة التى تحيل الجماد إلى جسم حى ، تنطق كل قسمة من قسماته ، سواء كانت هذه القسمات فى وجه أو فى صدر أو فى ذراع ، وبقيت هذه حاله مع تماثيله الصغيرة ، الرقيقة ، الى أن قرأت بعض ما كتبه فإذا به شاعرا حقا ، ينطق الكلمات كما ينطق الصخر ، فهو لايكرر المعانى المألوفة ، وإنما يخرج من اجتماعها وتفرقها صورا وألوانا ، وأشكالا تنافس تماثيله ، وإن كانت تشبهها فى هذا الفيض الدافق من الإحساسات وهذه اللوحات التى يملأ بها القلوب ، وهذه اللوحات الزاهية والباكية التى يمتع بها العيون والأبصار .

وقد رأيت أن أعرض عليه نماذج مما كتب فى أكثر من مجال ، لتتذوق هذه التماثيل التى صاغتها أنامله عندما تحمل كلمة.

● الهلال - فبراير ١٩٨٥ .

أرسل إلى صديقته «مارسل» خطابا جاء فيه :

«لقد نضب الشعر اليوم من نفسى ، فبعد جولة فى جبال الجرانيت، وبعد ساعات طوال من الارهاق والعمل استلقى مجهدا وغدا لن يكون لى من النوم لحظة ، يوم ثقيل بعد وحده .

ولقد كان من الحكمة ألا أكتب إليك اليوم ، ولكنك ياعزيزى مصدر الأفكار التى تستمد قيمتها من وحيك وإلهامك وإنه يطيب لى أن أتصور أسماء نا وقد انبعثت بغتة من أوراق خطاب قد يعثر عليه ، وقد يتساءلون عن تلك المرأة التى لقيت كل هذا الحب وعندئذ سيصمون أطيافنا بالكثير من الحماقات والسخف ، فإذا كنا نسىء الحكم على الأحياء فماذا يكون الحكم علي الغائبين أنا أكتب إليك وأنا مستلق على الرمال التى لاتزال تحتفظ بسخونة يوم محرق ، وفى الجوريج قبلات ، والرغبات اليائسة تتبدد فى الأحزان وعاودتنى الأوهام ، رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفى مهام الزمان حيث كنت أتمدد بدت لى معالم تكوينك تتشكل .

«إننى أرى النيل أمامى ، وفى الضفة الأخرى ، كشك أثرى قديم يغمره الليل والصمت» .

وحين أفتقد وجودك إلى جانبى تنصتين إلى وأحيانا تبتسمين فإننى إلى هناك أتجه ، ولكن طالما كان على مقربة منا شخص يحتاج لنا ألا تكون الحياة جميلة .

وهل لنا أن نشكو من يكون هذا الشخص محبوبا نستمد من وجوده ومن غيابه ، عواطف وأحاسيس غير محدودة .

وإذا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوى على نفسها وتصبح إحساسا داخليا ، أليس فى هذا أيضا شعور بالراحة ،

وكتب أيضا بعنوان «ترنيمة حزينة» خطابا لنفسه لا لصديقته لأن حبه من جانب واحد ، وهو بهذا الحب سعيد .

كتب لها أولا خطابا ، فوجدته مرا فحرقته ، بأى حق أشكو منها ! أنى أحببتها بهذا الحب الذى لايعبر عنه بالكلام بل نحت فى الحجر الصوان الأصم .

نعم كنت أحبها هذا الحب المقدس ، وأبحث فى عينيها عن هذا السر الذى يجذبنى دائما إليها ، لا كما يبحث الإنسان بين الأعشاب عن خاتم وقع من أصبعه ، بل كما يبحث المرء عن سعادة صنعتها له الحياة لكل هدوء فى أسرار الأشياء ، كنت أحبها وأفاخر بهذا الحب السامى الذى وضعت تحت تصرفه جميع مواهبى لأقذف بها فى أمواج الحياة المتلاطمة ، لأجعلها حى خالد .

وكان هذا وأكثر من هذا مما لايكتب ولا يقال ولكن يظهر لى أنها لم تقدر هذه العواطف الرهيبة وكأنما خشيت أن تنظر إلى بعمق هذا الحب المخيف ، الذى لم تتعوده بعد ، فأوقفته بيد من الثلج .

أنظر كيف تعامل هذا الحب فقد بقيت كل هذه المدة بدون أن أراها ، أو تصلنى أخبارها ، كأن الحياة قد انقطعت أسبابها ونحن نعيش فى مدينة واحدة ، كأنه وضع بينى وبينها سداً من حديد ، فأصبحنا لايعرف أحدنا الآخر .

أنظر كيف تسرف فى عدم الاكتراث ، وهى تعلم أن عدم الاكتراث ماهو إلا سم الحب الزعاف .

أنظر إليها بعد أن سقته كأس الموت ، كيف تنظر إليه يحتضر ولاينفطر قلبها ، وتنوب روحها إجلالا لهذا المنظر الرهيب» .

أنظر كيف تبتسم أمام هذه الدماء المقدسة ، وهى تعلم أن للحب الها حسابه عسير ، فسوف يأتى يوم تثوب إلى رشدها ، وعندها تلبس الحداد إلى آخر يوم من حياتها البائسة .

ولكن لماذا أقول لها كل هذا ؟

إنها سعيدة بدون هذا الحب ، وهل أنا أردت شيئا آخر غير سعادتها بأى حق أريد أن أشركها فى مستقبلى الملىء آلاما وغيوما .

بأي حق أريد أن أقذف زوابع حياتي وعواصفها فى حياتها الهادئة الساكنة .

لا : فلتكن هى سعيدة ولتسامحنى إذا عكرت عليها صفوها لحظة واحدة ولتكن إرادتها .

أما أنا فسأخضع لعزة نفسي ، وأعود إلى وحدتى الساكنة التى أجد فيها دائما الدواء الشافى ، لآلامى والبلسم الذى يضمد جروحى ، وسأنظر من هذه الوحدة إلى تذكار هذا الحب كما ينظر الإنسان إلى كسوف الشمس من خلال قطعة زجاج عليها سحابة من الدخان إلى أن تغيب .

ولكنى سأبقى كالانسان الذى لاترى منه العيون العادية أثرا من بعيد ، حتى إذا زلت قدماها أقدم لها يد الشفقة لانتزعها من الهاوية .

هذان الأثران الذى خلفهما محمود مختار ، والذى وجدتهما فى كتاب الكاتب العظيم بدر الدين أبو غازى وزير الثقافة والناقد الفنى الفذ، عن مختار وهما يكشفان عن أغوار هذه النفس الشاعرة ، ومدى تلاطم مشاعره وعمق أحزانه ـ وأسلوبه الخاص به ، لا بالاحساس بالحب وتأثره به ، وتصغيره عنه ، بل بغرابة الدنيا التى عاش فيها

والتى الهمته هذه القطع التى نحتها فى الجرانيت ، والتى ألانها بسحر أنامله ، فنطقت بألطف عبارة فاضت بالحزن والحرارة ، والحب والمرارة.

أنظر إلى قوله مثلا : فى الجورريج قبلات ، والرغبات البائسة تتبخر فى الأحزان ، وإلى قوله : رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفى سماء الرمال حيث كنت أعتبرها معالم تكوينك تتشكل وأخيرا هو يغرى بنفسه ، بكلمات تمتلىء بالحزن والأسى والانكسار فيقول :

وإذا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوى على نفسها ، وتصبح إحساسا داخليا ، أليس فى هذا أيضا شعور بالراحة؟

والحق أن الشعور الذى يصفه هنا ، ليس شعورا بالراحة ، لأنه الانطواء والعزلة والاحساس الممض بالوحدة ، ولكنه شعور محب ، لايجد من حبيبته متبادلا فى العاطفة .

وفى الترنيمة الحزينة ، عتاب يفيض بدم الحب المسفوك ، فالشاعر قد هجرته معشوقته ، فانظر كيف يصف موت الحب ، الذى جرعته يد المحبوبة سما زعافا، وكأنها لاتفعل شيئا ، لأنه هجرته فحسب ، وهى تحسب أن هذا الذى سفكت به دم هذا المخلوق الرقيق الحساس الذى نسميه ، أمر لا خطأ فيه ، ولاعتاب عليه وكالعادة يعزى نفسه بأنه ليس من حقها أن يعصف بهدوء نفسها أو يقذف فى دنياها الساكنة بأعاصير حياته وبعد هذا نرى أن الفنان الكبير المحلق والمتسامى فى دنيا الابداع ، والشاعر الذى يحس أضعاف مايحس الناس العاديون ، حينما تشتد به لوعة الحب ، وتحرقه نيران الهجر ليس إلا إنسانا عاديا، إلا أن قدرته الخارقة علي التصوير من جهة وعلي التعبير من جهة أخرى تبديه فى صورة إنسان غريب ، وهو فى الواقع واحد من الناس يضاعف بتفوقه ودقة إحساسه ، آلامه .

على أن شاعرية مختار ظهرت فى أجل صورها فى لوحة قلمية وصف بها طقوس استقبال الطالب الجديد أى طالب جديد فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس ، وهي طقوس تصل فى القسوة الى أقصى الغاية وقد نال منها نصيبا لايحتمل ، ولكنه يخلد له ، ولما وصفه ، وصفه بهدوء وكأنه نسى مافيه من مرارة جاوزت الحدود قال :

«لما وصلت إلى مدرسة الفنون الجميلة ـ نبهنى أستاذى إلى هذه اذ وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتي اختنق ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف السين حتي ساقه الشرطى إلى القسم ، أما اذا غضب الجديد فالويل له ، وقد يؤدى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا .

ولقد كان نصيبى كجديد أن يحكم علي بالتجرد من جميع ثيابى ، وأبقى عاريا تماما ، ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة .

فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل ، فشدوا وثاقى الي كرسى ، وأنا عارٍ كما ولدتنى أمى ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعون ، وكتبوا عليه «رمسيس الثانى» وحملونى على نقالة رفعوها علي أكتافهم ، وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمنا من يفسح لنا ، وسرنا كذلك من المدرسة إلى عرض الطريق حتى كنيسة «سان جرمان ذى بريه» فى آخر شارع بونابرت ـ وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا إلى قوة بونابرت ، والناس من حولنا ينظرون ويبتسمون وهم جميعا يعرفون عادات مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدها .

وهناك وضعونى كما أنا علي خوان فى المقهى وطلبوا طعاما وشرابا وجعلوا يرمونى بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يقدمون إلى على طريقتهم الزلفي والقرابين» .

وبمناسبة الحديث عن خطابات مختار العاطفية ، نذكر أن القريبين من مختار من الأصدقاء والأقارب ، يعرفون مدى ارتباط المثال العظيم بالمطربة ذائعة الصيت أم كلثوم الآتية من ريف مصر ، وقد يمكن القول أنها كانت عنده بمثابة الفلاحة التي جسدها في تمثاله الرائع «نهضة مصر» والتي رمز بها إلى مصر الحديثة توقظ مصر القديمة ممثلة بدورها في «أبي الهول» وكان قول مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية المصرية «أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة» وقد ألهم المثال بفكرة التمثال ، ولاسيما أن قاعدة تمثال مصطفى كامل الذى صنع بأموال المصريين سنة ١٩٠٨ وهي السنة التي أنشئت فيها مدرسة الفنون الجميلة بناحية درب الجماميز ، وهي المدرسة التي تعلم فيها مختار .

وقد حدثني الفريق عزيز المصرى باشا ، وهو صديق حميم لمختار ، عن ارتباطه وتعلقه بأم كلثوم ، على وجه لم يكن ليخفى عن أحد من أعضاء الدائرة الضيقة التي كانت تحيط بمختار ، وقد عبر المثال عن حبه لأم كلثوم وتقديره لفنها ، بتمثالين من أجمل تماثيله أحدهما أودع في متحف الشمع «جرفيه» في باريس وهو من الشمع ، والثاني من الجبس ، ولو لم يقل لي عزيز المصرى أن مختار كان يحب أم كلثوم حبا عاصفا ، ولكنه كان حبا عفيفا مكتوما وقد يكون من جانب واحد، وإن كانت أم كلثوم شديدة الاعجاب بالمثال ، مأخوذة بشخصيته النادرة والمتحررة في مجتمع كان في ذلك الحين ، شديد المحافظة، عظيم الرياء، لو لم يقل عزيز المصرى لي شيئا عن هذا الحب ، لوشت تماثيل مختار بهذا الحب وأعلنته مختار في سطور :

محمود مختار هو أول مثالى مصر حمل الأزميل من الفنان الفرعونى القديم منذ أربعة آلاف سنة .

وهو بذلك منشىء النهضة المصرية الحديثة .

ولد فى قرية نشا بجوار المنصورة سنة ١٨٩١ .

دخل مدرسة الفنون الجميلة فى القاهرة عند إنشائها مرة لأول فى درب الجماميز سنة ١٩١٨ .

عرض أول تمثال فى صالون الفنون بباريس سنة ١٩١٣ وهو أول مثال غير أوربى يسمح له فى هذا - بتمثال عايدة .

بعد ثورة ١٩١٩ - عرض تمثال نهضة مصر فى باريس فى معرض الفنانين الفرنسيين .

اكتتب المصريون بجميع طبقاتهم فى اقامة هذا التمثال ، وقد أقيم فى ميدان المحطة في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ .

كلفته الحكومة إقامة تمثالين لسعد زغلول أحدهما فى القاهرة ، والثاني فى الاسكندرية وعندما أقيما كانا مع تمثال نهضة التماثيل المصرية الوحيدة المقامة في ميادين مصر ، وبفضله نشأت الطبقة الأولى من الفنانين التشكليين ، أمثال يوسف كامل ، وراغب عياد ، ومحمود سعيد ، ثم الجيل الجديد عبد القادر رزق وجمال السجينى ، وصلاح طاهر .

وقال بدر الدين أبو غازى ابن شقيقة المثال عن صلة خاله بأم كلثوم مانصه كان من أشد المتحمسين لها مع مجموعة من الأصدقاء ، وتمثلت حماسته وصداقته لها فى تمثال يفيض بالرقة والشجن والجمال، وفى تمثال أخر من الشمع اقامه لها ، الى جانب تمثال بافلوفا بمتحف جريفن بباريس .

أعلام معاصرون

يحيى حقى :

أمير المقالة القصصية

أريد اليوم أن أرسم صورة قلمية ليحيي حقى ، لقد كتبت عنه قبل اليوم مقالا فى مجلة الثقافة ، ضمها كتاب اسمه «افكار الكبار» ولكن اليوم أريد أن أتحدث عن يحيى حقى الأديب ، عن شخصه ، عن سماته، عن خصائص نفسه ، لأنى لا أظن أن أحدا يكتب عن هذه الجوانب التى لو وصفت بحذق وصورت بدقة ، لظفر القارىء العربى ، بشىء ممتع ، والحق أن الشخص الذى يمكن أن يقوم بهذا ، ببراعة ولطف وخفاء ودعابة وسخرية هو يحيى حقى نفسه ، ولقد صور نفسه فى آلاف من السطور التى كتبها والتى كونت كتبا ستخلد كما يمكن أن تخلد الكتب قرنا أو قرونا ، ثم تبقى بعد ذلك أثرا يحتاج إلى مكتشف ، ووشم فى ظهر يد الزمان ، لايقرؤه الا شخص منقطع لقراءة هذه الآثار الباقية :

يحيى حقى ، كل شىء يدل على أنه ، واسع الحيلة ، عميق الغور ، لاتعرف ماذا يبطن ، فهو أولا قصير ، وأباؤنا وأجدادنا علمونا أن القصير ماكر ، وأن الطويل أبله ، ولكل قاعدة استثناء واحد على الأقل ، ولكن يحيي حقى إلى جانب قصره له ابتسامة لاتفارق شفتيه لاندرى

● الهلال - فبراير ١٩٨٥ .

أهى مشروع نسى صاحبه أن يتمه فى مدة تجاوزت الثمانين ، فإنى أزعم أنه حينما ولد ، كانت هذه الابتسامة على شفتى الطفل الذى يصرخ صرخة الحياة التقليدية التى لاتبدأ الحياة إلا بها .

وبعد هذه الابتسامة التى تبحث عنها فى تقاطيع وجه يحيى فلا تدرى إذا كانت موجودة ، أم أنها إيحاء لايثبت للتحقيق والتثبيت ، وإلى جانب القصر والابتسامة الغريبة المحيرة يحيى حقى يتكلم همسا لم اسمعه يصيح قط ، ولو وهو ينادى علي بائع جرائد وهو لايكتفى بأن يكف نفسه عن الصياح بأنه يعتبر الصياح جريمه من أخطر ما نسى المشرع النص عليها فى قانون العقوبات وأحسب أنه لو ولى يحيى حقى وزارة العدل لأصدر تشريعا يحرم الضجيج الصادر عن أصوات الآدميين وأذكر أنه شكا لى أن أحد وكلاء الوزارة لايعرف كيف يتكلم إلا وكأنه يؤذن فى جماعة من الصم .

فإذا أضفت إلى كل هذه الصفات والخصائص أن يحيى حقى اشتغل مثلا بالسلك السياسى ووصل إلى وظيفة السفير ، وقد أخذ السلم من أدنى درجاته «أمين محفوظات» إلى أعلاه ، وجاءت الثورة فلم ينح عن السلك السياسى هذا السلك الحساس جدا . ولكنى أؤكد أنه إذا كان يحيى حقى ماكرا ، فمكره خير كله : فلا هو أذى أحدا ولا هو فكر فى أن يؤذى أحدا ، بل لعله عاش ينتظر الأذى من الآخرين، حتى كاد يصبح هذا التوقع وسواسا .

ولقد عرفت يحيى حقى قبل أن اسمع باسمه أديبا . ولم ألتق به، وأراه رأى العين ، وقد لابست هذه المعرفة الأولى ، ظروف كانت جديرة بأن تفسد صلتى به ، وتدعونى الى النأى عنه ، ولكنها لم تترك هذا الأثر ، فقد وقعت هذه الظروف ، وهو فى القنصلية المصرية بتركيا ،

وأنا محام لعائلة تركية مصرية ، كان عميدها رمزى طاهر باشا كبيرا لياوران الخديو عباس وغضب عليه الانجليز لميوله العدائية ضدهم ، فأقصوه من مكانه إلى جوار الخديو ، وعينوه وكيلا لوزارة الحربية المصرية . فلما بلغ المعاش عاد إلى مسقط رأس أجداده فى تركيا وأقام هناك ثم قامت بين بعض أولاده والحكومة المصرية نزاع قضائى وكلونى فيه ووفقت إلى كسبه ، وإن لم أجن منه مليما واحدا مع أنى سلخت السنوات أترافع ضد أكبر محامى فى الحكومة فى درجات التقاضى كلها ، وكان أخرهم المرحوم عبد الرحيم غنيم الذى وصل الى منصب النائب العام وهو الذى حقق فى قضية حريق القاهرة .

وطال الزمن الذى كان على أن أتعرف بعده على أديبنا الكبير ، واقتصرت فرص لقائى به ، على جلسات قصيرة سريعة. بمنزل العالم الكبير باللغة العربية وأدبها وحضارتها ومحقق آثارها الأستاذ محمود شاكر الذى جمع أخيرا بين الحسنيين جائزة مصر التقديرية وجائزة السعودية الكبري . وأن يكون يحيى حقى صديقا لمحمود شاكر ، أمرا من غرائب حياة الأدباء والمفكرين ، فمحمود شاكر شديد الغضب عنيف إذا كتب أو إذا خطب ، العيوب التى يراها فيما يقوله الناس أو مايفعلونه لايلقى منه إلا الحمم التى تفجر بها بركان سخطه .

ويحيى حقى لايغضب الا بينه وبين نفسه ، وما أسرع أن تتحول غضبته الى سخرية ، بالناس ، وبالدنيا ، وبالكبار بالصغار ، فشعاره «خليها علي الله» ليس كلاما يقال، ولا عنوانا لأحد كتبه ، يرمز الى أسلوب نظراته إلى دنياه ، بل هو خلاصة فلسفته ، فقد مضت حياة يحيى حقى دون أن يدفع الناس ، أو يزيحهم عن طريقه، ولا أظن أنه

قال لأحد عبارة «من فضلك» ليفسح له طريقا ، أو يترك له مقعدا ، فكل ماهو آت قريب ، والطريق المزدحم سينفرج ، والناس الذين يتلكئون يذهب كل منهم إلى حال سبيله ، حسبك أنه رفض أن يكتب فى جريدة رائجة، وأبى الا أن يتخذ له ركنا فى جريدة المساء حينما قل جمهورها، وفتر زيوعها ، وفى هذا الركن كتب أجمل ما كان ينشر فى جرائد اللغة العربية . فما يكتبه يحيى حقى ، هو فى واقع الأمر ضرب من الأدب ، لا أعتقد أن الجاحظ سمع به أو عرف شيئا قريبا منه ، وقد مضت قرون اللغة العربية تؤلف خلالها الكتب ، وينبغ الشعراء ، ويسطع نجم الأدباء، وليس فى كل هؤلاء واحد يستطيع أن يلعب بالألفاظ ، ويصنع منها العجائب والغرائب ، ويخلق لاخوانه فى هذه اللغة فى القديم والحديث ، كنوزا من الطرائف التى لايعرف الناس بعد أن يقرؤها أهى شىء يقرأ فحسب ، أم هى سخرية يداعب عقولهم ويدغدغ شعورهم ، ويحملهم على أن ينتظروا إلى الدنيا نظرة جديدة ، لأنه لايدع ظاهرة من ظواهر حياتنا ، ولاسيما مابدا منها لنا ، تافها قليل الشأن حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ثم يستخرج منه حقائق ومتناقضات وصورا وأفكارا ، لاتدرى كيف اهتدى إليها وكيف عرفها ولو كان لى من الشأن ما كان لحافظ ابراهيم شاعر النيل فى الثلاثينات لوقف على مسرح الأوبرا ، قبل أن يحرق طبعا ، وهتفت فى أذن الوطن العربى قاطبة ماهتف به حافظ وهو يكرم شوقى أمير الشعراء .

أمير القوافى لقد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فإنى أبايع يحيى حقى بأنه أمير المقالة القصصية وهى شيء غير المقالة ، وغير القصة ولكنها مزيج من الفنيين ، يضفى أحدهما الى الآخر ، دون التزام قواعد القصة وشروط المقالة ، ليسكر قراء العربية ، بهذا الاكتشاف الفريد .

ولد يحيي حقى فى ٧ من يناير سنة ١٩٠٥ ففى يناير ١٩٨٥ يكمل العقد الثامن من حياته المباركة المثمرة ، وسيترك لقراء أدبه ولمحبى الأدب على طول الإنسانية وعرضها ، نحو ٢٨ كتابا أولها «قنديل أم هاشم» وآخرها «كناسة الدكان» وسيعرف الناس عندما يهبط الغبار بعد عمر طويل الذى يثور حول كل كاتب فى حياته حتى ولو كان غبار الشهرة وذيوع الإسم ، فيبدو على حقيقته . وعندما يعرفون الصنيع الجميل الذى صنعه هذا العاشق المتيم باللفظ الجميل فى اللغة العربية . وهذا المصرى القح الذى لايعدل بروائح الحياة البلدية فى أحياء القاهرة العتيقة ، أكبر أحياء باريس وأجملها ، ولقد عبر بأسلوبه النفاذ والأخاذ عما يقال له من أولاد البلد الذين تخدعهم لون بشرته البيضاء والمشربة بالحمرة ، والبيريه يضعه على رأسه ، وتقاطيع دقيقة ، لاتشبه تقاطيع أغلبية الشعب المصرى فيقولون له : حاسب ياخواجة ! فيقول آه لو تعلمون .

آه لو تعلمون كم يخفى هذا المظهر الأجنبى ، من تعلقه الشديد بمصر ، والإسلام وأولاد البلد ، وكم يحبهم ، وينظر بعطف وود إلى اسلوب حياتهم وجهادهم الشريف من أجل لقمة العيش .

وإذا جاء دور الاستشهاد ببعض ماكتب يحيى حقى تأكيدا لماقلته هنا وماقلته فى مواضيع سابقة عن خاصية «يحيى» الكبرى ، وهو لعبة

الحاوى بالألفاظ ، قلت من قبل : أن سر قوة يحيى حقى ألفاظه وحين أقول ألفاظ يحيى حقى لاتظن أننى أعنى أنه يستعمل الفاظا جديدة ينحتها أو يزواج بينها أو أعنى الألفاظ ذات الرنين ولا ذات الموسيقى الداخلية أو الخارجية ، إنما أعنى الألفاظ البليغة حقا ، الفصيحة صدقا أى التى تقول لك فى موضعها من الجملة ، وفى مكانها من البيان مالا تستطيع أن تقوله كلمات أخرى ، مهما كانت جميلة الجرس ، ولطيفة الموقع ونادرة الاستعمال مع خلوها من كل مايشوب الألفاظ من عيوب كالغلظة أو الثقل علي السمع أو اللسان ، أو غموض المعنى فضلا عن أنها تقول مايزيده الكاتب بالضبط أو مايقوله وفوقه «علاوة» وقد قلت بعد ذلك «الكتاب ينقسمون الى ثلاث طوائف» طائفة اللفظ وطائفة الأسلوب ، وطائفة الفكرة ، وأعلى الجميع كعبا هم المنتمون للطائفة الأولى ، وإن بدا أن كاتب اللفظ هو أدنى الجميع مرتبة وقد قلت أن ما أعنيه بكاتب اللفظ ، هو الكاتب الذى يستطيع أن يوهم القارىء ويلهمه ، ويبعثه علي الضحك ، ويحمل على الأسى ، ويشرح له الصعب ويقرب له البعيد ويدعوه إلى الحركة ، ويحرضه على السخط ، بألفاظه هذه الاداة الصغيرة التى كنا نصفها فى أحاجينا باللغة العامية «وقد السمسمة ، وتجيب الخيل ملجمة» تماما ككاتب اللفظ هو الذى يعرف كيف يخرج من ألفاظ يضعها جنبا إلي جنب فى نسق معين ، تختفى من خلالها شياطين الأنس والجن ، ملائكة السموات وملائكة الرحمن . فى حين أن كاتب الفكرة قد ينفرك منه لأن فكرته وأن كانت جميلة أصلا وتصاغ فى قالب من فخار أو طين ، فتتنفر منها وقد وضعت أصابعك في أذنك ، وكاتب الأسلوب كالمرأة التى تتقن فن الرشاقة المصنوعة ، تلبس ثوبا

جميلا ، ولكن على جسم قبيح فيستر الثوب بعض عيوبها ولكنه لايحيلها إلى جميلة .

وقد وجدت فى بعض ماكتبه يحيى حقى عن البيت الذى نشأ فيه فقال «فالجو الغالب فى هذا البيت كان أولا شيء من الاعجاب ، برشاقة اللفظ والابتهاج بالتوفيق فى العثور عليه» وقد كان من أجمل النماذج المؤيدة لهذا المنهج فقد قدم ، فى جملة واحدة ـ لكتابه دمعة فابتسامة فقال «دلق الزنبيل» .. أصدق وصف لهذا الكتاب فهو خواطر متناثرة فى موضوعات شتى ، لا رابط بينها ـ ومن ورائها جميعا دافع واحد اعتاق الكلمة .. ثم تحدث عن كتابه «صح النوم» فقال : «ليس فى هذا الكتاب لفظ واحد لم يكن موضع حسن ونوق ، وفيه صفحات كاملة لايتكرر فيها لفظ واحد ، والمسألة ليست مع ذلك مسألة صدفة ، بل مسألة ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لاتتكرر .

وهذا بالضبط ماعرضته من قبل ، فالأدب اختيار للألفاظ تلاقى المعانى ، وتلصق بها ولاتكون أبدا كالثوب المتهدل الذى ترى فيه زوائد وفضولا ، ولا الثوب «المحزق» الذى يبرز بسببه اجزاء من الجسم ، تشينه ويتعوق حرك صاحبه ،

وقد قال يحيي حقى فى محاضرة ألقاها فى جامعة دمشق فقال : آن الأوان لأن يكون فى الأدب أسلوب اسميه الاسلوب العلمى ، يعتمد على تجديد المعانى وبالتالى اختيار الألفاظ بحيث لايكون صالحا إلا لفظ واحد فيتعذر أن يستبدل به لفظ أخر .

أريد أن اختار لك نموذجين أو ثلاثة مما كتب يحيى حقى، فلا أحد

أجمل ، ولا أصلح لهذه المهمة - مهمة النموذج من وصف يحيى حقى لجنازة مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ قال :

لايشفع لى فى العودة من جديد إلى الرمز الذى اتخذته للعهد السابق «وهو شخص مصطفى كامل» إيمانا معى بأن من انغرزت رجله فى هذا الشرك لاتنفلت منه بسهولة «بقايا طلقاء السجون من أشلاء دنشواى يحملون نعشا وتارة علم البلاد ، خفيفا كالنسيم يضم روحا لاجسدا ، لفتى كان جهاده هو الذى فك عنهم الاغلال يخوضون به بحرا لجيا من أهل الريف والقاهرة» . .

دعك من هذا النموذج الحزين الذى يحدثنا فيه يحيى حقى عن جنازة مصطفى كامل وأشلاء ضحايا دنشواى ، فقال اقتل البيك ، وصف المقهى التى اتخذها رواد القصة الجديدة فى العقد الثانى من القرن العشرين ، هؤلاء الرواد الذين يتقدمهم محمود طاهر لاشين والذين كونوا فيما بينهم مدرسة جعلوا أحمد خيرى سعيد ناظرا لها: قال يحيى حقى فى بعض الليالى يهرعون - كالجياع إلي وليمة - إلى مسرح الكورسال ليحضروا حفلات الفرق الأوروبية من مسرحية موسيقية ويصفقون أكثر من تصفيق الخواجات ، كان مكان أغلبهم فى أعلى التياترو ، واذا غلى فى بطونهم الأدب الروسى ، سألوا أين بتاع «الفودكا» فليس الا على أبخرتها يتاح لهم أن يتذوقوا هذا الأدب ، ويعيشوا فى جوه وقد غلب الطابع الشعبى على هذه الندوة ، ضمنا المسرح والنكتة والدعابة بانضمام شخصيتين غريبتين إليها - أولهما الاستاذ أحمد خيرى سعيد الذى هجر دراسة الطب بعد أن كان قاب

قوسين أو أدنى من الشهادة ، الى الصحافة فقد كان بسبب هدوء نفسه وسماحة صدره وصبره على الحيل ، وقدرته على عقد الصلة وفك عقدها، وإن كان أقل أعضائها انتاجا ، والثانى هو الاستاذ محمود طاهر لاشين ، الذى يجوب الشوارع ويدخل الدور ويقهقه ملء فمه .. ثم اتسعت الحلقة وأصبح يخاطبها من الداخل ، أو على الهامش أدباء.. ابراهيم المصرى وحسن محمود والمرحوم محمود عزمى ، وحبيب زحلاوى ، تنطلق من على موائدهم كالرصاص اسماء هوجو ودستوفسكى وموپاسان وتشيكوف وبلزاك العظيم .

كادت تنشب ذات مساء معركة لأن أحد الجلساء بتأثير الثورة فضل كاتبا شعبيا مثل جوركى على كاتب ليست له رسالة شعبية مثل بلزاك ، ولكن المعركة انفضت وقد بقى على رخام المائدة فتات سمسم سميط وتبين أن ماسح الأحذية قد انتهز هذه الفرصة ومسح للجميع أحذيتهم .

والآن أنقل لك صورة فلمية لشخص عزيز علىّ «يحيى حقى» هو السفير محمد توحيد السلحدار ، السفير الذى نشأ فى أحضان مصطفى كامل ، وبقى عاشقا لمبدئه وأسلوبه الوطنى قال يحيي : سعيد من يرسم هذه الصورة الفلمية بخطوط سريعة من العلم كأبرع وأسرع وأخف ماتكون ريشة الرسام .

«تعال أنظر» وهو جالس إلى قدح من الشاى مسترخيا فى مقعد وثير لبس فى أصبعه خاتم يتيم ، وكان له فى كل يوم مختلف خاتم ، ابتسم له حظه فرتب له من يسمع منه ، واحدا أو اثنين لا أكثر ، فما فوق الاثنين فى حكمه .

زحام يخلخل الجو ، وكان الزحام أشد شيء يكربه ، تختلط فيه الناس ، مقاصد واقدار ، ويسوى بين الباحثين عن زادهم والمتطفلين وعبيد قهوة الشيوخ ولايشترط في المستوى أن يكون صديقا له يتوقع حضوره عن موعد أو عادة بل لا أحب إليه أن يكون المستمع منه غريبا جمعته به الصدفة فيحس أنه يتجدد معه ، وأن كل كلام له بداية لاتكرار، حينئذ كانت الساعة والمزاج تنفرد أشرعته كأنما من تلقائها لاستقبال نزهة مجال لها ، فلا يستأثر بها تيار واحد بعقد زواج ، بل تغازل الرياح فى كل صوب ، وتصطاد هذا بعد ذلك برشاقة العاشق البوهيمى ، مابين شرقية وغربية وشماله وجنوبه ، هذا هو يحيى حقى.

المحامون الأدباء
شادوا بناء الثقافة فى مصر

قد يخف اعتراضى الذى يثيرهم عنوان هذا المقال ويحسبون أنه مبالغة فى التحيز للمحامين الأدباء إذا علموا أن أمير شعراء العرب فى العصر الحديث كان طالب قانون فى فرنسا ، قبل أن يطلب المعرفة الأدبية فيها ، وأن حافظ إبراهيم مارس مهنة المحاماة وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن ينخرط فى سلك تلاميذ المدرسة الحربية ، وأن من المحامين الذين طال عملهم فيها وتمرسهُم بها الدكتور محمد حسين هيكل أحد أكبر أدبائنا ، فى العقد الثانى من القرن الحالى ، وصاحب أول رواية عربية ، ومؤلف العديد من كتب النقد الأدبى ، والتراجم الشرقية والغربية ، ومجموعات المقالات التى ضمت المئات من الدراسات والصور العلمية والخواطر الثقافية .

وأن من المحامين من ارتفع نجمه فى سماء المقامة النقدية ، والقصة القصيرة والطويلة ، والمسرحية ، وأنه بز بتفوقه وظهوره وكثرة انتاجه وذيوع اسمه ، الأدباء المنقطعين لحرفة الأدب ! من هؤلاء محمد فكرى أباظة ومحمد عبدالله عنان ، ومحمود كامل ، وعبده حسن الزيات ، وعزيز فهمى ، وحسن عفيف ، وعبده أبو شقة ، وعبدالحميد السنوسى ،

● الهلال - ابريل ١٩٨٤ .

ومحمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة .

ولا تزال القائمة طويلة ، فهناك طائفة من المحامين الذين لم يمنحوا الأدب والثقافة العامة ، إلا جزءا قليلا من وقتهم وجهدهم ومع ذلك كان أثرهم فى هذا المجال باقيا ومحسوسا به ونافعا ، نذكر من هذه الطائفة محمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة ، وأحمد توفيق ، وحافظ رمضان .

وثمة طائفة ثالثة كان انتاجها غزيرا حتى كاد عملها فى المحاماة يتوارى بجانب ما قدمته للمكتبة العربية من آثار عظم عددها ، وذاعت شهرتها وخير مثال لهذه الطائفة عبدالرحمن الرافعى ، الذى سلخ من عمره سنوات عديدة حتى أتم سلسلة تاريخ مصر القومى من عهد حملة نابليون على مصر حتى آخر عهد شهده عبدالرحمن الرافعى المحامى بنفسه ونعنى به عهد جمال عبدالناصر ، ولم يقنع بهذا الهرم الشامخ فأضاف نحو خمسة كتب فى مواد متفرقة .

وهناك محام يكون وحده طائفة بأسرها ، ذلك لأنه لم يصبر على العمل بالمحاماة ، وإن كان ما ترافع فيه من القضايا وما تركه من مذكرات مطبوعة يكاد يكون مكتبة قائمة بذاتها ، تعلم الأجيال القادمة من المرافعة السياسية وتروى تاريخ حقب ذات خطر شهدتها مصر وشهدت معها أحداثا هزت البلاد ، ويتبقى أثرها طويلا ونعنى بهذا القول أحمد حسين الذى درس المحاماة فى فترات منقطعة والذى ألف نحو خمسين كتابا أكثرها فى الدين الإسلامى، وتاريخ نبيه وتفسير قرآنه ، ولكنه مع ذلك كتب روايات طويلة ، وكتبا ضخمة فى فروع المعرفة .

وهناك أسماء ضاعت فى حلبة الأيام مثل أنور زقلمه ، ومحمد

شوكت التونى وأخيرا هناك الصحفى المحامى والممثل المكافح يوسف فهمى حلمى .

ولو جمعنا آثار هؤلاء المحامين بعضها إلى جانب بعض ، تبدا لنا كم أسدى هؤلاء الأدباء والكتاب المتطوعون إلى بلادهم ، وكم انتفعت ثقافة مصر والثقافة العربية بنتاج عقولهم وأقلامهم ، والعجيب من الأمر أن هذا الإنتاج الغزير ، جاء متنوعا ، فلم يدع جانبا من جوانب الفكر ، إلا أضاف إليه وأضاعه بما كتب من نثر وشعر ، وأحيانا يبقى المحامى الأديب أو المؤرخ ، أو القصاص ، أو المحقق ، الذين تخصصوا للكتابة فى هذه المجالات .

خذ مثلا عبدالرحمن الرافعى ، واضع سلسلة تاريخ مصر القومى، فالرافعى لم يكن مؤرخا ولا قصد أن يكون ذلك ، ولكنه تلميذ وفىّ من تلاميذ مصطفى كامل ، وقد شغله باله كيف يبعث فى الشباب روح الوطنية ، ويحرك فى قلوبهم الإعجاب ببلادهم، ويوقفهم على تاريخها ، وكيف ناضل الشعب المصرى ضد الاحتلال بنوعية الفرنسى والبريطانى، وهداه تفكيره إلى أن يضع كتابا عن مصطفى كامل ثم تبين أن كتابا عن حفيد مصطفى كامل ، سيكون أميز ، لأن مصطفى كامل ، جاهر بالاحتلال ، فلابد اذن أن يعرف الشباب المصرى كيف وقع الاحتلال فيعين التحدث إليه عن الثورة العرابية ، والثورة العرابية ثمرة الظروف فى عهدى اسماعيل وتوفيق ، فلابد من الحديث عن هذين العهدين ، وهما بدورهما حلقتان فى سلسلة تاريخ محمد على، فلابد من الرجوع إلى هذا التاريخ من بدايته، ومحمد على جاء كثمرة كفاح المصريين ضد الغزو الفرنسى والحكم العثمانى ، فلابد من كتاب كبير

يتناول هذين العهدين بالبيان والتفصيل ، فتم بذلك وضع موسوعة عن تاريخ مصر الحديث استغرق وضعها أكثر من ١٥ عاما ، وحينما تكاملت اجزاؤها ، بقيت عملا علميا وأدبيا ضخما يدل على إصرار واضعه وقوة إيمانه بوطنه وبتاريخه ، وصبره على متاعب البحث والتنقيب ، والمراجعة والمطالعة ، لم يقدم مثله مؤرخ آخر ، إلا إذا استثنينا المجموعة العظيمة التي وضعها الاثرى المصرى سليم حسن عن تاريخ مصر الفرعونية ولكن سليم حسن مؤرخ منقطع لهذه المهنة وتاريخ مصر وأحبه .

وهكذا كان عمل المحامى عبدالرحمن الرافعى ، عملا فذا ، أثبت به أن المحامين فى مصر ، أسدوا أيادى لا تنكر للثقافة المصرية . فإذا انتقلنا إلى محمد حسين هيكل اقتفينا أثره فى ناحية أخرى ، كبيرا وجديرا بالثناء والإقرار بالجميل ، فقد بدأ حياته العلمية برسالة دكتوراه قدمها لجامعة باريس عن «الدين المصرى» و «الدين المصرى» الذى بدأ فى عهد الخديو سعيد ، واستفحل أمره فى عهد الخديو إسماعيل ، جانب من تاريخ مصر ، مؤلم وداع إلى الحزن ، ولكنه يفضى بالباحث والقارئ إلى مقدمات أكبر كارثة فى تاريخ مصر الحديث ، ونعنى بها الاحتلال البريطانى .

ولكن لهيكل يد أخرى فى عنق الأدب المصرى، وهى رواية زينب التى كتبها وهو فى باريس ، يطلب العلم ويحضر لرسالة الدكتوراة عن الدين المصرى ، وهى أول رواية مصرية ، وربما عربية .

وكانت ثورة لأكثر من اعتبار ، ثورة لأنها شئ جديد فى الأدب المصرى ، الذى اقتصر حتى صدور «زينب» على قصيدة الشعر والمقالة، ومحاولات شبيهة بمقامة بديع الزمان والحريرى ، حتى قصة عيسى بن

هشام التى سبقت فى الظهور رواية «زينب» كانت أقرب إلى المقامة أيضا ، خلت من الوقائع ومن الشخصيات ، ولم تكن رواية زينب أول عمل روائى بالعربية ، إنما كان موضوعها ثوريا إلى أقصى الغاية ، فقد كانت زينب بطلة الرواية لم تكن المرأة التى تظفر بهذه العناية من قبل ، ولم تكن زينب مجرد إمراة بل كانت إمراة ريفية ، ولم تكن مجرد إمراة ريفية بل كانت ريفية من فقراء الفلاحين ، وكانت وقائع الرواية كلها فى القرية ، وكانت الأزمة التى تعرضها هى أزمة فلاح شاب أحب فلاحة شابة ولكنه لم يهنأ فى حبه ، لأنه جند للجيش ، حيث كان المجندون لا يجدون ما يحترم ادميتهم ولا وطنيتهم ، وقد زوج أهل حبيبته ابنتهم إلى شاب غيره ، فلما سرح من الجيش وجدها فى أحضان رجل آخر ، ولم يلبث حتى مرضت وماتت ، ولم يكن الريف آنذاك يشغل بال أحد من الكتاب ولا الحكام .

فقد أعلن هيكل عن ثوريته حينما وقع على روايته بعبارة « بقلم مصرى فلاح» ، ولم يكن أحد فى ذلك التاريخ يعرف أن الفلاحين يكتبون وإذا كتبوا ينشرون ما كتبوه على الناس .

وتوالت بعد ذلك آثار محمد حسين هيكل باشا ، فكان كتابه الأول ، ترجمة لحياة «چان چاك روسو» الذى مهد لثورة ١٧٨٩ ، ثم جمع تراجم مختلفة كتبها فى الصحف ، فى كتاب بعنوان تراجم مصرية وعربية ، وتراجم الحياة لون من الأدب طريف ، وشهى ولكن المكتبة العربية لم تكن تعرفه كثيرا ، فكان كتاب هيكل تجديدا واختياره «لروسو» كان موفقا فى أشد حاجة المصريين آنذاك إلى حديث عن الثورة والثوار ، وفهم لما هدفت إليه ثورة الفرنسيين وما جاءت به من الأفكار ، وكان كتاب هيكل عن رحالة السودان ، عملا أيضا جديدا فما أقل الكتب التى

كتبها المصريون عن السودان حتى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور.

ويقى المكان الذى شغله إذ قدم لقراء العربية فى العالم العربى والإسلامى كله ، كتاب عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فقد كان هذا الكتاب فاتحة الكتابة الإسلامية التى تبعه فيها العقاد بتراجمه، وطه حسين عن مرآة الإسلام ، وعن الفتن الكبرى ، وهو الاتجاه الذى تاكد بعد ذلك ، وكثر السالكون فيه والسائرون على دربه .

فمحمد حسين هيكل الذى درس القانون فى مصر وفى فرنسا ، والذى اشتغل بالمخاماة فى مدينة المنصورة ، أثره الثقافى الأدبى عظيم، إذ أنه جدد وأضاف ، ما لا يمكن سرد التاريخ الفكرى من غير الوقوف أمامه .

ومحام ثالث كان عظيم الأثر فى دنيا الصحافة والفن والأدب السياسى والحديث الاجتماعى النقدى ذلك هو فكرى أباظة ، وقد كان محاميا ، انصرف إلى العمل أمام المحاكم وكان له مكتب فى مدينة الزقازيق، وكان يوقع مقالاته أيضا باسمه مقرونا بوظيفة «المحامى .

وقد ابتدع هذا المخامى أسلوبا فى الكتابة لم يقلده أحد فيه ، ولم يسبقه أحد إليه ، فقد كان يكتب فى جريدة الأهرام نصف أو ثلاثة أرباع عمود ، فيه من علامات الاستفهام وعلامات التعجب ، أكثر مما فيه من الألفاظ .

وكان يتناول فيه المواقف السياسية التى تمر بها البلاد ، ناقدا وساخرا ، فأحب القراء مقالاته ، وذاع اسمه ، حتى كان النداء لا يصدر عن باعة الصحف إلاّ مقرونا باسمه فما أكثر ما سمعناهم يصيحون : الاهرام فكرى أباظة .

وما لبث أن اعتبر كاتبا من كتاب الصحف ، فعرض عليه جبرائيل تكلا أن يشتغل فى الأهرام محررا مأجورا ، ولكنه رفض ، وبعد قليل عرض عليه أولاد جورجى زيدان مؤسس الهلال أن يعمل عندهم رئيسا لتحرير المصور ، ومحررا فى مجلة «الفكاهة» التى عاشت عددا من السنين ثم اختفت ، إلا أن فكرى أباظة أسعد المصريين بأسلوبه كمتحدث فى الإذاعة فكان له كل أسبوع حديث ينتظره الجمهور ، فى شوق وهو حديث بالعامية الراقية، التى تكاد تكون الفصحى ، وكانت أحاديثه نقدا اجتماعيا لكل ما يجرى فى البلاد ، وكان فكرى أباظة فوق ذلك خطيبا بارعا ، وقد بهرت مواهبه الخطابية حينما انتخب عضوا فى مجلس النواب ، واعتاد الوقوف على منبر المجلس ليصوب إلى الحكومات والوزراء نقده ، الذى يستلهم فيه مبادئ الحزب الوطنى إذ كان بدوره من تلاميذ مصطفى كامل .

وقد عاش فكرى أباظة حتى جاوز الثمانين وهو يؤنس القراء والسامعين بمقالاته وأحاديثه وخطبه ، فكان محاميا آخر ، تتعد مواهبه البيانية وخدماته الجليلة لوطنه وحزبه .

أما المحامى الرابع ، فقد خلق زعيما ، ذلك هو أحمد حسين ، الذى كاد التمثيل يستأثر به ، فقد كان زعيم طلاب المدارس الثانوية المشتغلين بالتمثيل والمحبين له ، وعلم على الشمسى باشا وزير المعارف بمواهبه فكاد يبعث به إلى فرنسا ليتعلم هناك أصول المسرح ، ولو تمت تلك البعثة ، لظفر المسرح العربى بواحد من أعظم الفنانين موهبة .

ولكن الوزراة سقطت ، وسقط معها وزير المعارف ، وضاعت فكرة البعثة إلى باريس ، لحسن حظ مصر ، فإن أحمد حسين لحق بكلية الحقوق وتخرج فيها ، واشتغل بالمحاماة فترة وبالصحافة ، ثم ألف جمعية مصر الفتاة ، بعد أن دعا إلى مشروع القرش . ونجحت دعوته ، وأقام مصنعا بقروش المصريين ، ولكنه ما لبث أن اتجه إلى الأدب والتاريخ والدين ، فألف فيها جميعا كتبا كانت كلها من عيون الكتب ، فقد مزق قلمه أول الأمر فى المقال السياسى ، حتى أصبح طيعا فى يديه فلما اضطر إلى اعتزال السياسة وضع كتابين كبيرين يمكن اعتبار كل منهما موسوعة فى بابه ، كان أولهما كتابه «الطاعة الإنسانية» ، ثم أردفه بكتاب «الأمة الإنسانية» ولخص الكتاب الأول بمعادلة مؤداها أنه مع الارادة الإنسانية فيمكن أن تتحقق أمور تبدو من المستحيلات ، وملأ كتابه بالأمثله من تاريخ الإنسانية من أقدم الحقب إلى أقرب العصور ، ليؤكد معادلته ، فكان بهذا الكتاب داعيا إلى الثقة بالإنسان والإعلاء من شأنه ، وثقته بنفسه ، وإقدامه على ما يراه ضروريا لحياته أو لتقدمه ، أو لمزيد من المعرفة أو السيادة ، غير آبه بالعقبات والمشاق .

والكتاب الثانى يؤكد حقيقة تشرف الإنسان أيضا ، وترفعه إلى السمائيين ، فقد اثبت سخف النظريات التى تتعصب للأجناس ، وتزعم أن الناس تتفاوت لا بعقولها وقلوبها ، بل بألوان جلودها ، وشكل جماجمها وحجم فكها ووضع أسنانها فى أفواهها ، وملأ الكتاب بالأدلة التى انتهى إليها العلم بأن الجنس واللون وطول القامة لا تدل على مواهب عقلية ولا مزايا نفسية ، ثم تنوعت بعد ذلك مؤلفات أحمد حسين فى الأدب والتاريخ والدين وعند الدين انتهى نشاطه الفكرى ، ففسر

جزء عمَّ وطبعه ، ثم فسر السور الطوال كلها ابتداء من سورة البقرة إلى سورة المائدة ، وقد استوقف تفسيره القراء واعجبوا به على طول العالم الإسلامى وعرضه ، وكان قد ألف روايتين طويلتين قص فيهما تاريخ حياته ، وتاريخ مصر فى حقب من أكثر عهود مصر استقلالا بالمشكلات والتحولات وألف للمسرح مسرحيتين ، وتراجم عن مسرح تولستوى إحدى مسرحياته ، ومثلت على مسرح الأزبكية ونجحت ، ثم أراد الله أن يمتحنه - بعد السجن والاعتقال والتشرد - فنزلت به علة الشلل الذى أقعده ولكن يده اليمن وعقله وذاكرته نجت من الاصابة ، فراح يكتب المقالات والبحوث ويساهم فى الحياة السياسية العامة بقلمه، وأكثر الناس يرونه يكتب بحرارة وتدفق ووضوح وقوة حجة وسعة اطلاع، فخفى عليهم أن كاتب هذه الروائع مشلول ومقعد ، ولا يترك مكانه فى بيته ، وبذلك يكون قد ساهم فى بناء أمته الثقافى ، فى آخريات عامه بنصيب سيبقى مؤثرا ومذكوراً مادام فى مصر ثقافة ، وما دام فى العالم أناس يحتفلون بالكتب وآثار الفكر .

وكان لمحمود كامل المحامى ، دور فى الحياة الثقافية ، وقد اشتغل بالمحاماة .. ولا سيما فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وكاد ينقطع لها ، ولكنه منذ تخرجه فى كلية الحقوق وهو مشتغل بالصحافة والفن ، فكان ناقدا فنيا لجريدة السياسة ، غير أن نصيبه فى العمل الثقافى كبر بإصداره مجلة «الجامعة» وقد أردفها بأخرى ، ووقف أولهما على القصة، وأخرج للناس عددا غير قليل من القصص القصيرة ، وكاد ينفرد بهذا اللون من الأدب فترة غير قصيرة وقد تأثر به وبأسلوبه ومنهجه أكثر كتاب القصة فى تلك الأيام ، وقد نشر قصصه فى

مجموعات بلغت أربع عشرة مجموعة أولها «المتمردون» وآخرها «لاعبات بالنار» .. وقد ترجم عددا من المسرحيات عن الفرنسية مثل بعضها على مسرح حديقة الأزبكية ، والبعض الآخر على مسرح الأوبرا أو مسرح برنتانيا أو مسرح رمسيس ، منها «الوحوش» ، كما أخرجت له السينما قصة بعنوان «حياة الظلام» وله كتب تتضمن دعوة إلى الإصلاح السياسئ والاجتماعى منها «العمل لمصر» ، «ومصر الغد تحت حكم الشباب» كما أن له عددا غير قليل من الدراسات القانونية .

«ومحمد على علويه » محام له اسم لامع فى دنيا الفكر ، فقد أخرج كتاب «مبادئ فى السياسة المصرية» ضمنه آراء له فى الاصلاح السياسى والقانونى ، ثم وضع كتابا ممتازا عن القضية الفلسطينية نشرته له دار الهلال بعنوان «قضية فلسطين والضمير العالمى» ، ثم وضع كتابا يتضمن ذكرياته منذ بدأه بداية حياته بعنوان ذكريات سياسية واجتماعية وهو يروى ذكريات عن ثورة ١٩١٩ وتأليف الوفد المصرى ، والسفر إلى لندن وباريس بصحبة سعد زغلول زعيم الوفد وبقية أعضاء الوفد، وهو فى واقع الأمر وثيقة سياسية قص فيها قصة الخلافات بين سعد وعدلى ، وهى الخلافات التى قسمت مصر إلى معسكرين ، واستمر أثر هذا الانقسام ، حتى قامت ثورة ١٩٥٢ ، وقد أسس جمعية البيان ورأسها ، ورعى المجهودات التى بذلت فى التقريب بين المذاهب الإسلامية فى مصر .

هذه نماذج للشخصيات الأدبية من عالم المحامين، وقد كنت أرجو أن أحدث القارئ الكريم عن الشعراء والكتاب الذين ذكرت اسماؤهم فيما سبق ، لولا أن الحديث سيطول بحيث لا يتسع له المقام ، ولكن هؤلاء لهم فى أعناقى دين لابد أن نؤديه بفضل من الله وعونه .

السيد أحمد البدوى
قطب التصوف فى مصر

أحسب أننا لو قمنا بدراسة للأسماء الذائعة فى بلدنا، مع ترتيبها حسب مقدار ترددها على الألسن ، لكان اسم أحمد البدوى، فى مقدمة الأسماء ، فالعامة تلتمس من السيد العون، وترطب ألسنتها بذكره بالدعاء له مرات فى اليوم الواحد. فما أكثر ما يقوله الناس عبارة (شى اللاه ياسيد) معناها (شيء لله ياسيد) وهم يعتقدون أن (سيدا) ليس لقبا بل اسم هذا القطب الكبير. ولكن الصورة التى تنطبع للسيد أحمد البدوى فى أذهان أهل بلدنا، ليست واضحة تماما، فهم حينما يذكرون اسمه، لا يتمثلون رجلا من الأتقياء الصالحين، الذين وقفوا حياتهم على الدعوة للدين، وتطهير نفوس أتباعهم ومريديهم، ورسم طريق لهم يتبعونه فى العبادة، وذكر الله، والنأى عن المعاصى ، والانقطاع، ما استطاعوا، لأداء الفروض ، ومجاهدة النفس، وحفظ كتاب الله وترتيل آياته، والاستماع إلى قرائه، ومحاكاة شيخ الطريقة فى تقشفه وزهده، وصيامه وقيامه، وتلاوة حفظ الأوراد، والأحزاب، وتكرارها، التماسا لتقوية العزم، وتزكية القلب لا يتمثل الناس فى مصر، أحمد البدوى على هذه الصورة فحسب، بل يتصورونه وسط هالات تكاد ترفعه من رتبة بشر إلى

● الهلال - يونيو ١٩٨٥ .

مستوى يعلو عليهم فتصبح له طبيعة ، لا يستطيعون بالضبط تحديدها ، فينسبون إليه من الخصائص ما يغنيه عن الطعام والشراب، وعن النوم وحاجات البدن، ويقرنونه بالكرامات التى تشبه المعجزات أو تزيد عليها ، وهم بعد ذلك يحسون بالطمأنينة إلى أن السيد يضفي عليهم حماية تقيهم شرور الدنيا ، وسطوة الحكام وتقلب الأيام، اشتد الظلم، وعظم العسف، وضاقت الحياة، كلما زاد السيد عن فريق من أتباعه علوا عن صفات الناس. وقد بقى السيد أحمد البدوى في ضيافة ركن الدين سنوات، ولم يكن يعيش داخل الدار ، وإنما اتخذ من سطحها مقاما له ومقرا ، وقد اختلف رواة سيرته ومن جاء بعدهم فى هذا المسلك فمنهم من قال : إن السيد كان لا يطيق الحجرات المغلقة. وكان يؤثر أن يكون على اتصال بالكون الفسيح ، ويرى فى مجلسه حركات النجوم والأجرام، والأشكال الجميلة التى تكونها فى السماء فيزداد اتصالا بصور من قدرة العلى العظيم، فيزداد إكبارا له، وتعظيما لخلقه، وبعضهم ذهب إلى أن المقام على سطح الدار ، تحد من حركاته، فتفرض عليه تقشفا لحرمانه من راحة الدار ، فيقل اضطجاعه وتنعدم خلوته، بمخالطته الدائمة بتلاميذه ومريديه، ويبقى تحت رقابتهم من جهة، وتدوم صلته بهم من جهة أخرى فيرونه على مدار اليوم بليله ونهاره، وهو فى ولهه بالخالق ونظره الطويل إلى السماء ومن أجل ذلك سمى بالسطوحى وسمى أتباعه بالسطوحية وقد اتسعت دائرة طريقة الأحمدية وعظم شأنها ، وانهالت على شيخها العظيم، الهدايا والهبات من أموال ونفائس، ورءوس ماشية، وحبوب وخضر وفاكهة، وكان في وسع الشيخ أن يتقلب فى أعطاف النعمة، إلا أنه وقفها جميعا على

الفقراء والمحتاجين من أبناء الطريقة، وغيرهم، وقد أوكل التصرف فى كل هذه الخيرات لنائبه السيد عبدالعال، الذى صحب القطب سنين طويلة فى حياته . فلما توفى القطب فى يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٧٥ هجرية، ١٢٧٦ ميلادية، خلف السيد، والثابت أن خلافته كانت باختيار صريح من شيخ الطريقة، فلما لحق السيد عبدالعال بالرفيق الأعلى خلفه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن لمدة كادت تصل إلى ربع قرن من الزمان، ولكن لأقطاب التصوف فى مصر على الرغم من كل ما نسب إليهم والصق بهم، تولو تربية وتنشئة آلاف من الأتباع والتلاميذ، على مبادىء صقلت نفوسهم، وقوت عزائمهم، وأعزتهم بالبعد عن الناس، والاختلاء بالنفس، وإطلاق عنان التأمل فى شئون العباد، وأصول العبادة، والتمسوا وسائل للارتفاع بأنفسهم، ونذر الكثير منهم خياله، لإشاعة فلسفة الزهد والتقشف، والوقوف مع الضعفاء، والدفاع عن الفقراء، وكف شهوات النفس، ومطامعها، فانتشرت لهذه الحركات ، موجات من التطهر، ومقاومة الحكام والتدريب على حمل السلاح، وحماية الثغور . وعاد الكثيرون من المواطنين الصغار من أرباب الحرف، والصنائع، وفلاحى الأرض، وزارعيها إلى الدين فى أصفى صوره، ويعقب ذلك حركات فكرية، أطلقت ألسن الشعراء، وأرهفت قرائح الكتاب والخطباء.

ولكن من هو أحمد البدوى، كما تصوره وقائع المؤرخين، الخالية من مبالغات الأنصار والمريدين.

هو أحمد بن على بن إبراهيم سيرتفع نسبه إلى على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، ويقول رواة سير السيد، أن أهله من العلويين هاجروا إلى المغرب، وأن جيلا منهم، بعد أن استقروا فى هذا

الجانب من الوطن العربى، استقروا فى فاس التى أنشئت فى نهاية القرن الثانى للهجرة ، وأن والده عاد إلى موطنه الأصلى فى مكة ومعه ابنه أحمد الذى كان أنذاك صبيا صغيرا والواقع أن الانتقال من الحجاز إلى المغرب والعودة من المغرب إلى الحجاز والتنقل بين هاتين النهايتين، والتوقف فى أقطار عربية أخرى كتونس ومصر والشام ليس بالشىء المستغرب فى تلك الأيام، فالوطن العربى والوطن الإسلامى كلاهما وطن لا يقدم منه فى وجه راغبى الأسفار، ومحبى التنقل للتجارة والعلم، أى حواجز ولا موانع، فالسفر فى هذا الوطن المترامى الآفاق، فيه ككل سفر خمس فوائد كما قال الشاعر، والتماس أسباب الرزق، والسعى إلى أئمة الفكر والدين كان من تقاليد تلك الأيام، ونجد ذلك مسطورا فى أكثر سير الشعراء الأفذاذ، والأئمة الكبار ، كالإمام الشافعى، والمتنبى وابن خلدون.

انتقلت أسرة السيد أحمد البدوى، إلى فاس، سنة خمسمائة وثلاثين، ثم تركوها حينما عادوا إلى مكة سنة ستمائة وثلاثة، والثابت أن الأسرة فى طريقها إلى مكة، طابت لها الإقامة فى مصر، بضع سنين، ولم يلبث السيد أحمد البدوى أن عقد العزم على السفر إلى العراق، وكان العراق آنذاك مركزا من مراكز التصوف الإسلامى، وموطن القطبين العظيمين أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى. غير أن السيد ، غادر العراق إلى مكة ، ثم سافر من مكة سنة ٦٣٤ إلى طنطا، فوصلها بعد ثلاث سنين وقال بعض رواة سيرته على العهد بهم من المبالغة فى ذكر وقائع حياة السيد، فزعموا أن السيد قطع المسافة بين مكة ومصر فى إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون: إن السيد قطع المسافة

بين مكة ومصر فى إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون إن السيد قصد طنطا مباشرة ونرجع أنه أقام فى القاهرة زمنا لم يحدده المؤرخون ثم تواردت إليه أقوال الناس ، وأقوال أتباعه وتلاميذه الذين ترامت إليه فبهرته وهو فى العراق ومكة فتوافدوا عليه وحسنوا له السفر إلى طنطا ، ثم الإقامة بها فأقام فى بيت أحد أعيان المدينة، وكان رجلا صالحا، ميسور الحال وكان قد جعل من داره، دارا للضيافة ينزل فيها ضيوف المدينة، من كبار القوم، وذوى المكانة، ولم يكن آنذاك دار أكثر منها سعة وضعف الأدميين، ويقول الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور فى كتابه.

السيد أحمد البدوى : شيخ وطريقة ما نصه :

«ونستطيع أن نقرر فى صراحة أن كتاب سيرة السيد أحمد البدوى أرادوا أن يحيطوه بهالة من المجد الموهوم ويظهروه فى صورة المصطلح القادر الجبار الذى يستطيع أن يجند الجيوش فى برهة عين من نجد والعراق وغيرهما ، والذى يسانده آل البيت جميعا، ويلبون نداءه إذا دعاهم ، والذى يستطيع أن يحيى الموتى، ويميت الأحياء.».

والحق أن ما أضفاه أتباع القطب الكبير «السيد أحمد البدوى عليه من صفات وهالات، لا يد له فيها، ولا يسأل عن شىء منها ، فإن فى البشر ميلا شديدا إلى خلق أبطال لهم من رجال الدين، والفكر والحكم والحرب، فإن لم يفهم الواقع على هذا الخلق خلقوه من أوهامهم، وتصوراتهم وتركوه تراثا للذين يأتون بعدهم يؤمنون به، ويرجونه، فقد يأتى جيل أوسع خيالا، وأجمل عبارة فيصنعون من الوهم القديم ، وهما أكثر منه سحرا، وأعظم منه أثرا.

وقد لا يكمل الكلام عن السيد أحمد البدوى، بغير الحديث عن المسجد الذى أقيم على الأرض المجاورة لغيره حيث كان بيته وإلى جانبها أرض بنى عليها السيد عبدالعال، زاوية لفقراء الطريقة وقد بقيت هذه الأبنية كلها على حالها لا تمتد إليها يد التعمير والتوسيع والاصلاح حتى جاء السلطان الأشرف قايتباى الذى أمر سنة ٩٠١ هجرية (والسادس عشر الميلادى) فبنى مقام السيد أحمد البدوى مقاما عظيما. فإذا ما جاء عهد على بك الكبير ، الذى كان عهد المقدمة المباشرة لعهد الاستقلال المصرى بقيادة محمد على باشا، فبنى مسجدا عظيما له ثلاث قباب، وكان هذا الجامع الفسيح وهذا الضريح الحافل نعمة وبركة لمدينة طنطا ، فاتسع عمرانها ، وكثر سكانها ، وراجت تجارتها وذاع اسمها حتى أصبحت إلى اليوم ، المدينة الثانية بعد القاهرة ، ولكن على بك الكبير أسدى يدا كبيرة للدين والعلم ، إذ حول المسجد الأحمدى إلى معهد علمى ويدعون لهذا المسجد الأساتذة ومعاونيهم والفقهاء ومساعديهم والمدرسين لتدريس المواد المقررة فى الجامع الأزهر وعلى منهجه ، فأمه طلاب العلم فى النواحى المجاورة، وكبر مقامه شيئا فشيئا ، ولا سيما قد عين على بك الكبير شيخا للمسجد الأحمدى وأضفى عليه لقب (شيخ الجامع الأحمدى) وهو لقب يقرب من لقب شيخ الجامع الأزهر، وقد استمر التعليم فى هذا الجامع يتسع كما، ويرتفع كيفا، وقد اختير لمشيخة الجامع الأزهر، عدد ممن تولوا مشيخة الجامع الأحمدى . وهذا وحده إحدى بركات القطب العظيم أحمد البدوى ، فلو لم يكن مخلصا فى دعوته للدين والشفقة فيه ولإيمانه بالعلم، بوصفه سبيل النجاة للمسلم ، وطريقا فسيحا لتقدمه ورفعة شأنه، وتقدم الناس

أجمعين مهما اختلفت أديانهم ، وتباينت مذاهبهم ، كما بني على قبره معهد علم تدارس فيه طالبوا العلم لا للمواد الدينية فحسب، بل أصبحوا يدرسون إلى جانبها ما يسمى بالعلوم الكونية أو العلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء ورياضة وهندسة وطب وفلك على أنه يجدر بنا أن نقول كلمة عن التصوف، نقرر فيها حقيقة لا يجادل فيها إلا الجاحدون هذه الحقيقة أن التصوف نزعة إنسانية قديمة قدم الإنسان ، فلما كان الإنسان مفطورا على حب الشهوات من النساء والولدان والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والاقرار بالذنب والحاجة إلى الاختلاء بنفسه ، وفرض نظام قاس ولو إلى حين على ذاته يحدد فيه مقدار ما يأكل ، ونوع ما يلبس ويحرمها من لذائذ تريدها تعلقا بالحياة، وتملقا لأصحاب الجاه ، هاتان النزعتان الإنسانيتان، يتراوح بينهما الإنسان، وتنشأ من بينهما نزعة التصوف، فيسعى فريق من الناس، وهبهم الله منذ البداية الحرص على إصلاح النفس وتزكيتها. وقمعها عن الشهوات، وكبح جماحها وتعويدها الجوع والصمت والبعد عن الناس ، وقد بدأت هذه المحاولات الإنسانية منذ الخطوات الأولى للحضارة، فخادم المعبد الفرعوني والراهب البوذى ، والهندوكي والبرهمي، كلها صور من هذا التصوف، تختلف باختلاف الزمان والمكان مراسمه وطقوسه، وأدعيته وأناشيده ، ولكنها تلتقي جميعا عند هدف واحد هو الارتفاع بالإنسان عن طبيعته البشرية العادية إلى أسلوب من الحياة، يشوبه انكار الذات ومكافحة الهوى، وليس غريبا أن الرهبانية، بدأت في أرضنا في مصر، بعد أن دخل المصريون الأوائل إلى المسيحية ، فنزلت بهم مصائب الاضطهاد القيصري الروماني، فنجي بعض أفرادهم بمسيحيته إلى أديرة ، بنوها في صحراء مصر قريبا من شاطيء البحر الأحمر وفي مقدمتهم «الأنبا انطونيوس» ثم «الأنبا بولا» ، وقد انتشر نظام الرهبنة

من مصر إلى أوربا الشرقية والغربية، وقد كان رهبنة تطوعية ، ينفرد بها الإنسان، ثم تكاثر عدد الرهبان، وقامت لهذا النظام قوانين متعارف عليها، وقواعد معمول بها.

وحدث الشيء نفسه في الإسلام ، فقد نشأت الطرق ، ثم وضعت لها القواعد ، وأصبح لشيخ الطريقة نفوذ على الأتباع والمهيمنين ليس له مثيل لحاكم ، ولا لأستاذ مدرسة أو جامعة ، وخرج من أتباع الطرق الصوفية فدائيون يحاربون أعداء الوطن، ويبذلون دمهم وروحهم بذل السماح وشاركت تلك الطرق في اصلاح أخلاق المجتمع ، وتقويم سلوكه، وحثه على فضائل الصدق في القول والاخلاص في العمل والوفاء بالعهد ونظافة الجسد والقلب، والاقبال على العلم والاقلال من الطعام والنوم والكلام، وتحبب النفس وتعويدها شظف العيش إلا أن كل شيء من صنع الإنسان ، معرض للفساد والتحلل ، وقد أصاب الصوفية آفات أهمها تأليه شيخ الطريقة ونسبت المعجزات التي لم تتم للرسل إلى هؤلاء الشيوخ ، وتزييف الأقوال الساقطة على هؤلاء الأئمة الأجلاء ، لكي يكون لخلفائهم من بعدهم سلطان على صغار الأتباع من الفقراء الذين يكدحون ليحصلوا على قوتهم وقوت عيالهم، فتنتزع اللقمة من فيهم ، وتعطى لبعض المشايخ الذين انحرفوا عن جادة التصوف فعاشوا عالة على المسلمين ، لا ينفعونهم بعلم ، ولا يهدونهم بقدوة ، ولا يقودونهم لعمل.

ولكن الصحوة التي نشهدها هذه الأيام في مجال التصوف والمتصوفين في مصر وغيرها ، تقوى الأمل ، في تقويم لهذا النظام العتيد العريق ، صاحب الأيادي في عنق الشعب والدين.

خطابات

مصطفى كامل

نشرت هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» سنة ١٩٨٢، كتابا بعنوان أوراق «مصطفى كامل» وقدمت له بفصل دلّ على أن هذا المركز الفنى عقد العزم على نشر ما خلفه مصطفى كامل من آثار مكتوبة بعد تصنيفها فى ثلاثة أقسام.. قسم خاص بالمراسلات، أى الخطابات الصادرة عن مصطفى كامل، أو الواردة إليه، والقسم الثانى يتضمن مقالات وأحاديث الزعيم الشاب، والقسم الثالث يشمل الخطب التى ألقاها، وأخيرا القسم الرابع ويشمل مؤلفاته.

وإذا كان عنصر المذكرات الشخصية، التى يكتبها الزعماء وأصحاب الصدارة فى بلادنا ، يوم بيوم، ويسجلون فيها ما يصادفهم ويرسمون صورا بالقلم للرجال الذين يقابلونهم ويعملون معهم، يؤيدونهم أو يعارضونهم، وصفاتهم وأخلاقهم وأسرار ما يخصون منه من أعمال ونشاط .

إذا كان هذا العنصر مفقودا فى تاريخنا الحديث، فإن كل ورقة يتركها زعيم وتحمل طابعه فى التفكير ، وأسلوبه فى التعبير، وطريقته فى تحليل الحوادث ، وتعتبر ثروة تاريخية تضىء تاريخنا ، ومطلع على

● الهلال - يوليو ١٩٨٤ .

حقائق الأحوال فى بلادنا ، وتبعث فى هذا التاريخ الحيوية والحرارة، وتزيدنا تعرفا عليه ، وتذوقا له.

والثابت أن المذكرات بهذا المعنى الحرفى التى تركها كبار رجالنا لا تعدو اثنتين : الكراسات التى تركها سعد زغلول والتى كان يكتبها تقريبا كل يوم ، وما تركه محمد فريد تحت عنوان «مذكراتى بعد الهجرة»، فكلتاهما يحمل طابع المذكرات ، التى تروى ما يصادف الكاتب من أمور ، وتعكس تأثراته بهذه الأمور فور حدوثها، وهى بعد حية فى ذاكرته، وجوها يشمله ، وهذا النوع من التسجيل يختلف عما يصح تسميته بالذكريات التى تروى ما حدث من وقائع ، بعد فترات تتباين بعدا وقربا تسمح للنسيان بأن يحجب هذه الأمور ، أو بعضها على الأقل ، أو يضعف أثرها فى نفي راويها ، أما ما تركه عبد الرحمن فهمى ، ومحمد على علوبة، وإسماعيل صدقى ومحمد حسين هيكل، فأبعد ما تكون من المذكرات، فبعضها لا يتناول إلا مرحلة صغيرة من حياة الكاتب ، وبعضها كتب بعد زمن طويل من الحقبة التى نتحدث عنها، وفى أغلب الأمور كتب قبل الوفاة أو فى آخر العمر.

ويمكن القول أن خطابات الزعيم أو العظيم التى كتبها لمن يراسلهم، أو التى تلقاها من صحبته ومعاونيه والمقربين إليه، تأتى فى الأهمية التاريخية ، والقيمة الأدبية ، بعد المذكرات الشخصية . وقد تكون فى بعض الأحيان أكثر أهمية وأعظم خطرا . فهى كالمذكرات ، كتابة شخصية خالية من التكليف الذى تفرضه الظروف الرسمية ، يكتبها كاتبها على سجيته ، وقد ينبسط فيستعمل اللغة الدارجة ، وقد يروى

الوقائع التى تبدو للقارىء تافهة مع عظم دلالتها ، وهى تصدر عن الكاتب فى الوقت الذى يتحدث عنه ، ففيها الحداثة والصدق.

ولذلك فإن نشر رسائل مصطفى كامل من جانب هيئة الكتاب عمل تهنأ عليه الهيئة وتشكر.

وقد بلغت هذه الرسائل ١٨٠ رسالة منها أربع عشرة رسالة كتبها مصطفى إلى صديقه الأستاذ عبد الرحيم أحمد الذى كان يعمل أمينا للقسم العربى بديوان الخديو عباس حلمى الذى تولى حكم مصر من سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩١٤، والذى عاصره مصطفى كامل معاصرة كاملة فقد ولدا فى عام واحد، واتصل أحدهما بالآخر ، فتآلفا واندلفا ، ثم عادا إلى الألفة وحسن العلاقة، ثم تنافرا ، ثم فارق مصطفى الحياة، وعزل الخديو عباس بعد وفاته بست سنوات عن العرش ، فأحسن فى مصطفى الشهادة.

ومن هذه الخطابات ثلاثة موجهة من مصطفى كامل إلى الخديو عباس نفسه ، ومنها ثلاثة عشر خطابا أرسلها مصطفى إلى زميل صباه وشبابه ورجولته ، محمد فؤاد سليم بن لطيف باشا سليم ، والذى كان أول أمين عام «للحزب» الذى شكله مصطفى سنة ١٩٠٧ . ثم عشرون خطابا إلى صديقه وساعده الأيمن فى الكفاح وخليفته بعد وفاته محمد فريد ، وخطابان بعث بهما مصطفى إلى شقيقه على فهمى كامل والذى احتمل نصيبا غير قليل من عناء وآلام الجهاد بحكم عمله تحت قيادة شقيقه الذى كان يصغره، ثم ست رسائل كتبها مصطفى إلى أحمد حلمى كاتب اللواء الأول فى عهد رياسة مصطفى لتحرير هذه الجريدة ، وكان أحمد حلمى كاتبا فذا. ترجع إلى مقاله المعنون «يا دافع

البلاء» شهرة ومذبحة دنشواى وذيوع اسمها ، إذ وصف أحمد حلمى كيف ينفذ حكم الشنق والموت فى أربعة من فلاحى قرية دنشواى بمحافظة المنوفية ، وحكم الجلد فى نحو ضعف هذا العدد من فلاحى تلك القرية ذاتها، وكان الوصف مؤثرا وبليغا، اختتق له المصريون وهم يطالعون الجريدة، وذرفوا الدموع الغزار ، وحفظوا المقال، وأحسوا أن مذبحة دنشواى، هى مذبحة لنوى قرباهم ، فبقيت هذه الكارثة مذكورة عند المصريين، ومعلما فى تاريخ كفاحهم مع الاحتلال . ويشرف كاتب هذه السطور أنه وفق إلى تخليد ذكرى هذا الكاتب البارع على شارع فى أول حى شبرا، وقد أصبح هذا الموقع من أشهر المواقع فى القاهرة، وهو بعض ما يستحقه أحمد حلمى.

وأخيرا ١٠٧ من الرسائل كتبها مصطفى إلى صديقة عمره الصحفية الفرنسية الذائعة الصيت ، مدام جوليت آدم ، وصاحبة المجلة الجديدة «نوفيل ريفو» التى كانت تحررها وترأس تحريرها ، وقد خطب مصطفى هذه الصحفية سنة ١٨٩٥ بخطاب أرسله إليها فى ١٢ من سبتمبر من تلك السنة ، فادهمها هذا الخطاب أن كاتبه رجل فى سن النضج ، فلما جاء لزيارتها بعد أن حددت له موعدا رأته شابا ناحلا بدا لها كصبى . فأكد لها أنه بلغ الحادية والعشرين وحصل على اجازة القانون من كلية «فولويز» الفرنسية ، منذ ذلك اليوم تحابا، وتوثقت بينهما علائق الود ، وبقيت له أما ، وزميلة ، ومرشدة ، وبقى لها معجبا ومخلصا . وقد كان لمدام جوليت «صالون» أو «ندوة» يتردد عليها أكبر رجالات الأدب والسياسة والحرب ، وكان من بين هؤلاء الشاعر الفرنسى بيريوتى، والكولونيل «مارشان» بطل واقعة فاشودة الشهير ، والكاتب

روستور وغيرهم . وهذه الخطابات جميعا تموج بالأفكار والصور البيانية الجميلة ، والحقائق التاريخية الخطيرة، وأسرار السياسة المصرية، والفرنسية ، والدولية، ولذلك فقد كانت تستحق تعليقا ودراسة من المؤرخين ورجال السياسة ، ولكن انقضت سنتان منذ صدرت مجموعة هذه الرسائل دون أن يقع نظرى على مجرد الاشارة إليها. وهذا البرود فى الحياة الأدبية والثقافية فى بلدنا ، يؤدى إلى خمود تلك الحياة الذى نسميه أزمة الثقافة .

ولذلك رأيت أن أتناول هذه الرسائل بالتعليق ، وأن أقدم للقارىء نماذج مما جاء فيها ، حتى يتضح بعض ما فيها من النقاش البيانية والتاريخية .

أنقل هنا خطابين قصيرين أرسلهما مصطفى كامل إلى الأستاذ عبد الرحيم أولهما فى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٦ وقد قال فيه :

حضرة أخى الفاضل .

بعد السلام أرجوكم تنتهزوا الفرصة هذه وتطلبوا من سمو مولاى أعزه الله أن يتكرم علىّ بتحديد مقابلة خصوصية أنفى فيها عن نفسى ما نسبه ذوو الأغراض لى ولكن أعلم إذا كان سموه لا يريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى حتى يتيسر لى عنده أن أعمل ما أريد فى مصر أو خارجا عنها عاجلا أو آجلا. وانى أنتظر منك الرد هذا المساء أو غدا فى الصباح لأنى لا أريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار.

دمت للوطن المحبوب ولأخيكم الصادق مصطفى كامل.

أما الخطاب الثانى فقد كتبه فى ١١ فبراير ١٨٩٦ وقال فيه :

أخى الفاضل حرسه الله

بعد التحية والسلام.. أخبركم بأنه يمل صبرى ولست أظن أن هناك داعيا لكل هذا التأخير فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلته فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتى ، وعلى رغبتكم فى محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة للبلاد وأميرها إن شاء الله وأظنكم لا تلوموني إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغكم فقد مضى فوق النصف شهر من يوم ما جئتم عندى وبلغتونى رغبة الأمير حرسه الله فى تشريفى بمقابلته.

وإنى أهديكم فى الختام مع شكرى عاطر سلامى.

مصطفى كامل

هذان الخطابان معنيان يجلوان حقيقة . كثر حولها التكهن والقول والرجم بلا دليل ولا سلطان، وأعنى بذلك حقيقة العلاقة بين مصطفى كامل ، والخديو عباس حلمى ، فقد كان تصور خصوم الحركة الوطنية الأولى ، أن مصطفى الشاب الصغير والفقير ، والذى لا سند له من السلطة ولا من نسب هو صنيعة الخديو وعملية يتقاضى منه المال وصاحب السلطة أى الحاكم ، ولكن هذين الخطابين يدلان على أن مصطفى يملك أمة نفسه، وأنه لا يتلقى الوحى إلا من قلبه، ولا يعمل إلا بإملاء ضميره ، وأنه عندما يحس انصرافا من الحاكم أو غضبا من قدره ، أو تجاهلا لإمره، تثور كرامته ، فيوجه أقسى الكلام إلى الخديو، الذى يظن أنه الآمر والناهى، وسنعود إلى نصوص أخرى وكثيرة، مشابهة حينا ، وأشد غلظة حينا آخر، يظهر منه الزعيم الشاب ، حرا مستقلا غضوبا رافضا للإهانة ، مهددا بالانفصال والقطيعة كأنه هو

الوالى صاحب الكلمة النافعة ، والواقع أنه كذلك لأنه باعث الروح الوطنية ، والمتحدى للاحتلال ، والداعى إلى الاستقلال.

أما خطاب مصطفى إلى مدام جوليت آدم فقد أرسله إليها فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ من مدينة فيينا عاصمة النمسا قال لها فيه :

سيدتى المديرة المبجلة ..

استسمحك الاذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل ، انى وصلت إلى هنا من القاهرة وفى عزمى أن أكون فى باريس بعد جولة فى بودابست وبرلين فى منتصف شهر إبريل ، وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فيه عن حالة وطنى العزيز التعسة إلى آخر درجات التعاسة، والتى ما كنا نظن أنه واصل إليها.

إن الانجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يرغبون ، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوربا - وعلى الخصوص من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمات الأخيرة قد دفعت الإنجليز إلى ظلمنا ظلما أشد مما كان ، ومما يزيد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلدكم الجميل الكريم.

وهذا النص بدوره كالنصين السابقين ، يجلو حقيقة أخرى ، شابتها الشبهات وأحاطت بها الظنون ، فقد كان بعض الناس، الذين لا يعرفون من الحياة إلا جانبها الأسود القاتم، جانب الشهوات والأغراض والمصالح الذاتية، والجرى وراء المال والنفوذ من أى طريقة وبأى ثمن ، هؤلاء ما كانوا يتصورون أن مدام «جوليت آدم» الصحفية الفرنسية الكبيرة المقام، وزوجة مسيو آدم عضو مجلس الشيوخ الفرنسى، والد

أعداء بريطانيا لأنها تتآمر على مصالح فرنسا، وتحاول اقصاءها عن مجالات النفوذ والصدارة فى أوربا وفى السياسة الدولية بعامة - هؤلاء ما كانوا متصورين أن هذه السياسية الكبيرة ذات التجربة الواسعة ، تعمل للقضية المصرية، لأنها ترى فى ذلك مصلحة لبلادها ، بل كانوا يتصورون أن مصطفى كامل عميل «للمكتب الثانى» والمكتب الثانى فى فرنسا معناه المخابرات الحربية الفرنسية، فمصطفى كامل عضو فى شعبة المخابرات التى تديرها مدام جوليت وتنفق عليها من مصروفات تلك الإدارة ، مصطفى كامل وطنيته، وطنية مصنوعة ، سرها ما يتقاضاه من مال ، وما يدعمه من نفوذ، ولذلك فهو لا يعمل لحساب أمته، بل لحساب الإدارة الأجنبية التى توجهه وترسم له الخطط.

وهذا الخطاب ، يدل على أن مصطفى كامل الشاب المصرى الصغير الناشىء يكتب لسيدة فى سن جدته وقد ماتت سنة ١٩٣٦ عن مائة عام كاملة، مندداً بسياسة بلادها، مقترحاً تغيير تلك السياسة، مبيناً أخطاءها وعيوبها. والخطاب الذى نقلنا صورته ، هو ورقة خصوصية أرسلت من مصطفى إلى الصحفية الفرنسية الكبيرة لتكون ضمن أوراقها الخاصة ، فلا يطلع عليها أحد ولا تنشر ، ولم يكن أحد من المرسل والمرسل اليه ، يعلم أنه سينشر على الناس فى يوم من الأيام ولكنها نشرت لتكشف عن نقاء صفحة مصطفى وطهره ، واستقلاله وحريته ، وأنه يمثل أمته فقط، وصنيعة مبادىء حزبه.

خطابات مصطفى كامل
إلى مدام چولييت آدم ★

من هى چولييت أولا ؟

في العدد الأسبق من الهلال ، تحدثت عن المجلد الذى أصدرته هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» بعنوان أوراق مصطفى كامل - المراسلات ..

وقد بدأت القول بالرسائل المرسلة إلى الأستاذ عبدالرحيم أحمد الذى كان صلة الوصل بين الزعيم مصطفى كامل والخديو عباس حلمى . وقد كان عبدالرحيم أحمد من خريجى مدرسة دار العلوم : ثم عين نائبا للديوان العربى للخديو ، أو سكرتيرا للشئون العربية . وقد استخرجنا من هذه الرسائل دلالاتها النفسية والخلقية لمصطفى كامل . وفى هذه الحلقة من دراسة خطابات مصطفى كامل ، يدور الحديث عن المرسل إليها مدام چولييت آدم ، وهى بذاتها المرسلة لخطابين باللغة الفرنسية إلى مصطفى، وهما مودعان بمتحف مصطفى كامل فى القلعة .

وقد كان لمدام چولييت آدم دور ضخم فى حياة مصطفى كامل وكفاحه ، فقد تبنت مصطفى ، منذ وقع نظرها عليه فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد أن أرسل إليها خطابا ، وطلب منها موعدا .

وسنصف هذا اللقاء الأول ، ونذكر وقائعه فى الحلقة التالية ، فقد كان لقاء مثيرا ومسرحيا يليق بالكاتب الخطيب الذى كان فى الحادية

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٤ .

والعشرين من عمره ، ومع ذلك فهو يحلم ببعث مصر الهرمة فى مصر الفتاة ، ويخطب ود كبيرة الصحفيات الفرنسيات فى عهدها ولكن على الرغم من أن المصريين سمعوا اسم جولييت آدم مرارا ، وقرأوا عنها كثيرا فما أقل الذى يعرفونه عن حياتها ، ودورها العظيم فى سياسة بلدها فرنسا ، والأصول التى انحدرت عنها ، واسم «آدم» الذى تحمله من يكون وماذا أسدى لوطنه ؟ .

ولهذا فقد رأيت أن أقصر الحديث فى هذا المقال على مدام چولييت آدم ، فأقدمها للقارئ العربى ، تحية لها ، وإكراما لدورها ، وردا لبعض جميلها ، وهى تعد شخصية فذة من كل جانب وبكل معيار ، حسب القارئ أن يعلم أنها أتمت مائة سنة كاملة ، فقد ولدت فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٦ ، وماتت فى نفس الشهر سنة ١٩٣٦، بعد أن أبرمت المعاهدة المصرية البريطانية فى هذه السنة بقرية «فريرى» من إقليم بيكاردى من أقاليم فرنسا ، وكان والدها جراحا واسم الشهرة هو الدكتور لمبير والذى كان مشغول الخاطر بالعمل السياسى فى بلاده ، وكانت ميوله جمهورية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع باريس فى حين كانت والدتها حفيدة القائد «سيرين» الذى ذاع صيته فى حروب الملك لويس السابع عشر ، وقد درست چولييت فى كلية الآداب وحصلت على إجازتها ، وقد تزوجت مرتين ، أولاهما وهى بعد صبية فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان زوجها الأول محاميا من كبار المحامين هو «وى لاماسين» فلما مات تزوجت فى سنة ١٨٦٨ ، بأدمو «آدم» أحد كبار الحزب الجمهورى ، الذى اختير عمدة لباريس ، ثم ما لبث حتى انتخب عضوا دائما بمجلس الشيوخ «السناتو» بعد

تأسيس الجمهورية الثالثة ، ثم انتخب رئيسا لهذا المجلس ، فلما توفى زوجها ، نذرت مدام چولييت آدم نفسها للعمل الوطنى والكتابة فى الصحافة ، والتأليف ابتداء من سنة ١٨٧٧ .

وحينما سطع نجم چولييت آدم فى عالم التأليف والتفكير ، لم يكن يناظرها من كاتبات الجنس اللطيف سوى «چورچ صاند» الكاتبة الذائعة الصيت ، و«دانيل سترن» و «جيرار دين» وقد كانت بداية شهرتها ، حدثا أدبيا كبيرا فى فرنسا ، فقد أصدر المفكر الفرنسى الشهير «برودون» كتابا حمل فيه على أثر حال النساء وهاجم بعنف «چورچ صاند» وقد كانت تتشبه بالرجال ، وتتزيا بزيهم ، وزميلتها دانيل سترن ، وحقر مدارك النساء ، ولم يكد ينشر الكتاب ، حتى تخاطفته الأيدى ، ونال تأييدا ساحقا ، وجنبت «جورج صاند» عن التصدى لـ «برودون» الكاتب اللاذع ، صاحب السطور الأدبية التى لا تقاوم آنذاك إلا أن مدام چولييت آدم ، لم تخيفها شهرته ، ولا انتقاد الكتاب الناشرين لغضبه ، ووضعت كتابا فى الرد عليه ، ثم طافت به على الناشرين ، فأجفلوا جميعا من مواجهة «برودون» إلا أن ناشرا قليل الشهرة ، حديث العهد بدنيا النشر ، يقوم بنشر كتابها ، قائلا : أنا ناشر مجهول ، وأنت كاتبة مجهولة ، فلن يخسر «أحدنا شيئا» ، وراج الكتاب وعرف اسم چولييت آدم التى جرؤت على أن تواجه الأسد فى عرينه ، وبدأت الأصوات المؤيدة لها ، والمعارضة لملك الكتاب الفرنسيين فى ذلك الوقت ، تعلو ، فى حين آثر «برودون» الكاتب الفحل الصمت أمام حملة «چولييت آدم» المكتسحة والمتقدة ، ومنذ هذه الواقعة الأدبية الكبيرة وشهرة چولييت آدم الكاتبة الشابة ، يتسع نطاقها

فيتردد اسمها ، ويكثر قراؤها ، فواصلت التأليف حتى بلغت فى منتصف عمرها فوق الخمسة والأربعين كتابا ، أما الصحف والمجلات فقد نشرت لها آلاف المقالات والبحوث والأحاديث ، وقد شملت اهتماماتها مساحة واسعة فى مجالات ودروب الفكر ، حسبك أن تعرف اسماء بعض كتبها لتدرك مدى اتساع جهدها الأدبى ، فمنها «خطرات فلاحة» و«السياحة الشرقية» و«ديانة الصينيين» و«الوثنية والمسيحية» و«سياحة الألب» و«العقيدة تحرك الجبال» و«التربية النفسية» و«البيت المعمور» و«تقلبات السياسة» و«مدارس الشعب» و«المسارح المحببة» و«الوطن المجرى» و«الوطن البولونى» و«مدينة اليونان» .

وإن كانت چولييت آدم الأديبة الناقدة ، والمؤرخة وصاحبة الخواطر الشعرية قد ظفرت بأعلى مقام بين مواطنيها وقرائها فى فرنسا وخارجها ، إلا أنها كانت بمثابة القائدة والزعيمة فى كتبها الوطنية التى كتبتها لتثير الفرنسيين ضد الألمان الذين سلبوا بلدها الألزاس ، واللورين ، وضد الانجليز الذين جعلوا همهم الأكبر أن ينافسوا فرنسا ، ويسدوا طريقها إلى الزعامة ، ولعل أعظم دليل على هذه المكانة أن أحد كتبها الموسوم «بالحرب السبعينية» قد طبع ١٥٠ طبعة ، وهو رقم لم يبلغه كتاب آخر فى فرنسا وحدها ، بل فى عالم النشر كله ، فالكتاب الذى يطبع فى فترة حياة المؤلف عشر مرات يعتبر حدثا لا يقاس عليه .

ولما أحست «چولييت آدم» أنها باتت فى حاجة إلي أداة نشر واتصال بالجماهير ، تطبع لها وتلبى احتياجاتها ، أصدرت مجلة «لانوفيل ريفيو» المجلة الجديدة سنة ١٨٧٩ ، وهى فى حقيقة الأمر كتاب

قائم برأسه ، إذ لم يقل العدد الواحد من هذه المجلة عن ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير ، كانت كلـــها صدى لفكر صاحبة المجلة ، وان اصبحت المجلة ، ندوة لكبار الأدباء والساسة ، ومدرسة للأجيال الناشئة من هواة الأدب ومحبيه ، ولعلنا نغنى أنفسنا عن الجهد فى بيان قيمة «المجلة الجديدة» ودورها الأدبى والسياسى بمجرد ذكر بعض الذين كتبوا فيها وترددوا على دارها ، فمن هؤلاء «جى دى موباسان» منشئ فن القصة القصيرة و«بول بورجيه» و«أناتول فرانس» و«ليون دوديه» و«ميرلوتى» و«كاميل موكليز» وأخيرا مصطفى كامل ، الذى أصبح بعد سنة ١٨٧٥ من كتاب المجلة الجديدة ، ومن أصدقاء كتاب المجلة ، يجالسهم ويكسب اعجابهم ، ويضمن تأييدهم لكفاح مصر ضد الاحتلال البريطانى .

ولما قرأ السياسى الفرنسى - اليهودى - برنامج المجلة الجديدة السياسى ، أعلن أن رجال وساسة فرنسا حتى إذا اجتمعوا لا يستطيعون أن يقوموا ببرنامج هذه المجلة فى السياسة الخارجية ، ولذلك فأنا أؤكد فشلها ، ولكن ثبات صاحبة المجلة وإيمانها ببرنامجها ، وتكريس حياتها وجهدها وصلاتها وصداماتها لهذه الصحيفة ولما تدعو له ، كتب لها النجاح مما اضطر «جامبتا» إلى الإقرار بخطئه ، واعترافه بأن نجاحها كان معجزة .

ولقد كسبت مدام «چولييت آدم» بسبب تطرفها الوطنى ، ووقوفها فى صف جميع الحركات الوطنية خارج فرنسا ، كالحركة المصرية ، وكفاح بولندا وكفاح المجر ، وقد كان ممن كسبت عداوتهم البرنس بسمارك ، مستشار ألمانيا الداهية ، وساسة بريطانيا الذى كانت تصطليهم وتصلى سياستهم فى مصر شواظا من نار .

ولما لم تكن «المجلة الجديدة» عملا صحفيا غاية فى الكسب ، وإنما هدفه الدعوة الوطنية ، والبعث الأدبى والفكرى فقد كبرت خسارتها المادية حتى بلغت نحو مليونى يعنى ثمانين ألف جنيه انجليزى ، مما اضطرها إلى النزول عنها إلى جماعة من أبنائها الأدباء سنة ١٨٩٩ ، واكتفت باصدار نشرة أدبية عنوانها «الكلمة الفرنسية فى الخارج» ، وقد كان لهذه «الكلمة الفرنسية» الموجزة أثر بالغ فى الدوائر السياسية الدولية ، فكان خصومها يخشونها ، وأصدقاؤها ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، فلما بلغت السبعين توفرت على كتابة مذكراتها ، وقد نشرت إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» ستة أجزاء من تلك المذكرات ، ولما كانت تلك الحرب انشغلت بتقديم المعونة للمحاربين ، وإرسال الهدايا لهم ، ومعاونة عمليات الإسعاف ، وتحرى أحوال الأسرى . وعائلات المقاتلين الذين ماتوا فى ميادين القتال ، فلما ايقنت مقتل الضابط الشهير «جوزيف ماديه» زوج حفيدتها الذى كانت تحبه كابن لها ، أصدرت كتابا بعنوان «حياة الأرواح» ولأنها كتبته تحت وطأة الجرح الذى أصاب قلبها ، تأثر به كل من قرأه فراج كأشهر كتبها .

ولعلنا لا نجد عبارة موجزة تصف «چولييت آدم» وتعدد فضائلها كهذه العبارة التى جاءت فى مقال أوقعه الكاتب الذى ذاع صيته فى أوائل القرن الحالى «كاميل موكلير» ، فقد قال :

«لست أظن أن بين السيدات اللواتى اشتغلن بالأدب والسياسة فى الماضى والحاضر واحدة مثل مدام چولييت أدبية .

إننا كنا ننفر بغير اختيارنا من النساء ذوات الأدمغة الجامحة ونستهجن استرجالهن أما هذه السيدة الجليلة القدر ، فإنها مثال

المرأة الكاملة والإنســان النــادر الوجود لها جمال مشهور ولطف كنسمة العطر ، تجمع إليهما سيرة نقية ، فى صفحة بيضاء ، ووقارا كله الشمم وعلو الهمة والآباء ، فقد شهدت وقائع رائعة ، ووالت خطباء أمم ، كما عرفت أسرارا خطيرة ووقفت على ضمائر أطوال الفلاسفة وفطاحل السياسة ، وأثرت بقوتها النفسية وسلطانها الأدبى فى المسائل العامة تأثيرا كبيرا ..»

ويهمنا كمصريين أن صلتها بمصر الروحية والسياسة ، توطدت منذ أن عرفت مصطفى كامل، واحبته وأعجبت به كبطل، وقدرته كإنسان، حتى تبنته فتبادلا الرسائل التى جمعت فى كتاب بعنوان رسائل مصرية فرنسية ، كانت آية من آيات الأدب السياسى والبلاغة الروحية ، وقد زارت مصر فى فبراير سنة ١٩١٤ فاحتفى بها مصطفى كامل وحزبه غير المعلن الذى كان آنذاك أقوى الأحزاب المصرية ، وأقبل المصريون على الوقوف أمام الأماكن التى تزورها وأعلنوا لها بكل وسيلة حبهم لها وامتنانهم منها ، وكتب مصطفى كامل فى اللواء ، جريدة الوطنيين المستبسلين من أجل الاستقلال ، فى عدد ٢٤ فبراير مقالا طويلا جاء فيه :

«نعم ! منحها الخالق كل ما يرجوه الإنسان فى حياته مالا وجلالا وعلما وأدبا وسمعة طائرة ، ونفوذا جيدا ، وقد استخدمت كل هذه المواهب لخدمة وطنها» .

وقد استقبلها الخديو عباس خلال اقامتها فى مصر ، فهاج هائج اللورد كرومر واحتج احتجاجا صارخا باعتبار أن مدام چولييت آدم هى من أعدى أعداء بريطانيا ، ولكن الخديو لم يحفل بهذا الاحتجاج وقال لكرومر أنا استقبلها باعتبارها من أعظم أصدقاء مصر .

وقد وضعت مدام چولييت أدم كتابا رائعا عن تاريخ مصر السياسى الحديث ، بعنوان مدام انجلترا فى مصر ، كان موسوعة تاريخية وسياسية ، وقد كتبت فى إهداء هذا الكتاب ، ما نصه «إلى الأمة المصرية الكبيرة النبيلة ، إلى ابنى المجيد البطل المقدام «مصطفى كامل» إلى الذى أفنى حياته فى سبيل دفاعه الوطنى عن استقلال مصر وحرية وادى النيل ، وإلى شقيقه ابنى على فهمى كامل الذى داوم على الجهاد بعزم صادق وعقيدة راسخة» .

وقد ترجم على فهمى كامل هذا الكتاب إلى العربية ، وقدم له بمقدمة جميلة ، ومليئة بالمعلومات والحقائق ، وقارئها يشعر بمدى الغبن الذى نال هذا المجاهد المحمود الفضل .

السطور الأخيرة فى
قصة عباس الثانى ★

السنة التى تجرى فيها أحداث هذه القصة ، هى سنة ١٩١٤ . وفى هذه السنة كان خديو مصر عباس حلمى الثانى ، يصطاف فى باريس ، لا يدرى ماذا سيصيبه بعد شهور قليلة ، غير مدرك أن لقب «*الثانى*» يحمل فى طياته لعنة الذى يتحلى به . فغليوم الثانى امبراطور ألمانيا ، ونقولا الثانى قيصر روسيا ، وعبدالحميد الثانى سلطان تركيا ، وفؤاد الثانى ملك مصر ، وعشرات غيرهم سقطوا من عروشهم ، أحياء ، أو سقطوا موتى .

كان الخديو عباس حلمى الثانى فى فرنسا ، فى تلك السنة كعادته كل سنة ، يتلقى علاجه فى مدن المياه ، ويجدد نشاطه ، ويلقى من النساء والرجال من يحب أن يلقى بعيدا عن أنظار أصحاب الفضول ، وإن لم يكن بعيدا عن أعين الرقباء من إدارات المخابرات التابعة لبريطانيا وتركيا وفرنسا وربما ألمانيا.

وكان من عادة الخديو ، بعد أن يستحم ويستجم فى فرنسا وباريس أن يسافر إلى استانبول ، حيث يلقى والدته «أم المحسنين» فى قصرها المطل على البوسفور فى ضاحية «بيك» . وكانت

★ هلال - نوفمبر سنة ١٩٨٢.

الأمـــيرة الوالدة تمـــضى إلى شواطئ الأستانة على ظهر اليخت «المحروسة» ومعها حاشيتها ، ويذهب ابنها الخديو إلى عاصمة الخلافة الإسلامية ، دار السعادة ، فى القطار ..

ولم يكن قد نشب حتى تلك الأيام ، خلاف يستحق الذكر بينه وبين الخليفة سلطان تركيا ، السلطان عبدالحميد ، ومع ذلك فقد تلقى الخديو تحذيرات كثيرة وجدية ، من أن حكومة استانبول تفكر جديا فى التخلص منه ، إلا أنه لم يحفل كثيرا بهذه التحذيرات ، وإن كان يعلم يقينا أن ابن عمه الأمير سعيد حليم رئيس وزراء تركيا ، ينفى عليه أن يكون خديو مصر ، وانه كان صاحب الحق فى وراثة عرش هذه البلاد ، لولا أن الخديو اسماعيل ، نجح فى تغيير نظام وراثة العرش ، بفضل ما بذله من رشاوى ضخمة لوزراء الخليفة .

وقد شاء القدر أن يبقى فى باريس حتى بعد يوم ١٤ يولية سنة ١٩١٤ ، مع أنه كان معتزما تركها قبل ذلك أى فى أوائل ذلك الشهر ، لولا أن رئيس جمهورية فرنسا ، دعاه إلى حضور احتفالات ١٤ يولية السنوية ، أى احتفالات العيد القومى الأكبر لفرنسا ، ولذلك لم يصل إلى استانبول إلا فى يوم ٢٣ يولية ، التى كانت تحتفل بدورها باليوم الأول من يومى عيد قومى تركى ، وهو عيد الدستور الذى أعلن فى ذلك اليوم سنة ١٩٠٨ فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى الذى لم يلبث حتى عزل فى سنة ١٩٠٩ لما بدا منه من نوايا السوء ضد النظام الدستورى الذى أجبر على إعلانه ، ولما كانت العادة تقضى باحتجاب الصحف التركية عن الظهور فى أيام الأعياد ، فقد بقى وصول الخديو إلى العاصمة التركية مجهولا إلا من الدوائر الرسمية . وبعد أن قام

الخديو بتحية والده ، ذهب إلى عدوه اللدود ، ومنافسه الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم أى كبير الوزراء فى مقر رياسة الدولة التى كانت تسمى «بالباب العالى» . فقد أرسلت الحكومة إلى الخديو حرسا صاحب موكبه من مقر الوالدة إلى مقر الدولة ، فسارت عربته يحف بها الخيالة .

وما كادت هذه العربة تدلف إلي مدخل الحكومة ، حتى اندفع شاب إلى الأمام مرسلا إلى الخديو أربع رصاصات . فأصابته الرصاصة الأولى فى خده ، فى حين استقرت الرصاصات الثلاث ، فى كتفه وذراعه ، وقد وقف الخديو بصفة تلقائية فى العربة ، وحاول رمزى باشا طاهر ، كبير ياوران الخديو أى كبير حرسه أن يقفز من عربة الخديو ليلحق بالقاتل ، إلا أن ضابطا من الحرس التركى حال بينه وبين تنفيذ رغبته وأطلق الرصاص على القاتل ، فقتله فى مكانه ، وبذلك انعدم الأمل تماما فى معرفة الذين خلف الفاعل الأصلى من محرضين وشركاء . وقد كانت هذه هى العادة المألوفة فى بلاد البلقان جميعا . يقتل الفاعل أو يهرب ، فتقفل ملفات التحقيق ويخرس كل صوت .

وقد نقل الخديو إلى المستشفى ، حيث رقد تحت العلاج ، وقد مضت أيام طويلة والأمل فى نجاته ضعيف إلى أبعد حد ، لأن الإصابة كانت جسيمة . ولم يكن - بطبيعة الحال - فى وسع الجريح أن يستقبل زوارا، ولكنه تماثل للشفاء ، فاستأجر عدد من كبار الموظفين والأعيان فى مصر ، باخرة حملتهم إلى استانبول ليقابلوا ولى الأمر ، وتهيأ الخديو للعودة إلى بلاده ، حيث كانت الحاجة إلى وجوده شديدة ، فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت تدق أبواب العالم بشدة ، ولم يكن

وجود صاحب الدولة حسين رشدى كنائب للخديو أو قائم مقام له ، يغنى عن الحاكم الأصيل . والحق أن المعلومات التى كان يرسلها نائب الخديو فى مصر ، لسيده فى استانبول قليلة ، مما أقلق هذا الأخير ، لقلة ثقته فى شجاعة وولاء نائبه حسين رشدى ، والحق أنه حامت حوله أمانة رشدى ، وحسن أدائه لواجبه كنائب للخديو شبهات كثيرة ، حتى لقد قيل إنه لو أدى واجبه فى تلك الأيام على وجه طيب ، لما تطورت الأحداث إلى عزل الخديو ، وإعلان الحماية البريطانية على مصر . ولقد طمأن الخديو أول الأمر إلى سلامة مصيره ، فقد تلقى وهو على فراش المرض وبعد إبلاغه من المستر «يومو» القائم بأعمال السفارة البريطانية فى الاستانة تاكيدات بأنه لا خوف على عرشه ، ومن ثم فانه لا داعى لسرعة عودته إلى مصر ، إلا أن الخديو لم يلبث أن تلقى – بغضب أكثر من الدهشة – فى ٢٧ من سبتمبر أن السفير البريطانى «السير مالت» نفسه يريد أن يقابل الخديو فى ضاحية «بيك» حيث قصر الوالدة ، وكان السفير قد عاد من اجازته فى بريطانيا ، وتمت المقابلة ، فلم يضيع السفير وقتا كثيرا فى عبارات المجاملة أى فى السؤال عن صحة الخديو ، إذ أنهى إلى مضيفه فورا بأن الحكومة البريطانية ترجو من الخديو أن يترك البوسفور ، ويسافر إلى أوربا ، حيث أعدت له بريطانيا «ڤيلا» فى مدينة نابولى ، وقد تشاءم الخديو من هذا الطلب ، وكان هذا من حقه . فنابولى كانت موضع اقامة جد الخديو ، أعنى الخديو اسماعيل باشا ، عند عزله عن عرش مصر فى يونية سنة ١٨٧٩ ولم يكن السفير البريطانى مجاملا فقد أضاف إلى طلبه الجاف ، طلبا زاده جفافا ، مؤداه أن يسافر الخديو إلى إيطاليا ، بأقصى سرعة ممكنة حالما تسمح له صحته بذلك .

ورد الخديو عباس على هذا الطلب بقوله إنه لا يريد من أية حكومة أن تبحث له عن مسكن ، وأنه في وسعه أن يدير لنفسه محل الاقامة الذى يرضيه ، وأنه على أية حال ، لا يقوى ، ولا يريد أن يقيم فى نابولى . والحق أن الخديو تاق إلى قضاء بضعة أسابيع فى مصر ، حيث كان أهلها ينتظرون عودته ، بوصفه الحاكم الفعلى لمصر ، إن لم يكن قد صدر بعد ، أى شئ يسقط عنه هذه الصفة .

ودوى فى الحجرة التى ضمت الخديو المصرى والسفير البريطانى قول السفير - كفرقعة عنيفة - انك لن تعود إلى مصر بعد اليوم .. ومن ثم يمكن اعتبار عزل الخديو عن عرشـــه قـد تم على النطق الذى صدر عن الســفير البريطانى في ذلك اليوم : الســابع والعشــرين مــن سبتمبر سنة ١٩١٤ فى مدينة الاســتانة أو استانبول أو القسـطنطينية ، كيفما شئت .

ولم يفقد الخديو عباس حضور ذهنه عندما سمع بهذا التصريح الصاعق حتى حينما عاد السير «ل . مالت» إلى تكرار طلبه : يجب أن تسافر فورا إلى «نابولى» ، فقد طلب أن يسمح له بالسفر إلى سويسرا . لأنه لا يطيق العيش فى إيطاليا ، بيد أن هذا الطلب رفض فى الحال ، من جانب السفير الذى أعلن أن إيطاليا وحدها هى المكان المناسب فى نظر السلطات البريطانية . وقد رأى الخديو أنه لا يليق بمقامه أن يدخل فى جدال مع السفير ، فسكت وهو ينوى أن يبقى حيث هو ، مادام أنه لا يطيق فكرة السفر إلى إيطاليا ، ولا سيما أنه كان لايزال فى دور النقاهة . والظاهر أن بريطانيا لم تبذل جهدا آخر لارغام الخديو على تنفيذ أمرها . على أنه لم تمض سوى أيام قليلة ، حتى دخلت تركيا فى

الحرب ضد بريطانيا ، وحليفتها فرنسا ، فى بداية الحرب ، ثم إيطاليا بعد المرحلة الأولى من تلك الحرب .

ولما كان الخـديو أيضا غير راغـب فى أن يرتبط بأحد طرفى الحرب ، لقد قرر السفر إلى سـويسرا ، باعتبـار أنها دولـة محايدة وقد اتخذ مقـرا له بعد ذلك فى برن وجنيـف ، فـراح يتنـقل بينهما حتى سنة ١٩١٧ .

والطريف أن أكثر المؤرخين ، تأثروا بالقرار البريطانى الذى صدر فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩١٤ بإعلان الحماية البريطانية بما أعلنه ذلك القرار من أن الخديو انحاز إلي جانب الأعداء ، ولذلك استحق أن يعزل عن عرشه . من ذلك ما قاله السير فالنتين تشيرول فى كتابه «المسألة المصرية» الصادر سنة ١٩٢٠ ، وهو يعتبر مرجعا متداولا : «ان الخديو ترك بلاده ، وأنه وضع حدا لدوره كخديو بخلعه القناع عن وجهه ، بعد أن لبسه بنجاح زمنا طويلا ، منحازا انحيازا صريحا مع الأعداء حينما اندلعت نيران الحرب» .

ويدافع المستر «بيمان» فى كتابه «عزل خديو» عن عباس حلمى بقوله إن الخديو كان مريضا وملازما فراشه لمدة ستة أسابيع ، وفى هذه المدة اتهم أنه انحاز صراحة للأعداء ، فى هذا الوقت الذى لم يكن فى وسعه أن يأتى بحركة ذات قيمة .

والواقع أنه لم يذكر أى أسباب لخلع الخديو ، سوى هـذا الذى ذكرناه من أنه انحاز للأعداء ، ولكن قيل بعد ذلك أن خلعه كان بناء على نصيحة من اللورد كتشنر الذى كان مندوبا لبريطانيا فى مصر مباشرة قبل حرب سنة ١٩١٤ ، ثم قيل بل كان هذا العزل بناء على مشورة

اللورد كرومر ، المندوب البريطانى السابق على مصر . والمعروف أن الرجلين - كرومر وكتشنر - كانا من ألد أعداء عباس حلمى ، وانهما ضاقا به ولطموحه وميوله الاستقلالية ابان وجودهما فى مصر .

فيعود «مستر بيمان» إلى القول أن تحرياته ومجهوداته فى كشف السبب المباشر لعزل الخديو عباس ، فلم يجد اثرا ، لصلة كرومر أو كتشنر بهذا القرار ، وان كان الرجلان - كما سبق القول - كانا يسيئان الظن بميول الخديو عباس ، ضد بريطانيا ، وإعجابه بالمانيا ، وأمله فى أن تعين على تحرير مصر ، أو تشارك فى هذا التحرير .

لكن «بيمان» يقول إن الكثيرين من بطانة الخديو ، كانوا يختلفون معه فى الرأى ، ولكن لم يتهمه أحد من هؤلاء ، بأنه مأفون أو قصير النظر ، ويفهم أن «عباس» كان يعلم أن بلاده فى حاجة إلى من يحميها من العدوان الخارجى ، وأنه قرأ الكثير عن أساليب الحكم الألمانى العنيفة بحيث لا يمكن أن نفكر فى أن يستبدل بالرعاية البريطانية الأبوية ، طريقة سوق العبيد الألمانية .

وهذه شنشنة نعرفها من المؤرخين الأوربيين الذين درجوا على القول بأن الحاكم المصرى ، لابد أن يقارن بين دولتين أوربيتين دون أن يفكر قط فى استقلال بلاده انتفاعا بتنافس الأقوياء وخلافهما .

وقد استرسل بيمان بعد ذلك فى دفاع مجيد عن «عباس حلمى» واستنكار شديد لقرار عزله الذى كان يراه بلا سبب ، ودون أن يعود حتى على الحكومة البريطانية بأى نفع ، وفى رأيه أن التهمة الوحيدة التى ألصقت بالخديو منذ عهد كرومر ثم كتشنر كونه «صانع مؤامرات»

وقال إن سند هذه التهمة لا يقوم على صحتها ، بل على أنها تهمة عائمة، لا تعرف لها حدودا ، بل قد لا تعرف لها معنى . فما هو المقصود بالمؤامرات ، ومتى تلقيت هذه المؤامرات ، وماذا حققت من خير.. واشتدت حماسة مستر بيمان فقال إن كرومر وكتشنر لم يكونا فوق شبهة التآمر ، وإن كان الشائع عند الغربيين أن الشرقيين يميلون إلى الدسائس ، وحبك المؤامرات .

فالانجليز عزلوا أميرا محترما لا عند المصريين وحدهم ، بل عند أمراء المنطقة أمثال آل سعود في نجد ، والإمام يحيى فى اليمن ، وأمير المحمرة ، وبعض الأمراء فى آسيا ، ولو استمع الانجليز لنصائحه لكانت أغلى من الملايين من الجنيهات الذهبية .

ولقد شمل الخديو عباس الأزهر ، هذه الجامعة العريقة بعطفه ، وعنايته ، بعد أن تسلمها فقيرة ، فقدت مكانتها ، فبذل لها غير قليل من ماله ، واستحث غيره من الأعيان والأغنياء المصريين ، على التبرع لها ، فاستعادت رداءها القديم ، واهتم بها الرأى العام المصرى .

ونفى الكاتب ما أسنده الانجليز إلى الخديو من أنه كان مكروها للجماهير ، وقال إنه بالعكس كان المصريون متعلقين به ، ولو قيض له أن يعود إلى مصر ، لاقيمت لعودته الأفراح فى كل مكان من القاهرة إلى الخرطوم . ولعل الكاتب لا يعرف أن المصريين عاشوا أجيالا يسمعون من أفواه أطفالهم غناء ، يبدأ بعبارة «عباس جى» . وقد بقى الملك فؤاد وهو عم عباس حلمى ، والذي حل محله على العرش بعد وفاة السلطان حسين الذى كان أيضا أحد أعمام عباس حلمى . بقى هذا الملك فى خوف من عودة ابن أخيه عباس ، ويتصور فى كثير من حركات بعض الأعيان الذين كانوا يعرفون ، مؤامرة لخلعه .

ولذلك كان لابد من أن تعمل بريطانيا ويعمل الملك فؤاد كل ما فى وسعهما لحمل الخديو عباس على الإقرار بالنظام الملكى القائم ، وبولى عهد الملك ، وأن ينزل عن كل حق له فى ميراث العرش . وقد حدثنا بيمان طويلا عن المفاوضات التى دارت بين ممثلى بريطانيا الذين يقومون بالوساطة بين الملك وابن أخيه المعزول ، لينتزعوا من هذا الأخير وثيقة النزول عن حقوقه فى الملك والعرش ، وعن كل ما كان يملكه من أطيان شاسعة وعمارات وعقارات فى مصر ، واستمر ذلك طويلا دون أن يتحقق شئ ، حتى جاء اسماعيل صدقى باشا ورأس الوزارة ، وكانت السن قد تقدمت بالخديو عباس ، واستقر الملك فؤاد على عرشه ، وتضاءل الأمل فى أن يعود الخديو إلي وطنه ، وان يعلو ثانية عرشه فأصبح ممكنا الحصول على الوثيقة المطلوبة . وقد تم ذلك فى وثيقة أعلنت فى ١٢ مايو سنة ١٩٣١ ، ننقل منها :

قال الخديو عباس فى بداية الوثيقة :

«إنى مؤمن بأنى خدمت بلادى بأمانة وإخلاص ، وأنى كرست لها مدى ثلاث وعشرين سنة ، بالرغم من دقة الظروف ، كل قواى وخير أيام حياتى ، وإنى أتمنى من صميم قلبى سعادة مصر ورخاءها .

وقد تتبعت عن كثب ما أحرزته البلاد ، وما لا تزال تحرزه من أسباب التقدم فى جميع النواحى ، وأنى مغتبط بما أراه من خطاها الثابتة فى سبيل توثيق استقلالها والتوفيق بين نظامها السياسى ، وبين حاجاتها وأمانيها .

وأورد منى فى تحديد موقفى حيال نظام مصر السياسى وتأكيد

إخلاصى نحو ذات ملكها المعظم ، فإنى أعلن اتباعى الدستور المقرر بالأمر الملكى رقم ٧ لسنة ١٩٣٠ ، وأصرح أنى سأتوخى فى جميع الظروف خطة مطابقة للنظام المقرر لقوانين البلاد ، وعلى وجه الخصوص أعلن التزامى للأمر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية وللقانون نمرة ٢٨ لسنة ١٩٢٢ الخاص بإقرار تصفية أملاكى وهما جزآن لا يتجزآن من الدستور المصرى ، ولقانون التضمينات نمرة ٢٥ لسنة ١٩٢٢ وأعلن اتباعى لها جميعا .

وختم الخديو هذه الوثيقة باقراره بأن الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل ملك مصر الشرعى ، وانه لذلك يعلن تنازله عن كل دعوى على عرش مصر، كما أعلن تنازلى عن كل مطالبة ناشئة عن أنى كنت خديو لمصر أيا كان وجهها سواء عن الماضى أم عن المستقبل .

وانتهى إلى الدعاء للملك بصالح الدعوات وأن يحيط ولى عهد المملكة الأمير فاروق بعين عنايته ، وليزيد فى إسعاد مصر فى حاضرها ومستقبلها » .

وبهذا الكلام ، أسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر استمرت أكثر من ثلاثة وعشرين عاما لعب فيها الخديو دورا كبيرا جدا ، كاد يكون فى بعضه دعما وطنيا ، حين وضع يده فى يد مصطفى كامل ، وأيد كفاحه الوطنى واصطدم بكرومر وكتشنر ، ثم انقلب بعد ذلك مواليا للانجليز بعد اتفاق سنة ١٩٠٤ التى أبرمت بين بريطانيا وفرنسا ، والتى عرفت بالاتفاق الودى والتى أطلقت بمقتضاها يد بريطانيا فى

وادى النيل ، بدون معارضة ولا منافسة من فرنسا . وقد عبر كرومر فى كتابه «عباس الثانى» عن . ضيقه بنشاط عباس وحيويته وقال بصراحة لقد «حيرنى هذا الشاب» .

إلا أن ما ساقه لنا «بيمان» فى كتابه ، يرينا كيف يهون الملوك على الدول الاستعمارية ، حتى يستطيع سفير الدولة المستعمرة أن يعزل الملك عن عرشه بكلمة واحدة ، فى حين أنه لو فكر فى عزل أحد خدمه ، لتحرج وتردد ، وخجل من أن يعلنه بالفصل . وهو درس ، يرينا أن هذه الدول ، ليس لها صديق تحرص على مودته ، أو تراعى اعتبار كرامته ، فمن كان فى خدمتها ، تغدق عليه من العطف والمال ، ومن قامت الشبهة بلا دليل فى وفائه وولائه ، يطرد فى غير رحمة .

عبدالمنعم عبدالرءوف وأكبر قضية عسكرية فى تاريخ مصر الحديث ★

غاب عن دنيــانا هذه الايام الضــابط الطيار عبد المنعم عبد الرءوف، وهو اسم نجده في كل مذكرات أو كتب تناولت تاريخ ثورة ٢٣ يوليو .

لم يشذ عن هذه القاعدة لا ضابط ولا مؤرخ . ولم تعرف مصر، عبد المنعم عبد الرءوف، بوصفه ضابطا من تنظيم الضباط الاحرار، بل عرفته فى مناسبة أخرى، هزت مصر والوطن العربى، هزا عنيفا وبقيت تشغله لفترة طويلة، وتبعث فى الوقت نفسه، امالا فى نفوس الوطنيين الذين كانوا يمنون انفسهم بقيام حركة تمرد أو مقاومة ، تقف فى وجه الانجليز، وكان الامل الاكبر أن تنبعث هذه الحركة من صفوف العسكريين المصريين، أى ضباط الجيش، ولا سيما الشبان منهم . فالجيش هو المنظمة التى تضم أقدر المصريين على مقاومة الانجليز ، لأنها :

أولا تتكون من مجموعة غير قليلة من المصريين أصحاء البدن، المدربين على حمل السلاح واستعماله، وهى فى الوقت نفسه أكثر

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٥ .

المصريين احساسا بما يلحقه الجيش البريطانى من العار والاهانة بشرف مصر، وبجيشها .

وثانيا لان اتفاق الضباط المصريين بحكم كونهم مقاتلين ، على رفض الاحتلال ، وكراهيته يهيئهم لان يكونوا طلائع المقاومة ، ومصدر الروح الوطنية فى البلاد، واجتماعهم فى أماكن مشتركة لأوقات طويلة، يتيح لهم تبادل الرأى والتحضير للعمل الوطنى الشامل .

كانت المناسبة التى عرفت فيها مصر، حدثا ضخما تمتزج فيه المجازفة المتسمة بالبطولة والشجاعة والمناداة بالعمل السياسى المخطط له والمدبر ، ففى مايو سنة ١٩٤١ ، علمت الدنيا كلها ان رئيس اركان حرب الجيش المصرى الفريق عزيز المصرى ، حاول الخروج من مصر فى طائرة عسكرية، تولى قيادتها اثنان من ضباط سلاح الجيش العاملين .

إن هذين الضابطين هما النقيبان: عبد المنعم عبد الرءوف ، وحسين ذو الفقار صبرى وان الطائرة سقطت بركابها فى ناحية قليوب بعد أن اصطدمت باسلاك كهرباء فى هذه المنطقة ولم يعد لمصر، شغل يشغلها ولا العرب، إلا التحدث عن هذه الحادثة التى لم يسبقها شئ مثلها ، وترديد اسماء ابطال هذه المجازفة عزيز المصرى باشا، والضابطين عبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبرى ثم متابعة مجريات المحاكمة العسكرية امام المجلس العسكرى العالى الذى شكل من خمسة من كبار الضباط لمحاكمة هؤلاء الضباط وحفظت هذه القضية العسكرية بعد ذلك وأفرج عن الضباط الثلاثة وعاد الضابطان الشابان الى عملهما فى الجيش ، ولكن فى غير سلاح الطيران .

لم يعد اسم عبد المنعم عبد الرءوف يذكر، حتى فوجىء المصريون فى صباح يوم ٢٣ من يولية ١٩٥٢ بثورة عسكرية اقتلعت الملك ثم الملكية من جذورها ، ثم استقرت الثورة، واخيرا بدأت الكتب والمقالات والبحوث تظهر لتروى وقائع ميلاد الحركة التى دبرت للثورة ونفذتها ، وقد اجمعت كل هذه المراجع على شخص واحد، هو ان عبد المنعم عبد الرءوف ، كان ضمن اعضاء الخلية الأولى من خلايا الثورة، وانه كان الرجل الثانى بعد جمال عبد الناصر، وانه كان مثال الضابط الثائر استقامة وامانة، واليك الامثلة على ذلك .

كان أول كتاب يروى قصة الثورة هو كتاب انور السادات الذى جمع فيه مقالات كان ينشرها في جريدة الجمهورية بعنوان قصة الثورة كاملة، واختار للكتاب نفس الاسم. فذكر عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا، فقال : تكونت الهيئة التأسيسية فعلا وكانت تضم فى البداية جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين وعبد المنعم عبد الرءوف، ثم قال : بينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على اساس تقديرنا لموقف البلاد فى ذلك الوقت فوجئنا بالبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف وهو ينادى بضم تنظيم الضباط الاحرار كله الى الاخوان المسلمين .

ولم يجد عبد المنعم عبد الرءوف من يستمع اليه واصر عبد المنعم عبد الرءوف على اخضاع الضباط الاحرار لجماعة اخوان المسلمين وقال وهو يحاول اقناعنا بوجهة نظره ان جميع اعضاء تنظيم الضباط الاحرار يمكن ان يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شئ. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم ، وقلنا له جميعا، إننا مثله لنا زوجات وأولاد،

ويهمنا ان نطمئن عليهم وعلى مصيرهم ، ولكن المسألة ليست مسألة شخصية ، فنحن نعد ثورة لا مؤامرة .

وقد تحدث جمال حماد عن عبدالمنعم عبد الرءوف فى كتابه ٢٣ يولية، اطول يوم فى تاريخ مصر فقال :

تخرج عبد المنعم عبد الرءوف فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ فهو من نفس دفعة السادات وعين ضابطا طيارا بسلاح الطيران وعرفت عنه الاستقامة والصلابة وصدق الوطنية ، وقد حذا عبد المنعم حذو الكثيرين من الضباط الشبان المتحمسين الذين اجتذبتهم شخصية عزيز المصرى فبدأ يتردد على منزله بالمطرية وتولدت نتيجة لذلك رابطة قوية من المودة والثقة الى الحد الذى جعل عزيز المصرى يصارح عبد المنعم برغبته الملحة فى السفر الى بيروت ويسأله المعونة وكان عزيز المصرى يهدف من وصوله الى بيروت . أن يساعده عملاء الالمان على السفر إلى العراق للمساهمة فى ثورة رشيد على الكيلانى التى قام بها ضد الانجليز .

واستطاع عبد المنعم بدوره اقناع زميله ، فى «الكلية والدفعة» ، حسين ذو الفقار صبرى للاشتراك فى نقل عزيز المصرى الى بيروت بطائرة من السلاح الجوى المصرى بحكم وجود حسين ذو الفقار فى سرب المواصلات .

ولكن المغامرة التى وقعت يوم ١٦ من مايو ١٩٤١ ، لم يكتب لها النجاح ، فإن حالة الاستعجال تسببت فى أن يغلق الميكانيكى مفتاح الزيت بدلا من ان يفتحه مما ادى الى هبوط الطائرة، اضطراريا بالقرب من قليوب ، ورغم اختفاء عزيز المصرى والطيارين لمدة ٢١ يوما فى حى امبابة عند أحد اصدقاء عبد المنعم تمكن البوليس من القبض عليهم يوم

٦ من يونيه سنة ١٩٤١، واجرى التحقيق معهم بعد اعتقالهم وقدموا للمحاكمة واستمروا معتقلين حتى افرج عنهم فى مارس ١٩٤٢ فى عهد حكومة النحاس ولم يعد عبد المنعم عبد الرءوف الى سلاح الطيران بطبيعة الحال بل نقل الى الجيش وانضم لقوة الكتيبة الثالثة المنشأة بمنشية البكرى بالقاهرة وهناك جمعته الاقدار بضابط شاب تعرف عليه لأول مرة ولعب بعد ذلك دورا خطيرا فى مجرى حياته . وكان ذلك الضابط هو جمال عبد الناصر الذى كان يعمل وقتئذ مساعدا لاركان حرب الكتيبة الثالثة، وكان من ضمن قوة الكتيبة التى نقلت من الصحراء الغربية الى القاهرة فى مارس سنة ١٩٤٢ وهو نفس الشهر الذى افرج فيه عن عبد المنعم عبدالرءوف وانضم فيه الى قوة الكتيبة هو الاخر .

كما تحدث عن عبد المنعم عبدالرءوف كثيرا حمدى لطفى فى كتابه الذى صدر ضمن سلسلة كتاب الهلال بعنوان «ثوار يولية – الوجه الاخر» فقد اورد على لسان عبد اللطيف البغدادى اسماء اعضاء لجنة الضباط الاحرار، فقال من قسم الطيران هذه المنظمة: من الطيران حسن ابراهيم وجمال سالم ووجيه اباظة والمرحوم محمد شوكت وعمر الجمال السفير بعد ذلك، ثم انضم الينا على صبرى ، وشقيقه حسين ذو الفقار صبرى ثم عبد المنعم عبد الرءوف ثم قال :

لقد اكتشفت فى جولة بحثى بين ثوار يوليه أن بين زملاء دفعة الرئيس السادات، الضابط الثائر بكباشى عبد المنعم عبد الرءوف ، وقد انضم عبدالمنعم عبدالرءوف إلى سلاح الطيران .. وكان شابا متينا مؤمنا. وقد قاد الطيار عبد المنعم عبد الرءوف زملاء دفعته الى لقاءات

تعددت وكانوا جميعا يؤمنون بفكر واحد وآمال واحدة فضلا عن تقارب اعمارهم واحلامهم وهم المرحوم احمد سعودى وحسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى وحسن عزت وكانت بداية التجمع الثورى، ونشوء الفكر الوطنى المتحرر الرافض لمقاييس الحكم الملكى واعمدته التى تسانده وهى فى الدورة الأولى قوات الاحتلال البريطانى فى مصر وكان هؤلاء الثوار من صغار الضباط خلف فكرة الاتصال بالفيلد مارشال روميل،وارسال صور المواقع العسكرية الانجليزية المنتشرة فى أنحاء المملكة المصرية اليه عن طريق الطيار احمد سعودى الذى سقطت طائرته قبل ان يصل الى القوات الالمانية فى الصحراء الغربية ، بينما نجح الصول محمد رضوان سالم فى اليوم الثانى من الوصول الى الالمان وقاد طائرة استكشاف للبحث عن طائرة سعودى وقال كمال الدين ضابط المدفعية فى هيئة الضباط الاحرار عن عبدالمنعم عبد الرءوف: « فى حى السيدة زينب، كنت اسكن ، وفى الحى نفسه يسكن الضابط عبد المنعم عبد الرءوف والتقينا، وكنا نستخدم تراما واحدا فى الذهاب والعودة ، ونتحدث فى كل شىء..

وذهبنا معا الى جمال عبد الناصر بمنزله فى منطقة تقاطع شارع احمد سعيد مع شارع الملكة نازلى - والتقينا هناك بالصاغ محمود لبيب لأول مرة ، ثم ذهبنا الى اجتماع الاخوان المسلمين بتشجيع من المرحوم محمود لبيب، ومحمود لبيب هو ضابط مصرى بدأ جهاده فى عهد الحزب الوطنى الاول، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، وقد هاجر الى ليبيا فى فترة الغزو الايطالى لها سنة ١٩١١ وزامل فى هذه الحرب عددا من الضباط والمجاهدين المصريين كان منهم صالح حرب باشا

فيما بعد رئيس جمعيات الشباب المسلمين، وعبد الرحمن عزام باشا امين عام الجامعة العربية ..

وجاء فى كتاب ثوار يولية ما نصه :

«وتولى كمال حسين قيادة مدافع الميدان ، فى فلسطين ومعه المرحوم انور الصبحى وخالد فوزى وتولى حسن فهمى قيادة المدافع المضادة للدبابات وذهبو الى فلسطين ومعهم ايضا الشهيد سالم عبد السلام، وعبد المنعم عبد الرءوف .

وجاء فى كتاب «صفحات من تاريخ مصر»، تأليف حسين محمد احمد حمودة ، عن عبد المنعم عبد الرءوف : «قدمت نفسى يوم ٢٨-٦-١٩٤٣ للكتيبة الثالثة مشاة بألماظة وكنت وقتئذ ضابطا برتبة الملازم أول وتصادف أن نقل الى هذه الكتيبة اليوزباشى عبد المنعم عبد الرءوف بعد ان افرج عنه فى مارس سنة ١٩٤٢ وحل المجلس العسكرى الذى انعقد لمحاكمته هو وزميله حسين ذو الفقار صبرى والفريق عزيز المصرى .

وحدث اثناء تناول الطعام مع الضباط فى الميس «قاعة الطعام» ، فى يوم لا أذكر تاريخه بالضبط فى الشهور الاخيرة من عام ١٩٤٣ ، أن كان يجلس بجوارى اليوزباشى عبد المنعم عبد الرءوف فاخذت اتجاذب معه اطراف الحديث ومالبث ان همس فى اذنى انه يريد التحدث معى على انفراد فى موضوع بعد الغداء .

وانفردت معه بالميس بعد انصراف الضباط، فقال عبد المنعم عبد الرءوف لى انه لاحظ اهتمامى الزائد بعملى وحرصى على تفوق سمعتى فى التدريب وتمسكى بمبادىء الاخلاق الكريمة وانه يرد أن ازوره فى

منزله ليتحدث معى حديثا اكثر حرية واعطانى موعدا مساء الجمعة ، ذهبت الى منزل عبد المنعم عبد الرءوف بالسيدة زينب وتحدث معى عبد المنعم عبد الرءوف حديثا خلاصته ان مصر حالتها لا تسر احدا، فالاحتلال البريطانى جاثم على صدر البلاد يكاد يخنق انفاسها ويحيل بينها وبين اى تقدم والفساد يضرب أطنابه فى كل اجهزة الحكم.

وتلاقيت مع عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا حتى اطمأن لى واطمأننت له .

هذا هو عبد المنعم عبد الرءوف الذى تجمع المصادر جميعا، انه صاحب دور هام فى تأليف جمعية الضباط الاحرار، وانه الرجل الثانى فى مؤسسيها .

وإن كان بعضهم قد حاول ان يجعله المؤسس الاول. وقد كانت مجازفته الضخمة بالاشتراك مع زميله حسين ذو الفقار صبرى ، فى نقل عزيز المصرى باشا بطائرة حربية وخلال فترة اكبر حرب عرفتها الانسانية بعد الحرب العالمية الأولى، ضربا من الفدائية التى لا ينكر احد أنه عنوان شجاعة لا تهاب شيئا ولا شخصا ولا تفكر فى مصيرها، ولا تبقى على حياتها وقد كان لهذه المحاولة التى تمت فى ١٦ من مايو سنة ١٩٤٣ ، دوى ايقظ كل النائمين، وحرك كل المستسلمين للامر الواقع والراضين به .

وقد كنت اعرف اطراف هذه المغامرة الكبرى على درجات من التفاوت .. وكانت معرفتى لعبد المنعم عبد الرءوف، تجعله قريبا منى، دون أن تنشأ بيننا صداقة حميمة فقد جمعتنا الظروف فى مدينة أسيوط، وأنا فى السنة الأولى الثانوية، فقد كان أبوه قائد ما يسمى –

سنة ١٩٢٤ وما بعدها - بالاورطة التى كانت تعسكر فى عاصمة الصعيد، وكان أبى مهندسا للرى، وكان بيتانا متجاورين فى هذه المدينة، وقد لعبنا معا كثيرا، ولكن بقيت علاقتنا سطحية، حتى وقعت طائرته وطائرة زميله حسين ذو الفقار صبرى فى قليوب، ولجأ الى صديق من أصدقائى هو المثال العظيم عبد القادر رزق الذى كان آنذاك مدرسا لفن الحفر فى مدرسة الفنون الجميلة .. وكانت أجهزة الأمن تبحث أصلا عن المرحوم أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، وكانت صلتى به معروفة، فراقبت أجهزة الأمن مكتبى وشاء الحظ أن يزورنى ذات يوم زميلى فى الحزب الوطنى أحمد مرزوق «أستاذ الرياضة فى معهد التربية البدنية العليا آنذاك» فتتبعوه حتى قابل بطريق الصدفة المحضة فى شارع عدلى المثال عبد القادر رزق وكان شخصية مجهولة للشرطة، ولكن المخبر الذى كان يراقبنى بدا له أن يتعقب هذه الشخصية المطاردة وهو يمنى نفسه أن تقوده إلى حيث يختبئ أحمد حسين، وسار وراءها حتى وصلت الى منزلى فى حى امبابة فابلغ رؤساءه الذين داهموا هذا المنزل وهم يعتقدون أنهم سيجدون أحمد حسين فإذا قائد الشرطة السياسية اللواء محمد ابراهيم إمام يرى نفسه أمام الفريق عزيزى المصرى ومعه الضابطان عبد الرءوف وذو الفقار، وأمامهم أسلحتهم، فصرخ فزعا خشية ان يقتلوه بهذه الأسلحة، ولكنهم لم يفعلوا، والقى القبض عليهم وسيقوا للمحاكمة، أمام مجلس بين خمسة من ألوية الجيش، وترافع عنهم عدد من أكبر المحامين كان على رأسهم حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، ورأت بريطانيا انه ليس لها مصلحة فى استمرار القضية فحفظوها ، وأفرج عن

المتهمين. ثم ما لبثت الثورة أن قامت واختلف عبد المنعم عبد الرءوف مع إخوانه من اليوم الأول، كما اسلفنا ، وحكم علي عبد المنعم عبد الرءوف بالموت، ولكنه لجأ الى الاردن وهناك عينه الملك سفيرا للاردن فى الهند وسافر جمال عبدالناصر إلى الهند زائرا لنهرو، وفى المطار اصطف سفراء الدول ليحيوا الضيف العظيم القادم، ووقف فى مقدمتهم عبد المنعم عبد الرءوف سفير الاردن فى الهند، وصافحه عبد الناصر دون ان يلتفت جيدا الى شخصه ثم عاد فدقق واذا به يفاجأ بأنه يصافح صديق العمر، وزميل الجهاد ، وعدوه اخيرا. واضحكته المفارقة، ثم تعانقا .

حافظ محمود ★

كانت صورة حافظ محمود القلمية من اولى الصور بالتقديم ، لا لطول سعيه في مجال الصحافة والخطابة والكتابة في دروب السياسة والادب والاجتماع، ولا لانه عاصر اكبر الاحداث وعاشر اكبر الشخصيات واقترب من القمة حتى كاد يعلوها ويستقر عليها وقد خرج من كل هذا سليما معافى، لم يمس احد شرفه بكلمة، ولم يجرح خصما مهما اشتدت ضراوته وحميت عداوته، وبقى هادىء النفس ، خافت الصوت حسن العلاقة بالجميع بغير اضطرار الى المنافقة أو المصانعة .

تعارفنا ونحن اشبه الناس بصبيين صغيرين ، ولست ادرى كيف تم هذا التعارف ، ولا مناسبته ، ولا ماذا تبادلنا من حديث، ونحن نبدأ علاقتنا الاولى. ولكن الذى اذكره ان صلتنا لم تنقطع منذ نشأت ، وقد طوحت بنا المقادير وكل فى اتجاه ، كأنما نحن النقيضان ، ولكن فقد كان دائما قريبا من الحكومة او بعض سادتها دون أن يكون حكوميا، ودون أن يجنى من هذا القرب جنيها ولا قرشا، فقد بقى عفيفا خجولا متأبيا لكل مواقف الوشايا والصغائر ، وكنت بعيدا عن السلطة، لا أعرف أحدا من ذويها، ولا اعرف كيف اتحدث اليهم وكنا اذا اجتمعنا لم يدر حديثنا حول موقف كل منا من الحكام، فقد كان هذا شأننا قليل القيمة والقدر عندنا ، وكان لدينا موضوعات للحديث تخصنا، تمتعنا وتطلق ضحكاتنا على ما يجرى حتى الثمالة ، فاذا هممنا بالانصراف لم

★ الهلال - أكتوبر ١٩٨٥ .

نتفق على موعد، لأن كلا منا كان يعتقد باطمئنان لا يشوبه قلق باننا سنجتمع حتما، سنستأنف ضحكنا وسخريتنا مما يجرى ، وأن هذا الاجتماع سيعقد بلا موعد ولا تحضير . وربما ونحن سائران فى الطريق، كل يمْضى الى غايته، وهو لا يدرى انه ملتق بعد خطوات بصديق الصبا واننا سنبدأ فى التو، كأننا كنا معا فى الامس القريب او كاننا نتم حديثا بدأناه ولم نفرغ منه. ثم جاءت ايام كان تلاقينا يتم بعد ما يشبه قطيعة الشهور او السنوات ولكن دون أن يحس احدنا أنه فقد صاحبه او انقطعت صلته به، او أنه إذا رآه تعثر بحثا عن بداية للحديث أو موضوع للكلام .

كان بيتانا فى شارع واحد، هو شارع السيدة زينب المتفرع من الميدان العتيق الذى يقع على ضلعه الجنوبى مسجد حفيدة الرسول، زينب بنت الامام على ، أم هاشم التى يأتنس الشعب المصرى كله لا شعب الحى وحده ولا شعب القاهرة، بجوارها له، واشراقها عليه، وقل ان يوجد مصرى مثقف أو أمى ، لم يقل يوما فى ضائقة «شيئا لله يا أم هاشم» أو «شيئا لله يا ست» «أو شيئا لله يا أم العواجز» .

وان لم يقلها بلسانه مسموعة، فانه قائلها بقلبه ، ولا يسمعها الا هو.

كنت أنا وحافظ فى جوار ام هاشم وعلى القرب تطل علينا مئذنة مسجدها العظيم وتوحى الينا ، كما توحى الى مئات الألوف من أهل الحى ، بخواطر واحساسات وافكار، وتصورات واحلام، كان بعضها يندس فى شعورنا الخفى، وبعضها نعلن ونحدث به الناس وانفسنا وكان بيته بعد بيتى على يمين القادم من الميدان ويجاوره مباشره

مسجد، كنت احسبه جامعا فقيرا متواضعا الا اننى قرأت فى كتاب يتحدث عن مساجد القاهرة فيقف امامه، ويصف عمارته، ويروى شيئا من تاريخه ونحن لا ندرى ان جامعنا القريب الذى كنا ندخل اليه بعض ايام الجمعة لنصلى فرض الجماعة ونسمع خطبة مطبوعة فى كتاب يتلوها امام المسجد العجوز الذى يصعد درجات المنبر فى اناة ورفق ، فنحس لصعوده بما وصف محمود سامى البارودى بأنه يشبه دبيب الامانى فى النفس، ذلك لان امام المسجد، والخفير، والمسجد نفسه، والاذان وإقامة الصلاة قد اصبحت كلها اجزاء حية من حياتنا ودنيانا، لا يمكن ان نعيش بغيرها، وكانت تحرك الراكد فى نفوسنا ، والخفى فى قلوبنا والعجيب اننى لم ار حافظ محمود ، وهو يدلف الى المسجد يوم جمعة، وان كنت اذكر جيدا والده بلحيته البيضاء الجميلة الوقورة يخطو الى المسجد ، مشغولا به عن الدنيا كلها، إلا أننى كم صليت بعد ذلك مع حافظ فى زنزانة واحدة ومعنا اخونا الحبيب احمد حسين بعد أن نتناقش ونختلف ونتقاطع ونحتد، ثم نصطلح بعضنا مع بعض ، ونسمع حافظ محمود يتلو بصوته الجميل الرخيم، من المصحف أو من محفوظه ايات، تنسينا اننا فى قبضة الحاكم وأننا لا ندرى متى سنترك السجن ونستأنف الحياة، وتنسينا قبل ذلك اننا صبية صغار فقراء ، ولا حول لنا ولا قوة واننا نتحدى السلطة، ونحسب اننا اقوى منها وان الظفر يكتب لنا، مهما صالت وجالت واستأسدت وتعالت .

كان بيت حافظ محمود فى شارع السيدة زينب بيتا عجيبا جديرا بأن يحفظ ولا يهدم الا اذا كانت يد الهدم قد ازالته بقصد توسيع الشارع وتجميل الميدان، ذلك لان بيت حافظ محمود ، كان مقرا لنشاط ادبى خاص، فى وقت كان فيه علم الناس بالندوات الادبية، علما

ضعيفا، وكانت الندوات التى جاءت بعد ذلك، اجتماعات للوجاهة فيها، وازجاء الفراغ ، وادعاء الاهتمام بمشكلات البلاط ، اكثر مما فيها من صدق وجد واخلاص .

كان أطفال وشباب الحى كلهم، يلعبون فى الشارع، او فى حوش درب الشمس القريب منا، او حوش ايوب البعيد عنا، او حى بركة الفيل الذى ضم انذاك احمد رامى الشاعر، وعبد الحليم حافظ المطرب ، وضم فى وقت بعيد نوعا، دار اكبر مطربى وممثلى مصر الحديثة الشيخ سلامة حجازى ، ولم يخرج على هذه القاعدة إلا فتى واحد، هو حافظ محمود لم اره قط قذف بقدميه كرة ولا حصاة، بل لم اره قط فى جلباب فقط، او فى جلباب فوقه جاكتة كما كان حالنا جميعا وفينا من وصل الى اكبر المناصب العلمية رئيس جامعة فى الاسكندرية او فى الخرطوم او فى القاهرة ، أذكر منهم الدكتور حسين فهمى الداغستانى عميد كلية حقوق الاسكندرية، ونائب جامعتها ومدير جامعة الخرطوم وشقيقه محمود الداغستانى وزير المواصلات واخرين كثيرين غير ان حافظ محمود كان لا يسير فى الشوارع الا ببدلة كاملة وربطة عنق من طراز البابيون غالبا، وهو يسير فى جميع الاحوال : بسرعة خاطفة كأن وراءه موعدا ومطرقا كأنه يخجل ان ينظر الى وجوه الناس او يترفع عن ان يكون فضوله معلنا بلا حياء ولم نلبث أن دخلنا إلى بيت حافظ ، وقلنا ان ننضم الى النادى المفتوح الابوب والذي كان يقف فيه أحيانا صاحب الدار ، ليسمعنا خطبا يرتجلها ، فلا ندرى ما إذا كانت خطبا أو ألحانا جميلة .

ثم دعانا حافظ لأن نكون اعضاء فى جمعية القلم ، فلبينا الدعوة دون أن يسكرنا هذا الاسم الجميل الرائع: «جمعية القلم» وكلنا فرحنا

بالانضمام ونحن اقرب ما نكون من الطفولة العزيزة ان نتصرف تصرف الرجال وأن نكون اعضاء فى جماعة تفكر ويخطب رئيسها ويحدثنا عن خطباء مصر ، سعد وحافظ رمضان ، ومى ، وعن اساتذة مصر امثال منصور فهمى وعن شباب الادباء المتطلعين الى الصدارة امثال الدكتور زكى مبارك والشيخ الصاوى.

لم ندرك أنذاك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو هذه الحياة الهائجة المائجة التى ولدت ثورات، وجمعيات وأفكارا جديدة وخطيرة ، وشبانا سيحملون تاريخ مصر الحديث على أكتافهم ، وسيواجهون السجن ويقتربون من اعواد المشنقة وتطاردهم السلطات الاصلية والدخيلة ، كما ستلد مجلات وصحفا ، وكتبا وكان حافظ محمود بغير جدال ، هو اسبقنا الى الصدارة ففى الوقت الذى كنا نمسك فيه الاقلام ولا ندرى كيف نقبض عليها جيدا فاجأنا حافظ بسلسة من المقالات غير مسبوقة تدور كلها حول نفسيات وكانت كلمة «نفسية» كلمة مستحدثة، طارئة لم يستعملها من قبلنا آباؤنا واجدادنا .

وقد اختار حافظ لمقالاته التفكير بحديثه نفسية القاضى ونفسية المتهم ونفسية الشاهد، وكان فى هذا الاختيار ملهما فقد كان القسم الثانى من قضية الاغتيالات السياسية قد بدأ عرضه على محكمة الجنايات برياسة قاض بريطانى استعمارى قح هو المستر كرشو، وكان المتهمان الرئيسيان فى هذ القضية اثنين من ابناء البيوتات اولهما الدكتور احمد ماهر الذى عاد من اوربا بعد أن حصل على اجازة الدكتوراه ثم اختير وزيرا للمعارف «التربية والتعليم» وجلس الى جانبه زميله ورفيق كفاحه محمود فهمى النقراشى الذى اختير وكيلا لوزارة

الداخلية . وكانت خواطر المصريين كلهم مشغولة بهذين البطلين وبزملائهما فى تلك القضية الخطيرة ، ولذلك كان الحديث عن نفسية المتهم ونفسية القاضى ونفسية الشاهد، حديثا فى موعده ، واتسع نطاق نشاط حافظ محمود ، فأقام فى حوش منزله مهرجانات الخطابة سمعناه فيها، وتعلمنا منه كيف تكون الخطابة التى تحلو فيها نبرات الخطيب وتتناغم فيها الالفاظ ، حتى تصبح لونا من الطرب ثم ذهب حافظ الى قاعة سينما فى شارع طلعت حرب «الشيخ السباع » سابقا وكان كل هذا شيئا جديدا غاية فى الجدة ، فشبان تلك الايام تشغلهم الرياضة ولا سيما كرة القدم، او الجمعيات التمثيلية كجمعية انصار التمثيل التى ضمت محمد تيمور ومحمد صلاح الدين «الوزير» وزكى طليمات وسليمان نجيب ذهبت انا الى الريف وبقى حافظ واحمد فى القاهرة ، لتتسع شهرتهما ويترامى نطاق نشاطهما فقد اصبح احمد حسين نجم التمثيل المدرسى يناظر يوسف وهبى فى المسارح الكبرى، ويشبهه صوتا وموهبة حضور، اما حافظ فقد اخذ يكتب الفصول المتتابعة ويلفت نظر قرائه شيئا فشيائا، حتى اجتمع شملنا فى بداية مرحلة التعليم الجامعى ، فقد انضم الينا كمال الدين صلاح الذى رأس جمعية التمثيل فى مدينة المنصورة وكان من معاونيه الشاعر صالح جودت واتصل بشعراء المنصورة على استحياء على محمود طه ، والدكتور ابراهيم ناجى وربما العشرى ايضا .

وفى اوائل سنى الدراسة الجامعية ، توثقت علاقتنا بالاستاذ امين الخولى ، وباساتذة الجامعة وفى مقدمتهم المرحوم محمد حلمى بهجت بدوى «الوزير فيما بعد»، والدكتور مصطفى القللى« رئيس جامعة القاهرة» والدكتور على مصطفى مشرفة العالم المصرى العالمى .. واحد رواد الموسيقى الكلاسيكية فى مصر بالتعاون مع محمد زكى على باشا

«الوزير وعضو مجلس الاذاعة» وكان كلاهما يتقن الغناء الاوبرالى - والناس لا تعرف ...

واخرجت جماعتنا جريدة الصرخة بعد ان حصل على رخصتها زميل لنا هو الاستاذ عبد الرحمن العيسوى «رحمه الله» وفى هذه الفترة خرج احمد حسين بمشروع القرش اكثر مشروعات الشباب نجاحا ، وأعظمها شهرة، ثم مشروع الطلبة الشرقيين الذى سافرنا من اجله فى البلاد العربية وتركيا ، وإدارة السلطة فى عهد عبد الفتاح يحيى باشا ثم اسس احمد حسين جمعية مصر الفتاة ، واخرجنا لها جريدة الصرخة لتكون لسانا لحالها. ورأس حافظ محمود تحريرها ، وراح يكتب المقال الرئيسى فيها. وزجت بنا السلطة الى سجن الاستئناف ، وكان لاعتقالنا صدى بعيد فقد نشرت الصحف صور ثلاثة شبان ، لا يؤيدهم حزب كبير ولا يسندهم زعيم خطير .. ولا تحمى ظهورهم سلطة ولا يملأ جيوبهم مال، ولذلك كان هذا الاعتقال حدثا، وكان فى الوقت نفسه بداية عهد جديد يتوالى فيه نشاط الشبان يوجهون السياسة ويتزعمون الحياة العامة فكانت جمعية مصر الفتاة يرأسها احمد حسين وجمعية المهدى للمصرى يرأسها سلامة موسى. ويقوم بأمانتها حافظ محمود . وجمعية الاخوان المسلمين يرأسها حسن البنا وابتدأت الحياة فى مصر تأخذ صورة جديدة وتشق لنفسها نهجا جديدا .

وكان من أعلام هذه الحياة الجديدة حافظ محمود وأحمد حسين بلا جدال. وثبتت مكانة حافظ محمود كصحفى حتى اختير امينا عاما لأول نقابة للصحفيين . واصبح حافظ محمود الخطيب. عنصرا ثابتا فى كل اجتماع كبير، والمتكلم الاول فى كل ندوة واصبح اسلوبه فى الكتابة . وموضوعاته التى يطرقها ضربا جديدا من ضروب الكتابة - الادبية والصحفية ..

كيف فكر أحمد حسين
فى مشروع القرش ★

أمسك أحمد حسين ورقة وقلما وكتب بسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعى بقرش صاغ واحد، وقبل الجراح المصرى الكبير على ابراهيم باشا رئيس الجامعة المصرية حينذاك رئاسة المشروع وانفتحت ابواب النجاح لمشروع القرش فى الجامعة وفى كل مكان.

مشروع القرش، عمل استقل به الشباب فى العقد الثالث من القرن العشرين اى فى الثلاثينات كما يقولون هذه الايام وقد يبدو الحديث عنه غريباً باعتباره حدثا صغيرا لا يجوز أن يشغل به الكبار، وفى الواقع انه حدث كبير، وان له خلفية سياسية اجتماعية ترفع من قدره وتعلى من شأنه.

وقد نبتت فكرة هذا المشروع الجليل فى رأس طالب بكلية الحقوق سنة ١٩٣٥ وكان آنذاك طالبا بالسنة الثانية فى تلك الكلية . وكان يتوق من قبل ذلك الى السفر الى باريس، فقد هام بفن التمثيل حينا وبلغ فيه من التجويد والاتقان، على الرغم من انه كان هاويا وكان طالبا منتظما، لا ينجح فقط بل ينجح متفوقا على زملائه . فجمع بعض المال القليل، وسافر الى باريس ليرى من فنون المسرح ما سمع عنه فى الصحف

★ هلال - يناير ١٩٨٤.

والكتب، وما لا وجود له فى مصر ، وفعلا تردد على دور التمثيل الجادة والفكاهية، وحاول أن يقابل بعض كبار الفنانين، فضلا عن طوافه واسع النطاق الذى شمل المتاحف فى باريس وضواحيها، والمعارض، وندوات السياسة كالبرلمان الفرنسى بمجلسيه النواب والشيوخ، وسجل مشاهداته وتأثراته وتعليقاته فى مذكرات يومية بعث بها الى احد اصدقائه وقد كانت هذه كلها، صالحة لان تكون نواة لكتاب ككتاب رفاعة الطهطاوى الشهير «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» وفيما كان أحمد حسين يستريح فى احدى حدائق الاطفال رأى تمثالا فى جانب من تلك الحديقة، فقام يتأمله، ورأى أسفل القاعدة لوحة صغيرة كتب عليها اقيم هذا التمثال بملاليم الاطفال الذين يترددون على البستان، فاهتز أحمد لهذه العبارة اهتزاز السرور العميق، والالم العظيم، السرور لانه وجد ان أطفالا فى مكان ما فى الدنيا، حفزهم احد من الناس. ليتبرعوا بأقل العملات الفرنسية قيمة ليقيموا تمثالا صغيرا وانيقا يزينون به جانبا من الحديقة التى يترددون عليها ويلتمسون الراحة والمتعة فى ارجائها ومن احواض زهورها.

ولما كان «أحمد» مشغول القلب والنفس دائما ببلده، فقد قال على الفور، ولم لانقيم فى بلادنا شيئا نافعا بقروش المواطنين والتصقت الفكرة برأسه، فلم يكد يعود من رحلته الى القاهرة حتى أمسك ورقة وقلما وكتب على عجل منه وبسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعى بقرش صاغ واحد.

ولما كان كاتب المقال هو طالب مجهول فى كلية الحقوق، فقد نشر المقال فى جانب من جريدة الاهرام، فلم يحرك احدا ولم ينشر تعليقا، وكاد أحمد يصاب بخيبة أمل تقعده عن المضى فى مشروعه إلى أن

حدث أحد إخوانه بهذه الفكرة، قبل ان يكتب مقاله فشجعه صديقه هذا ورأى الفكرة جديرة بالتنفيذ فلما نشر المقال المتضمن شرحها والدعوة اليها زاد صديقه من تأييده، واعتبر مجرد النشر فألا حسنا يجب ان يتبعه بعمل ما وكان فى مصر فى تلك الآونة زعيم كبير مهيب يتوقى الناس طلب مقابلته فقد كان جادا قليل الكلام يبدو متجهما، ذلك هو الاقتصادى الكبير محمد طلعت حرب باشا رئيس مجلس ادارة بنك مصر ومؤسسه، وصاحب الدعوة اليه، وكان الدافع أن محمد طلعت حرب، شقى كثيرا حينما نبتت فى رأسه فكرة إنشاء بنك وطنى للمصريين، وقد ألح فى عرض هذه الفكرة وواظب على الترويج لها وتحسينها للمصريين فلما انعقد المؤتمر المصرى فى هليوبوليس سنة ١٩١٠، كان هذا الزعيم بمكانة وبالمعاناة التى تحملها فى سبيل الدعوة إلى إنشاء مشروع اقتصادى، اجدر الناس بأن يستقبل الداعى الجديد والصغير ، ويطيل الاستماع إليه ، ثم يفسح صدره لامانيه وأحلامه ، ثم يمد يده، ولكن حدث النقيض لكل ذلك، فقد استقبل أحمد حسين، متجهما، وسأله عن الغاية من حضوره اليه، فلما شرح له الفكرة لم يلبث حتى قال بلا تفكير، يا ابنى «مشروع ايه، روح انت وصاحبك وذاكروا ولما تخلصوا المدرسة وتأخذوا الشهادة تبقوا تعملوا اللى أنتم عاوزينه».

وقد كان هذا الكلام بالضبط، كلام رجل كبير، لأى شاب مبتدئ، ولا سيما اذا كان هذا الشاب المبتدئ طالبا فى الكلية ، ولكن أحمد لم يتزحزح وان كان وجهه قد احمر خجلا وغضبا فى الوقت نفسه ورد على الزعيم الكبير بالرد المقنع ولا أقول المفحم فقد قال: ولكن هذا مشروع

للشباب، وانا اوجه الدعوة فيه أول ما أوجهها إلى الطلبة الذين أحسب أنهم سيكونون حملة الدعوة، ومنفذى المشروع، فآليق وقت بى، هو بطبيعة الدعوة، هى فترة طلب العلم.

فقام الزعيم الكبير بدوره، لما وجد الشاب، ثابت القدم، قوى الحجة، واثقا من نفسه، بغير اجتراء، ولا يتجاوز الحدة فقال: وهل أنت مستذكر لدرس الاقتصاد حسنا مادمت مشغولا بحالة بلدك الاقتصادية فقال نعم، قال الزعيم ، الآن قولا لى من الذى ثبت الفرنك الفرنسى وما معنى تثبيت الفرنك ، وكان موضوع تثبيت الفرنك الفرنسى من موضوعات الساعة فى العالم كله وكانت برقيات الوكالات تنشر فى صحف مصر، وهى متضمنة أنباء أزمة الفرنك الفرنسى ومحاولات رئيس الوزراء فى إصلاحها، وكان أحمد وصديقه ممن يحسنون قراءة الجانب الجاد من أنباء الصحف وفى مقدمتها البرقيات الواردة من الخارج فأسرع أحمد وقال له فى لفظ واحد : بوانكاريه! وفتح طلعت حرب عينيه فى دهشة واعجاب وعطف وقال وما التثبيت ؟

وقبل أن يتم سؤاله شرح أحمد معنى تثبيت العملة، فى إيجاز ووضوح. فطابت نفس الرجل وعاد يتأمل أحمد وصاحبه، وكأنه يقول لنفسه : أيرجى خير من هذين الشابين .. وبعد فترة قصيرة قام الى جانب من حجرته، وأخرج من درج من ادراج صوان فى هذا الجانب منديلين من حرير دمياطى، جميلين ونشرهما فى الهواء قليلا ليبين للشابين انهما هدية ثمينة وقال الرجل: حسنا، هذه هدية بمناسبة زيارتكما، وانى ادعو لكما بالتوفيق، وما زلت على رأيى.. اذهبا واكملا الدراسة وسيكون لكما شأن، ولم يضف شيئا ووقف، فوقف الشابان

ومضيا واحمد غاضب يكاد يسب ويلعن لفرط غضبه وصاحبه سعيد بالنتيجة.

ولقد أردت أن أسجل هذا الموقف هنا، لانه تصوير لموقف جيلين. جيل الشيوخ الذين ادوا الواجب ونهضوا بالرسالة، واحسوا أن كل شئ يمكن عمله قد عمل، وان الشباب عليهم أن ينتظروا ثم يتابعون الاباء والاجداد الى أن يتم نضجهم وتلوح لهم أفكار تستحق أن تبذر فى تربة الوطن ومضى أحمد لتوه الى على ابراهيم باشا، جراح مصر الاول فى تلك الايام ورئيس جامعة القاهرة، قبل أن تصبح جامعة فؤاد الاول، ولعلها لم تكن ايضا جامعة القاهرة لان تمييزها لم يكن له داع اذ لم يكن فى مصر الا هذه الجامعة التى كان مقرها القاهرة وكان اسم على ابراهيم كجراح عظيم ذائعا وجاريا على الالسن، وحتى الذين لا تهمهم الجراحة فى شئ ذلك لان الاقدام على اجراء عملية كان مخاطرة لا يقوم عليها الا من يئس من الحياة، ورأى أن يسلم نفسه لمبضع الجراح باعتباره الحل الاخير، والذى لا حل سواه وكان التفكير فى اسناد رياسة لجنة مشروع القرش، الى هذا الجراح الموقر، واستاذ أساتذة الجامعة بغير منازع توفيقا عظيما فان جميع الابواب التى كانت مغلقة فى وجه المشروع فتحت . فقد نشر على ابراهيم بيانا بتوقيعه اعده له الشباب، يدعون الى مشروع القرش، فلما طبع قبلت شركة ترام القاهرة ان تلصقه فى عربات الترام وقاطراته فأصبح كل راكب فى وسيلة الانتقال الوحيدة فى القاهرة، يجد امامه عند الصعود وعند الهبوط اعلانا ممهورا عليه من رئيس الجامعة العظيم يدعو الى مشروع دعا اليه الشباب ويعدون بأن ينفذوه فكان ذلك تحولا ذا ثلاثة معان.

من الاول ظهور اول اعلان يلصق فى عربات الترام ولا يحمل تنبيهات إدارية للركاب وكانت عربات الترام فى تلك الايام وقورة، فلا اعلانات فيها الا «ممنوع البصق» «ممنوع الركوب من الشمال» : «احترس من النشالين» وقد ألف الركاب هذه الاعلانات الثلاثة حتى لم يعودوا يحسون بها أو يقرأونها.

فأن يوجد الى جانب هذه الاعلانات المألوفة، إعلان عن شأن اجتماعى، وموقع عليه من استاذ كبير فتلك كانت ثورة، وان بدت صغيرة الا انها خطوة نحو ذلك وامتلأت بنشاط الشباب .

والمعنى الثانى هو مدى تجمد الحياة العامة قبل مشروع القرش، فكل شئ يتوقف على كلمة من كبير، فاذا جاءت الكلمة بطل البحث، وتوقفت المناقشة وأصبحت هذه الكلمة هى ضمان النجاح وسلامة العمل.

المعنى الثالث، ان الشباب نجح فى أن يحرك الشيوخ الذين جللت هاماتهم الايام بالشعر الابيض، والدال على طول التجربة..

فقد استجاب على ابراهيم لدعوة شاب، فاذا بطلعت حرب يغير من موقفه، ويقبل ما كان يرفضه.

أصدر طلعت حرب أوامره الى مطبعة مصر التابعة لبنك مصر كإحدى شركاته ان تطبع كل شئ يلزم لمشروع القرش بلا مقابل . وسهرت مطبعة مصر ليالى عديدة لتطبع ملايين من الطوابع التى تقرر جمع القروش مقابل بيعها للجمهور واستمارات التطوع، وايصالات النقود وبيانات لجنة مشروع القرش . فكان ذلك سهما فى نجاح المشروع يشكر لطلعت حرب ويذكر، وهو سهم يتناسب مع المعروف من خلقه ومن نظراته الى العمل الوطنى العام.

وجدنا تحولا اخر، فقد أصبح واجبا، بعد ان تولى على ابراهيم باشا رئاسة لجنة المشروع، ان تكون معه لجنة من أساتذة الجامعة تقوم دونه بالعمل، وتتوجه به وجهة صحيحة، فانضم الى هذه اللجنة من أرى وجوب ذكر اسمائهم تحية لهم وتخليدا لذكراهم وهم.

دكتور على مصطفى مشرفة باشا وكان استاذا بكلية العلوم إن لم يكن عميدها، وزكى عبد المتعال باشا وكان استاذا للاقتصاد بكلية الحقوق، وأمين الخولى وكان استاذا بكلية الاداب، ومحمد عبدالله العربى، وكان استاذا بكلية الحقوق لعلم الادارة . وانضم الى اللجنة اثنان من كبار الموظفين احدهما مختار باشا وكان مديرا لإدارة الشركات بوزارة المالية، ثم اصبح رئيسا لمجلس إدارة شركة المحلة الكبرى، ومصطفى الصادق باشا الذى كان مديرا لمصلحة الصناعة بوزارة الصناعة والتجارة وكان كلا الرجلين استاذا بكلية الحقوق .

وقد اصبحت مصلحة الصناعة، نواة لوزارة الصناعة، ثم عبدالله فكرى اباظة بك احد مديرى شركة من شركات بنك مصر . هؤلاء الاساتذة لم يجدوا غضاضة فى أن يزاملهم فى هذه اللجنة، كسكرتير لها «أحمد حسين الطالب الذى يتلقى العلم على بعضهم» وكان هو محرك هذه اللجنة وباعث الحياة فيها، وكانوا يحسون انه فوق الند لهم، بما يقترحه من الافكار الجديدة ووسائل العمل المستحدثة.

ولهذه القصة ختام . يستحق ان ينوه به، وان يتأمل القرار فيه فمشروع القرش مضى ناجحا وموفقا، اذ خرجت جموع الطلبة تحمل شارة المشروع فوق صدورها، ومعها دفاتر فى كل دفتر مائة طابع يوزعها على الناس والناس تدفع راضية سعيدة لا قرشا ولا قرشين بل

عشرات القروش، واحيانا الجنيهات وتسابقت فتيات المدارس على توزيع الطوابع فكن اسبق من الشباب وابرع ولعل حداثة الفكرة فكرة ان الطالبة تخرج لتعين الشاب وتوزع على الناس طوابع من أجل الصناعة قد لقيت ارتياحا من الرجال، فاقبلوا على التبرع واجتمع للمشروع فى عامه الأول ١٧ ألف جنيه. كانت بحساب تلك الايام مبلغا غير قليل، وفى العام الثانى، تعثر المشروع بسبب حملة حزبية عليه، اذ خيف من بعض زعماء الاحزاب ان يكون الغرض من هذا المشروع صرف الشباب عن العمل السياسى فهبط المبلغ المجموع الى ١٣ ألف جنية، ولكن اجتمع من المبلغين ٣٠ الفا من الجنيهات.

وكانت الفكرة قد تبلورت خلال تنفيذ المشروع حول مصنع للطرابيش، يقام فى مصر، وبهذا المال المجموع، باعتبار أن الطربوش كان شعار المصريين فى تلك الايام حتى كاد يكون رمزا على المصريين وكان مع ذلك يصنع فى النمسا، فكان ذلك مما يحز فى نفوس المصريين الا أن الشركة النمساوية التى كانت تصنع الطرابيش للمصريين وعمامتهم، ضايقها أن يستقل المصريون بانتاج شعار رءوسهم فجاء السفير الالمانى ليضغط لحساب النمسا.واستجابت الحكومة لأول وهلة لهذا الضغط السياسى، فأوعزت لثلاثة من أعضاء اللجنة، ان يتقدموا اليها باقتراح اقامة مشروع للجبن والالبان، بحجة ان مصر الزراعية تشترى بألوف من الجنيهات جبنا مع انها اولى بأن تصنعه فى مصر ومن البانها وأن تجدد صناعة الجبن بعد أن أصبحت عالة على بلاد أخرى كالدانمرك وهولندا وفرنسا وربما المانيا . وأن مشروع القرش لن يكون مصريا بحتا لان اصواف الطرابيش ستستورد من الخارج.

ورفض أحمد حسين أن يغير طبيعية المصنع، فقد وعد المصريين بأنه سيقيم مصنعا للطرابيش، ويجب أن يفى بالوعد، وأن الخسارة الادبية ستكون كبيرة اذا عدل الشباب فى أول مشروعاتهم عن وعد قطعوا لانفسهم ولاى سبب لضغط من حكومة أجنبية.

وإن انسى لا أنسى أحمد حسين واقفا فى حلقة من أساتذة وشيوخ مصر يجادلهم فى هذا الشأن، ويضرب الحجة بالحجة، فى صوت مسموع، يفيض بالحماسة والإصرار، ولكن حججه ذهبت هباء، فالأعضاء الذين تأثروا بضغط الحكومة ولم يغيروا موقفهم، فاضطر أحمد أن يذهب الى رئيس الوزراء وكان وقتذاك اسماعيل صدقى باشا، وكان شديد الاهتمام بالصناعة المصرية، فاستغاث به وقال له: انه لا ينقذ المشروع من الخضوع لضغط اجنبى الا انت وتحركت نصرة الوطنية فى نفس الرجل فأمر بأن يستمر تنفيذ مشروع مصنع الطرابيش فى شارع بالعباسية كان اسمه فألا حسنا اذ كان يحمل اسم «برج الظفر» وعند وضع الحجر الاساسى لهذا المصنع نظم امير الشعراء قصيدة جميلة مطلعها.

نــزع الشــبل من الغــاب الوتـد

وتغطـــى منكـــبــاه باللبـــــد

ولما تم انشاء المصنع ودارت عجلاته، واحتفل بافتتاحه وضع شوقى قصيدة كانت اخر قصائده، قد حملها كاتب هذه السطور، فكانت آخر ما نظم لبلاده.

بقى أن نسأل السيد وزير التعليم متى يفكر فى بعث هذا المشروع ليخدم الشباب والوطن والصناعة، وليكون وسيلة من وسائل التربية الوطنية ودعوة الى تأييد صناعة البلاد ... متى؟

شخصيات لا شبيه لها ★

كدت أسمى هذه الشخصيات التى أنا بسبيل الحديث عنها «غريبة» ثم رأيت العدول عن هذا الوصف ، فالغرابة قد توحى بأنها شخصيات شاذة ، والشذوذ كما يكون إلى الخير ، يمكن أن يكون إلى النقص والشر .

والأغلب والأعم من العباقرة والأفذاذ ، شواذ ، لا يتقيدون بعرف ، ولا ينزلون على مقتضى تقليد ، حتى يبلغ بعضهم فى غرابة الاطوار ، حد الجنون ، حتى كاد البعض يحسبون أن العبقرية بعامة هى ضرب من الجنون ، وأصل هذا اللفظ فى العربية ، يؤيد هذا التصور فالعبقرية نسبة إلى واد تصور العرب القدماء أنه واد يسكنه الجن ، والإنس إذا مسهم طائف من الجن ، قد يفجر من اعماقهم قدرات ، يتجاوزون بها ، قدرات البشر الاقوياء الاصحاء ، فيكون منهم افذاذ الشعراء والمصورين والمثالين والخطباء والكتاب . وقد يعين على توقع الغرابة ، ومخالفة المألوف والخروج على تقاليد الناس ، إن اكثر عباقرة المفكرين والمبدعين يخرجون على الناس بما يشبههم فيرفضونه لأول وهلة ويردونه إلى اختلال الفكر ، واضطراب النفس ، وقد كان الانبياء اكثر الناس تعرضا لتهمة الجنون ، وفى الذكر الحكيم مواضع عديدة ، ذكر فيها الرسول

★ هلال - أغسطس ١٩٨٥ .

مقرونا بتلك الآفة فقد جاء فى القرآن «يا أيها الذى نزل عليك الذكر إنك لمجنون» وقد نزه الله تعالى رسوله من هذا العبث الجسيم فقال «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» .

ولو لم يخلق الله من عباده أناسا لهم قدرات خارقة ، وطاقات نادرة، وطموح يفوق طموح عامة الناس ، لبقيت حياتنا على ما كانت عليه ونحن خارجون لتونا من الكهوف ، وربما لبقينا فى الكهوف ، والحق أن ما من شىء جديد فى حياتنا ، إلا قبلناه بفتور على الأقل .. ولكننا فى الاغلب الأعم ، نلقى كل جديد بالرفض العنيف ، والانكار الغاضب ، سواء كان هذا الجديد ، يتعلق بالعقائد والافكار ، أو اساليب الحكم والسياسة ، أو انظمة الادارة والقانون فكل دعاة هذا الجديد والمروجين له يصيبهم نصيب من الكراهية والاعتراض على الجديد الذى يعرضونه فيتهمون غالبا بالغرابة والتطرف ، أو بالشذوذ أو الجنون ، وحينما تقوم الألفة بين الجديد والمجتمع ، تتغير المشاعر نحو المجددين ، فيرضى عنهم المجتمع ، شيئا فشيئاً ، حتى ينقلب الرضا إلى اعجاب ، ثم ينقلب الإعجاب إلى حب ، ثم ينقلب الحب إلى تقديس وقد يصبح خصوم الامس انصار اليوم .

والشخصية التى أريد أن أحدثك عنها ، لم تصدم المجتمع بشىء ، يثير سخطه أو احتجاجه ، بل على النقيض كانت تحسن الصلات بالمجتمع ولكن مع ذلك ، كان الكثير من أعضاء المجتمع ، ينظرون إليها باعتبارها ، خروجا على المألوف .

كان السفير طاهر العمرى ،احد رجال السلك السياسى المصرى أفاء الله عليه الثراء والعلم ، والمكانة الرفيعة . فقد وهبه الله حسا فنيا

جعله متذوقا للموسيقى الكلاسيكية ، وقادرا على شرح اعظم اثارها ، شرح الخبير المتمكن وارجح أنه كان يستطيع العزف على اكثر من آلة من آلات الموسيقى . ولكن يغلب على الظن بأن تذوقه واحساسه بدقائق الاثار الموسيقية الكبرى وقدرته على ابراز هذه الدقائق لغيره من محبى الموسيقى فاق مواهبه كعازف ولذلك اصبح استاذ مدرسة تسمع السيمفونيات الخالدة فى بيته، ثم يبدأ هو بشرح هذه السيمفونيات، فإذا برواد صالونه يسمعون طرازا من الفن ، لا يقل جمالا ولا روعة عن تلك السيمفونيات التى يحفظ حركاتها عن ظهر قلب ، ويعرف الفوارق بين الواحدة والأخرى والمؤلف ، بل يعرف كيف تطور المؤلفون الموسيقيون من مرحلة إلى مرحلة ، وقد استقرت ندوات طاهر العمرى وعرفت ، واصبح للانضمام اليها ، والتتلمذ فيها ، أصول وقواعد وأصبح منشىء هذه الندوة ومعلمها ، رائدا لهذا الطراز من الاتصال بالفن وتلقينه والتأثر به . إلى هنا لا يكون طاهر العمرى شخصا غريبا، فقد كثر الذين يشرحون الاعمال الموسيقية الكبرى ، ويترجمونها إلى مئات أو الاف المتذوقين الذين يريدون أن ينفذوا إلى اعماق هذه الاثار ، ويستزيدون من مكنوناتها وخفاياها ، ولكن الجانب الأول من تميز طاهر العمرى ، عرفته ذات يوم ، حينما أعطانى صورة لى ، فراعنى شدة انطباقها على الاصل ، ولكن أدهشنى حينما قال لى إنه تخصص فى ضرب من رسم الاشخاص أو التصوير ، لا يستعمل فيه سوى المسطرة والبرجل ، أى لا يلجأ فيه إلا إلى الخطوط المستقيمة والدوائر فقط ، ثم ترى نفسك بعد ذلك إلى صور وجوه غاية فى الدقة .

وقد أرانى طاهر العمرى عشرات من الصور لعظماء الرجال والنساء مصريين وعرب وأوربيين ، وأرانى التخطيطات الأولية لهذه

الصور ، فعرفت أن الضرب الذى يعالجه طاهر العمرى لا يشاركه فيه غير رسام سواه ، وعندئذ تجتمع فى مصرى ، هاتان الموهبتان العظيمتان التصوير بأسلوب نادر والموسيقى عزفا وتنوقا وشرحا ، وهذا يكفى لتميز هذا الانسان ، ووضعه فى طائفة الافذاذ .

ولكن لا تزال أشياء فى جبة الغرائب التى ينفرد بها طاهر العمرى ، فقد دعيت إلى معرض لاعمال طاهر العمرى فى التصوير ولما ذهبت لم افاجأ بصوره لوجوه الاشخاص المرسومة بالمسطرة والبرجل وحدهما أى بالخطوط المستقيمة والدوائر ، فقد كنت قد عرفت سرها ، ولكنى فوجئت بأن طاهر العمرى ، يعرض لنا لوحات صغيرة من نوع «المنيافير» أى الصور الصغيرة الدقيقة بألوان جميلة تستوقف نظرك وتحملك على التساؤل ، أنا لم أر الوانا بمثل هذا التألق والبريق والجدة وأعلن لنا طاهر العمرى المواد التى استعملها فى ابداع صوره وإنى أدعوك لتفكر من أى شىء يصنع صوره ، هل صنعها من طباشير الباستيل ، أى من أنابيب المعاجين المعدة للرسامين والمصورين ، أو من الالوان المائية ، أو بالقلم الرصاص مضافا إليه اشياء أخرى والواقع أنه لم يستعمل لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ولا اتصور أنه سيكون فى مقدور أى قارىء أن يهتدى إلى المادة التى استعملها طاهر العمرى فى صوره الجميلة الرائعة التى استوقفت رواد المعرض وجعلتهم يطيلون الوقوف امامها ، ويطيلون الوقوف امامها ، ويطلبون التأمل فيها ، ولا يحبون أن يتركوها .

إن المادة التى استعملها طاهر العمرى هى أعشاب البحار . نعم اعشاب البحار . ولكن هذه الأعشاب حينما تقع فى يد الفنان طاهر

العمرى ، فإنها تستحيل اداة للتعبير ، ناطقة وحساسة وتستطيع أن تمتع عين وحس المشاهد المتأمل ، بعالم متوهج من الالوان والاشكال . وقد عبر بتلك الاعشاب عن تأثيرات بإحدى السيمفونيات فكانت الصورة الصغيرة سيمفونية بذاتها . والمتأملون فيها تجاذبهم اكثر من احساس: فقد كانوا مفتونين بجمال ودقة وبراعة الصورة ، وكانوا مأخوذين بغرابة المادة المستعملة ، وكانوا سعداء ومستمتعين بهذه الالوان الجديدة التى نقلتهم إلى عالم لم تطأه من قبل اقدامهم . إلى هنا، وتبدو غرائب طاهر العمرى مقصورة على شخصية ولكنه يتمتع بغرائب تتجاوز إلى صديق له فى مثل تفرده ذلك هو الاستاذ رمسيس شافعى .

ورمسيس شافعى ، هو زميل لطاهر العمرى فى السلك السياسى وقد اشتغل اخيرا فى احدى الوظائف بهذا السلك فى باريس . وهو صديق حميم لطاهر العمرى .. فماذا فعل : واظب على أن يرسل كل يوم من باريس لصديقه فى القاهرة خطابا مكتوبا باللغة الفرنسية بخط جميل يكاد يكون لوحة جميلة . خطوط مستقيمة انيقة ، تنقل إلى أحد الصديقين خواطر ومشاعر واحساسات الاخر، احدهما فى عاصمة عتيقة فى المشرق ، والثانى فى عاصمة فى الغرب ، والخطابات لا تنقطع يوما واحدا كل يوم يكتب الصديق فى باريس خطابا وفى كل يوم يتسلم الصديق فى القاهرة خطابا ، وتتوالى الخطابات وتكثر ، وتكون مجموعة، يمكن لو جمعت لكونت كتابا فى أدب الرسائل ، يمتع القراء ، ويعلمهم ، ويكشف لهم عوالم لم تخطر لهم على بال ، فهى الخواطر التى تصدر عن الكاتب الذى يعرف أن القراء ستطالعها وتعلق عليها وقد تنقد

بعضها أو تنقدها كلها والصديقان يواصلان هذا التراسل النادر الغريب ، دون أن تشغلهما الدنيا التى يعيشان فيها ، ويواصلان هذا الطراز من التواصل الانسانى غير المسبوق والرجلان فى الشيخوخة التى تنضب فيها العواطف ، ويقل النشاط ، وينصرف الانسان عن الدنيا وبما فيها مللا من تعاقب الايام وتشابه الاحداث ، وخلو الحياة .. اخر الامر من المعنى والهدف واعجب ما وصل إلى علمى عن طريق الاستاذ يحيى حقى كاتبنا العظيم أن زوجة طاهر العمرى جاءته تتساءل ماذا افعل بهذه الرسائل وقد قلت له وهو يتهيأ للسفر إلى باريس أعطها لى اهيىء لها مكانا فى أحد معارض وزارة الثقافة .

البـــاب الثالث :

ثورة ٢٣/٧/١٩٥٢

المصرى الجديد
فى العهد الجديد ★

المصرى الجديد ، فى العهد الجديد ، هو المصرى القديم . فالمصرى لم يتغير ، والفساد الذى كانت أمواجه تتدافع حول ذلك المصرى ، لم تصل إلى جوهرة ، ولم تعد على فضائله ، ولم تغير نظرته فى الحياة ، ولا نظرته إلى الحياة .

كان كل شىء يتغير حول «المصرى» فى الماضى القريب ، كما تغير من حوله فى الماضى البعيد مرارا ، فكان ينظر إلى ذلك كله ، هازئا به، ساخرا منه ، متمسكا بتقاليده هو ، وبتقديره للخير والشر ، وللنفع وللضر ، وللباقى من الامور ، والزائل منها . وكان الناس يحسبونه كما مهملا ، أو قدرا ضائعا ، أو صفرا على الشمال . فلم يكن يهتز لهذا الحكم الظالم ، بل كان يبدو عليه ، أنه يقبله ويرتضيه ، ولا يعارضه ولا يطعن فيه .. حتى إذا تهيأت الظروف لينتفض ويثور ويتمرد ، يضرب ضربة واحدة هائلة ، تطيح بكل العمالقة الذين ظنوا أنه مات .. وللأبد .

★ هلال - يناير ١٩٥٣ .

فتركيا التى حكمت مصر ، ثلاثة قرون ، لم تستطع أن تغير حرفا واحدا من لغة هذا المصرى ، حقيقة أخذت منه اقواته ، ووقفت فى وجه تعليمه، وركبته بصنوف الهوان والاذلال ، ولكنها لم تغز قلبه ، ولم تغز ثقافته ، أى عقله .. فلما كانت سنة ١٨٠٥ ، كان السلطان التركى مستسلماً لوهمه القديم ، فاعتقد أنه يستطيع أن يفرض على المصريين من يشاء ، فإذا به يرى حدثا غريبا .. رأى جموعا تتدفق ، إلى المحكمة الشرعية ، ورأى فى هذه الجموع تكتلا ، وتنظيما ، واتحاداً فى الرأى ، وتصميما على العمل ، واستهدافا للخطر .. من الذى نظم هذه الجموع؟ ومن الذى لقنها هذا الهتاف الجديد «ليسقط العثمانلى» ؟ وكيف التقت فجأة ، وافرادها بالأمس كانوا مبعثرين موزعين ، لا قائد لهم ولا موجه. ولكنها مصر ، ولكنه المصرى العجيب !

وأعجب من هذا كله أن هذه الجموع حينما اجتمعت وتلاقت ، وضعت فى الحال مطالب دستورية ، هى أعلى ما تطمح إليه الأمم العريقة فى كفاحها الدستورى .

وقد سبق قبل هذا الموقف الرائع ، موقف يشبهه فى عهد المماليك ، فقد أبى الشعب أن يترك الحاكم على هواه وألزمه بشروط ، يعتبرها المؤرخون أنها وثيقة حقوق الانسان الأولى ، التى سبقت فى التاريخ اعلان حقوق الانسان فى فرنسا ، عقب ثورة ١٧٩٨ .

فالمصرى القديم ليس به بأس ، انما البأس والعيب ، عيب الحاكم القديم : هو الذى أرهب المصريين ، وهو الذى افقدهم الثقة فى العمل ، وهو الذى قتل فيهم القدرة على الابتكار والخلق ، والتجديد والمجازفة . فإذا استنشقوا نسيم الحرية الطليق ، انتجوا ، وآمنوا بالنظام ، وعادوا إلى العمل..

ولن يحتاج الهداة والمرشدون إلى كثير من الجهد ، إذا هم طلبوا من المصرى الجديد ، أن يعرف قدر النظافة . فهو يحبها ، لكنها كانت عزيزة المنال ، لأن ثمن النظافة كان يعوزه .

ولو دعوه إلى العدول عن النظام القديم فى الانتاج الزراعى ، وهيئت له أسباب استغلال ارضه استغلالا حديثا ، مستعينا بالآلات التى جادت بها الحضارة ، اقبل على هذا التوجيه اقبالا شديدا ، وفهمه فى الحال ، ونفذه لتوه . وقد لاحظ الكثيرون أن الجندى المصرى عرف دقائق المدافع المضادة للطائرات ، وأحسن استعمالها فى وقت قصير ، مع أن ثقافته النظرية كانت فى اكثر الاحيان دون البدائية ، ولكن عند هذا الجندى رواسب حضارة عظيمة ، انحدرت اليه عن اجداده ، ولا تزال جذوتها تومض بالشرر ...

ولو دعى المصرى إلى التضحية ، وإلى الخدمة العسكرية ، وإلى الخدمات الكثيرة المتعددة التى تقوم على التطوع ، سارع إلى تلبية النداء ، فى غير تردد ، ولا ابطاء . فما كان يثنيه عن هذا التطوع ، إلا ما كان يراه من تهافت القادة والاغنياء ، على جمع الاسلاب ، وحشد المنافع لهم ولذويهم .

وبالجملة ، إن المصرى الجديد ، سيكون صورة جميلة ، للمصرى القديم .. صورة رفع عنها غبار مفاسد العهد الذى انقضى .. صورة وضحت معالمها ، ووضعت فى اطارها اللائق بها ، وفى المكان الخاص بها الذى نحيت عنه ، ظلما وعدوانا .

هل أدت الثورة رسالتها ؟ ★

استطيع أن أقول إن الثورة لم تؤد رسالتها المنشودة ، ولم تحقق اهدافها ، لأنها اكبر مما يتصور الناس ، بل أكبر مما يتصور بعض المتصلين بها . ولو حققت هذه الثورة اهدافها فى بضعة أشهر ، أو فى عام ، لكانت ثورة تافهة سطحية ، لا قيمة لها . فالثورات ليست انقلابا ماديا ، يغير مظاهر الناس ، أو شكل المدن ، إنما هى تطور باطنى ، يتم على دفعات ، فى بطء ، ثم يصاب بما يدفعه إلى الأمام ، أو بما يدفعه إلى الخلف ، ليعاود بعد ذلك سيره المرسوم له . ولو راجعنا تاريخ الثورات ، لرأينا اكبر احداثها وأعظم وقائعها فى السنوات المتوسطة منها ، ولعل مرد ذلك أن الثورات كالآدميين ، تبلغ سن النضوج ، فى المرحلة الوسطى من العمر ..

وقد يظن البعض أنه يمكن القول إن الثورة حققت أهدافها ، إذا الالقاب ألغيت ، أو إذا الملكية حددت ، أو إذا الأرض المنزوعة من ملك الاغنياء الكبار ، وزعت على المعدمين الصغار .. ولا شك أنها تكون قد حققت الجانب المادى من الثورة . ولكن هذا الجانب ، لا يحقق رسالة الثورة ذاتها .. لأن الالقاب قد تلغى رسميا ، وتبقى مع ذلك متداولة فى السوق السوداء . وقد تختفى من السوقين السوداء والبيضاء ، وتبقى

★ هلال - يوليه ١٩٥٣ .

مع ذلك الفوارق الزائفة الصورية التى كانت الالقاب تخلقها ، فلا يحس الصغار انهم كبروا ، ولا يحس الكبار أنهم قد تساووا بغيرهم ، ويبقى المجتمع بروحه القديمة ومعاييره الفاسدة . ولأن الملكية قد تحدد ، وقد يعطى بعض الفقراء القدر الذى نزعت ملكيته من الاغنياء ، وتبقى الفوارق الاقتصادية بين الطبقات فسيحة شاسعة ، فلابد إذن أن تسود روح الثورة ، وروح الثورة لا تسود فى مجتمع من المجتمعات ، إلا إذا اصطدمت بالعقبات القائمة فى طريقها ، وهى عقبات انفق الماضى فى صنعها وبنائها وتقويتها وتدعيمها السنين ، والجهد الطويل ، والتجربة المستفادة من تعاون الأجيال ..

فإذا تصور أحد أنى أمدح الثورة ، إذا قلت إنها حققت أهدافها ، فى عام ، فقد أخطأ خطأ بعيدا .

إنما الثورة بذرت بذورا لا يمكن أن تنتج اشجارا عالية ، إلا بعد زمن طويل . وقد بدا اثرها فى افكار الناس وعقولهم ، وفى تقديراتهم للأمور ، ووزنهم للأشخاص . وهذه هى الثورة الحقيقية .

لقد كان محرما على الشعب أن يذكر اسماء بذاتها ، فإن ذكرها تلفت يمينا ويسارا ، وإن جهر بها ائتمر به الحاكمون ، واذاقوه العذاب. من هذه الاسماء الجمهورية مثلا . وكان المصرى يرى الجمهورية فى كل مكان من العالم حتى في البلاد العربية ، ومع ذلك لا يستطيع أن يفكر فيها ، أو يدعو إليها ، وقد لا تكون الجمهورية نظاما صالحا ، أو نظاما مثاليا ، ولكن التحريم التحكمى المفروض على الشعب ، يورثه من العاهات النفسية والعقلية ، ما يسبب تأخره ، ويفسد عليه مواهبه .

والآن رفعت هذه الحواجز ، واستطاع المصرى أن يمد ذراعيه إلى أقصى الحد ، وأن يبسط رجليه ، إلى أبعد مدى ، وأن يرى كل ما تمتد إليه عيناه ، وأن يسمع كل ما تصادفه أذناه .

وليس ثمة شيء انجع في علاج الأمم ، وتحريك عناصر قوتها ، من الحرية .. إن الحرية لا توحى إلى الشاعر والفنان وحدهما ، بأجمل ما يكتبان أو ينتجان ، بل إنها توحى للعامل وللصانع والزارع ، بل الخادم والاجير ، من الثقة بالنفس ، والفرح بالحياة ، ما يخلق هؤلاء جميعا خلقا جديدا ، فيصنع منهم رجالا أشداء رافعى الرأس ، بعد أن كانوا ادوات صماء بكماء ، تحس أنها تحيا باسم غيرها وتعيش لحساب سواها .

والثورة جعلت الحرية شيئا مقدسا حينما ازاحت عن العرش فاروق، لأنها لم تزحه باسم الجمهورية مثلا ، ولا باسم الوطنية انما ازاحته باسم الدستور ، أى أزاحته لأنه كان يعتدى على الدستور ، ولأنه كان يقتل الاحرار ، ولأنه كان يكمم الافواه ، ولأنه كان يكبل العقول .

ولا يطعن فى معنى الرسالة التى اخذتها الثورة على عاتقها ، أن الاحكام العرفية بقيت بعد نجاح الثورة فى ٢٦ يولية ، فإن هذه الاحكام البغيضة هى جزء من كل ثورة فى بدايتها . ولقد كانت الاحكام العرفية، هى طابع الثورة الفرنسية ، وطابع الثورة الروسية ، حتى ولم لم تعلن بمرسوم أو لم يسن لها قانون . فإن الانفعال والتدافع ، والتربص ، والتطور السريع ، كل هذا يجعل للحكومة فى المرحلة الأولى من الثورة ، مهمة أخرى غير مهمتها العادية فى الظروف العادية .

ولكن ليس هذا سوى عرض يزول ، فإن الثوار فى فرنسا بعد عام ١٧٨٩ كانوا يقتلون بعضهم بعضا ، وكان ميدان (كروش) ساحة يتسلى فيها الشعب الفرنسى برؤية الرقاب وهى تطير عن الاكتاف ، وابر النساء لا تكف عن الشغل بخيوط الحرير أو الصوف . ولكن هذا الدور انتهى، وأمن الفرنسيون على أرواحهم وأعراضهم ، وزال رويسبيير ودانتون ومارا ، وبقى الشعار المثلث رمز الحرية والاخاء والمساواة ، ثم زالت الجمهورية ، وعادت الملكية ، ثم أصبحت امبراطورية ، ثم عادت جمهورية ، فامبراطورية . ولكن الثورة واصلت سيرها ، وواصل سلاحها شق الأرض الفرنسية ، وتقليبها حتى أصبحت مبادىء الثورة جزءا من بدهيات الحياة الانسانية .

وستفعل ذلك الثورة المصرية .. لقد اقتلعت النظام القديم ، أى اخرجت جنوره من الأرض . إنه قد يبقى على سطح الأرض زمنا آخر ، ولكن صفحته انتهت ، إلى غير رجعة .

فالاسس التى كان يقوم عليها الحكم ، والتى كان يختار عليها الرجال زالت . وهذا هو التغيير الاساسى الذى سيحدد مستقبل مصر ، والذى يمكن معه أن نقول إن الثورة حققت أهدافها .

والفلاح ، سواء أخذ من الاراضى التى نزعت من ملك الاغنياء أم اخطأه الحظ ، فقد أصبح مخلوقا آخر . هو لم يكتشف بعد هذا المخلوق الجديد ، ولكن تحديد الملكية فى ذاته ، له من النتائج النفسية والروحية ما لا يتسع له كتاب .

ولقد استتبع هذا كله ، الرغبة فى مراجعة التاريخ الحديث لمصر .

وهذه الرغبة في ذاتها ، مظهر من مظاهر الثقافة الروحية للمصريين . فقد كتب لهم تاريخهم بأقلام ارادت أن تنزع من هذه الامة ثقتها بنفسها وأن تقطع صلتها بماضيها ، وأن تفسد علاقتها بجيرانها . وليس أخطر على الأمم من سوء فهمها لتاريخها ، لأنه المكان الطبيعي لفلسفتها في الحياة . ولقد ابرزت الثورة ابطال الشعب الذين دافعوا عنه ، ووقفوا في وجه الطغيان الداخلي وفي وجه الاحتلال الاجنبي ولابد أن هذه الأسماء ستبعث غيرها حتى تكمل للتاريخ المصرى صورة كاملة في ذهن الشعب . فالثورة، إذن ماضية ، ولا يمكن أن تهزم ، ولكنها ككل ثورة ، لا يمكن أن تحقق الاهداف القريبة والبعيدة ، والمادية والروحية في سنة ، إلا إذا كانت كحركة التنقلات التي يجريها الوزير الجديد في وزارته .

وثورتنـــا في ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ أعظم من هذا قدرا وأبعد منه اثرا .

هزيمة ٥ يونيو وملحقاتها *

لقد سررت أيما سرور بالرد أو التعليق على مقال الأستاذ الفاضل الدكتور فؤاد زكريا حول التفاسير المختلفة لهزيمة ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ . ذلك لأنى لبثت أحقابا استمع الكلام حول هذه الهزيمة ، وكان لكل كلام أسلوب ومنهج وكان لكل كلام غايته وهدفه ، وكان لكل كلام حافز ودافع . والحق أننى أول الأمر ساغنى هذا الكم الهائل من التعليق والتفسير ، على واقعة - فى رأيى - واضحة الحدود بينة المعالم - وإن جاءت ثمرة أكوام من الأحداث القريبة غاية القرب ، والبعيدة أقصى البعد ، فقد بدا أن هذا الفيض المتدفق من الكلام حول هزيمة ٥ من يونيو ، ليست الغاية منه الرغبة فى تقصى الحقائق المتصلة بهذا الحدث الضخم ، والغوص إلى أعماق عناصره ، والتوق إلى كشف كل أسراره ، بفرط من الحب لمصر ، ولشدة الألم للهزيمة ، وإنما الباعث الحقيقى لكل ما قيل وكتب ، هو تجاوز الهزيمة وأسبابها ونتائجها إلى شئ آخر يقض مضجع أكثر المشاركين فيما يبدو أنه بحث ودراسة . وتعليق وتفسير . تلك هى ثورة سنة ١٩٥٢ ، فهى عند الكثيرين غول كاسر ، ذو أنياب وأظلاف ، وأنه التهم الكثير مما كانوا يعتزون به ، ويحرصون عليه ، وأنه سيأكل أشياء أخرى عزيزة وغالية ، مالم يحيطوا به ، ويضيقوا عليه ، ويتهمونه بكل المقالب ، وينسبون إليه كل المصائب .

---

* هلال - سبتمبر ١٩٨٦ .

فالأحزاب القديمة التى كانت تنظر إلى المستقبل القريب نظرة الطمأنينة والتفاؤل ، على اختلاف اسمائها ، هى فى الواقع بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو حزب واحد ، وهى كذلك بالنسبة للاحتلال البريطانى ، وهى نفس الشئ لتاريخ مصر السياسى وإن كان بعضها قد استأثر بأغلبية انتخابية ضخمة ، وإن كانت الأحزاب الأخرى قد اطمأنت إلى قلتها ورحبت بها ، لأنها كانت توفر لها من المزايا والمنافع ، والسلطة والنفوذ ، مثلما وفرت الأغلبية لحزب الأغلبية ، وربما أكثر مما وفرت لهذا الحزب ، فالأغلبية فى بلاد الأحزاب والانتخابات السليمة ، توفر لحزب الأغلبية مدة في الحكم أطول ، وقدرة على التغيير أعظم ، وتأثيرا على الأفكار والميول أكبر ، فى حين أن أحزاب الأقلية فى مصر ، تعمر فى الحكم أطول من حزب الأغلبية وهى أثيرة عند أصحاب السلطة الحقيقية فى البلاد ونعنى الانجليز والملك أكثر من حزب الأكثرية ، وفى نهاية الأمر ما من حدث أكبر يقع فى البلاد إلا وتدعى أحزاب الأقلية لتساهم فى معالجة هذا الحدث وإبداء الرأى فيه على قدم المساواة مع ممثلى حزب الكثرة ، ففى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مثلا دعى زعماء الأقلية مع زعيم الأغلبية ، وكان لهم صوت مسموع ورأى معلن مثل ما كان لزعيم حزب الكثرة هذه . كذلك دعى زعماء أحزاب الأقلية ليساهموا فى تشكيل لجنة المفاوضات حتى ممثل حزب الاتحاد الذى كان قد انقضى على انقضاض أعضائه وغلق داره وجريدته وفشله المستمر فى أن يكون له نائب واحد ، حتى ليذكرنا اليوم ، حزب الأمة فى القاهرة بحزب الاتحاد الذى وسد التراب عقب ولادته بقليل .

ولذلك فثورة سنة ١٩٥٢ كريهة جدا إلى قلوب زعماء الأحزاب التى سدت ثورة ٢٣ يوليـو أبواب رزقـها ، كما سدت طريق حياتها ، فلم يعد لها وجود ، ولا أمل فى المسـتقبل حتى بعـد أن أجهضت هذه الثورة على يد أنور السادات . وقد جرى على نهج الكراهية أبناء زعماء هذه الثورة وأحفادهم وأصهارهم وتابعوهم من خدم وحشم وكتاب وموظفين فى الحكومة والشركات فقد كانوا يكسبون الكثير من اتصالهم بتلك الأحزاب سواء كانت فى الحكم أو كانت خارجه . إذا احترم اتباع تلك الأحزاب جميعا معاهدة غير مكتوبة ولا موثقة موادها لتخدم بعضها بعضا عند اتباع الأحزاب ، ونحن فى الحكم أو أنتم فيه فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . فان وصلتمونا ونحن خارج الحكم ، وصلناكم ونحن فيه ، وقد قال الناس جميعا آمين ، وهناك مجموعة أخرى من خصوم الثورة الأوفياء.. وهى تضم كل من أصابه ضر سواء بأخذ أرضه الزراعية ، بوضعه تحت الحراسة ، أو بإيداعه فى معتقل ، أو فى تقديمه لمحاكمة . أو بحصول شئ من هذا ، لأحد ابنائه أو زواج بناته ، أو عائلة كان يكسب منها ، وبعض الناس كان يتصور أنه يتمتع بسلطة أو مال أو جاه ، وضيعته الثورة فراح يشكو ادعاء للوجاهة المستجلبة ، حتى صدق نفسه ، فأصبح خصما لدودا للثورة وأعرف رجلا فقيرا لم تأخذ منه الثورة ، ولا سهما من قيراط من فدان، كان دائم الشكوى من الإصلاح الزراعى الذى أضر بالبلاد . والذى لم يقرره ضباط الثورة لاصلاح ولا لحب الفـقراء وإنما خلـقا لفرصة السلب والنهب ، وقد سـلبوا بالفعـل ونهـبوا حتى كانوا يتقيئـون الفـلوس تقيـؤا هكذا كانوا يقولون .

أما الطبقة المتوسطة من الأطباء والمحامين والمحاسبين والمدرسين والصحفيين ، فقد كرهوا الثورة لعلل كثيرة بعضهم رأى أن الثورة قد فتحت الأبواب لأمثالهم فجعلت بعضهم وزراء وآخرين سفراء وفريقا ثالثا من رؤساء مجالس الإدارات وفريقا رابعا كانوا ضباطا فأصبحوا أصحاب سلطة ونفوذ لمجرد كونهم ضباطا سابقين .

ويبقى هؤلاء المدنيون فى أماكنهم أو تحسنت أحوالهم قليلا ، ولكن ليس بالقدر الذى يعتقدون أنهم يستحقون مع أنهم أذكى وأقدر وأعلم ممن سطع نجمهم وعلا صيتهم وربما يكون غضبهم قد أثير لبعض أمور ، رأوا أن الثورة أخطأت فيها ، فأصبح لديهم ما يقولونه حبا فى المصلحة العامة ، حرصا على خير البلاد . والواقع أن كراهيتهم للثورة سبقت كشف هذه الأخطاء .

وهناك فريق أخير يكاد يكون من المرضى فهو محافظ لغير مصلحة شخصية هو محافظ بالمولد والطبيعة ، فهو حزين لأن الملك فاروق عزل ، حزين لأن باشوات زمان كانوا مخلوقين وزراء وكانت ملابسهم وربطات أعناقهم تؤكد أن الوزارة رسمت لهم . فى حين أن هلافيت هذه الأيام الذين يصلون إلى الوزارة والسفارة ، تنقصهم الوجاهة ، ويعيبهم قلة الوزن ، وصغر الكرش وضمور الوجوه أو امتلاؤها ولكن . بغير المقاييس التى ترضى عنها هذه الجماعات التى تحب كل قديم وهم لا يتذكرون علم مصر الأخضر حتى يبكوا ولم يروا صورة فريق ذى شوارب مثل عثمان باشا المهدى حتى ينتخبوا هؤلاء لم يكفوا عن التحدث عن الثورة إلا باعتبارها لعب عيال وأن (عبدالناصر وزملاءه) لا فى العير ولا فى النفير ولكن الخطأ خطأ فاروق لأنه بعد

أن عرف الضـــباط الأحـــرار وكان يعرفهم جيدا - لم يشـــنقهم فى ميدان العتبـة الخضراء ويريح البلاد مما فعـلوا ومما سيفعلون والعياذ بالله العظيم .

هؤلاء جميعا سرتهم - فى الواقع - هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وإن كانوا قد احتبلوها أى انتهزوها ، ليلطموا الخدود ، ويشقوا الجيوب لأنها فرصـة لا يضيعها عاقل ، ليؤكد بطريقة علمية ، أن هزيمة مصر فى ذلك اليوم أمر راجع لأشياء خطيرة ورهيبة يجب أن نضع اليد عليها ، حتى لا تتكرر الهزيمة من جهة ، ولكيلا يقوم نظام شبيه بالنظام الذى قاد مصر والعرب إلى هذه الهزيمة المنكرة ، ولكيلا تقوم ثورة مشابهة لهذه الثورة التعسة التى ألحقت بنا هذا العار الذى سيبقى عالقا بشرفنا حتى يوم القيامة .

وكل هـــذه الردود ، هـى ردود فعـل إنسـانية ، ليـس فيـها شئ غريب ، فهزيمة ٥ من يونيـو لم تكن هـزيمة عـادية مـن أى جانب . فهى من ناحية الحجم والضخامة ، كانت هزيمة منـكرة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد تمت فى وقت قصير عالميا ، فالتـاريخ الحـديث والقـديم لم يشـهد حربا جارفة وصـاعقة وخاطفة كهذه الهزيمة ، وإن كانت الهزائم الفرنسـية أمام الجيش الألمـانى الهتـلرى ، كانت بهذا المقدار من الفداحة وربما أكثر لو أدخلنا فى حسابنا ماضى الجيش الفرنسى القريب فى الانتصارات وحســن اســتعداده وتمتعه بالقواد العظام الذين أبلـوا بلاء حسـنا فى مـواقع ذات حديث بعيد وأثر عظيم .

وقد كانت أيضـا هزيمة بالغة الفداحة لأنها جاءت حلقة من سلسلة من الأحداث شاركت فيها مصر الثورة ومصر الدولة حتى أصبح كل ما

يصدر فى مصر خطير . وقد كانت الحركة العربية نحو الوحدة قد تقدمت تقدما عظيما على إثر تأميم قناة السويس ، ثم حرب السويس التى شاركت فيها بريطانيا العظمى ثم فرنسا ، وأخيرا اسرائيل ، والتى كانت الحرب الدولية الأولى التى حسمت نتائجها الأمم المتحدة لأول مرة . وقد جاء فى أعقاب هذه الحرب التى انتهت تماما فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ أى بعد جلاء جميع الدول المشاركة فى الحرب عن الأرض التى احتلت . وسقوط الحكم الهاشمى فى العراق ، وقد كان لهذا السقوط دوى هائل لما للعراق من أهمية عسكرية وسياسية لقربها الشديد من حدود الاتحاد السوفييتى ولايران ولتركيا ولسوريا ، وكل هذه الأقاليم حساسة إلى أقصى حدود الحساسية عربيا ودوليا ، وكانت مصر كبيرة جدا فى خيال الكثيرين بعد انتصاراتها فى الفترة منذ هزيمة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وانسحابهم من الأرض المصرية التى احتلت ، وبقاء قناة السويس فى يد مصر ، بعد محاولة أكبر دولتين أوروبيتين سحب القناة من أيدينا . حتى الذين يسلحون مصر والذين لا يسلحونها كانوا يتصورون أن مصر إذا حاربت حتى ولو كتبت عليها الهزيمة آخر الأمر ، فستحارب جيدا وستصيب الأعداء اصابات قاتلة وستثبت فى مواقعها ، وستحسن استعمال الأسلحة التى حصلت عليها ، وسيبدو أن جيشها اكتسب مرانا بفضل التدريب الطويل الشاق والمعونة السوفييتية التي منحت مصر خير مالديها من سلاح وتدريب ، ولذلك كانت الهزيمة مفاجأة كبيرة للجميع .

ولو نوقشت الهزيمة فى حدودها الحقيقية السياسية والعسكرية ، لما كان هناك شئ يدعو إلى الشكوى . فهى هزيمة ولم يكن فى

مقدور أحد أن ينكر كونها كذلك ، وقد تضاءلت عقب حدوثها إلى الحدود الدنيا إذ لم يترتب عليها شئ مما كان يمكن أن يبنى عليها فالنظام التى تمت الهزيمة فى عهده ، لم يسقط ولم يشرع أحد فى الانقضاض عليه ، والنظام الذى كان يحكم فى مصر لم يغير شيئا لا فى أسلوب ولا فى منهج ولا فى الخصائص الكبرى التى عرف بها . وهو أمر غريب جدا فى حياة الأمم ، ففى أكثر الأحوال ، إن لم يكن فيها جميعا أن النظام القائم المهزوم خصوصا إذا كان تقصيره فى الحرب كبيرا ، لابد أن يسقط .

ولست أعتبر ما قاله المتدينون من أن هزيمة سنة ٦٧ ، كانت بسبب ضعف عقيدتنا فى الدين ، وبعدنا عن طريق الله ، بالشئ الغريب ولا هو بالقول المغرق فى الخطأ . ذلك لأن المتدين . إذا كان صادقا فهو يؤمن بطبيعة الحال أن ضعف الإيمان بالله يؤدى إلى بوار الأمم ، وخسرانها لأنهم يؤمنون بأن الله قال إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وهو غير مخطئين لأن عقيدة المحاربين هى رأس مالهم الروحى ، أيا ما كانت هذه العقيدة ، فان الاعتقاد فى مبدأ ما ، حينما يكون هذا الاعتقاد خاليا من المصلحة الشخصية ولم يكن مجرد تظاهر يمنح المعتقدين قوة تعينهم على تحمل متاعب الحرب ، وتثبت أمام شدائد القتال وتحميهم من السقوط فى وهدة اليأس ، حينما تنزل بهم المصاعب، أو تحل الهزائم فليس الإيمان بنصر الله ، مجرد كلام غيبى ، بل هو حقيقة علمية ، أكدتها جميع الحروب فكلما كان المقاتل مؤمنا بالهدف الذى يقاتل فى سبيله ، كان نصيبه من النصر أكبر وثباته عند الشدة أوضح اعتقادا .

أما القول بأن هزيمتنا سنة ٦٧ مردها إلى الاشتراكية ، فهو فى الواقع الصيغة الثانية للتعبير عن الاعتقاد بأننا هزمنا لأننا تركنا الاعتقاد فى الله ، باعتبار أن الاشتراكية هى قرب من الإلحاد ، والبعد عن الله ، عند الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا واضحا عن المذاهب الحديثة سواء كانت من مذاهب اليمين الفاشية والنازية والبراجماتية والوجودية أو كانت من مذاهب اليسار كالاشتراكية والشيوعية والوجودية اليسارية ، والواقع أن القول بأننا هزمنا لأننا اخترنا طريق الاشتراكية هو غير مستقيم ، بل لأن ايماننا بالاشتراكية لم يكن كاملا ، والإيمان الذى تحتاج إليه الأمم فى نضالها من أجل مستقبل أفضل ، وأسلوب حكيم أصلح ومنهج حياة أقوم ، لابد أن يكون ايمانا عميقا عامرا يستأثر بكل خلجة من خلجات النفس ، وبكل نبضة من نبضات القلب ، ويكون هذا الإيمان عقيدة الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، وعقيدة الجهلاء والمتعلمين ، كل فئة أو طائفة أو جماعة بأسلوبها لكنهم جميعا يتساوون فى التسليم بصحة المذهب ، وبأنه وسيلة العلاج ، ودواء الأدواء ، وسبيل الإصلاح . أما إذا كان قد شاب ايماننا شك فنحن خاسرون ، إلا أن يكون ايماننا بالقتال ، قام على عقيدة وطنية ، وضعت جانبا جميع المذاهب والعقائد واعتقد أن الوطن فى خطر ، وأن واجب كل مواطن الدفاع عن هذا الوطن ، والاستشهاد فى سبيله وبذل الغالى والرخيص من أجله ، فهذه عقيدة مؤثرة ، تنطوى على حافز قوى ، لو أحسن القادة اثارته أولا ، ثم الانتفاع به ثانيا .

فنحن لسنا عجبا بين الأمم ، حينما يعتقد فريق منا بأن الاشتراكية هى التى هزمتنا ، فقد قيل شبيه بهذا الكلام فى كل دول أوربا المتمدينة

السائرة على طريق العلم وحقائق الوجود الثابتة ، فحينما كانت النازية والفاشية وأشباههما سائدة في العالم ، يستميلون الكثير من الناس ومن الأحزاب ومن القادة ، كان الكفر بالديمقراطية هو شعار تلك الأيام، فلما قامت الحرب ، وتهاوت دول الغرب ، في أيام معدودة أمام جحافل النازية واشتد قتالها الساحق الذي كان يحصد الشعوب والجيوش في ساعات لا أيام كان الكثيرون يعتبرون هذا دليلا على فشل الديمقراطية في جانب ، والشيوعي في جانب آخر ، ولما جاءت الولايات المتحدة لنجدة أوربا في وجه النازية الألمانية وحدها ، وأجلت جيوش أوربا وأمريكا مجتمعة ، يوم النزول على شاطئ نورماندى في أقصى غرب أوربا ، كان ذلك تأكيدا لفشل الديمقراطية ، وخوائها الروحي ، وفساد الأسس التي قامت عليها ، فلما رجحت كفة الديمقراطيات في السنتين ٤٤ و١٩٤٥ ، عاد الإيمان بالديمقراطية ونسخت مذاهب النازية والفاشية أي مذاهب الشمولية .

أما رد الهزيمة إلى التآمر الخارجي على مصر ، فليس إلا الحقيقة التي لا يجوز الخلاف حولها مع تغيير بسيط في الصياغة ، فالهجوم الخارجي على مصر متمثلا في إسرائيل المؤيدة بالولايات المتحدة ، هو السبب المباشر للهزيمة بلا شبهة ولاشك بدون حاجة إلى اضافة لفظي التآمر الخارجي فالتآمر يوحي بأن هناك عملا كان يدبر له في الخفاء ، وأنه استمر يعمل داخل صفوفنا ، وفي صفوف قواتنا المسلحة في حين أن الهجوم على مصر بوصفها قائدة للشعوب العربية ، وداعية إلى الوحدة العربية ، كان حقيقة واقعة ومعلنة ، فالقتال بين مصر ودول الشعوب الغربية لم ينقطع منذ بداية القرون الثلاثة الأخيرة ، قبيل الغزو

الأوروبى للجزائر سنة ١٧٣٠ ثم سائر الشعوب العربية فى الفترة التالية حتـى نهاية الحرب العالمية الأولى . والغرب منذ بداية القرن الحادى عشر ، التى اندلعت فى مفتتحه (أى مفتتح هذا القرن) ، قلبه يتلهب بطمع مشتعل فى أن يضع يده على الشرق العربى الذى يضم مصر وسوريا وفلسطين والذى يتوسط العالم العربى الممتد من الخليج إلى المحيط ، والذى يضم من الثروات المادية المكشوفة والمخبوءة ، ومن الذخائر الروحية دينية وأدبية وفلسفية مالا نهاية له ، ولا مثيل له فى أية بقعة أخرى من الأرض إلى جانب الموقع الفريد الذى يمسك بيديه أطراف الشرق وأطراف الغرب ، ويترامى أثره عند ملايين من البشر متنوعى الأجناس والألوان واللغات ، فإذا أصررنا على استعمال عبارة (المؤامرة الخارجية) فلابد أن نعرف أن هذه المؤامرة ترجع إلى قرون ، وقد أخذت صورا وأشكالا متباينة ، واستغلت فرصا بعضها من صنع المتآمرين أنفسهم ، وبعضها من صنع أهل المنطقة . عن تعمد أو عن غباء ، وسوء تقدير أو كسل طرأت عليهم بحكم توالى السنين والقرون والحروب والمناوشات ، من هؤلاء الأعداء الذين يطير النوم من عيونهم ، حينما يتصورون أن المنطقة العربية قادرة على أن تجتمع وينسق عمل أهليها ، وتتوق إلى استعادة المجد ، وبعث الماضى ، حقا وصدقا فان الغرب يعلم أن هذه المنطقة هى منطقة سيادة وزعامة وقوة وسلطة . ومن ثم فان بث الوهن فى قاطنى أراضيها ونسخ عقولهم ، وفصل صلاتهم بثقافاتهم وأصول حضارتهم ، هو شغل زعماء الغرب .

وقد مرت على مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، حلقات من هذه المؤامرة كانت الحلقة الأولى مناصرة نظام محمد على ثم

القضاء عليه ، وفرض معاهدة سنة ١٨٤٠ على مصر وعزل الخديو اسماعيل فى يوليو ١٨٧٩ ، ثم هزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ ، ثم محاولة غزو مصر وإعادة الاحتلال البريطانى بعد فترة قصيرة من الجلاء الناقص فى يونيو ١٩٥٦ فأمريكا ، كانت قد عقدت العزم - بعد أن أفلتت مصر من الهزيمة الكاملة بعد تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، على أن نظام عبدالناصر وقف تماما فى وجه ما يوحى به هذا النظام بخيره وشره وقوته وضعفه من طموح ضخم للعرب ، وتمرد عظيم ضد الغرب واطماعه الاستعمارية والحجة موجودة ، والوسيلة موجودة أيضا ، وكلا الحجة والذريعة يتجسدان فى إسرائيل ، ولذلك كان من الطبيعى - مهما فعل نظام عبدالناصر - أن تحدث الغزوة أو الهجمة على مصر فى ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأن تكون نهايتها هزيمة مصر العسكرية واكتساح منطقة سيناء واحتلالها ، فالحقد الذى تضمره الدوائر الاستعمارية وتعلنه ، والفرق الهائل بين قوة مصر العسكرية والاقتصادية وبين القوة الاستعمارية المتمثلة لا فى الولايات المتحدة وحدها بل فى أوربا كلها والمسيحية الاستعمارية التى تريد أن تطوق الإسلام لا لحساب مبادئ السيد المسيح . ولا إيمانا بها ، بل لحساب المصالح التجارية والأهداف السياسية ، ولا ينقص من هذه الحقيقة أن فيتنام صمدت أمام أمريكا مع أنها دولة فقيرة وأقل شأنا من مصر من كل جانب ، ذلك لأن طبيعة الأرض فى فيتنام وهى أرض مستنقعات وأحراش وغابات ومناطق شبه جدبة غير أرض مصر المنبسطة الخالية من الجبال والتلال والهضاب . وشدة تقشف الشعب الفيتنامى بتأثير العقيدة الدينية ، وظروف الحياة الخالية من أسباب

الترف والميل إلى الراحة ، والعجز عن مواصلة الحرمان ، هذا كله مضاف إلى الظروف المتغيرة فى كل حرب وصراع بين دول بعينها ففرنسا النابليونية التى اكتسحت النمسا وبروسيا وروسيا ، هى فرنسا التى هزمت على يد بسمارك فى حرب السبعين أى فى سنة ١٨٧٠ والتى هزمت مرة أخرى فى سنة ١٩١٤ أمام جيوش غليوم الثانى وغلبت ثالثا أمام جحافل هتلر .

ولكن لاشك فى أن نتائج الحرب - أى حرب - يمكن أن تتغير بفضل قدرة كل من الطرفين على المناورة ، والاستعانة بالحلفاء ، وتغيير السياسة المتبعة دوليا أو داخليا فمحمد على ومن قبله على بك الكبير استطاعا أن ينشئا مصر العظمى ، وأن يمتد سلطانهما على الشام واليمن وأوربا في مرحلة ، ثم هزما في مرحلة تالية ، والقيادة هى القيادة والاقليم هو الاقليم وأنا أعتقد أن نتائج حرب سنة ١٩٦٧ كان يمكن أن تتغير أو تخف وطأتها على الأقل لو اتبعت مصر سياسة أخرى مع الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية ، ولكن فى جميع الأحوال كانت اطماع الغرب فى انزال الهزيمة بمصر ، وبنظام عبدالناصر قرارا نهائيا عند الولايات المتحدة وإسرائيل ، والهزيمة - على قوتها - ليست كل شئ فيها - بمعنى أن أسباب الهزيمة يمكن أن تكون أوجع من وقوع الهزيمة ، وهنا نعنى بأسباب الهزيمة ما يترتب عنه لأحداث الهزيمة بهذا النطاق وبذلك العمق ، والواقع أنه لم يعد هناك شخص يريد أن يخفف منها ، أو يدعى أسبابا واقعية أو غيبية عن الأسباب الحقيقية . وقد قيل كل شئ تقريبا ، ومن صاحب اختصاص لا ينافس ولا يبارى ذلك هو الفريق أول محمد فوزى فى كتبه حرب الثلاث

سنوات، فقد رسم صورة مبكية ومضحكة ، لهذه الهزيمة والغريب فى الأمر أن الذى رسم هذه الصورة القاتمة المخزية ، هو القائد العام للجيش الذى يلحق به أولا وقبل أى إنسان آخر كل حرف كتب فى هذا الكتاب .

ولا شك أن أثر هذا الذي كتب وذكر ، يخف كثيرا بعد حرب سنة ١٩٧٣ فقد عوض الجيش المصرى والشعب المصرى والقيادة السياسية كل ما لحق بنا ويشرفنا ويقدرنا كأمة مقاتلة ، فى حرب ٦٧ ، وانتصار سنة ٧٣ وإن ضاعت قيمة هذا النصر الباهر والضخم بالتواطؤ السياسى الصريح ولكن هذا التواطؤ الذى حال بيننا وبين الوصول إلى الممرات والمضايق ، والوقوف قبلها والسكوت على الثغرة ثم ما تم بعد ذلك من فض الاشتباك الأول ، ثم التجهيز لرحلة القدس .

إن العظة التى يجب أن نستخرجها من الهزيمة ، يتحمل النظام وزرها ، ولكنها ليست من صنعه وحده ، فهى تراث أجيال متعاقبة .

إن الذى ألحق بنا الهزيمة المنكرة ، هو عجز (إدارى) توارثناه ، وهو يزداد تأصلا بعد كل بضع سنوات ، وأكاد أقول كل بضع ساعات، فنحن لا نعرف كيف ننظم احتفالا أو مهرجانا ، ويبدأ هذا العجز بأول خطوة إدارية نقوم بها . وهى تحرير بطاقات الدعوة وتحديد الموعد وتوزيع البطاقات على المدعوين . الخطأ فى كتابة صيغة الدعوة على الآلة الكاتبة . فأى بضعة سطور تكتب على هذه الآلة ، تمتلئ بالأخطاء. وفى آخر مؤتمر حضرته منذ أسابيع ، لم أجد مكانى فى القاعة .

وإذا كان موشى دايان حينما قال إنه على المصريين أولا أن ينظموا صعودهم إلى السيارة العامة ونزولهم منها قبل أن يفكروا فى إنزال

الهزيمة بإسرائيل ، فإن هذه الكلمة القصيرة تعني في الواقع كل ما نريد أن نقوله عن العجز الإدارى الذى قامت الدلائل منذ الفراعنة على نقيضه فى قرون عقب قرون كان تحديد التفاصيل والجزئيات ، وضمها بعضها إلى بعض فى خطة . والصبر على التدريب وموالاته ، واجراء التجارب الجدية المظهرية ، والتمسك بما رسم من خطط ، وما صدر من أوامر ، كما لا يجوز أن تتغير الخطة إلا بناء على ضرورة حقيقية تقتضيها ، ولا يعدل عن أمر إلا إذا حل محل أمر آخر أكثر صلاحية .

هذه هى التربية الوطنية فى الميادين المدنية والمجالات العسكرية على السواء . وهى التى تنقصنا على السواء وإلى الآن ، بلا أى شعور فى المدرسة أو البيت أو النقابة أو الحزب ، لضرورة هذه التربية والمبادرة بها ، ووضعها فى رأس الأولويات ، والتشبث بها لسنوات عديدة حتى تصبح طبعا وخلقا ودينا ، قد كنت أكرر أن حديثى رسول الله اللذين يقول أولهما : إذا قلت لجارك أنصت والإمام يخطب ، فقد لغوت ولا أجر لك والذى يقول الثانى : إن الله لا يحب أن ينظر إلى الصف الأعوج هما خلاصة لحضارة وجوهر الثقافة وأساس التمدين والتنظيم والحرب والسلام .

فمجرد النطق بلفظ فى وقت يراد فيه الانصات الكامل ، هو ترويض وضبط للنفس ، وتعليم لآداب الحرب والسلام ، وفى قاعات الموسيقى السيمفونية ، يمتنع على النظارة أن يسعلوا ، مجرد سعال . وهم لذلك يحسنون تحمل آلام وويلات الحرب .

وكون الله لا يحب النظر إلى صف أعوج كلام خطير جدا فالله العظيم الذى خلق الكون بل الأكوان قد لا نتصور أنه يشغل بالصف

الأعوج ولكن الصف الأعوج ، بلاء نعانى منه فى الطريق ، وفى السفر ، وفى المتجر وفى كل خطوة ، ويصبح آفة تلاحقنا فى كل موقع حتى نهزم كهزيمة ٥ من يونيو ، فيكون محلا للسخرية فى العالم كله .

صحيح أن ثورة ٢٣ يوليو ربما لم تفطن لهذا التوجيه ، فورثت مصر لا تطيق النظام ولا تسير عليه ، ولكنه ليس خطأها وحدها فانه خطأ خلفته سنوات الانحلال والتفكك والتردى - والدليل على ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ لم تسقط عبدالناصر عن مكانه العالى ، ولم تزحزح ثورة ٢٣ يوليو لا فى العالم ولا فى الوطن العربى .

أربع ثورات فى ثورة ثورة عمر مكرم فثورة عرابى ثم ثورة سنة ١٩١٩ ... وأخيرا ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ *

هى أربع ثورات، فى حكم التاريخ الرسمى، وهى أربع ثورات، لأن الزمن الذى يفصل الواحدة منها عن التالية يتسع حينا، حتى يكاد يبلغ القرن، ويضيق حينا آخر فيكون ثلث قرن تماما أو ثلث قرن وبضع سنين.

ولكن قليلا من التأمل والتدقيق، يكشف أنها ثورة واحدة، اختلفت أزمانها، وتباينت مظاهرها، وتنوعت مقدماتها ونتائجها، وتغيرت أسماء زعمائها وأبطالها، ولكنها بقيت واحدة فى جوهرها هى أولا وأخيرا ثورة شعب واحد، فى فترة لايعدها التاريخ بأى معيار من معاييره طويلة، فقد بدأت والقرن التاسع عشر، يفتح عينيه، ويستقبل النور متكاسلا، وانتهت فى تمام منتصف القرن العشرين، فهى فى مجموعها قرن ونصف قرن، تمضى فى حساب الأمم، كلمح البصر، خصوصا، إذا كان الشعب الذى

---

* هلال - سبتمبر ١٩٧١ .

خاض غمارها، وأثار غبارها، واحتمل أكلافها، ورفع أعلامها، هو أقدم الشعوب طرا، امتدت حضارته، فى اتصال واتساق، وتجدد إلى اليوم، من سنة ٤٧٧٧ قبل أن تلد العذراء البتول، طفلها عيسى المسيح، وهذه السنة يقول عنها المؤرخون العلماء من أهل الغرب، إنها بدء سنى عصر الأسرات الأولى، قبل أن تبدأ الدولة القديمة حكمها الباهر، على أرض النيل العجيب.

على أن الأمر الذى يقضى حتما، بأن تكون هذه الثورات، محاولة واحدة ذات وجوه متعددة، أن مصر خلال فترة الثورات الأربع احتفظت بكل خصائصها الاجتماعية والاقتصادية، على الرغم من المشروعات الكثيرة التى نفذت، والمصانع التى أقيمت وانتجت، والمدارس والمعاهد والكليات والمعامل، التى أخرجت الملايين وراء الملايين من التلاميذ والتلميذات، ودور الطباعة والصحافة، التى أخرجت تلالا بل جبالا من الصحف والمجلات والكتب والمؤلفات.

فإن مصر، بعد عصور طويلة من الظلام الكثيف، والظلم المروع، خرجت أمة زراعية وقد بقى إنتاجها الزراعى، عصب اقتصادها القومى.. وبقى انتاجها الزراعى معتمدا على محصول رئيسى واحد وبقيت الزراعة فيها بدائية، تعتمد على الثور والمحراث، وتلعب دودة القطن، ومكافحتها باليد حينا وبالمبيدات الحديثة حينا آخر، دورا رئيسيا فى نشاط الفلاح، الذى احتفظت قريته كوحدة إدارية واجتماعية وروحية، بمكانتها فى البناء الإدارى والاجتماعى للدولة. وفى هذه الوحدة، تعايش الأمية، أجهزة الحضارة الحديثة، من (راديو) و(ترانزستور)، ويعانى الفلاح من قلة الدخل ومن الأمراض المتوطنة،

وفى مقدمتها البلهارسيا والانكلستوما.

وإذا كان الكفاح ضد هذه الآفات المادية والاجتماعية لا يكون بطبيعته إلا طويلا وشاقا، ومضنيا، لأن السبيل إلى النجاح فيه، هو تغير شامل فى الفكرة والوسيلة، وفى المنهج وفى الأداء، فإن الغريب فى حياة مصر، خلال فترة الثورات الأربع، أن أعداءها السياسيين كانوا، هم هم لايتغيرون، الانجليز، والفرنسيون، والصهاينة وأصحاب رؤوس الأموال، وفى العالم، والعائلة المالكة، المنحدرة من الأصل التركى، والمتحدة مع الدولة العثمانية حينا والمخاصمة لها حينا آخر.. تتغير أوضاع ومواقف هؤلاء الأعداء فيما بينهم، يتحالفون، ويتعادون، ولكن موقفهم من مصر فى جوهره واحد وثابت، الطمع فى الاستئثار بها، والرغبة فى استغلال مواردها، والخوف من أن تستقل، أو أن تلعب دور الزعيم فى المنطقة، أو أن تتحد مع سواها من أهل المشرق العربى، سواء فى الشمال أو الجنوب، فى اليمين أو اليسار.

لذا كانت للثورات الأربع، وبصفة خاصة الثلاث الأولى منها، خصائص تجمعها، ولذلك فالأصح أن نتحدث عن هذه الثلاث الأولى، معا، ثم نختم الحديث بفصل عن الثورة الأخيرة باعتبارها ختام تلك الثورات وتتويجها وباعتبار الأولى تحضيرا وتمهيدا وتجميعا، أسلمت حصيلته، للأخيرة، تبنى عليه وتستمد منه وتضيف إليه، وتطوره، وتخرجه فى صورته الكبرى.

من المتفق عليه، أن مواقف الغضب، تبرز خصائص الفرد الكامنة، وتجسمها، كما تبرزها وتجسمها، حالات الخوف والقلق، وبالجملة، حالات الانفعال الشديد، التى تتراضى معها الضوابط الكبحية، التى

يمارسها العقل الواعى للإنسان، ويسلطها على دوافعه الغريزية، والثورات فى حياة الأمم، هى قمة الانفعال، لجماعة من الجماعات، ومن ثم فالتأمل في مسلك الأمة الثائرة، سبيل مضمون النتائج لتبين صفات هذه الأمة الكبرى، التى لاتبين وتتضح، فى الحياة اليومية لأفراد هذه الأمة، فى ذهابهم وغدوهم الرتيب.

وثورات شعب مصر، ولاسيما الحديثة منها، تعلن فى غير خفاء، أن المصريين هم في الأغلب الأعم، شعب يؤثر الاعتدال، ويكره التطرف، وبالتالى، ينفر من العنف، فى القول والفعل، ويستهويه الرفق فيما يأخذ وفيما يدع، ولكنه ـ ككل حليم ـ إذا غضب ينفجر غضبه، وكأنه بلا سبب واضح، أو بغير مقدمات تمهد له، وتؤدى إليه، ولا سبب لهذا، إلا أنه يحسن ضبط نفسه، ويطيل الصبر على الأمور، حتى يرى هذه الأمور قد تجاوزت كل حد، وأن الذى صبر عليهم، أطمعهم فيه، هذا الصبر.

وهذا الشعب، على حبه لكل ما هو لطيف، ومعتدل، حريص على استبقاء الأساس من مناهج حياته، وأفكاره، فهو أقرب إلى المحافظة، بحكم كونه شعبا قديما وأصيلا من ناحية، وزراعيا متدينا من ناحية أخرى، إلا أن هذه الخصائص فيه، لاتجعله عدوا للتطور، أو كارها للجديد، فتاريخه القديم، أهله لأن يدرك أن كل شىء يتغير، وأن الفناء والتجدد سنة الحياة، والزراعة ذاتها، وإن كانت تؤصل فى الفلاح، حب الاستقرار، وتؤكد فيه الإيمان بالثبات، إلا أنها تريه، فى كل يوم، صور التطور فى الطبيعة، فهو يلقى البذرة، لتفنى فى التربة، وليخرج منها شىء جديد، يختلف عنها فى الصورة والحجم واللون.. وما يخرج منها،

يتغير بدوره، وينتقل من دور إلى دور، ومن حالة إلى حالة، ولقد شهدت مصر، أكبر التطورات الإنسانية ثورية، من مثل كشف الأفكار الأساسية فى الفلك والرياضة والهندسة الزراعية، وفكرة الآلة والبعث، والصراع الدائم والمتطور بين الخير والشر، والقوة والضعف وبالتالى بين مصر، وأعدائها، وبين وحدة الوطن وتفتته، ومن هنا جمع شعب مصر، صفات تبدو كالنقائض، فبقدر محافظته، تبدو ثوريته، ففوز المرأة فى مصر، تم بأيسر وأسرع، مما تم في أى بلد عربى آخر، وقبل كثير من بلاد الشرق القريب والبعيد.

أما تدين المصريين فهو كذلك عامل من عوامل المحافظة، ولكنه فى الوقت نفسه، عامل من عوامل الثورة، فالإسلام، منذ البداية، دين ثورة عملية على مجتمع قديم، كاره للتطور، متصلب وجامد، وقصة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وآيات القرآن الكريم نفسه، مليئة بالتنديد بمن يرفضون الجديد، ويكرهون التغيير، ويتمسكون بما آمن به الآباء والأجداد، وفى الإسلام دعوة ملحة، وعالية ، ومتجددة، على مر عصوره وحقبه إلى محاسبة الحاكم، والأخذ على يده إن ظلم، وعزله إن لم ينصلح، ويقبل النصيحة، وينزل على رأى الشعب أو الجماعة، وقد ترددت أصداء هذه المبادىء القوية فى جميع ثورات الشعب المصرى الأخيرة، من ثورة عمر مكرم إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، بل إن بعض هذه المبادىء، قيلت بالألفاظ نفسها، وفى المواقف نفسها، كأن الذين قالوها فى مطالع القرن التاسع عشر هم الذين قالوها فى مطالع القرن العشرين، أو كأن الذين قيلت لهم، على سبيل النصح والتأديب، والإخافة والتهديد، لم يلفظوا أنفاسهم، ولم يفقدوا سلطانهم.

وأخيرا، يبدو هذا الشعب المسالم، المتدين، الرقيق، اللطيف،

الصبور، زاهدا فى الحكم عاجزا عن الحرب، مشفقا من أهوال الصراع، أو أن الثقة بالنفس تعوزه، والاعتماد على الغير، يريحه ويخرجه من «ورطات» السياسة، ومتاعب الحكم.

والواقع أن المصريين حيل بينهم وبين ميادين القتال، أجيالا، لأن الذين حكموهم، خافوا من أن يتسلحوا أو يتدربوا على صنعة الحرب، ثم أرهبوا هذا الشعب، بألوان من المظالم جعلت المصرى بعامة، والفلاح بخاصة، لايدرى أيبقى فى داره، حتى طلوع النهار، أم سيساق إلى حيث لايدرى، فإن عاد، إلى بيته، لم يعد وهو مطمئن إلى أن شرا لم يصب زوجته أو عياله، أو القليل من متاع الدنيا، الذى يعتمد عليه فى تحصيل رزقه، ورد عادية الموت عن نفسه.

وشعب مشغول بلقمة العيش وحدها، والمخاوف تطارده، فى الليل والنهار، لا يعاب عليه إن هو بدا كأنما قد فقد خصائصه العسكرية التى أعلنت عن نفسها قرونا طويلة، ولا يعاب عليه إن انصرف ذهنه عن الحكم، ولم يزاحم فى سبيل الظفر به، ولكن الذى يذكر له، أنه بعد هذه السنين المتطاولة من الظلم والعسف والفقر والحرمان، بقيت له سليقته السياسية التى ورثها عن أجداده وعن دينه وعن بيئة سليمة، فهو لم يستسلم للظلم، ولم يرتضه، ولم يعجب بظالم، ولم يفقد إيمانه بالعدل، وبأن مصير الطغاة، هو أسوأ مصير.

بقيت أشعاره، ومواويله، وقصصه و(حواديته)، وأمثاله ونوادره، وفكاهاته ومداعباته، تدور حول انتصار العدل والسخرية بالظالم، بل إن الأمثال التى تروى عن الفلاح، وكأنها تبرر الإذعان للظالم فى واقع الأمر، لاتصدر عن الفلاح، إلا تعبيرا عن رفضه للإذعان وسخريته بالمذعنين، فالمثل الذى يقول مثلا: «اللى يجوز أمى، أقوله ياعمى»،

أو المثل القائل: «إن رأيت الناس بتعبد عجل، حش وارمى له» أو «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه»، لاتروى إلا من قبيل الحسرة على ما وصلت إليه حال الناس، لا إقرارا لهذه الحال، ولا تبريرا لها، أو دعوة لقبولها، ولكن سوء ظننا بأنفسنا فى العهود الأخيرة، جعلنا نبحث عن كل ما يثبت التهمة ضد الفلاح المصرى، بل وضد الشعب المصرى كله، والفلاح والشعب كلاهما برىء من التهمة.

بقى أن نعرف كيف انعكست هذه الخصائص النفسية والروحية لشعبنا فى ثوراته الأخيرة التى شهدها القرن التاسع عشر ثم القرن العشرون ومن السهل أن نتبين فى هذه الثورات ـ خصوصا الثلاث الأولى:

١ - انطلاق شرارة الثورة أصلا من الشعب فى تلقائية تدهش أعداء الشعب، وتهزهم بعنف، وتفسد عليهم خططهم، وتنقض لهم من الأساس ما كانوا قد كونوه من أحكام عن هذا الشعب، انخداعا بظاهر ضعفه، وبطول صبره، وبكرهه للقتال، وبعده عن المقاومة، وقبوله للوضع القائم.. واحترامه للنظام السائد.

٢ ـ خروج القائد للثورة، من باطن النظام الذى قادت الثورة، لتقويضه أو على الأقل تغييره، وبقاء الصلة بين القائد والنظام القديم، ومرور فترات للمصالحة بينهما.

٣ ـ تجسد الثورة، فى شخص قائدها، وتحول القائد إلى ما يشبه البطل الأسطورى، وحدوث شىء من الفاعلية بين الثورة وقائدها، يزداد بفضلها القائد، شجاعة، وإدراكا، ويبدو أنه زاد طولا، وزاد علما، وزاد صلابة وحنكة، وفهما لدوره، وتعرفا على أساليب الثورة، وعلى أساليب الخصوم، وعلى مزايا الشعب.

٤ ـ عدم التحضير للثورة، باعتبارها، انفجارا حضرت له الأحداث السابقة عليها، وحتمته تطورات الأمور فى المجتمع المصرى، ونشوء قوات جديدة في هذا المجتمع، وانحسار قوات قديمة وتقليدية فيه.

٥ ـ خلو الثورة عند انفجارها، من عنصر (المذهبية)، فهى تبدأ بلا برنامج معد، فلا يعدو هدفها تحقيق الحرية بمعناها العام، أو القضاء على المفاسد والمظالم، ولكن الثورة لاتلبث حتى ترى ضرورة هذا البرنامج، فيتكون خلال تطورات الثورة، وأدوارها.

يقول الأستاذ فريد أبوحديد فى كتابه عن عمر مكرم:

«وكان أول ظهور السيد عمر فى ميدان السياسة فى عام ١٢٠٥ للهجرة سنة ١٧٩١م وذلك بعد رجوع القائد التركى حسين باشا الجزائرلى إلى بلاده مع جيشه الذى أتى به لتأديب إبراهيم ومراد، فإن حزب الأمراء الذى كان يحكم البلاد تحت جناح القائد التركى المنتصر لم يستطع المحافظة على السلطة بعد خروج حاميه الذى كان يعززه بقوة جيشه، وانتهز مراد وإبراهيم هذه الفرصة، فأرسلا من قبلهما رسولا يفاوض الحكومة القائمة فى أن يعودا إلى القاهرة ويشتركا فى الحكم، وكان رسولهما هو السيد عمر مكرم وكان قد اتصل بالأميرين فى مدة وجودهما فى الصعيد فاختاراه ليؤدى عنهما تلك الرسالة لما توسما فيه من القدرة والنفوذ، فأقام فى القاهرة يومين تمكن فيهما من تمهيد السبيل لعودة صديقيه إلى الحكم، كما أنه اتصل فى أثناء هذه المدة القصيرة بكثير من المشايخ والأمراء، وكان مسعاه فى هذا السبيل من أكبر ما سهل رجوع الحكم إلى مراد وإبراهيم.

فها أنت ذا، ترى أن السيد عمر مكرم، كان صديقا للنظام القديم ورسولا، وعونا له فى الملمات، ولم يكن ثمة سبيل لمصرى صعيدى فى

دولة الحكم فيها والسيادة والزعامة، حكر للأمراء الشراكسة، ولمندوبى السلطان العثمانى، أن يضع قدمه فى حلبة السياسة، وأن يشارك فى الجهد العام، إلا عن هذا الطريق، الذى يبدو كريها وذميما، إذ العبرة بما أفضت إليه وانتهت به هذه المقدمة، وسنرى أن السيد عمر بعد أن استمر سنين صديقا لهذه الدولة، ولسانا من ألسنتها، سيخلع عن نفسه ثوب السفير، وسيلبس ثوب الزعيم، شيئا فشيئا، وأن مهادنته لها، ومصادقته إياها، سيتحولان يوما بعد يوم إلى مخاصمة فمخاصمة فتمرد فحرب.

وجاءت الدعوة ـ حسبما بينا فيما سبق من سطور ـ من الشعب، ولم تأت من الزعيم، جاءت الدعوة للعمل من الشعب، فلم يصم الزعيم أذنيه عنها، ولاء للدولة التى خدمها، بل انضم إلى الشعب، ولبى دعوته، فإن مراد وإبراهيم، استمرا على منهجهما الظالم، من العسف بالشعب، والفتك بأرواح ابنائه، والسطو على أرزاقه، وتعطيل مرافق حياته، فلما رأى السيد عمر مكرم أن رجال الدولة لم يحققوا الأمل فيهم ولم يحسنوا القيام بالفرض الواجب عليهم، نادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع وأخذ يدعوه ويحرضه ويحمسه لعله يستغنى بنفسه عن الدفاع».

ولكن هذه الفكرة لم تأت من عمر مكرم، أصلا، إنما جاءت من الشعب فى الفترة التى لم يكن فيها عمر، قد خرج من عزلته بعد، فى الفترة التى كان فيها صديقا للنظام القائم، ففى سنة ١٧٩٥ اشتدت وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال فالتجأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوى ليحميهم وكان الشيخ قد أصابه ضرر من

تحصيل تلك الأموال، فبدأ الشيخ بمخاطبة إبراهيم ومراد، فلما لم يجد لمسعاه أثرا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا إلى الثورة فوجد النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن ضواحيها وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف، والناس مصرون على أن يقف الحكام عند حد العدل والحق، ورأى الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لاقبل لهم به، يقول الجبرتى: «نزل الباشا إلى بيت إبراهيم، واجتمع الأمراء هنا، فأرسلوا إلي المشايخ فحضر الشيخ السادات، والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير.. وانتهى الاجتماع إلى تحرير وثيقة، تعد أول وثيقة دستورية فى حياة مصر.. إذ تعهد الأمراء بأن يتبعوا العدل وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة وألا يمدوا أيديهم إلى أموال الشعب، وكان القاضى حاضرا بالمجلس فوثق هذه الحجة (وفرمن) عليها الباشا أى جعلها (فرمانا) أى مرسوما سلطانيا وختم عليها إبراهيم وأرسلها إلى مراد فختم عليها أيضا».

ولكن عمر مكرم لم يشارك فى هذه الأحداث، ويقول الأستاذ فريد أبوحديد فى هذا المعنى «ثار أهل مصر فى مدة هذين الطاغيتين (مراد وإبراهيم) كما سبق لنا وصفه، ولكن لا نجده يتصدى فى أثناء تلك الثورات المتلاحقة لقيادة العامة، بل بقى بمعزل عن حركاتهم لانكاد نسمع اسمه فى قيادتهم».

ولكنه مع ذلك زعيم أصيل، بيد أن زعامة مصر فى تلك الأيام لم يكن ممكنا أن تصدر عن نفس فرد مهما عظمت، فقد حطم النظام القديم هذه الروح فى الناس، فأصبحت الزعامة لجموع الشعب

الغاضبة والرافضة للظلم، فإن وجد من بين هذه الجموع، إنسان مؤهل للزعامة، التقى مع هذه الجموع، وتسلم منها الزمام، وقادها ولم تخفه مخاطر المعركة، وقد حدث هذا مع عمر مكرم، فقد رأى أن الشعب يتململ تحت حكم مراد وإبراهيم، وأن الظلم جاوز كل حد، ورأى أن الشعب فى مرة سابقة استطاع أن يفرض حكمه، وأن ينتزع من الطغاة، وثيقة حريته، فانتفع بهذه السابقة، ودعا الناس إلى الجهاد، ثم هدته سليقة الزعامة فيه، فأخذ علما، كان يعرفه الناس «بالبيرق النبوى» ونزل من القلعة إلى بولاق والناس تحف به، ألوف مؤلفة، ولم يجدوا ما يتسلحون به سوى النبابيت والعكاكيز والمدى وقد راحوا يرفعون عقائرهم بالصياح والهتاف، وانضمت إليهم فرق الصوفية، وفرق الموسيقى البلدية، وعلا من كل ذلك ضجيج مختلط غير منتظم، ولكنه يخيف الظلمة، ويؤنس الشعب الأعزل وبدل أن تقع الواقعة بين الشعب بزعامة عمر مكرم من جهة، ومراد وإبراهيم من جهة أخرى، جاءت جيوش فرنسا من الغرب بقيادة ضابط فرنسي شاب، عرفته فيما بعد، ميادين القتال، فلم تكف عن ترديد اسمه حتى اليوم «نابليون بونابرت».

وجرت الوقائع على ما نعرف، وهزم الأمراء المماليك، وتفوقوا، وخرج الزعماء المصريون من القاهرة حتى دخلها الفرنسيون، فأمنوا زعماء البلاد، فعادوا إليها، ولكن عمر مكرم أبت عليه وطنيته وزعامته معا أن يدخل إلى بلده، ليحتمى بحكم غاصب غاز، وقد التجأ السيد عمر إلى الشام، وأقام فى يافا، حتى وصلت جيوش نابليون إليها، فأعادته إلى بلاده قسرا، وعلى الرغم من أن السلطة الفرنسية نجحت فى عقد مصالحة مع زعماء مصر جميعا، إلا أن السيد عمر اعتصم

بعزلته، طوال الحكم الفرنسي، منتظرا فرصة يجاهد فيها ضد هؤلاء الغزاة.

وقد أتيحت له هذه الفرصة حينما قامت ثورة القاهرة فى مارس سنة ١٨٠٠، تلك الثورة المجيدة التى استمرت سبعة وثلاثين يوما متصلة، ولسنا نستطيع أن نروى وقائع كل تلك الثورة، وحسبنا أن نذكر أن بونابرت، حينما أدرك أن مستقبل الحملة الفرنسية التى قادها، قد أغلق بالفشل المحتم، اتفق كليبر خليفة بونابرت مع الأتراك على أن يجلو عن مصر، ولكن الانجليز حلفاء الأتراك، أبوا أن ينفذوا هذا الاتفاق، ليقضوا على البقية الباقية من فلول هذه الحملة التى عصف بها الطاعون، والرمد، ومعارك الصعيد مع الأمراء، وحروب الشام، وكان المصريون يعتقدون أن الفرنسيين قد أعدوا عدتهم للرحيل فلما سمعوا أنهم باقون، اجتمعت جموعهم فى القاهرة، وقرروا أن يحولوا بين الفرنسيين، وبين أن يستقر لهم الحال فى مدينتهم، واتجهوا إلى زعمائهم، وفى مقدمتهم عمر مكرم فلبى الدعوة وكان روح المقاومة، فأقام المصريون المتاريس، وعينوا عليها الحرس اللازم، وأنشأوا معملا للبارود، وجاءوا له بالصناع، وتبرعوا بما لديهم من حلل نحاسية وأوان، لتصهر وتصب آلات حرب من مدافع وذخائر، وعمر مكرم ينتقل من موقع إلى موقع، يشد العزائم، ويدعو إلى الجهاد، وينظم ويؤلف القلوب، ويوزع الأعمال، ويعقد مؤتمرات الحرب، وهكذا، فلما ضاق الحال بالفرنسيين أرسلوا رسلهم ليتفاوضوا مع زعماء مصر، ليعقدوا معهم صلحا، ولبى الدعوة إلى المفاوضة الشرقاوى والمهدى والفيومى والسرسي، فلما عاد هؤلاء من المفاوضة، وأبلغوا المصريين بما تم فيها،

ووجد المصريون أنها لم تتضمن جلاء الفرنسيين عن البلاد، أهانوا زعماءهم، ورموا عمائمهم إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام».

ولذلك اضطر الفرنسيون إلى تشديد الحملة على القاهرة، وأعانهم على القاهريين هبوب عاطفة ممطرة، وحلت الطرق، وصعبت الدفاع على المصريين وسلاحهم قليل، وعدتهم ضعيفة، ونجح الفرنسيون في الدخول إلى القاهرة، وخرج الزعماء من القاهرة ومعهم عمر مكرم ولكن لم يكن ممكنا أن يبقى الفرنسيون فيها طويلا، فقد بقوا ريثما استطاعوا أن يعقدوا مع العثمانيين والانجليز معاهدة جلوا على أثرها في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٠١، وعاد الجيش العثماني إلى مصر، ومعه عمر مكرم، فكانت عودته إلى بلاده نصرا للمصريين، فقد أصبح زعيم البلاد غير مدافع، ثم بدأت جولة جديدة من جولات جهاده، فقد بدأ صراع مدمر، وخال من كل اعتبار للشرف بين الأمراء المماليك، ومندوبي السلطان، وانجلترا، عندما أخلت فرنسا الميدان فبقى عمر مكرم بعيدا عن هذا الصراع إذ لم يجد فيه مصلحة لمصر، حتى استطاع محمد على أن يتغلب على خصومه، وأن يبدو أصلح الواقفين على المسرح السياسي، وأكفأهم، وأشدهم اعتمادا على زعماء الشعب، فتولى عمر مكرم قيادة الشعب، في معركته الباهرة ضد خورشيد باشا الوالي التركي، وفي فرض الحصار العسكري على هذا الوالي في القلعة، حتى إذا كان ١٣ مايو سنة ١٨٠٥، عين الشعب محمد على واليا على مصر، وألبسه عمر مكرم والشيخ الشرقاوي حلة الملك، فكان أول وال في تاريخ مصر الحديث يوليه الشعب، قبل أن يوليه السلطان، ولما اشتد الحصار على (خورشيد) في القلعة، أرسل مندوبه إلى زعماء مصر، يقول لهم إنه

مولى من السلطان، وأنه لا يعزل من الفلاحين فرد عليه عمر مكرم قولته الخالدة، «إن الشريعة تجيز للرعية عزل الوالى، إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم».

ولما تولى محمد على الملك، كان شديد الرعاية لمكانة عمر مكرم، لا يناديه إلا بالوالد العزيز، ويستمع له، ويعمل برأيه، حتى استتب الأمر له، فبدأ يرى ألا حق للشعب فى مشاركته فى الحكم، مع أنه يوم أن ولى أريكة الحكم، قبل هذا الحكم من عمر مكرم بشروط المصريين، وتعهد بأن يسير فى الحكم سيرة العدل، فلما أحس عمر مكرم تحولا من محمد على انفض عنه، واعتزل مجلسه، ولم يعد يتردد عليه، وحاول محمد على أن يسترضيه كما استرضى سواه من العلماء، فرفض هذا التودد، حتى إذا شكا الناس من ضرائب محمد على الجديدة، جهر عمر مكرم بمعارضته لصديقه الحاكم الجديد، وجمع الزعماء وأعد وثيقة احتجاج ضمنها ما كان يأخذه الناس على (محمد على) فى حكمه، وأحس محمد على بأن رياح المعارضة موشكة أن تهب، وأنها تنذر بشر مستطير، حاول أن يلين أمام المعارضين، حتى استمال الزعماء الآخرين دون عمر مكرم الذى أبى أن يفاوض أو أن يتساهل، ولما تخلى الزعيمان الشرقاوى والسادات وغيرهما عن عمر مكرم واستطاع محمد على أن ينفيه إلى دمياط سنين إذ أخرجه من القاهرة فى ١٣ من أغسطس سنة ١٨٠٩، فلما كانت ساعة الرحيل، خرج المصريون ألوفا لوداعه، ولم يعد إليها إلا فى ٩ من يناير سنة ١٨١٩، ولكن حدثت قلاقل فى مصر، جعلت المصريين يلتفتون لزعيمهم القديم فنفاه محمد على فى ١٠ ابريل سنة ١٨٢٢ ثم أذن له بالحج وبالعودة إلي القاهرة بعد الحج، فبقى فى عزلة لا يلقى أحدا إلا خاصة أصدقائه، إلي أن توفاه الله.

ولى زعماء الشعب محمد على، على مصر، فكان ذلك كسبا لا ينكر، إذ إن هذه الواقعة أثبتت أن الشعب إرادة، وأن هذه الإرادة تنفذ وأنها تعلو على مكائد الأمراء المماليك، وعلى سلطة السلطان صاحب الولاية الشرعية على البلاد، وعلى دسائس الدول الأجنبية، وعلى الرغم من كل عيوب حكم محمد على، فإنه لم يكن في وسع أحد من منافسيه سواء كان البرديسى أو الألفى، أن يحقق لمصر ما حققه لها، من إقامة دولة، ومن إنشاء جيشها وبناء أسطولها، وتحقيق فكرة الحكومة العصرية، غير الشخصية التى لم يكن الأمراء المماليك يفهمون غيرها، والتى لم تكن تركيا تريد أن تقوم على أرض مصر حكومة إلا إذا كانت على غرارها.

ولكن محمد على الذى أنشأ جيش مصر العظيم، من أبناء الفلاحين، الذين أثبتوا أنهم أصلح وأثبت في ميادين القتال من الألبان والأتراك والديلم وكل الأجناس التى ألفت حرب العصابات في مصر.. محمد على هذا لم يكن يثق فى المصريين ضباطا لجيشه ولا قادة، فقد خاف على سلطته منهم، وأحس بغريزته أن وصول الجندى المصرى إلى مرتبة القيادة، معناه انقضاء عهد الحكم الأجنبى المتمصر المتمثل فى شخصه. ومن هنا حال دون أبناء الفلاحين ومراكز القيادة وبقى الحال هكذا، حتى جاء أحد أبناء محمد على نفسه، وهو محمد سعيد وكان قد اختلف مع الباب العالى (تركيا) وأحس أنه لا سند له فى خصومته مع السلطان ومن حوله، إلا الشعب المصرى، فقرر أن يصطنع لنفسه سياسة مصرية.

ويقول أحمد عرابى فى مذكراته: «إن (سعيدا) دعا عددا من رجال الدولة ووقف يخطب فيهم، فقال: أيها الاخوان إنى نظرت فى أحوال هذا

الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة.. وحيث إنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل».

ويقول عرابى إنه حينما فرغ من هذه الخطبة خرج الأمراء والعظماء من الأتراك والشراكسة، حانقين مما سمعوا، وخرج المصريون، فرحين بما قال الخديو وقد نفذ (سعيد) سياسته، فأمر بتجنيد أولاد العمد والمشايخ في الجيش وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية، وقد جند عرابى ضمن من جند من هؤلاء، ثم أخذ يترقى بناء على سياسة سعيد الجديدة فى السلك العسكرى فعين ملازما من تحت السلاح سنة ١٨٥٨ وهو بعد فى السابعة عشرة حتى وصل إلى رتبة البكباشى سنة ١٨٦٠ فرتبة القائمقام سنة ١٨٦١ ثم حظي برضا (سعيد) نفسه، فعينه مرافقا له (ياورا) ثم صحبه فى رحلته إلى الحجاز، ووقع ظلم على (عرابى) فى عهد الخديو إسماعيل وقد رفع عنه هذا الظلم بفضل شفاعة مرضعة الأمير الهامى شقيق زوجة الخديو.. فأنت ترى أن «عرابى» لم يكن بعيدا عن النظام الذى ثار عليه كما لم يكن عمر مكرم بعيدا عن النظام الذى حاربه ولكن لم يلبث الزعيمان أن تبينا فساد هذا النظام وإجحافه بحقوق الشعب، فوقفا منه موقف الخصومة، ولكن لم يبدأ أى من الزعيمين الحملة على هذا النظام إذا جاءت فكرة الثورة من الشعب نفسه ففى عهد إسماعيل بدأت بذور الثورة تلقى، أدرك الخديو إسماعيل أن الانجليز والفرنسيين والمرابين الأجانب، قد عقدوا العزم على خلعه

عن عرشه، وانهم يجدون من الباب العالى ترحيبا وتشجيعا لأسباب كثيرة كان من أهمها دسائس الأمير حليم الذى كان الوارث الطبيعى لعرش مصر، لولا أن الخديو إسماعيل غير قانون الوراثة فى سنة ١٨٦٦ فجعل وراثة العرش فى أكبر أولاده بعد أن كانت حقا لأكبر الذكور فى العائلة العلوية، لذلك عمل الخديو إسماعيل على إنشاء رأى عام مصرى، يؤيده ويحارب النفوذ الأجنبى وبفضل هذه الروح، تسربت أفكار ثورية إلى الجيش بلغت من قوتها أن قاد البكباشى لطيف سليم مظاهرة عسكرية فى أخريات عهد الخديو إسماعيل وانتهت هذه المظاهرة بالاعتداء على نور باشا الأرمنى الذى كان يرأس الوزارة فى عهد إسماعيل، كما ضربت البريطانى ريفرز ولسن الذى كان وزيرا للمالية فى وزارة نوبار... هذه المظاهرة التى وقعت فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ هى بداية الثورة العرابية، لأنها بداية اشتغال الجيش المصرى بالسياسة، وبداية سقوط هيبة الحكومة ممثلة فى رئيس وزرائها وأحد وزرائها.

لقد بدأت الثورة العرابية، فى الصحافة التى كثرت جرائدها، وكثرت أقلامها، فاشتدت بفضلها، الحملة على التدخل الأجنبى، وعلى تضخم الفوائد الربوية التى عقدها إسماعيل مع البنوك والمرابين الأجانب، ولما فتح باب النقد، لم ينج الخديو إسماعيل نفسه من لاذع النقد، ولا يبعد أن يكون الاستعماريون أنفسهم ولا سيما الانجليز منهم وراء هذه الحملات، فهذا أسلوب الاستعمار المفضل: العمل على التهييج ولو ضد نفسه فى فترات القلق لتتفاقم الأحداث، ولتشتد حرارة العواطف، فيقال كل شيء، ويضطرب كل أمر.

وقد تكون الحزب الوطني فى هذه الآونة، أى فى نوفمبر سنة ١٨٧٩، وتقدم بمطالب خاصة بالديون وفوائدها وضماناتها، وبدأ الضباط يترددون على منزل سلطان باشا الذى كانت تعقد فيه الاجتماعات، وإذا كان السبب المباشر الذى فجر غضب عرابي وإخوانه هو قانون ٣١ يوليو سنة ١٨٨٠ الذى وضع وزير الحربية الشركسى عثمان رفقى، والذى كان يؤدى إلى منع ترقى الجنود المصريين إلى رتبة الضابط، فإن الاصطدام كان حتما لا مفر منه حتى ولو لم يصدر هذا القانون، فالحكومة التى أقامها محمد على بمعاونة الشعب وزعمائه، وفي مقدمتهم عمر مكرم، كانت قد أفلست ولم يعد عندها ما تقدمه، وكان لابد من سقوطها، ولو كانت الحركة الوطنية استمرت منذ عهد مكرم لكانت هى الوارث الطبيعى لهذه الحكومة ولكن هذه الحركة أوقفت قسرا، بضغط الحكومة واستئثارها العام بالسلطة وإقصاء أبناء مصر عنها، وإذا كان بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الضباط حينما تقدموا إلى وزارة رياض باشا، بعريضة، ضمنوها مطالبهم، وأن هذه المطالب اقتصرت على أمور تخصهم، تتصل بالترقية فى الجيش، فإن هذا ليس مطعنا فى الحركة العرابية فهذا هو المدخل الطبيعى لجميع الثورات، القليل منها يؤدى إلى الكثير والكبير يؤدى إلى ما هو أكبر منه وهكذا، وفى بداية الثورات تندمج المطالب الخاصة فى المطالب العامة، ذلك لأن الحاكم المستبد، يحس بأن إجابة أى مطلب، للقوة الجديدة الناشئة التى جرى على إهمالها وازدرائها هو بدء انهياره هو، ولو أجابت وزارة رياض الضباط الى طلباتهم العسكرية البحتة، وعزلت رفقى وزير الحربية الشركسى، لكان معنى هذا أن الثورة بدأت فقط ـ ولكان من

المستحيل بعد ذلك أن تقف، إذ إن استمرار ترقى الضباط المصريين إلى المراتب العليا فى الجيش معناه أن الجيش المصرى سيؤول أمره إلى الضباط المصريين فى سنين قليلة، وإذا أحست دوائر الحكومة، وأحس الشعب معها أن الجيش الذى كانت تحكمه العناصر الأجنبية تركية وشركسية وانجليزية وفرنسية وأمريكية، أصبح منطقة نفوذ مصرية، فإن الجميع سيتجهون إلى كبار ضباط الجيش المصرى، وسيتحرون رغباتهم، وسينفذون توجيهاتهم، فتسقط حكومة الخديو، من غير أن تطلق طلقة نار واحدة ولقد أدرك الخديو إسماعيل وحكومته كل هذا بغريزة الحاكم المستبد، فقد وقف ترقية عرابى بعد أن وصل عرابى إلى رتبة القائمقام، لأنه فهم أن مصر كلها قد بلغت بهذه الترقية رتبة (القائمقام)، وهى رتبة أقرب ما تكون من مراتب الرياسة الكبرى، لذلك لم يكن وقف ترقية عرابى عند هذا الحد اضطهادا شخصيا من الخديو لعرابى، وإنما كان قرارا سياسيا الغاية منه أن تقف مصر كلها بعيدا عن مناصب الحكم وعن مواطن السياسة الكبرى.

وإذا كانت الحرب قد وقعت بعد ذلك بين مصر وبريطانيا، بعد أن تولى الضباط الوزارة برياسة (البارودى)، فى حين كان عرابى وزيرا للحربية، فنحن نخطىء إذ نتصور أن سبب هذه الحرب أن الدستور المصرى الصادر فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١، قد منح مجلس النواب حق مناقشة الميزانية وأن الانجليز والفرنسيين أشفقوا من ذلك لأن تدخل النواب فى وضع الميزانية يمكن أن يؤدى إلى المساس بضمانات الديون الأوربية، ذلك أن الحرب كانت قد تقررت منذ أحس الإستعماريون أن رأيا عاما مصريا تكون، وأن حركة وطنية قد ولدت،

وأن هذا الرأى العام، سينمو سريعا، وستنمو معه الحركة الوطنية، مالم يضربا وهما طفلان صغيران، وقد حدث ذلك.

وقعت الحرب وهزمت مصر، وهزم عرابى وإخوانه، وعلى الرغم من أن هذه الحرب لم تدخل في حساب الضباط المصريين، ولم يحسنوا الاستعداد لها، لأكثر من اعتبار، فإن الشعب المصرى الذى وقف ضد المماليك، ثم ضد الفرنسيين، والذى هم بالوقوف ضد محمد علي، أثبت أن أهدافه القديمة لاتزال هى أهدافه العزيزة عليه، وأنه مستعد أن يقاتل فى سبيلها، ولذلك كان من السهل أن تتكون جمعية وطنية، وأن تصدر فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ من القرارات ما يحيل هذه الجمعية الوطنية و(المجلس العربى)، إلى مجلس حرب، ولما انضم (توفيق) إلى الانجليز ثم عزل (عرابى) لم تحفل هذه الجمعية الوطنية بهذا العزل، وثبتت عرابى فى مكانه في وزارة الحربية، واعتبرت نفسها الحكومة الشرعية، واعتبرت (توفيق) خائنا ومعزولا، ولقب (عرابى) من الشعب «بحامى حمى الديار المصرية» ووقفت الأمة كلها من ورائه تبذل الأموال والمهج، وتشتعل حماسة وحمية، وقد كانت هذه الحماسة وتلك الحمية، كفيلتين بإنجاح عرابى سياسيا وعسكريا، أو سياسيا على الأقل، لو أن الثورة دبر لها كما يجب أن يدبر للثورات، ولو تذرع عرابى بشيء من سوء الظن فى دليسبس ووعوده وبشيء أكثر من الحزم مع توفيق وأتباعه.

وإذا كانت الهزيمة العسكرية قد حلت بمصر فى معارك الشرق عند قناة السويس وإذا كانت الهزيمة الكبرى قد تمت بدخول الجيش البريطانى إلى القاهرة، فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، فإن هذه الثورة، لم تمض بغير أثر باق، فقد أعلنت هذه الثورة أن إرادة الشعب المصرى

التى أعلنها عمر مكرم في أوائل القرن التاسع عشر، ولدت لتبقى، وأنها لن تموت، وأن الأمر، أمر سنوات، قد تطول وقد تقصر، ولكن هذه الإرادة سيتم انتصارها.. على أن هذه الثورة قد أثبتت شيئا مهما، لم تخطئه عين المؤرخين، ولا عين المراقبين السياسيين ذلك أن نظام الحكم الخديوى الذى أسسه محمد على قد أفلس تماما، وقد أثبتت الأيام التالية لدخول الانجليز إلي مصر، هذا الإفلاس، فقد انتزع الانجليز الحكم من يد الخديو توفيق، ومن يد كل الذين جاءوا بعده من أفراد الأسرة المالكة العلوية، وأصبح الأمر كله لبريطانيا تدير شئون مصر على هداها، حتى بدأت المقاومة المصرية تستعيد وجودها بقيادة «مصطفى كامل» والحزب الوطنى.

ولقد كان فى الوسع أن تبدأ هذه المقاومة عملها بعد الهزيمة العسكرية لو أن (عرابى) لم يؤثر وقف القتال والجهاد معا بعد وقعة التل الكبير، أو على الأقل لم يسلم نفسه للإنجليز، ولم يرتض أن يدافع عنه انجليزيان وأن يوقع إقرارا يتضمن اعترافه على نفسه بارتكاب جريمة عصيان الخديو، ولكن هذه المقاومة لم يطل على استئناف نشاطها الوقت فقد نفضت عنها غبار اليأس وبدأت تعمل.

واستمرت تعمل ضد الأعداء أنفسهم، الحكم الفاسد المستبد فى الداخل، والسيطرة الأجنبية من الخارج، وقد زادت الحركة الوطنية من قواها، ونظمت صفوفها، وكانت موشكة أن تخوض معارك واسعة النطاق، كانت مظاهرات ٣١ من مارس سنة ١٩١٩ وأول ابريل من السنة نفسها احتجاجا على قانون الصحافة، بدايتها .. لكن الحرب العالمية الأولى دهمت هذه الحركة الوطنية، ووقفت نشاطها، إذ أعلنت

الأحكام العرفية فأصبح في وسع بريطانيا أن تطارد الوطنيين، وأن تنفى بعضهم فى مالطة، وأن تضع البعض الآخر فى المعتقلات فى مصر، كما أصبح فى الوسع تكميم الصحافة، ولذلك اتجهت الحركة الوطنية الى العمل السرى فتوالت عمليات القتل السياسي والشروع فيه، خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية وفترة الحرب نفسها، فلما وضعت الحرب أوزارها، كان التحضير للثورة قد أتى ثمرة فانفجرت فى ٩ من مارس سنة ١٩١٩.. بمناسبة اعتقال «سعد زغلول» وأصحابه «إسماعيل صدقى» و«محمد محمود» و«حمد الباسل». ولم يكن هذا الاعتقال إلا مجرد مناسبة فقد كان الغضب الوطني قد كمل، وكان لابد له أن ينفجر بصورة أو أخرى.

وإذا كان الزعماء الذين ظهرت أسماؤهم فى هذه الثورة قد ترددوا أول الأمر فى السبيل الذى يسلكونه، فإن الشعب كان قد عرف طريقه فلما اختفى هؤلاء الزعماء بالنفى، انطلق فى ثورته الشاملة، وأقام متاريسه، ونظم صفوفه، وكأنه ابن ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨، أو ثورة مارس سنة ١٨٠٠، وكأن عمر مكرم قد بعث من قبره.

وإذا كان عمر مكرم وعرابى، قد خرجا من بطن النظام القديم الذى حارباه، فإن سعد زغلول كان قطباً من أقطاب هذا النظام وعميدا من عمدائه، ولذلك لما سمع بالنية على إرسال وفد إلى الخارج ليطالب فى مؤتمر «فرساى» بباريس رفض الفكرة واستخفها، فلما أعلمه رشدى رئيس الوزراء وعدلى الوزير بأن السلطان فؤاد على علم بهذا المسعى وأنه يقره قال فى مذكراته على مانشرته وثائق ثورة ١٩١٩ المعنونة (٥٠ عاما على ثورة سنة ١٩١٩) «ورأيت من الواجب أن أعرض الأمر على السلطان فحدد لى الساعة الخامسة ....».

وإذا كان زعماء الثورة، قد فوجئوا باندلاعها وهم فى منفاهم فى مالطة، وإذا كان زعيمها قد استبعد وقوعها لأسباب ظنها معقولة فإنهم لم يلبثوا حتى جرفتهم حماسة الشعب، وإصرارهم على قتال أعدائه: السلطان فى الداخل، والانجليز من الخارج، ومضت الثورة باهرة وعظيمة، حتى تفتتت الوحدة، ونجح الانجليز فى تحويلها إلي حرب داخلية».

ولكن على الرغم من كل ما تعثرت فيه الحركة الوطنية فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ فإنها بحكم كونها امتدادا للثورات السابقة عليها، أكدت الأهداف الوطنية فسار الشعب فى الطريق المرسوم منذ عمر مكرم، يأبى إلا أن تقوم فى بلاده حكومة وطنية نظيفة وعادلة، وأن يقوم حكم دستورى صحيح وسليم، وأن يكون لمصر جيش وطنى قوى وقادر على الدفاع عن البلاد، وأن تكون مصر أمة مستقلة، فلما لم تستطع القوى الوطنية التى نشأت بعد ثورة سنة ١٩١٩ أن تحقق هذه الأهداف، وكان الجيش المصرى الذى أنشأه محمد على، وأسند قيادته إلى ضباط موالين له، من غير المصريين قد استطاع أن يحقق ما أراده عرابى من أن تكون القيادة فيه مصرية، فإنه لم يكن ممكنا أن يبقى هذا الجيش المصرى بعيدا عن السياسة ولاسيما عندما يسوء الأمر، ويصاب العرض المصرى بما يعتبر انتهاكا داميا للشرف.

وثورة ٢٣ يوليو، تشبه الثورات الثلاث السابقة فى أشياء، وتختلف عنها فى أشياء:

تتلاقى مع الثورات السابقة فى:

أولا: حاربت من نفس أهداف الثورات السابقة .

ثانيا: وحاربت الاعداء أنفسهم.

ثالثا: وحاربت في الظروف نفسها.

رابعا: حاربت بالوسائل نفسها.

أما الأهداف فقد عرفنا أن عمر مكرم حينما حارب المماليك، ثم الفرنسيين، ثم محمد على، فقد كانت الغاية من حربه، تحرير المصريين من حكم ظالم فاسد شديد، مضيع على الناس ثرواتهم، ومهدد لأمنهم، ومانع من تقدمهم، وحارب في الوقت نفسه غزاة أجانب مسلمين ومسيحيين، يأبون أن يدعوا المصريين بلادهم، فيتنفسوا حريتهم فى تدبير شئونهم، وتقرير مصيرهم، وبعد مائة وخمسين سنة، كانت مصر تشكو من الحال نفسه، حاكم مصرى، فاسد، مستبد، مبدد لثروات البلاد، ومضيع لطاقاتها.. ومهدد لأمن الناس، معتد على كراماتهم، وحكم أجنبى دخيل، هو صاحب الكلمة العليا فى شئون مصر، يتخذ من الملك المصرى ستارا لأغراضه، وقناعا لنشاطه، وكما طالب عمر مكرم أن يلتزم المماليك ومحمد على من بعده دستورا فى الحكم يمنع الحاكم من أن تمتد يده إلي أرزاق أو حريات أو أعراض الناس، طالبت ثورة ٢٣ يوليو بحكم دستورى سليم.

والذين حاربوا عمر مكرم ظاهرين ومختفين، وحالوا بينه وبين غاياته هم نفس الذين حاربوا ثورة ٢٣ يوليو وعملوا على إحباط نشاطها، وتعويق جهادها، العائلة المالكة التى أسسها محمد على، والانجليز والفرنسيون.

وقد كانت الظروف التى حارب فيها عمر مكرم وأحمد عرابى، هى نفس ظروف ميلاد ثورة ١٩٥٢، وهى نفس ظروف سنة ١٩١٩. مظالم

متراكمة، يرتكبها الحاكم المصرى مستندا إلى الأجانب أو الأجانب مختفين وراء الحاكم المصرى، أو الاثنين متعاونين ومتحالفين ومجتمعين على مصر والمصريين.

بل إن بعض الظروف تكرر وقوعها فى ثورة عرابى و٢٣ يوليو، فقد كانت هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة، وعجز قيادة الجيش، وسوء التدبير للمعركة، وفساد الأسلحة، والسرقات والاختلاسات فى المال العام، أشبه ما تكون بهزيمة الجيش المصرى فى فلسطين سنة ١٩٤٨، وما اقترن بهذه الهزيمة من الأدلة الصارخة على عجز القيادة، وسوء التدبير والتدريب، وخيانة الأمانة العامة، واختلاس المال العام.

وإذا كان الجيش المصرى لم يخلق إلا بعد قيام دولة محمد على، فلم يلعب دورا فى الثورات التى قادها عمر مكرم، إلا أن الشعب المصرى، كون من نفسه فرقا تعاونت مع الفرق العسكرية الأجنبية كفرق الألبان مثلا، وكانت جموع الشعب المصرى، غير المدربة أصلا على القتال المنظم، تقوم بالأعمال العسكرية بنفس الكفاءة التى تقوم بها الفرق العسكرية التى كانت تسمى جيوشا، وهى لاتزيد على أن تكون جموعا سيئة التدريب، تنقصها الطاعة ويعوزها النظام، وتفتقد فكرة الجيش وتضامنه وولاءه.

ولكن الجيش المصرى لعب فى ثورة عرابى، الدور الرئيسى الذى لعبه الجيش فى ثورة سنة ١٩٥٢ وقد كتب لقواد الجيش أن يستولوا على الحكومة، بطريق مشروع، بموافقة الحاكم وهو الخديو توفيق، ودانت لهم أجهزة الدولة ولكن لم يطل بقاؤهم فى الحكم.

وقد اختفى الجيش المصرى من مسرح الأحداث فى ثورة سنة ١٩١٩، ولكنه بقى يلوح فى الأفق يبتعد عن المسرح ويقترب، فقد

أضربت الكليات العسكرية وخرجت بسلاحها إلى الشوارع مؤيدة لثورة الشعب، ثم المشاركة الكاملة من قوات الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤، التى كانت بأحداثها، ابتداء من مقتل السردار حتى سحب الجيش المصرى من السودان، امتدادا لثورة سنة ١٩١٩.

ولكن ثورة سنة ١٩٥٢ تختلف عن سابقاتها فى كثير.

وأول وجه من وجوه الاختلاف أن قادة ثورة سنة ١٩٥٢ كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة، فهم أقرب إلي الطبقات العاملة، وقد عرف أكثرهم فى حياته، ضيق الرزق، وشظف الحياة، فقد كان آباء أكثرهم من صغار الكتبة فى الدواوين الحكومية، أو من صغار الملاك فى حين أن زعماء ثورات القرن التاسع عشر، وفى مقدمتهم عمر مكرم، كانوا ينتمون إلي الطبقة الارستقراطية، فعمر مكرم نفسه كان نقيب الأشراف، وأن لم يكن في مثل غنى «الشرقاوى» و«المهدى» و«الدواخلى» و«المحروق»، ولكنه كان على صلة وثيقة وقريبة بالحكم الأعلى، وكان معدودا بين الأغنياء.

أما زعماء ثورة سنة ١٨٨١ فقد كان بعضهم من أبناء الطبقة المتوسطة الكبيرة، وقد أصبحوا فيما بعد من أعضاء الطبقة الأولى فى البلاد، وكان منهم من هو عضو أصلا فى تلك الطبقة كمحمود سامى البارودى باشا، ولكنهم جميعا كانوا قبل الثورة بكوات وباشوات، أى فى قمة المجتمع المصرى.

أما زعماء ثورة سنة ١٩١٩ فقد كانوا جميعا تقريبا من أغنياء مصر، فقد كان منهم «محمود باشا سليمان» و«إبراهيم باشا سعيد» و«أحمد بك لطفى» و«السيد على باشا شعراوى» و«محمد باشا محمود»

و«سينوث بك حنا» و«واصف باشا غالى» وهؤلاء من نوى الثراء البعيد، أما «سعد زغلول» زعيم الثورة نفسه فقد اقتنى قبل الثورة مئات الأفدنة، وإن كان بعضها قد بدد فلأسباب لا علاقة لها بالحياة العامة، وأيا كان السبب، فهو لا يمنع انتماءه إلى طبقة الأغنياء ونوى النفوذ العريض وقد جاءت مصاهرته لمصطفى باشا فهمي ولأسرة سرهنك باشا تأكيدا لانتمائه للطبقة الارستقراطية، ولكنه كان يقول من باب البلاغة الخطابية إنه من أبناء نوى الجلاليب الزرقاء.

ووجه الاختلاف الثانى أن ثورة سنة ١٩٥٢ هى الثورة الوحيدة التى تم لها نجاح كامل فقد استولت على السلطة استيلاء تاما، ودام استيلاؤها عليها، وتسييرها لشئون الدولة منذ قامت حتى اليوم، وكان هذا الاستيلاء على وجه من الاستقرار والثبات لم يكتب لثورة أخرى فى المنطقة العربية ولم يكتب لثورات كثيرة سواها فى العالم كله.

والوجه الثالث أن ثورة سنة ١٩٥٢، هى الثورة التى استطاعت أن تصمد فى وجه كل أنواع التدخل والضغط الخارجى من قوى هائلة، في حين كان التدخل الأجنبى ناجحا فى ثورة عمر مكرم، بل وفى عهد محمد على، وفى ثورة عرابى وفى ثورة سنة ١٩١٩.

أما وجه الاختلاف الرابع، فهو أن ثورة سنة ١٩٥٢ هى الثورة التى خرجت من النطاق السياسى البحت، إلي النطاق الاجتماعى، وأنها تجاوزت دور التحرر الوطنى، إلى دور التغيير الاجتماعى والاقتصادى، وأنها وضعت لنفسها برنامجا، على مر السنين، وقد زاد هذا الدور بفضل الأحداث الكبرى التى لابست الثورة، والتى ترتب عليها فى الداخل وفى الخارج وفى المحيطين العربى والعالمى وضوحا حتى كاد يكون برنامجا ذا خصائص مصرية.

أما الوجه الخامس، فهو إدراك قيادة ثورة سنة ١٩٥٢ مدى الارتباط الوثيق بين أجزاء المنطقة العربية، وضخامة الدور الذى تهيأت للقيام به هذه المنطقة فى حقب التاريخ الكبرى وفى ثراء هذه المنطقة المادى والروحى، وقد غابت هذه الحقائق عن زعماء الثورات السابقة، وإذا كان للثورتين الأوليين بعض العذر، للظروف التى كانت سائدة وقتذاك فى المنطقة العربية، فإنه لا عذر لثورة سنة ١٩١٩ وزعمائها وقد كان فى مقدورهم أن يلعبوا دورا كبيرا فى الشرق العربى، خصوصا فى المراحل التالية لبدء الثورة ـ لو أنهم كانوا أوسع أفقا، وأكثر إطلاعا على التاريخ.

وترتب على هذا الوجه الأخير مباشرة السمة العالمية لثورة سنة ١٩٥٢، فإن أثرها تجاوز المنطقة العربية إلى المحيط الافريقى والأسيوى، حتى كان لها فضل المساهمة الفعالة فى خلق العالم الثالث.

لقد كان دور مصر دائما دورا عالميا حتى وهى فى فترات الانحسار والضعف، بل وهى كرة يتقاذفها الغزاة والفاتحون، فإن خصائص وجودها الجغرافى، وخصائص تراثها التاريخى، يجعلها مركزا عالميا، وميدانا عالميا، ولقد حد من طاقة مصر من النهوض بهذا الدور، القيود السياسية والاجتماعية، التى كبلتها، ولما سقطت هذه القيود فى أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢ وخلالها، أصبح فى مقدور مصر أن تلعب دورها فى أوسع صوره وأعلاها، وأحسب أن السنين القليلة القادمة ستشهد ذلك، وهو فى واقع الأمر، فى أشد الحاجة إليه.

محمد نجيب
الرجل الذى تحالفت عليه
فضائله وعيوبه ★

استوقف نظرى وأنا طالب بكلية الحقوق الكائنة على جانب من حديقة الأورمان غير بعيد من حديقة الحيوان بالجيزة .. استوقف نظرى، ضابط يأتى الى مبنى هذه الكلية فى الأمسيات فى الأغلب الاعم وفى الاضاحى فى القليل النادر . وكان مجيئه الى الكلية فى زيه العسكرى دائما ، وتحت أبطه عدد من الكتب ، وكان يسير وحيدا ، ويمضى فى طريقه ، صامتا ، ولما اقتربت منه مرة ، رأيت على قسمات وجهه ، علائم وجوم وانقباض ، لم أعرف سرهما .

ومضت السنون تلو السنين ، وأنا لا أعرف من يكون هذا ، الضابط؟، وما سر تردده على الكلية ؟ ولم يخطر على بالى أقرب تفسير ، لهذه الزيارات المتعددة من هذا الضابط الوحيد الصامت ، وهو كونه طالبا بالكلية ، يطلب العلم فيها ، يسعى للحصول على إجازة من إجازاتها . ولكن قلة عدد الكبار فى السن الذين يطلبون العلم بعد أن تقدم بهم العمر ، ولو كان العلم الذى يطلبونه ، عن سبيل الدراسات

★ هلال - نوفمبر ١٩٨٤.

العليا ، هذه القلة هى التى صرفت ذهنى عن تصور أن هذا الطالب كان واحدا من طالبى العلم ، توطئة للحصول علي الدكتوراه .

وتعاقبت الأعوام ، وأصبحت محاميا ، ووكلت فى قضية عسكرية وقعت فى مطار القاهرة الذى كان يومذاك ، مطارا صغيرا ، اسمه (مطار ألماظة) ولما كان مطار العاصمة منطقة عسكرية ، فقد كان الاختصاص القضائى بالنسبة للقضية التى وكلت فيها ، هو سلاح الحدود ، وكان آنذاك خاضعا لضابط كبير فى الجيش اسمه اللواء «محمد نجيب» واقتضانى متابعة التحقيق أن أقابل قائد السلاح وأعرض عليه ما يخص موكلى . وهناك فى مكتب القائد رأيت هذا الضابط الذى رأيته كثيرا فى ساحة كلية الحقوق . وتأملت وجهه الذي كنت ألمحه من بعد فرأيته وجها مريحا ، تفيض قسماته بالطيبة ، وكان أركان حرب هذا القائد ، ضابطا شابا أعده من أولادي الذين بدأوا حياتهم السياسية ، وهم بعد تلاميذ في المدارس الثانوية . وأعنى به أحمد لطفى واكد ، أحد قادة حزب التجمع فأحسن استقبالى ، وعرفت منه أن قائده هو اللواء محمد نجيب ، وأنه حاصل على أكثر من دبلوم من دبلومات الدراسة القانونية العليا التى تؤهله ، للحصول على الدكتوراه .. وتبسط الرجل ولانت أسرار وجهه ، وعرفت فيه أنه يحب أن يتكلم ، ويفضى لمن يصادفهم فى طريقه بذات نفسه بلا تحفظ ولا تعال.

وكانت القضية التى جئت أحدثه بشأنها طريفة فقد كان موكلى متهما – بأنه بوصفه (طيارا) مدنيا – بادخال عدد من الكيلوات من مخدر الى مصر ، ولما كان طاقم الطائرة التى نسب اليها أنه قام بالشروع فى ارتكاب هذه الجريمة مكونا من عدد من الضابط فكانت الجريمة (شائعة) ومعنى ذلك قانونا أن سلطة الاتهام لا تعرف بالضبط

على وجه التحديد من الذى ارتكبها ولذلك فقد رأى مكتب مكافحة المخدرات أن يدس على موكلى أحد مخبريه فأرسله الى بيته خادما يعرض خدماته على الطيار المتهم . فرحب بالمخبر وأرسله الى بيته . وانتهزت زوجة الضابط فرصة انها ظفرت بخادم قوى البدن نشيط ، ومستعد لتلقى الأوامر من سيدة البيت وتنفيذها ، فأسرفت فى استغلال نشاطه وحسن استعداده للخدمة ، فكلفته بالكثير حتى ناء المخبر تحت اعباء هذه الخدمة التى لم تكن فى الحسبان ، وقد ضحك محمد نجيب كثيرا على هذه الواقعة وأطلق لسانه ، فحدثنا طويلا فى أكثر من موضوع .

وكانت المقابلة الثانية بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، وعلى باب رئيس الوزراء المدنى فى الأيام الأولى للثورة ، وهو على ماهر باشا الذى ولى رياسة الوزارة مرتين سابقتين قبل نشوب الثورة ، وحييت قائد الثورة يومذاك والملك فاروق لايزال على عرش مصر ، وبدا لى محمد نجيب فى هذه اللحظة ، فى أعلى مراتب حالته المعنوية ، وإن بدا عليه أيضا أنه مشتت الخاطر ، لأن هذه اللحظة كانت المدخل لأحداث كبرى ، سيكون هو بطلها ، وأكبر اسم من أسماء القائمين بتبعاتها ، والمقدمين على مخاطرها ، وقد تبادلت الحديث مع أنور السادات الذى كان يرافق محمد نجيب في زيارة على ماهر ، والذى كنت أعرفه أكثر مما أعرف أى ضابط من ضباط الثورة ، وطلبت منه موعدا ، وقد تم لقائى به فى اليوم التالى فى ثكنات مصطفى باشا بالإسكندرية ..

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى كان القدر قد قرر أن أكون من أقرب الناس الى قائد ثورة عام ١٩٥٢ ، وزعيمها المحبوب ، فقد شاء هذا القدر أن أكون الوزير المدنى الوحيد الذى شارك فى مداولات

وقرارات تأليف أول وزارة تؤلفها قيادة الثورة ، ثم لم ألبث حتى أصبح اللواء محمد نجيب وأنا فى مبنى واحد ، يقيم هو فى الدور الأول بمبنى رياسة مجلس الوزراء بقصر الأميرة شويكار سابقا - فى مواجهة البرلمان ، وأنا فى الدور الثانى ، وفى حجرة تعلو حجرة الرئيس ، وكان بيننا تليفون ، لا يكاد يرفعه حتى أسمع صوته ، ولا أكاد أرفعه حتى يسمع صوتى بلا وسيط وقد شعرت منذ اللحظة الأولى لتعاوننا ، أن الرئيس ، لا يرحب كثيرا بوجودى معه فى مبنى واحد ، ولا بإقامتى الرسمية فوق حجرته ، فتحاشيت التردد عليه فى مكتبه كما كان يقضى بذلك مكانى كوزير دولة وحيد فى الوزارة ، وكانت العادة قد جرت قبل الثورة على أن وزير الدولة فى الوزارة ، يكون بمثابة وزير مشرف علي شئون مجلس الوزراء ومكتب الرئيس وكان سكرتير مجلس الوزراء المرحوم محمد ثابت ، يعرف هذا التقليد ، فعاملنى بمقتضاه ، ولكن لهذا حديث آخر .

ومضت الأحداث على الوجه الذى أصبح كل الناس أو أكثرهم يعرفه أو يعرف ملامحه الرئيسية ، وفى هذه الأحداث بدت لى فضائل محمد نجيب الرئيسية وهى فضائل تعتبر أكبر عدة لأى زعيم يقود حركة قومية فى وجه ضباب هائل وخصوم أقوياء .

كان محمد نجيب أمينا ونزيها الى أقصى الحدود .

وكان محمد نجيب شجاعا لا يخاف شيئا ولا شخصا . وكان اخر الأمر جذابا يحصل على حب الجموع والأفراد ، بغير قصد منه ولا سعى . هبة من الله ، الذى يهب بعض الناس وجوها جذابة ويهب الآخرين أصواتا جميلة ، ويهب فريقا ثالثا ما لا يعد ولا يحصى .

هذه الصفات الثلاث ، قفزت به الى مرتبة الزعامة الحقيقية التي تستأثر بالقلوب من اللحظة الأولي ، ولكنها كانت جميعا سبب محنته ومصدر متاعبه .

فأمانته جعلته عنيدا ورافضا لكل قرار فيه قبول لرأى الآخرين إذا أحس أن من وراء هذا القرار ، نزولا عن تعاليه .

بدأت الثورة وهو يسكن منزلا صغيرا فى الزيتون ، ولم يكن لائقا برئيس دولة بكل المعايير ، فهو مضطر لأن يستقبل مئات فى وقت واحد، وليس فى المنزل حجرة واحدة تتسع لعشرين شخصا ، وقد توعك فى يوم وذهبت أزوره فى حجرة نومه وكان هناك أحد الاصدقاء وهو عضو بارز بإدارة قضايا الأوقاف ، فكنا نتحرك بصعوبة فى الفراغ القليل الذى يتركه لنا سريره ، وهممت أن أشير الى هذا ولو بعبارة قصيرة فرأيت على وجهه من علائم الرضا بحاله ، والتشبث بهذه الدار الصغيرة المسرفة فى التواضع ، ما أسكتنى ، وقد سمعت جمال عبدالناصر يعلق على سكن الرئيس نجيب فى هذا المنزل بشىء من المرارة قائلا : «احنا بنبالغ فى كل شىء .. رئيس الجمهورية يستقبل مراسلين أجانب ، فهل هذا مكان يليق بهذا» ، وفى ذات يوم كان مضطرا للعودة الى مكتبه فى موعد مبكر بعد الظهر ، فاقترح عليه ياوره أن يقضى فترة قليلة فى استراحة حكومية قريبة من القاهرة فقال: أنت عاوز يحاكمونا .

ولكنى أشهد أنه لم يتحدث عن تقشفه أو زهده ولو عرضا ، مما يقطع بأن هذه صفته التى جبل عليها ، ولم تكن رياضة روحية يمارسها، ولا محاولة لاتقاء مواطن الشبهة أما شجاعته فقد كان مسلكه

فى الحرب ، وتصديه للمخاطر ، واصابته فى مقاتل من جسمه أكثر من مرة ، دليلا على هذه الشجاعة ، بيد أن قبوله لرياسة الجماعة التى قامت بالثورة قبل أن تتم الثورة خطوتها الأولي والحاسمة ، وهى اعلان هذه الثورة ، ثم عزل الملك ، واسقاط النظام القديم كله ، هذا كله قمة الشجاعة ، وعدم الالتفات الى النتائج الرهيبة والمخيفة التى يمكن أن تنجم عن هذه المحاولة الثورية ، هو قفز الى المجهول بغير تردد .

ولا يغير فى قيمة هذه الخطوة أو ينقص منها ولو بمقدار خردلة ، أنه لم يكن عضوا فى هيئة الضباط الأحرار ، ولو صح أنه جلس فى بيته ينتظر دعوته الى الذهاب الي مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، فان الخطر الذى كان ينتظر قائد هذه الحركة ، كان يمكن أن يتحقق بعد اعلان بيان الثورة بساعة أو ساعات ، أو بيوم أو أيام وعدم معرفته بالخطوات التى عقبت دعوته إلى رياسة حركة الثوار ، يزيد من فضله ، لانه يدل على عدم تأكده من سلامة الخطوات التى قام بها الضباط وأنهم لم يرتكبوا خطأ يؤدى بهم وبه . على أن الثابت أن محمد نجيب تحدي النظام الملكى قبل نشوب الثورة ، وكانت قمة التحدي ترشيح نفسه لرياسة نادى الجيش ، واسقاط مرشح القصر اللواء حسين سرى عامر ، وقد أصدر الملك عقب ظهور نتيجة انتخابات نادى الجيش ، قرارا بغلق هذا النادى ، ويعتبر ترشيح اللواء محمد نجيب نفسه ضد مرشح الملك ، واسقاط هذا المرشح بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الملك .

وكانت مواقف محمد نجيب من الفريق حيدر باشا القائد العام للجيش ، وياور جلالة الملك ، مشهورة وكلها تصدر عن استخفاف بهذا القائد الملكى والحرص على احراجه وعدم احترامه .

وقد عرض منصب رئيس حركة الثوار على اللواء احمــد فؤاد صادق قائد عام القوات المسلحة السابق ، فرفض هذا العرض بحجة أنه لا يريد أن يكون (عرابى الثانى) ومعنى هذا الكلام أنه لا يستبعد أن يكون نصيب هذه الحركة الفشل ، وان فشله ، قد يستتبع تصادما بين الملك وسلطانه وقواته وبين الضباط الشبان الثائرين ومن قد ينضم اليهم .

فإذا كان هذا التصور لم يقم فى خيال محمد نجيب ولم يتأثر به ولم يدخله فى حساب خدمة كبرى للثورة ، لا يجوز أن نغفلها من حسابنا ونحن نقوم دور محمد نجيب .

أما جاذبية محمد نجيب ، وقدرته على الظفر بحب الجماهير ، الى درجة الاستهواء فقد كان شيئا ضخما للثورة ، تخطت به العقبات الأولى عقب ميلادها . فالشبان الذين قاموا بالثورة كانوا مجهولين من الشعب من جهة ، وصغار السن من جهة أخرى ، وكانوا يتحدون النظام القائم فى البلاد بشقيه الرسمى والشعبى . فقد كان فى مصر زعامة مضى عليها أكثر من ربع قرن .. واسم صاحب هذه الزعامة ، يتردد على الاسماع فى كل مدينة وكفر ونجع ، وكانت صورته تزين البيوت والمحال العامة ، وكان ينجح فى كل انتخابات ويظفر بالأغلبية . ولذلك كان من الصعب وربما المستحيل أن تستقبل جماهير الشعب قائد هذه الثورة التى فاجأت البلاد ، بالحب والترحيب وأن يبدو أنه هروب من التأييد والإعجاب ما فاق تعلق هذه الجماهير ذاتها بزعيمها الذى هتفت له وبايعته سنوات عديدة ، وفى وجه شدائد متوالية ولكن الذى ظهر

فجأة ، أن محمد نجيب ظفر بالحب الذى كان من نصيب الزعيم السابق، وجرت الجموع وراء محمد نجيب فى كل مكان ، واحتشدت الألوف ، على جانبي طريقه من القاهـرة حتى أسوان ، ومن القاهرة الى الإسكندرية . وجرى الألوف وراء سيارته وقطاره ، وكان كل ذلك مبايعة لقائد الثورة الجديد ، وهياما بشخصه وتعلقا جارفا بزعامته وقيادته .

هذه الفضائل لم تدع طريق محمد نجيب ، سهلا مفروشا بالأزهار والرياحين ، وإن كانت جديرة بحشد الأمة حوله ورفض ازاحته ، فقد كانت زعامته وسحرها كفيلين بأن يبعث الخوف منه : وإذا كان ذكاء المرء محسوبا عليه فان مواهب الزعيم وفضائله محسوبة عليه .

الا أن الخلاف الذى دب بينه وبين الزعيم المدبر للثورة ونعنى به جمال عبدالناصر ، كان طبيعيا وحتميا ، فمحمد نجيب كان شيخا بين شبان ، وكان التجانس بين الشبان أول الأمر . يقابله تباين بينهم وبين قائدهم الرسمى ، وقد كانوا يحبونه أول الأمر ، لأنه يثير الحب فى القلوب بيسر وبلا جهد ، وقد سمعت من عبداللطيف البغدادى أنه كان يحبه أكثر مما كان يحب اباه ، ولكن هذا الحب ما لبث أن انطفأ حينما كشفت الطبقات المتربصة للثورة عن أنيابها ، وأرادت أن تضرب عناصر الثورة بعضها ببعض . وقد رأى محمد نجيب لسوء الحظ أنه أقرب الى زعماء العهد القديم وقد أعلن ذلك من حيث لا يدرى بمكالمة تليفونية مع مصطفى النحاس ، عزت نفسه فيها بقوله :

أنا المذنب ..

ولكنى لا أظن أن محمد نجيب قرر أن ينقلب على الثورة أو يعمل ضدها ، فقرار مثل هذا لم يدر بخاطره ، ولكنه اندفع فى الاتصالات والتصريحات بما زاد الجفـوة بينه وبين الشـبان ، ولم تقف هذه الجفوة عند حد ، فقد اتفق كثيرون من خصوم الثورة ، أن يلتفـوا حـوله ، ويختفوا وراءه ، فأصبح من المستحيل استمرار التعاون بين الفريقين .

ولما كان محمد نجيب ، لم يتخذ اجراء ما ، ليدعم مركزه ويدفع عن نفسه قرار العزل الذى أعد ، فكان سقوطه المأساوى ، واختفاء نجمه ، بعد أن كانت الثورة قد ثبتت أقدامها .

أسرار صغيرة
فى الثورة الكبيرة ★

أحسب أن كل الحقائق الكبيرة فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد ذكرت بأقلام من أهل الشرق والغرب. وقد اختلط فيما قيل ونشر، الوقائع الصحيحة كما وقعت ، وأشياء أخرى لم تحدث ، ولكن المؤرخين واشباههم وادعياء العلم بالحقيقة ، قد اضافوا إلى وقائع التاريخ ، أشياء لم تر النور، ولكنها تزيد التاريخ جاذبية وسحرا ، وبعض ما لفق واختلق قصد به خدمة شخص أو جماعة ، أو خدمة رأى أو عقيدة ، وفي بعض الأحوال يفوز الخيال على الحقيقة ، فالخيال حر طليق ، يقول ما يشاء وبالأسلوب الذى يريده ، فى حين أن الواقع يبقى جافا لا يجذب قارئا ، ولا يثير خيالا .

ولقد استعدت ذكريات هذه الثورة ، فوجدت أنه لايزال فى جعبتى بعض الوقائع التى لم يتسع الوقت لايرادها ، أو لم يتسع الوقت لايرادها كاملة ، فرأيت أن أضمنها هذا المقال . لعلها تسد فراغا أو تزيد حقائق التاريخ وضوحا .

كانت أولى بشائر الثورة اجتماعا غريبا دعيت اليه ، إلى الغداء وكانت الدعوة من المرحوم الدكتور نور الدين رجائى استاذ القانون فى

★ هلال - يوليه ١٩٨٥ .

كلية حقوق القاهرة آنذاك . ومن السيدة حرمه الدكتورة درية شفيق الأستاذة الحاصلة على دكتوراه الآداب من باريس . وكنت على صلة بكليهما ، فقد كنت زميلا للاستاذ محمد رجائى، المخرج والمنتج السينمائى ، فى مدرسة محمد على الابتدائية ، ضمنا فصل واحد كما كنا من أبناء حى واحد ، وقد حدث أن أخرجنا ونحن تلاميذ فى المرحلة الابتدائية مجلة مما يخرجها التلاميذ فى أيام الصبا الأول . ولعل الظاهر حسن أحمد ، كان ثالثنا فى هذه المحاولة ، والظاهر برز بين زملائه بعد ان تخرج فى كلية الحقوق ، إذ وقع عليه اختيار رئيس الوزراء محمد محمود باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٣٨ وكان رسول هذا الرئيس فى مهام رسمية كبيرة وكان نور الدين رجائى ، شقيق محمد عبدالفتاح رجائى ، زميلا لنا فى نفس المدرسة الابتدائية ، وإن كان يصغرنا سنا ، ولكن كان يعرفنا من بعد حتى أصبح أستاذا فى الجامعة ، فعرفه أكثر المشتغلين بالمسائل العامة . ولما تزوج السيدة درية شفيق ، ابنة خالته ، وصاحبة مجلة بنت النيل ، وزعيمة جمعية نسائية بهذا الاسم ، وبذلت السيدة درية نشاطا واسع النطاق ، تردد اسمها على الألسن ، وأصبح معروفا أنها صاحبة دور فى السياسة ستزداد معالمه وضوحا فى المستقبل ، وبهذه الصفة تعارفنا وأصبحت تتصل بى، تستشيرنى فى بعض الذى يطرأ لها فى نشاطها العام ، ثم دعتنى لإلقاء محاضرة فى دار جمعيتها - فحشدت لى عددا غير قليل من عضوات هذه الجمعية ، وقد اطاعت هؤلاء العضوات دعوتى للقيام بالعمل الايجابى ، فاقتحمن دارا للشرطة ، وقبض على بعضهن . وكان

لهذه الغزوة صدى ضخم فى الصحافة ودوائر المجتمع لذلك لما دعيت إلى الغداء على مائدة الدكتور نور الدين رجائى وزوجته السيدة درية شفيق، ذهبت إلى دارهما ، وأنا أعلم أن هذه الدعوة ليست سوى بعض نشاط هذه الزعيمة الجديدة وزوجها ، وقد أكد هذا التصور أننى علمت منذ البداية ، أن المدعويين الآخرين معى، كانوا من الأجانب ، وكانوا من رجال السلك السياسى الأمريكى ، على وجه التحديد ، وبعد أن تناولنا غداء شهيا فى شقة أنيقة ، تحدثنا مع هؤلاء الدبلوماسيين فى أمور شتى ، وقد استوقفنى أن الحديث كان يشرق ويغرب ، ولكنه لا يلبث حتى يعود إلى نقطة بدا أنها تستأثر باهتمام الفريق الأمريكى ، تلك هى رأينا فى الملك فاروق ، وفى مستقبله وكان غريبا لهذه ان يترخص رجال سفارة دولة كبيرة كأمريكا فى التحدث عن ملك البلاد التى يمثلون دولتهم أمامه ، ولكن الواقع أن سمعة الملك فاروق كانت قد تدنت عالميا ، وأن صحف العالم الوقورة ، والصحف التى تخصصت فى سرد الفضائح والجوانب الحميمة من حياة العظماء ، كلتاهما أطلقت لسانها فى الملك فاروق ، وذكرت ما يجرى منه فى شواطئ الاستحمام العالمية ، مؤيدا بالصور ، لذلك لم يكن غريبا ، أن يدور الحديث وبصراحة حول الملك فاروق ومستقبله ، كأن هذا المستقبل من المسائل المطروحة للحديث.

وانتهى الاجتماع ، ونسينا كل شئ عنه ، ولم نتبين أنه فى واقع الأمر ، كان من بشائر التغير الذى ستشهده مصر بعد قليل ، وحرقت القاهرة فى ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، وعلى الرغم من أن الصدفة

قضت أن أكون فى بيتى بمصر الجديدة عاكفا على مطالعة إحدى القضايا ، فقد اصدر الحاكم العسكرى العام قرارا بقائمة بأسماء عدد من المشتغلين بالسياسة الذين رأى اعتقالهم بمناسبة هذه الحرائق المروعة ، وكان اسمى فى رأس هذه القائمة كما اتضح ذلك حينما نظرت قضية رفعها اصدقائى وزملائى المحامون ذهبت إلى سجن الاجانب تنفيذا لقرار الحاكم العسكرى العام . ثم نقلت إلى معتقل فى الصحراء ، ذاع اسمه بعد ذلك فاصبح (هاكستب) علما من الاعلام فى مثل ذيوع شهرة العتبة الخضراء ، وبعد شهور من ايداعى المعتقل ، كنت ذات صباح حار من شهر يوليه فى سنة ١٩٥٢ ، كنت مسترخيا فى فراشى الضيق الذى كان قد وقع فى ركن من أركان زنزانة صغيرة فى هذا المعتقل ، كانت مخزنا من مخازن الجيش الامريكى فى هذا المعسكر الذى تحول إلى معتقل وكنا قد نجحنا فى تهريب جهاز راديو من ماركة (بيلوت) ، وكان خافت الصوت فى المعتقل لضعف التيار الكهربى ، وكان خنوف صوته من مزاياه ، لملاءمته لظروف الحال ، وقد أدرت مفتاح الصوت فى الساعة السابعة ، فإذا بى اسمع صوتا غريبا، ليس أحد أصوات المذيعين الذين ألفت أن اسمعهم ، والذين حفظنا اسماءهم جميعا ، ولم انتبه كثيرا إلى حدة الصوت الذى يذيع ، ولم التفت إلى شئ أكثر أهمية وهو غرابة ما يقوله المذيع ، وبعد قليل تنبهت فجأة إلى أن ما يقولهُ المذيع، ليس غريبا فقط ، بل هو كلام لا يقال ، فكيف قيل . وجلست فى سريرى وقد تنبهت كل حواسى ، وتابعت كلام المذيع فلم أصدق أذنى ولكن المتكلم مضى يذيع بيانا قال إنه صادر من

قيادة الجيش ، وأن الجيش وضع حدا لما كان يقوم به المتسلطون على الجيش وهم بين خائنين ومرتشين وجبان، إذن هي الثورة ، وقد كانت ، ولم تمض دقائق حتى امتلأ المعتقل بأنباء هذا الحدث الضخم ، ومن عجيب أنه بعد زمن قليل ، توالت الانباء من الخارج عن الثورة التى وقعت ، ومع ذلك بقينا داخل المعتقل ، كأن هذه الثورة لم تسمع بنا ، ولم تعرف أننا فى المعتقل منذ شهور وكان علينا أن ننتظر داخل المعتقل يومين كاملين ، والثوانى تمر علينا كالشهور أو كالسنين ، والقلق يفتك بنا ، فقد خشينا أن نترك نرسف فى الاغلال حتى تدبر الدولة أمورها ، ولكن بعد ظهر يوم جمعة ، جاء بعد يومين من يوم ٢٣ يوليو ، تلقت ادارة المعتقل اشارة تليفونية تأمر بالافراج عنى ، وبإرسالى إلى سراى بولكى بالاسكندرية حيث مقر مجلس الوزراء لأقابل رئيس الوزراء رفعة على ماهر باشا ، ولن أروى ما حدث بعد الافراج عنى ، ولا ما جرى بينى وبين رئيس الوزراء فقد رويته كثيرا ، وحسبى أن أقول إن سكرتير أول السفارة الامريكية جاء إلى بولكى ، وهو ممتقع الوجه ، مضطربا لأن ما وصله من أنباء كان يتضمن أن سلامة الملك فاروق ، أصبحت مهددة فى قصر رأس التين ، وأن جلالته يستغيث بالسفارة الامريكية .

وكان هذا السكرتير الأول . كبير الضيوف الذين تناولوا الغداء معى على مائدة المرحومين نور الدين رجائي ودرية شفيق ، وقد فاتنى أن أقول إننى كنت على مائدة هذا الغداء مع الدكتور نور الدين طراف الذى عين فيما بعد بوزارة الرئيس نجيب فى ٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢، وزيرا للصحة ، ثم اختير رئيسا للمجلس التنفيذى فى عهد الوحدة

المصرية السورية ، أما أنا فقد أخترت وزيرا للدولة فى هذه الوزارة ، وكنت مشرفا على الإذاعة بحكم كونى وزير الدولة الوحيد وقد جرت العادة قبل الثورة على أن يتولى وزير الدولة الاشراف على المؤسسات والمصالح التابعة لرئيس الوزراء . وفى ذات يوم طلب منى مستشار السفارة البريطانية لشئون الاتصال العام ، موعدا فحددته له ، وأخذ الرجل عقب وصوله إلى مكتبى فى مبنى مجلس الوزراء ، يشكو مر الشكوى من حملات الاذاعة المصرية على بريطانيا ، وعلى نشاطها فى شرق افريقيا وقال إن بريطانيا لا تتعرض لمصالح مصر فى أى بقعة من المنطقة التى تهم مصر إنما سر الحملات الاذاعية فى مصر على الوجود البريطانى فى شرق افريقيا ، لقد احتملت السفارة البريطانية فيلم مصطفى كامل الذى وضعت أنا قصته وعرضته السينما المصرية أن عرضت فيلما جديدا بعنوان (ليسقط الاستعمار) يسرد قصة خيالية لم تحدث وقائعها ولا يمكن أن تحدث حول هجوم شباب مصرى على معسكر بريطانى ، وضرب الجنود البريطانيين فى الاهالى المصريين ، وهذا كله مشاهد تثير الكراهية ضد الاستعمار الانجليزى فى الوقت الذى يريد الانجليز أن يحسنوا علاقتهم بمصر ، والذى يتمنون فيه للثورة النجاح .

ودخل فى هذه اللحظة السيد / محمد أنور السادات وكان ضابطا من الضباط الأحرار وعضوا فى مجلس قيادة الثورة ، ولم أرد أن أقدمه لمستشار السفارة البريطانية ، وقصدت من ذلك أن يتكلم موظف السفارة بحرية ، وأن يسمع عضو مجلس القيادة ، ما يفكر فيه الانجليز

لماذا تتحرشون بنا ونحن لم نسئ اليكم ، ولم يصدر منا عمل واحد يستدعى غضبكم علينا ، ويبرر حملات اذاعتكم ضد وجودنا فى كينيا وما حولها .. ولدينا القوة التى تمكننا من أن نتصدى للثورة ، ثق أننا فى السويس ونحن قادرون على أن نكون فى القاهرة فى أقل من ساعة ورأيت أن أحول الحديث إلى جانب فنى ، فقلت له ، هل معك صورة من الاذاعات التى أثارت غضب السفارة أو احتجاجها ، فقال يمكنك أن تطلبها من معاونيك ، فيضعونها تحت نظرك فى الحال ، فقلت له فى اقتضاب : الأفضل أن تقدم لى ما تشكو فيه .. فقال حسنا سأحضرها غدا .. وانصرف وانتظرت أن يعلق السادات على هذا الكلام بشئ .. ولكنه لم يفعل ووقع ما توقعته ، وأن موظف السفارة لم يعد .

ومضت السنون ، ونزلت ذات يوم من مكتبى بالدور الأعلى فى مبنى مجلس الوزراء إلى الدور الأول حيث مكتب رئيس مجلس الوزراء ، جمال عبدالناصر فوجدته جالسا مع أنور السادات ، ويبدو أن كليهما كان فى حالة استرخاء ، إذ دار الحديث بينهما اعتباطا يتنقل من شئ إلى شئ حتى جاء ذكر الأستاذ محمد صبيح الصحفى وكان أنور السادات فى تلك الحقبة رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير التى كانت جريدة الجمهورية تتبعها ، وكنت أعرف أن جمال عبدالناصر كان إبان انضمامه لمصر الفتاة كان تابعا لشعبة هذا الحزب فى حى باب الشعرية ، وقد حدثنى عن تلك الأيام بلهجة تنم على الرضا عن المرحوم الأستاذ صبيح ، فوجه الحديث إلى السادات ، وقال : على فكرة .. ما تأخذ صبيح عندك فى الجمهورية .. فقال السادات على الفور : لا

ياريس . فقال ! لا .. لأ ليه .. ونظر إلى وقال : صبيح كفاءة ثم وجه إلى الحديث : مش كده يا فتحي . فقلت مؤكدا بلا شك .. فنظر إلى السادات وقال : امال ليه يا أنور مش عايز تخده ، فقال السادات : لأنه نحس .. فبدا على (جمال) الضيق وقال : نحس .. يعني ايه ؟ فاضطرب السادات وقال : ياريس ده ماحطش رجله في جرنال إلا قفله - وراح يعدد الجرائد التي اشترك فيها ، والتي اغلقت .. فاشعل جمال سيجارة وأخذ يشد منها أنفاسا بشدة وهو مهموم ثم قال في لهجة غاضبة .. بقى حيقفل الجمهورية . ياريت يقفلها يا أخي .. ولم يتكلم عبدالناصر ، وسكت السادات ثم انصرف في صمت .. «وكان هذا المشهد الوحيد الذي رأيت فيه السادات يعارض رأيا لعبدالناصر ».

الفهرس

الهــــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر
والعالـم العربـى

ديسمبر ١٩٩٨ عدد ممتاز تقـرأ فيـه :

- مـاذا أعـددنا لـلقـرن الحـادى والعشرين . «ملف خاص»
- رمضان وجنة عدن «جزء خاص»
- مستقبل اسرائيل .

رئيس مجلس الإدارة
مكـرم محمـد أحمـد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

سائح بالصدفة

تأليف

آن تيـــــلر

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ ديسمبر ١٩٩٨

رقم الايداع : ١٥١٧٩ / ١٩٩٨
I. S. B . N
977 - 04 -0621- 3


أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيًا
إلى ٩٤ مدينة عالمية ومحلية
خدمة متميزة وكرم ضيافة
مصر للطيران
EGYPT AIR

هذا الكتاب

عشر سنوات مرت علي رحيل الاستاذ فتحي رضوان في ٢/١٠/١٩٨٨ ، وحين نحاول أن نعدد الصفات التي يمكن أن نعرّف بها فتحي رضوان للأجيال نرصد قائمة طويلة أولها : الفنان الاديب - الكاتب المسرحي - المثقف . وفي نهايتها : المحلل التاريخي والناقد السياسي والمجاهد المقاتل في سبيل الحق والعدل والخير والجمال حتي الرمق الأخير . مولود في ١٩١١ ، وتحديد يوم الميلاد يكون ٧ مايو أو ١١ أو ١٤ مايو ، وهذا الاخير هو المنقوش علي الشاهد الرخامي ، فوق ضريحه بالقلعة الذي يشارك فيه كل من أحبهم في هذه الدنيا من زعماء الوطن : الزعيم مصطفي كامل - الزعيم محمد فريد والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي .

ومشاركة للمجلس الأعلي للثقافة في احتفاليته التي أقامها بمناسبة مرور عشر سنوات علي رحيل فتحي رضوان كان إصدارنا لهذا العدد من كتاب الهلال تحت عنوان « فتحي رضوان ، نصف قرن ، بين السياسة والأدب» . اخترنا عدداً من مقالات ودراسات فتحي رضوان ، كان قد تم نشرها تباعا في مجلة الهلال التي صاحبها بقلمه منذ الثلاثينات حتي عام رحيله رحمه الله . تميزت شخصية فتحي رضوان بالنشاط والحيوية والدأب ، وتميز أسلوبه بالتدفق والانهمار والسرعة وغزارة المعلومات وجيشان الرأي الذي يدفعه إلي الاستطراد ، حتي أننا نلمس ذلك من خلال قراءتنا لكتاباته إذ نجده في بعضها يبدأ جملة لها ضرورة الاستكمال ، لكن غزارة المعلومات وجيشان الرأي يأخذانه بعيدا عن شاطئ
لاستكمالها ولا ينزعج القارىء طالما هو ذاهب معه
خلابة الفكر متوهجة الحماس . حينما تقرأ فتحي رضو
إنك تسمع صوته وتراه في كل سطر بدمه ولحمه .

هو المحامي في مرافعته ، وهو المتحدث الودود صا
والفكاهة الحاضرة ، وهو صاحب الاقتراحات البناءة ، و
مطلع الخمسينيات إنشاء وزارة تحت مسمي «الثقافة
تحديدا لمدلول الثقافة لديه ، وإدراكا لمعني مسئوليته
الوزارة ، أنه مرشد قومي لبني مصر ، يؤكد هويتهم العربية

هذا الكتاب قطرة من غيث اخترناه من آلاف المقالات
الهلال بنشرها لفتحي رضوان علي مسيرة نصف قرن
إنعاشا لذاكرتنا حول قضايا كان الرجل فيها الفارس المغوار .